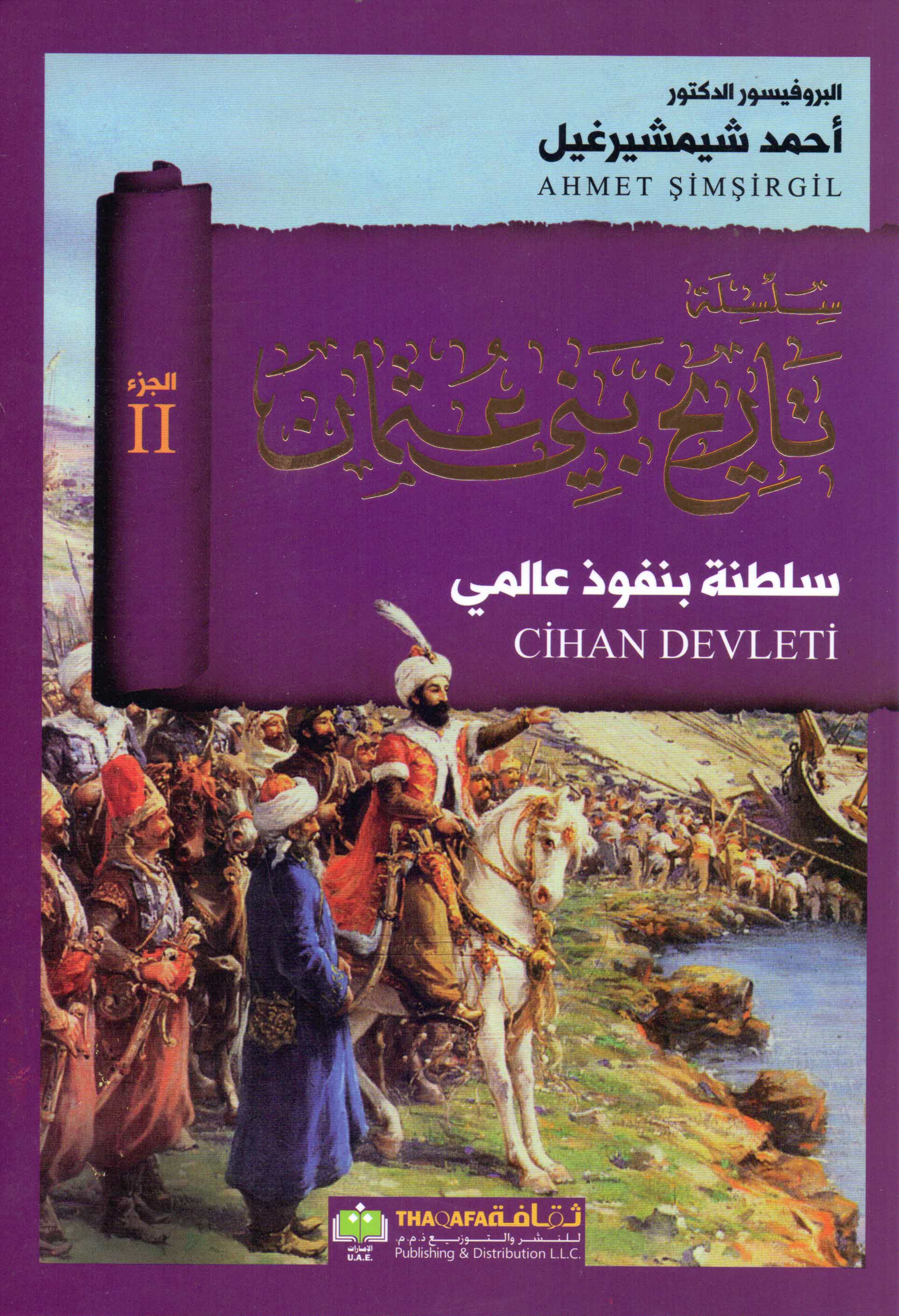


البروفيسور الدكتور
أحمد شيمشيرغيل
AHMET ŞİMŞİRGİL
سلسلة
تاريخ بني عثمان
الجزء
II
سلطنة بنفوذ عالمي
CİHAN DEVLETİ
ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

وسط مظاهر الاحتفال دخل الرُّكب المدينة، واتجه نحو آيا صوفيا. حيث ترجل السلطان أمام باب الكنيسة قبل دخولها، أما القساوسة والناس المحتمون داخل الكنيسة، فقد هرعوا نحو السلطان وخرّوا على ركبهم أمام قدميه، فأشار السلطان بيده ليكفوا عن البكاء، ليسود صمت عميق قبل أن يخاطب البطريرك بالقول:

«قفْ! أنا السلطان محمد، أعطيك كلمتي، بأنه لا خوف عليك وعلى كل الشعب اعتباراً من اليوم، لا على حياتكم ولا على حريتكم»

السلطان محمد الفاتح

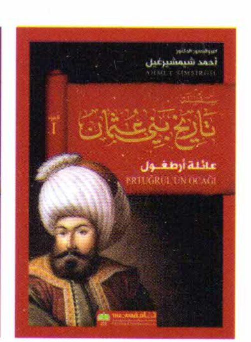
حمل رجل العلم؛ البروفيسور الدكتور أحمد شيمشيرغيل القلم، ليضع بين أيدي القراء، كتاباً يوافق ذائقة جميع القراء، ويحببهم بالتاريخ. فالجزء الثاني من سلسلة تاريخ بني عثمان: **سلطنة بنفوذ عالمي** يشكل تتمة للحركة التي بدأت في سوغوت ودومانيتش، وأُطلق عليها اسم العثمانية. والتي بناها الآباء والمؤسسون الأوائل، من خلال تضافر جهودهم، وخططهم وطموحاتهم، وحنكتهم في التصرف وتمسكهم بقيمهم الإنسانية، وعقيدتهم الصادقة الصافية، بحيث استطاعوا قبل مرور قرن واحد، السير بخطى حثيثة نحو التحول إلى قوة عالمية عظمى.

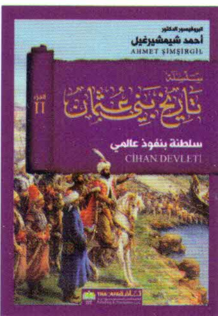
والدولة التي قادها السلطان محمد جلبي من التقلقل إلى الرسوخ المستديم، سيعيد ابنه السلطان مراد الثاني إليها قوتها وهيبتها من جديد. في هذه الأثناء سيقوم الأوروبيون بآخر الحملات الصليبية من أجل استرداد روميلي، لكن مراد الثاني سيشتت شمل الجيوش التي خرجت لملاقاته في كل من فارنا العام 1444، وفي كوسوفو العام 1448.

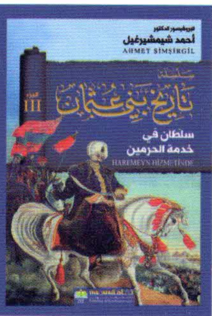
ومع اعتلاء السلطان محمد الثاني العرش وفتح مدينة اسطنبول العام 1453، سيصبح الفتح شغَفاً وعشقاً، ينحو بالسلطان نحو الاتجاه لتأسيس سلطنة عالمية.

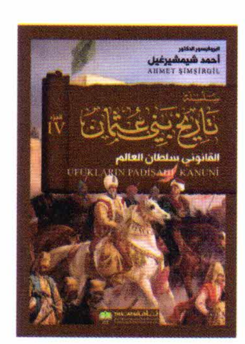
إنه كتاب يلبي ذائقة المهتمين بالتاريخ حيث يأخذنا في رحلة للتعرف إلى حياة السلطان مراد الثاني وابنه السلطان محمد الفاتح، واللذين حملا السيف والقلم جنباً إلى جنب، رحلة نكتشف فيها أسرار حياتهم الخاصة، ومعلميهم، ومنجزاتهم العمرانية وما حققوه على الصعيد الديني والإداري والإنساني.

صدر من هذه السلسلة









ISBN 978-9948-427-67-4







سلطنة بنفوذ عالمي

مراد الثاني - السلطان محمد الفاتح

سلسلة

تاريخ بني عثمان



سلطنة بنفوذ عالمي

مراد الثاني - السلطان محمد الفاتح

الجزء الثاني

تأليف

البروفيسور الدكتور

أحمد شيمشيرغيل

ترجمة

مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي

KAYI II- CİHAN DEVLETİ

II. Murad Fatih Sultan Mehmed

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

برنامج دعم الترجمة والنشر في تركيا

Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e–mail: teda@kulturturizm.gov.tr – Web: www.tedaproject.com

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا عبر
TİMAŞ Basım Ticaret Sanayi AŞ
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين ثقافة للنشر والتوزيع، ذ.م.م.

الطبعة الأولى 2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-9948-427-67-4

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبو ظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التقديم

حتى لو انحسرت مياه النهر، فآثار الوادي ستبقى زمناً طويلاً...

الأمم والحضارات التي انسحبت من مسرح التاريخ، لا يمكن لآثارها المادية والمعنوية أن تُمحى بسهولة، ومن هنا تنبع أهمية علم التاريخ. فالتاريخ هو رواية لتاريخ الإنسان منذ مهد التدوين، لذا فأهميته تفوق التصور. ويعتبر الوسيلة الأكثر نجاعة لحفظ ميراث السلف والاستفادة منه. فالتاريخ يساعد العلماء على سبر غور الماضي التليد، ويفتح بصيرة الناس. وكما قال القدماء، فهو يحفز الشباب على حب الدين والدولة، والمُلك والأمة.

إنه شاهد على أن السلطة لو دامت لأناس لما آلت لغيرهم. وعلى أن كل ما في هذه الدنيا من ملك ومال فانٍ. ومن هذه الزاوية فهو دعوة للإنسان من أجل إعمال الفكر والصلاح.

لهذا يجب أن يبقى علم التاريخ مترفعاً عن الإيديولوجيات، وبعيداً عن الانحياز لطرف ضد آخر، وأن يتبع منهجية علمية وفق معايير دقيقة. وإلا فدعكم من عدم استخلاص العبر من أحداثه، فسيتم سوق الفكر البشري نحو دروب لا تطابق الحقيقة في شيء، وستكون العاقبة وخيمة على الدول والحضارات المتعاقبة.

لهذا السبب جاءت هذه السلسلة تطبيقاً عملياً لهذه الأفكار، وهي تعتبر أهم المراجع عن تاريخ السلطنة العثمانية. ذلك لأنّ هذه السلطنة شكّلت نموذجاً فريداً لانسجام العديد من الأعراق والأديان والشعوب. وقد كان لها فضل عظيم على العلم والفن والإنسانية لعصور مديدة.

لقد مرت هذه السلطنة بكبوات كثيرة، وأهدرت دماء كثيرة من أجلها وكان

هنـاك الكثيـر مـن الخيبات والانتصارات، وفي النهاية آلت إلى النهاية التاريخية المحتمـة؛ الـزوال. ولكنهـا لـم تتخـلَّ، حتى فـي أحلك الظروف، عـن مبادئها وقيمها، ولـم تتنازل عن مُثلها. وكانت السـلطنة كياناً سياسـياً عالمياً كشـف عن قدرة على خلق مجتمع إنساني اتسم بالعدالة والحريات لكل مكوناته بما يفوق كثيراً من دول وإمبراطوريات ذلك الزمان.

ولكـن الضربـة الأكثـر إيلاماً، بل والتي قضت على هذه الحضارة الرائعة، بالرغم من كل منجزاتها وتضحياتها، سـتأتي من العنصر الأساسـي المكون لها وهم الأتراك، ومن الشعوب الإسلامية التي كانت ترتمي قبلاً عند قدميها؛ وذلك بسـبب سـوء فهمهـم وتقديرهم لها، جـراء الافتراءات والأكاذيـب والتأويلات الخاطئة التي وسموا بها هذه الحضارة.

هذه السلسلة ليست فقط دراسة عامة عن التاريخ العثماني، بل تحتوي على إجابات عن كل الأسئلة التي يمكن أن تخطر ببالكم، لتتعرفوا من خلالها على حقيقة العثمانيين، من كل الجوانب. فبالإضافة إلى كتابتها على أسس موضوعية وعلمية، فهي ممتعة إلى حدٍّ كبير بحيث أنك، عزيزي القارئ، سـتجد صعوبة في التوقف عن القراءة قبل انتهائك من الكتاب.

وكما قال الشاعر الكبير باقي:

حكمة الله تقتضي فناء كل الدول

ولن يبقى سوى أسمائنا على لوحها الفاني

البروفيسور الدكتور: أحمد شيمشيرغيل

المقدمة

هناك فكرة شائعة، قد تصل لدى البعض حدّ اليقين، بأن ما يكتبه الأكاديميون لا بد أن يكون مملاً، وهذا ما جعل مطالعي هذه النوعية من الكتب محصورين بزملاء الكتّاب، والباحثين الساعين وراء مراجع لدراساتهم. وهذا ما يحوّل الكتب الأكاديمية في معظم الأحيان إلى مجرد مرجع بحثي لا يستخدمه سوى ذوي الحاجة والاختصاص. ولكن القرّاء استطاعوا فرض تأثيرهم وتوجّهاتهم على الباحثين، وبخاصة المؤرخين منهم، من أجل كتابة أبحاثهم ومؤلفاتهم بأسلوب بسيط ومستساغ من قبل السواد الأعظم من القراء. لذلك سعى بعض الباحثين في سياق إضفاء جاذبية على ما يكتبون إلى التضخيم والتهويل، وبذلك انحرفت كتبهم عن مسارها العلمي، خاصة وأنهم عجزوا عن الإشارة إلى المصادر التي استقوا منها معلوماتهم المضخمة هذه، أما الذين أشاروا إلى مصادر كانت موضع تشكيك من قبل نخبة الأكاديميين، فاعتبروا أنّ ما ورد فيها ليس صحيحاً صحة مطلقة. وهذا ما جعل المعلومات الصحيحة والخاطئة تتداخل مع مرور الوقت، بحيث أصبح التفريق بينها متعذراً. ووقع تاريخنا بين سندان الأكاديميين المختصين، ومطرقة الكتّاب الذين يطلقون على أنفسهم لقب باحث.

وقد جاءت هذه السلسلة من أجل ردم الهوة الناجمة عن التطرف في موقفي كل من الأكاديميين المتخصصين والباحثين. حيث اعتمدت وبشكل مطلق على المصادر وأمهات الكتب التي وثّقت التاريخ، ولكنها في الوقت نفسه مستساغة من قبل جميع القراء؛ كما نأمل، بأسلوب يتسم بالبساطة والسلاسة. حيث تمّ تقديم المعلومة إلى القارئ بموضوعية، دون المساس بصحتها.

ومما يدل على إقبال القرّاء على هذه السلسلة، واهتمامهم بها، هو إصدار

الطبعة الثالثة بناء على طلبهم. ولعل تعليق الكاتب والصحفي مراد باشاران على هذه السلسلة، هو خير توضيح لما تهدف إليه.

«من نحن؟ علينا البحث في هذا التساؤل. فلو لم نقم بالتفكير فيه، للوصول إلى جواب يقنعنا، فلن نستطيع التقدم. كيف سيكون ذلك؟ وكيف يمكن تحقيقه إزاء الحساسية التي أبداها التعليم النظامي تجاه التاريخ طوال السنوات السابقة؟

بالطبع كان يجب تعليم أطفالنا في المدرسة عن حقيقة من نكون، وفق مفهوم علمي ومحايد وشامل.. ولكن هذا لم يحصل..

فحتى وقت قريب ساد اتجاه كان يعمل على تحقير التاريخ العثماني، والتقليل من شأنه، أو تجاهله في أحسن الأحوال. وقد كان فضول ورغبة الباحثين عن الحقيقة تستحق الثناء، من خلال انخراطهم في المهمة الشاقة ومراجعة أبحاث وكتب تسبب الاختناق.

ولكن هل يمكن أن نتوقع قيام الجميع بأمر مماثل؟

لهذا السبب تربت أجيال عدة على معلومات مغلوطة ومضلّلة، أو ناقصة.

والآن لدينا كتاب على قدر كبير من الأهمية، يحمل بين دفتيه حلاً لهذه المشكلة. حيث حمل رجل العلم؛ البروفيسور الدكتور أحمد شيمشير غيل القلم، ليضع بين أيدي القراء، كتاباً يفترض أن يلقى قبولاً وأن يكون مستساغاً من مختلف شرائح ومستويات القراء، ويسهل عليهم فهمه. ورغم أن الكتاب الذي يحمل نفساً روائياً في سرده، صغير الحجم، إلا أنه قادر على ملء الفراغ الهائل الذي نعاني منه.

إن التصدي لسرد مرحلة طويلة من التاريخ العثماني، هي من دون شك مهمة بالغة الصعوبة، وتزداد صعوبة إذا حصرت في عدد محدود من الصفحات وبأسلوب روائي سلس، ومعايير علمية وبحثية دقيقة. لذا فأنا أضع هذا الكتاب في قائمة أولويات كل قارئ».

وقد كان لرأي الصديق مراد باشاران، الذي نقل وجهة نظر القراء، أثر كبير في تشجيعي من أجل إتمام السلسلة والعمل عليها بكل حماس.

ويشكل الجزء الثاني من السلسلة، تتمة للحركة التي بدأت في سوغوت ودومانيتش، وأُطلق عليها اسم العثمانية. والتي بناها الآباء والمؤسسون الأوائل، من خلال تضافر جهودهم، وخططهم وطموحاتهم، وحنكتهم في التصرف وتمسكهم بقيمهم الإنسانية، وعقيدتهم الصادقة الصافية، بحيث استطاعوا قبل مرور قرن واحد، السير بخطى حثيثة، ليصبحوا قوة عالمية عظمى.

فالدولة التي قادها السلطان محمد جلبي من التقلقل إلى الرسوخ المستديم، سيعيد ابنه السلطان مراد الثاني، إليها قوتها وهيبتها من جديد. في هذه الأثناء سيقوم الأوروبيون بآخر الحملات الصليبية من أجل استرداد روميلي، لكن مراد الثاني سيشتت شمل الجيوش التي خرجت لملاقاته في كل من فارنا العام 1444، وفي كوسوفو العام 1448.

ولكن مع اعتلاء السلطان محمد الثاني العرش، أصبح الفتح شغَفاً وعشقاً، ينحو بالسلطان نحو الاتجاه لتأسيس دولة عالمية، تجمع مختلف الشعوب تحت لواء الدين الإسلامي. وهكذا كان فتح مدينة إسطنبول، العام 1453 الباب الذي سيفضي إلى تحقيق الهدف المنشود. وكان تصريحاً واضحاً من الفاتح على أنهم سيغدون الورثة القادمين لكل الأراضي التي تقع تحت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية. واعتباراً من تلك اللحظة سيغدو ملك ملوك الأتراك والسلطان العثماني، ووريث إمبراطورية روما.

من جهة أخرى، فقد خاب ظن من اعتقد أنّ السلطان ما أن يفتح القسطنطينية ويحيلها عاصمة لسلطنته، سيبلغ مراده في العشق منتهاه، وسيغرق في الاحتفال بهذا الحدث العظيم. فقد أثبت للجميع بأنه يرمي لإعلاء كلمة الله، ويسمو لشرف نشر اسم الله وكلمته الحق في العالم كله.

فخلال السنوات الثلاثين التي تربع فيها على عرش السلطنة، اهتز العالم

برمته تحت أمواج الفتح، من صربيا إلى ألبانيا، المورا، البوسنة، الهرسك، الأفلاق، بغدان، القرم، كرواتيا ودلماسيا، والكثير من الدول التي سيطرت عليها السلطنة، وضمتها. وقد عمل على تطويق دولة آق قوينلو القوية التي كان يحكمها أوزون حسن، ويعتمد عليها الغرب، وقضى عليها ولم تقم لها قائمة. وضمّ إمبراطورية ترابزون الرومية، وإمارات الإسفنديار وقرمان، ووحد الأناضول. أما جمهورية البندقية التي كانت سمعة أسطولها البحري تبلغ الآفاق، فقد استطاع الفاتح تمريغ هذه السمعة في أوحال الهزيمة. وكان البنادقة يراقبون من خلال أبراج مدينتهم، المشاعل التي يوقدها البحارة العثمانيون الذين يتجولون في مياه المتوسط، بمزيج من الرهبة والإعجاب. وفي العام 1481، حين أغلق الفاتح عينيه للمرة الأخيرة، أورث خلفاءه دولة عظيمة.

وكما يقول المفكر الكبير أحمد حمدي تانبنار: «إنها لنعمة كبرى أن يكون لك وطن، تحظى فيه بالحرية والاستقلال، وأن تكون جديراً بتاريخك المجيد، قادراً على أداء الواجبات المنوطة بك». وحين نقرأ الجزء الأول والثاني من السلسلة، سنكتشف أنّ أجدادنا قاموا بأداء هذه المهمة على أكمل وجه، حين قاموا بتحويل الدولة العثمانية إلى دولة عالمية.

من الصعب بل من المستحيل عرض كل التضحيات التي قدّمها العثمانيون، من أجل الحفاظ على هذا الوطن الذي انتقل إلينا لنعيش فيه. لأنها تنطوي على قدرة عظيمة، وإيمان لا يتزعزع، وعزيمة مذهلة، وتضحيات لا تُحصى.

بالإضافة إلى كل ما تقدم، كان التفكير بالأجيال التي ستعقبهم وسترث هذا الوطن من بعدهم، يقف على قمة أولوياتهم، لذا فقد كان الاهتمام الذي أولوه للعلم والعلماء، يفوق كل ما عداه. فلم تكن إسطنبول عاصمة السلطنة فقط، بل لقد دأبوا على جعلها مركزاً علمياً ومعرفياً عالمياً، وذلك منذ بدايات الفتح الأولى.

وحين قال عثمان الغازي: «اجعل الإنسان يحيا، لتحيا الدولة»، فلقد أصاب

عيـن الحقيقـة التـي تصلح لـكل العصور. فحين يكون الهدف، بغض النظر عن العقائد والأعراق، هو تعليم الإنسـان وإكسـابه المعرفة الحقة، سـتغدو الأجيال القادمة على قدر عظمة الدولة وقوتها وأهميتها، وسـيغدو العالم الذي يعاصر هذه الأجيال، مليئاً بالرفاه والسعادة والسلام.

مـن جهـة أخرى لن ننسـى الجهـود والتضحيات والصعـاب التي واجهها المؤسسـون الذين أرسـوا دعائم هذه الدولة العالمية، والعزيمة التي تحلوا بها، والتي أشـار إليها رجل العلم الفاضل، البروفيسـور الدكتور حسـن سِتشن، بهذه الكلمات المعبرة الجلية:

«إنّ قرّاء هـذه السلسـلة، سيكتشـفون فـي الرحلـة التي تعـود بهم حوالى ستمئة عام عبر الزمن، أبطال عشيرة كايي الذين أسسوا هذه الدولة، ويتعرفون إلى طريقة تفكيرهم، وشـغفهم بهذه الدولة، وبطولاتهم التي كانت تسـتند إلى حكمـة عميقـة، ووفائهـم للعهـود، والتزامهم بالعدالة، والرحمـة والرأفة اللتين كانـوا يبدونهمـا تجـاه الناس، بغض النظـر عن دينهم أو عرقهم، وعلى كرمهم، ومواجهتهم الظلم، وتواضعهم المشـهود له سـواء في حضرة درويش فقير، أو عالم شهير.. وعلى الرغم من كون هذا الكتاب يشكل مرجعاً علمياً تاريخياً، فهو يتحلى بأسلوب أدبي يماثل كتاب العثمانية لطارق بورا، الدولة الأساسية لكمال طاهـر، والقلعـة، السـقف، الثلاثيـات، الرباعيات، والسـباعيات، والأربعينيات لمصطفى نجاتي سِبتجيأغلو. لذا سـأحتفظ به في مكتبتي على الدوام. ورغم أنني قرأت السلسلة، لكنني أنوي قراءتها مرة أخرى.

ففي تلك اللحظات التي أشـعر فيها بالضعف ينتابني إزاء مشـقات الحياة ومصاعبها، وحين أفقد الثقة اللازمة بنفسي وبمن يحيطون بي، وحين تهزمني العقبـات الخارجيـة والداخليـة، وأشـعر بـأن قلبـي واهـن مرتبـك، ولا أجـد «السلوى سوى في الدموع» لتغدو زادي المبارك في لحظات الحيرة والضعف والاضطراب، سأقرأ السلسلة من جديد.»

سأترك القراء مع الجزء الثاني من هذه السلسلة.

أتقدم بالشكر والعرفان للمرحوم مصطفى كبرصلي بيه، رمضان مرجان، هاكان غورسل، عبد الكريم شاشماز، وفهيم هارمانشا للمساعدة والعون وتكبّد مشقّة مراجعة العمل أثناء تأليفه. كما أتقدم بالشكر العميق لكل من آدم كوجال مدير المشروع الخاص بقسم الكتابات التاريخية في منشورات تيماش، وزينب بيركتاش التي أبدت عناية فائقة في تحضير هذه الطبعة، وروضة كزلتوغ التي صمّمت غلاف الكتاب، وأتمنى لهم دوام النجاح.

البروفيسور الدكتور أحمد شيمشيرغيل.



القِسْمُ الأوّل

السلطان مراد الثاني

يا بنيّ! السلاطين، كمثل من يمسك الميزان بيده
وحين تصبح سلطاناً، أريدك أن تمسك الميزان
بالشكل الصحيح
حينها، حتى الله جل جلاله، سيقدّر لك الخير.

بيزنطة رأس الفتنة

حيـن اشـتدّ المـرض علـى السـلطان محمد جلبي، في العـام 1421، طلب إخبـار ابنـه مـراد الذي كان حينها في أماسـيا، ليحضر على الفور إلى العاصمة. فهو كان يخشى من حدوث فتنة نتيجة فراغ السلطة الذي سيستغله البيزنطيون، من خلال إطلاق سراح الأمير مصطفى.

ورغم أنّ الأمير مراد قد أقبل على وجه السرعة، لكن لم يقدّر له أن يرى والـده علـى قيـد الحياة، لأنه حين بلغ بورصة تلقى خبر وفاة والده. وقد أطلعه على الخبر الصدر الأعظم بيازيد باشـا في إدرنة بشـكل رسـمي. وبذا تم إعلان خبـر وفـاة السـلطان، الـذي كان قـد بقي طي الكتمـان درءاً لأي فتنة. وتم أخذ الجثمان إلى بورصة لدفنه.

وقد اعتلى السـلطان مراد الثاني العرش في بورصة وهو في الثامنة عشـرة من العمر، وذلك في الخامس والعشرين من حزيران العام 1421. وتقلّد السيف في حضرة الشـيخ ورجل الدين الجليل أمير بخاري؛ صهر جده يلدرم بيازيد، ونال بركته ودعواته. وانشغل بعد ذلك بمراسم دفن والده، وقد تم دفن جثمان السلطان وسط جنازة مهيبة في الجامع الأخضر، حيث وزع السلطان مراد الكثير من الصدقات عن روح والده.

وبعـد أن أتـمّ السـلطان مـراد الثاني واجبه هذا، أعلن عـن اعتلائه العرش لبقية الحكام المجاورين. وعلى الفور قام الإمبراطور البيزنطي بإرسال اثنين من سـفرائه إلى السـلطان. كان أحدهم مكلفاً بتعزية السـلطان، وتهنئته على استلام العـرش، أمـا الثانـي فقـد كُلّف بأخذ اثنين من أشـقاء السـلطان لوضعهم تحت حماية الإمبراطور (أسره)، للتأكد من استمرار معاهدة الصلح التي تمّ إبرامها في عهد السلطان محمد جلبي. وقد هدد بأنه سيخلي سبيل الأمير مصطفى جلبي

المحجوز في إسطنبول، والذي يطالب بالعرش، في حال رفض تسليمهما.

وقد ردّ الصدر الأعظم بيازيد باشا ووالي الولاة، باسم السلطان على هذا الطلب بالقول: «إن قيام غير المسلمين بتنشئة أبناء المسلمين، مخالف لشريعة الرسول الكريم، وأرجو أن تخبروا الإمبراطور بالتخلي عن هذا المطلب. فالسلطان يرغب في عقد صلات جيدة معه، وهو سيلتزم بالاتفاقيات والعهود التي تم إبرامها فيما سبق».

وإزاء رفض طلب تسليم الأمراء تمّ عقد اجتماع بين الإمبراطور ورجالاته في إسطنبول. وقد كان مانويل ابن الإمبراطور وشريكه في الحكم، يميل مع بعض رجال الدولة إلى طرف الأمير مصطفى، فيما كان الإمبراطور العجوز وبقية رجاله يرجحون إبقاء العلاقات جيدة مع السلطان مراد. ولكن تمت الغلبة لمناصري مانويل إثر إصرارهم الشديد على موقفهم، بعد أن وعدهم الأمير مصطفى بتسليمهم جاليبولي[1]، في حال تسلمه السلطة. وعلى الفور تمّ إرسال القائد دميتريوس ليونتاريوس مع عشر سفن حربية إلى جزيرة كاليمنوس[2].

وقد كان الإمبراطور مانويل، يرمي للاستفادة من الفتنة التي ستنشب بين الأتراك. أما الأمير مصطفى فقد وافق بامتنان على العرض، لأنه اعتبر حصوله على أي مكسب نصراً له، في ظل عدم وجود ما يخسره بالفعل. وبحسب الاتفاق المبرم، فإن الأمير مصطفى في حال انتصاره، سيعيد إلى الإمبراطور كلاً من جاليبولي، وجميع المدن الساحلية المطلة على البحر الأسود، شمال إسطنبول، وحتى حدود البغدان، وجبل أثوس[3] وثيساليا[4].

(1) هي شبه جزيرة تقع في تراقيا الغربية في الجزء الأوروبي من جمهورية تركيا، تطل شبه جزيرة جاليبولي على بحر إيجة من جهتها الغربية وعلى مضيق الدردنيل من جهتها الشرقية

(2) تقع الجزيرة ضمن بحر إيجة، في جنوب شرق اليونان

(3) يقع في شمال اليونان

(4) هي منطقة جغرافية تقليدية كما أنها منطقة إدارية يونانية حديثة، تضم أعرق المناطق اليونانية. أصبحت ثيساليا جزءاً من الدولة اليونانية الحديثة، بعدما حكمها العثمانيون قرابة أربعة قرون ونصف القرن.

وعلى إثر توقيع الأمير مصطفى على هذه المعاهدة، قام ليونتاريوس باصطحابه هو ومناصره جونيت بيك إزمير أوغلو، ليتجهوا إلى جاليبولي، ورغم أنّ قوات السلطان مراد الثاني تصدت لهم، إلا أنّ إزمير أوغلو الذي يقود القوات الموالية لمصطفى جلبي تمكن من محاصرة قلعة جاليبولي. وقد بقيت قوات حماية القلعة وفية في لولائها للسلطان مراد ورفضت عروض التسليم، ما أسفر عن مناوشات دامية بينهم وبين القوات البيزنطية بقيادة مصطفى جلبي والقائد ليونتاريوس.

وهذا ما دفع مصطفى جلبي لدعوة رجالات جاليبولي وأعيانها من أجل مقابلته. وخاطبهم بالقول: «كما تعلمون جيداً، فأنا ابن السلطان يلدريم، وأنتم رعايا والدي. فلماذا تتحدون سلطة سيدكم؟ فإن انحزتم إلى طرفي، ومهدتم لي الطريق من أجل العودة إلى منزل والدي في إدرنة، فلن تغدوا حينها رعاياي، بل أشقائي. وستحظون على الدوام بعطفي، كما أنني سأكافئكم وأغدق عليكم الكثير من العطايا. ولكن إن أجبرتموني على نيل حقوقي بالقوة، فسأقوم بمحاكمتكم، وإنزال أقسى العقوبات بكم». وقد بادر بعض ممن سمع كلماته هذه بإبداء الطاعة والولاء له على الفور. وفي اليوم التالي، قامت الكثير من المدن والبلدات المجاورة لجاليبولي بالانضواء تحت لواء مصطفى جلبي، وعاهدوه على الولاء باعتباره الوريث الشرعي للعرش العثماني.

ورغم ذلك بقي رئيس حامية قلعة جاليبولي الشيخ مليك مصراً على مقاومته. وقد ترك مصطفى جلبي كلاً من جونيت بيك إزمير أوغلو والقائد ليونتاريوس على رأس القوات المحاصرة للقلعة، ليتجه نحو إدرنة. وهذا ما كان ينبئ بأن التمرد بدأ يتّسع.

مصطفى المحتال

بعد أن تولى السلطان مراد الثاني الحكم، وقام بإغداق العطايا والهدايا والرتب على من حوله من بطانته، انشغل بأمور منطقة الأناضول، وفي تلك الأثناء وصلته أنباء التمرد من سالونيك. فبعد المعركة القاسية التي خاضها السلطان يلدرم، مع تيمور خان، حيث اختفى الأمير مصطفى حينها، ولم يعد للظهور مجدداً، ها هو يعلن وجوده مرة أخرى مطالباً بحقه في تولي العرش.

حين وصل الأمير إلى يانيتسا[1] انضم إليه أبناء إفرِنوس[2]، وحين بلغ سيرس[3]، لم يبدِ الجنود الذين في القلعة أدنى مقاومة، بل انضووا تحت لوائه على الفور. وبفضل خطابه المؤثر والمقنع، وأسلوبه الناري، نجح في استمالة جميع قادة الجيش الذين قابلهم، ليقفوا إلى جانبه. وكانت معظم منطقة روميلي[4] قد أصبحت تحت سيطرة مصطفى. أما مناصرو السلطان مراد، فقد اعتبروا هذا الرجل الذي لم يعرفوا شيئاً عن حقيقة مصيره منذ مدة طويلة، وظهر بعد وفاة السلطان محمد جلبي بشكل مفاجئ، أنه ليس ابن يلدرم كما يدعي، وقد يكون شخصاً محتالاً، لذا فقد أطلقوا عليه لقب (المحتال). وكانوا يعتقدون بذلك أنهم سينجحون في فض الناس من حوله. وفي مقابل هذا اللقب الذي كانت له مرامٍ سياسية أيضاً، كان يقف الكثير من الأعيان معه، بالإضافة إلى أبناء إفرِنوس، مما كان يقوي احتمال كونه أميراً عثمانياً بالفعل.

وفي ظل هذه الأوضاع بدأ التمرد يكبر ويتسع، ويأخذ أبعاداً خطيرة. وفي الطرف المقابل، قام السلطان الشاب، بجمع وزرائه ورجالات دولته من أجل

(1) مدينة يونانية، ومركز لبلدية تقع في شمال البلاد ضمن مقاطعة بيلا، التابعة لمنطقة (إقليم) مقدونيا الوسطى الإدارية.

(2) عائلة محاربة ساعدت العثمانيين كثيراً في مرحلة التأسيس.

(3) مدينة يونانية تقع في شمال البلاد ضمن منطقة مقدونيا الوسطى الإدارية.

(4) يشير الكاتب هنا إلى القسم الواقع في قارة أوروبا من البلاد باسم روميلي، أما القسم الواقع في قارة آسيا فيطلق عليه اسم الأناضول.

أخذ مشورتهم حول ما يحصل. وقد كان كل من الوزير إبراهيم باشا، وحاجي إيفاز باشا من الرأي القائل بالتقليل من شأن التمرد، واعتبروا أنّ بيازيد باشا قادر وحده على التصدي للمحتال والتخلص منه، فوالي ولاة روميلي من معارف الباشا، وكل قادة الجند في تلك المنطقة يكنون له المحبة، وإن قام بقيادة الجند والتوجه نحو المتمردين فسيتمكن من السيطرة على الأمور وفي وقت قصير.

ورغم أن تيمورتاش باشا وأبناءه؛ أومور، أوروج وعلي قد أشاروا إلى ازدياد حجم التمرد، وأنّ ما يقترحه وزراء السلطان غير كافٍ، وقد يسبب في تحول الأمر إلى كارثة حقيقية، لكن السلطان آثر عدم مخالفة رأي وزيريه المخضرمين.

ويحسب ما ذكر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة، فإن كلاً من إبراهيم باشا وإيفاز باشا، تعمدا القيام بهذه الحيلة، وزج بيازيد باشا- الذي بدأ نجمه يلمع بشدة تحت حكم السلطان مراد الثاني- في هذه المواجهة الخطرة ليتصدى لها وحده. حتى أنّ المؤرخ آشك باشا زاده[1] قد ذكر في تاريخه، بأنهم قالوا لبيازيد باشا علانية: «أنت والي ولاة منطقة روميلي، ولقد استمتعت بخيراتها حتى الآن لوحدك، والآن اذهب وأطفئ نارها لوحدك أيضاً».

وحين لاحظ السلطان تردد بيازيد باشا، خاطبه: «لا ترفض هذا الطلب يا باشا، يجب عليك الذهاب. فلتجمع همتك كلها، وكل خبراتك. فما من أحد قادر على حل الأمر سواك. وما من أحد يجاهد لمصلحة هذه الدولة مثلك».

وقد قابل بيازيد باشا كلمات السلطان بهذه الأبيات:

هذا الرأس ما لم يمت فداءً لك فقل لي ما نفعه

وهذا العبد إن اعترض مشيئتك فقد عاداك

ودمائي هذه لتهدر في سبيل السلطان وعطفه

أما جسدي وروحي فكلاهما يا مولاي فداك

---

(1) مؤرخ عثماني عاش ما بين العامين 1400 و1484.

وأضـاف بعدهـا: «يـا مولاي، هـذا الرجل الذي فرض نفسـه محارباً قوياً، وهـو يطالـب بأحقيتـه فـي العرش، قد تمكن من إقناع الكثيرين للانضواء تحت لوائه. وأغلب الظن أنّ معظم جنود روميلي قد انضموا إليه، وأقسـموا بالولاء والطاعـة أمامـه. وفيمـا لا قـدّر الله وكانـت الهزيمـة من نصيبنـا، فلن أخفيك يا مـولاي أننـي سـأنضم إلى الطرف المقابل. ولكـن لا تعتبر الأمر خيانة بل على العكس، سأحاول قدر المستطاع دبّ الخلاف والفرقة بين صفوفهم، في حال اضطررنا لمواجهتك، وذلك لأمنعهم من اكتساب مزيد من القوة، وبذا سأسهل عليك أسباب النصر».

ولأن ثقـة السـلطان بهـذا الوزيـر القوي وبولائه كانت غيـر محدودة، فقد منحـه الموافقـة علـى التصـرف وفـق ما يرتئـي. ولأن بيازيد باشـا كان يعلـم أنّ طريق جاليبولي غير سالكة بسبب ثلوج الشتاء، فقد قام باجتياز مضيق البوسفور عنـد قلعـة أناضولـو حيصار[1] للتوجـه إلى الضفة الأخرى، بعد تكبّد الكثير من المشـقة، ولـم يكـن هناك الكثير من القـوات برفقته. وفيما كان يتجه نحو إدرنة حـاول أن يضـم إليـه بعض القـوات والجنود. وحين علم أنّ مصطفى جلبي قد غادر جاليبولي من أجل ملاقاته، انتظره في منطقة سازلديريه[2].

وقد كان بيازيد باشا يخشى كثيراً من أن ينضم جنوده إلى الطرف المقابل. لـذا فقـد خطـب فيهم ليبثّ الحماسـة ويقوي الهمم قبل البـدء بالمعركة. وبعد أن أوضـح لهـم بـأن مصطفـى ليس أميـراً عثمانياً إنما هو خائـن قام البيزنطيون بتربيتـه، ويرمـي مـن خلال مطالبه تجزئةَ الدولة وتشـتيت شـملها، أكمل قائلاً: «وكما ترون فقبل استيلائه على العرش ها هو يمنح البيزنطيين أفضل المناطق التي سيستولي عليها. رغم أنّ أجدادنا تكبدوا مشقات لا تُحصى من أجل فتح

(1) تقع أناضولو حصاري في الجانب الأناضولي أو الآسيوي من مضيق البوسفور، وبناها السلطان العثماني بايزيد الأول في منتصف تسعينيات القرن الرابع عشر كجزء من استعداداته لحصار مدينة القسطنطينية.

(2) قرية تابعة لمحافظة إدرنة

هذه الأراضي. وكما تعلمون فإن مدينة جاليبولي والمضيق هما طريقنا الوحيد لبلوغ بحر إيجة والبحر الأسود، والآن بعد أن سيطر البيزنطيون على جاليبولي لن يتمكن العثمانيون من نقل الأسرى النصارى إلى الأناضول. وإن بقي الوضع علـى مـا هو عليه فسـتكون العاقبة وخيمـة علينا، وخلاصاً للبيزنطيين. لذا ومن أجل حماية مستقبل دولتنا، أطلب منكم أن تحاربوا كالأسود في ساحة الوغى».

وفي هذه الأثناء انضم جونيت بيك أيضاً إلى جيش مصطفى رافعاً الحصار عن جاليبولي، بعد أن سمع بأنه ذاهب لملاقاة بيازيد باشا. أما مصطفى جلبي فقـد أسـمع جنـود بيازيـد باشـا إحدى خطبه المؤثـرة، حيث أخبرهـم فيها بأنه ابن يلدرم، وأنّ ولاة روميلي انضموا إليه لهذا السبب. وأشـار عليهم بوجوب الانضمام إلى صف السلطان الحقيقي قبل فوات الأوان.

وقـد تـرك خطابـه انطباعـاً قوياً لدى الجنود، الذين منـذ اللحظات الأولى للصدام بدأوا يتقاطرون للانضمام إلى جيش مصطفى، وحين رأى بيازيد باشا عبثية الاستمرار في معركة خاسرة سلفاً، آثر بدوره الاستسلام.

وقد سرّ الأمير مصطفى من انضمام الباشـا إليه أيّما سـرور، حتى إنه أراد مكافأته بمنصب وزاري على الفور. ولكن الشـكوك كانت تراود بقية رجالاته إزاء استسـلام الباشـا وانضمامه إليهم دون أن يبدي أي مقاومة جدية، وأشـاروا علـى مصطفـى بالحـذر من الباشـا. وقـد قام الأمير مصطفى بالكشـف عن آثار الجروح التي طالت جسده بعد معركة أنقرة أمام الباشا، ليثبت له بأنه ابن يلدرم بالفعـل. وأراد مـن هـذا التصرف الحصول على ثقة رجل يتمتع بمكانة ومقدرة عظيمة.

ولكـن جونيـت بيـك ذا الشـخصية القويـة هو من كان يديـر كل تصرفات الأمير مصطفى ويوجه تحركاته. ولسوء حظ بيازيد باشا فهو لم يكن يحبه على الإطـلاق، وكان يـرى وجـوده معهـم مصـدر خطر وتهلكة. ما سـاهم في حيرة مصطفـى، وخاصـة حيـن قال له جونيت بيك: «ما الذي سـتجنيه من خائن ترك

سيده (السلطان مراد) ؟» وأشار عليه بعدم الثقة فيه. وفي نهاية الأمر وبسبب تحريض جونيت بيك، تم قتل بيازيد باشا. وهناك حتى الآن مسجد ومدرسة بناهما بيازيد باشا في بورصة.

وبعد كل هذه الانتصارات التي حققها مصطفى، دخل إدرنة وسط احتفال كبير. وصكّ النقود باسمه. وقد خضعت منطقة روميلي بأكملها لسلطانه. واتجه نحو جاليبولي مصطحباً معه جميع رجالاته وقواته وكل ولاة روميلي، وذلك من أجل العبور إلى الجانب الآسيوي. وحين علم الشاه مليك بيك بأمر انتصاره في معركة سازلديريه، قام بتسليم القلعة إلى ليونتاريوس. ولكن حين أراد القائد البيزنطي تسليم القلعة للقوات البيزنطية، رد عليه الأمير مصطفى: «أعلم أنّ قلعة جاليبولي كانت ضمن المناطق التي تعهدت بإعادتها لكم. لكنها حركة غير محمودة العواقب الآن، ولو قمت بها فلن يقبل رجالي بهذا التهاون، ولن يسمحوا لكم بدخول أراضيهم مهما تكن الظروف».. وعاد ليونتاريوس مجبراً إلى إسطنبول وهو يحمل معه نفي الأمير مصطفى لطلبه، ليُطلع الإمبراطور على الأمر، والذي ثار غضباً وحنقاً، ولكن لم تكن باليد حيلة.

وحين سيطر الأمير مصطفى بشكل كلي على قلعة جاليبولي، قام بتعيين قائد للأسطول ومن سيعمل تحت إمرته من القادة. وبعد ذلك، وبدل اجتياز المضيق إلى الطرف الآسيوي، عاد أدراجه إلى إدرنة من أجل ممارسة سلطاته كسلطان.

البحث عن حلفاء

حين علم السلطان مراد بمقتل بيازيد باشا، وبانضمام جيشه إلى الأمير مصطفى، شعر بصدمة قوية، زعزعت قدراته على المقاومة. ولكنه شعر ببعض الراحة حين تمّ إخباره بأن الأمير مصطفى توجه إلى إدرنة من أجل الاستمتاع بمزايا السلطنة.

في البداية، حاول أن يستغل الخلاف الذي نشب بين الإمبراطور ومصطفى

جلبي حول قلعة جاليبولي، وقام بإرسال تشاندرلي إبراهيم باشا إلى إسطنبول، وهو الصدر الأعظم الذي تمّ تعيينه بدل بيازيد باشا.

وقد تعمّد الوزير المخضرم، والمحنك طلب المساعدة من الإمبراطور مانويل دون أن يبدي معرفته بأمر الخلاف الناشب بينه وبين مصطفى. حيث أخبره أنه سيخرج رابحاً من هذا الاتفاق، تماماً مثل والده الذي ساعد السلطان محمد جلبي، وعاد عليه الأمر بالمنفعة. ولكن بسبب إصرار الإمبراطور على تسليم شقيقي السلطان مراد مع قلعة جاليبولي، لم يتم إبرام الاتفاق. وفي هذه الأثناء وصل رسل الأمير مصطفى إلى إسطنبول ليؤكدوا للإمبراطور أن الأمير ملتزم بتعهده في إعادة قلعة جاليبولي إلى البيزنطيين في حال استطاع الانتصار.

وبهذا استطاع مصطفى بالإضافة إلى سيطرته على قلعة جاليبولي وعلى الأسطول البحري، أن يضمن بقاء حكام إسطنبول إلى جانبه. ولكن السلطان مراد الثاني تمكن في هذه الأيام العصيبة، من أن يبرم اتفاقاً عظيم الأهمية. فقد كان الجنويون الذي يديرون مناجم استخراج حجر الشب في فوتشا (فوكايا)[1]، يدفعون مبلغاً مالياً سنوياً للعثمانيين لقاء استثمار المناجم. حيث يرسل الشب المستخرج إلى أوروبا. وقد استطاع جيوفاني أدورنو من خلال اتفاقه مع السلطان محمد جلبي، الحصول على موافقته باستثمار المنجم لمدة عشر سنوات، مقابل دفع عشرين ألف ذهبية سنوياً.

ولكن بسبب الحروب والنزاعات التي نشأت مؤخراً بين الجنويين والكتالونيين، فقد تضررت تجارة جيوفاني كثيراً وتراكمت عليه ديون كثيرة. وقد أرسل إلى السلطان مراد الثاني يحدثه عن العلاقات الجيدة التي كانت تربطه بوالده السلطان محمد جلبي، وأنه راغب في استمرار هذه العلاقة، وأضاف بعدها: «وأنا مستعد أن أقدم لك خدمة لن يجرؤ أحد آخر على تقديمها، وأن أنقلك بسفني من الأناضول إلى روميلي، وكل ما أنتظره هو أن تعطي أوامرك بالموافقة».

(1) منطقة تقع شمال مدينة أزمير التركية.

وقد وافق السلطان مراد الثاني على عرض الجنوي بامتنان، وأرسل إليه: «سأصل إلى بورصة خلال أيام إن شاء الله، لذا أرسل أحداً من ثقاتك إليّ من أجل مناقشة الأمر، وترتيب ما علينا فعله».

وحين سمع جونيت بيك بالاتفاق الذي سيبرم بين السلطان والجنويين نبّه الأمير مصطفى بالقول: «مراد لا يضيع وقته سدى، فهو من جهة يحاول الاتفاق مع الإمبراطور ومن جهة أخرى يبرم الاتفاقيات مع الفرنجة، أما نحن فجالسون في إدرنة لا نقوم بالتحضير لأي شيء. فقبل وصولهم إلى هذا الطرف (الأوروبي) علينا الانتقال إلى الطرف الآخر (الآسيوي). ورغم أننا متفوقون عليهم حتى الآن في كثير من النواحي، إلا أنّ قدومهم إلى هذا الطرف سيكون له وقع الكارثة علينا».

وإثر هذه التحذيرات المحقة، قام مصطفى بحشد قواته للتوجه إلى جاليبولي، حيث وصل لابسيكي[1] في العشرين من كانون الثاني من العام 1422، وكان معه اثنا عشر ألف فارس، وخمسة آلاف من الجنود المشاة. وبعد المكوث هناك ثلاثة أيام توجهوا نحو بورصة.

أما السلطان مراد الثاني فقبل التوجه لملاقاة عدوه، لاذ بدعوات الصالحين وأهل الدين والتقوى ممن تلقى صلواتهم ودعواتهم الاستجابة من الله سبحانه وتعالى. وكان الشيخ أمير سلطان البخاري[2] شعلة مجالس الدين، وأوفر رجال عصره تقوى وحكمة. وقد طرق السلطان بابه، ليطلب منه أن يدعو الله لكي يطفئ نيران هذه الفتنة، ويردّ هذا العاصي خائباً.

وقد رفع الشيخ أمير بخاري يديه بالدعاء، وابتهل إلى العلي القدير بأن

(1) باليونانية لامبساكوس، تقع في الجانب الآسيوي من محافظة جناق قلعة.

(2) عاش في بورصة أثناء تأسيس الدولة العثمانية، كان معروفاً في عالم التصوف والإسلام، ولد في بخاري العام 1368، وتوفي عام 1430 في بورصة، يعود نسبه إلى الحسين بن علي، لقب بالبخاري نسبة إلى مكان ولادته، ولقب بالأمير نسبة إلى تصوّفه، ولأنه كان صهر السلطان يلدريم فقد لقب بالسلطان.

يحفظ الدولة العثمانية من كل سوء، وأن يهلك أعداءها. ومن ثم طمأن السلطان وبشّره بالنصر، وبأن عاقبة هذا الأمر ستكون لخيره، وخير الدولة. وعلى إثر ذلك تقلّد السلطان سيفه، ووسط دعوات الصالحين ونصائح المخلصين، انطلق على رأس جيشه. فقد عادت إليه ثقته بنفسه، وكان عالي الهمة حين ترأس جنوده، وعند الوصول إلى بحيرة أولوبات، نصب الخيمة السلطانية.

أيا أبناء الترك

اقترح الوزراء الثلاثة وقادة الجيش؛ أبناء تيمورتاش باشا المعروفون بشجاعتهم، أومور وأوروج وعلي، على السلطان مراد الثاني أن يخلي سبيل محمد بيك ميهال أوغلو، الذي حبسه السلطان محمد جلبي لأنه انحاز إلى موسى جلبي أثناء النزاع الذي نشب بين الاثنين، حيث تم حبسه في توكات[1]، وقد برروا طلبهم هذا بالقول: «إنه رجل دولة مخضرم، مرّ بالكثير من الأهوال وعاصر الكثير من الأجيال، كما أنه كبير قوم أولئك الذين داهنوا المحتال، وانضموا إليه. وهو الوحيد الذي يمكن أن يخضعوا لكلماته. وإن سامحت هذا العجوز الذي عانى الأمرين، ودعوته للمثول أمامك، ستكون بذلك قد مهدت طريقاً للخلاص من هذه المشكلة».

وقد وافق السلطان على طلب وزرائه الثلاثة، وأمر بمثول ميهال أوغلو أمامه في الخيمة السلطانية، وسط مظاهر التكريم والاحتفاء. أما الرجل فقد أبدى كامل الولاء والطاعة للسلطان، وأبلغه أنه عبده الذي لا يتوانى عن بذل المال والنفس لمرضاته. وقد سرّ السلطان كثيراً من كلمات ميهال أوغلو الصادقة هذه.

وفي تلك الليلة، خاض هذا العجوز والمحارب القديم مياه النهر، وبدأ بالنداء على من كانوا رفاقه في السلاح، ومن حاربوا تحت لوائه: «أيها الأسياد! أيليق بكم شقّ عصا الطاعة على ولي نعمتكم؟ أيليق بشجعان مثلكم أن يساندوا

(1) محافظة تقع في منطقة البحر الأسود كانت تسمى في العهد السلجوقي بدار النصرة.

من لا يُعرف أصله من فصله، ويديروا ظهورهم لسلطانهم الشاب، سليل الحسب والنسب؟ ألا تعلمون أنّ عاقبة أمر كهذا هو الندم والخُسران؟».

حين أخذ صوت المحارب العجوز يدوي جهوراً في صمت الليل ليفصح عن هوية صاحبه، اتجه زعماء روميلي ورجالاتها مهرولين نحو الشاطئ، وهم لا يصدقون أنهم يسمعون صوت هذا الرجل الشجاع القدير الذي كانوا يظنونه مات منذ زمن بعيد. كانوا يسمعون كلمات هذا العجوز الجليل، وهم يذرفون دموع الفرح، متذكرين تلك الصولات والجولات والحروب التي خاضوها مع هذا المحارب العظيم. فبعد أن توارى في غياهب السجن لثماني سنوات، ظنّ الجميع بأنه مات. والآن بعد أن سمعوا صوته يناديهم، عادت ذكرى تلك السنوات القديمة حيث كانوا يقاتلون كتفاً لكتف.

في المقابل كان الأمير مصطفى قد اختار خمسة آلاف من المشاة، وثلاثة آلاف فارس، وأمرهم باجتياز الجسر للطرف المقابل. وحين علم السلطان مراد الثاني بالأمر، طلب من أومور بيك أن يصطحب معه ألفين من خيرة الجنود والتوجه لملاقاتهم، حيث توجه إلى الموقع المحدد على وجه السرعة وبتكتم تام، ونصب لهم كميناً هناك مستفيداً من حلكة الليل. وما إن بدأت طلائع الجنود تصل، استطاع أومور بيك ورجاله بهجوم مفاجئ أن يُفشلوا مهمة العبور، وأن يأسروا الكثير من الجنود أيضاً. وحين علم الأمير مصطفى بأمر الهزيمة، وبالتقاء زعماء روميلي مع الطرف الآخر، انهارت عزيمته.

في تلك الأثناء تلقى الأمير مصطفى رسالة من إيفاز باشا، وفي الوقت ذاته تلقى جونيت بيك رسالة من أبناء تيمورتاش. حيث أوضح إيفاز باشا أنّ بعضاً ممن أظهروا الولاء له، قد قاموا بالتواصل مع الطرف المقابل، وسيقومون بإلقاء القبض عليه من أجل تسليمه للسلطان.

أما أبناء تيمورتاش، فقد أبلغوا جونيت بيك أن بقاءه في الطرف الآخر حتى الآن هو ضرب من الحماقة، وأنّ عليه ودون إضاعة المزيد من الوقت

الانتقال إلى معسكر السلطان وطلب العفو والغفران، وبذا فقد يعود إلى منصبه السابق قبل فوات الأوان.

وعلى الفور استدعى الأمير مصطفى، جونيت بيك للمثول أمامه، وبمقارنة الرسالتين اتضح لهما أنّ زعماء روميلي قد أبرموا اتفاقاً مع السلطان، وبالتالي فما من مخرج للأمر سوى بالهرب. وفي الوقت الذي انتقل فيه إيفاز باشا للطرف المقابل لبدء المعركة، كان مصطفى يهرب مع بضعة من رجاله، متجهين نحو بيغا[1].

وقبيل انبلاج الفجر، كان السلطان مراد أيضاً قد انتقل إلى الطرف المقابل. وحين رآه ولاة روميلي وزعماؤها مقبلاً، هرعوا إليه لإبداء الندم وطلب العفو والغفران. وقد كان رأي إبراهيم باشا أن يردّهم خائبين دون العفو عنهم، أمّا حاجي إيفاز باشا وميهال أوغلو فقد أوضحا للسلطان: «إن كل ما حصل يا مولاي، لهو بسبب تحريض جونيت بيك، الذي أوهمهم أنّ مصطفى هو ابن السلطان يلدريم بالفعل، وقد تعرضوا للخداع حين صدقوه، والآن وقد أدركوا حقيقة أنه مجرد محتال، عادوا إلى الولاء لك، لذا لا ذنب لهم». وطلبوا من السلطان العفو عنهم، وقد عفا عنهم جميعاً.

نهاية مصطفى جلبي

بلغ مصطفى نهر بيغا بأقصى ما يستطيع من سرعة، لكنه لم يستطع اجتيازه بسبب سرعة تدفقه، وغزارة مياهه، ولم يوافق قاضي بيغا على أن يدله على مكان آمن لعبور النهر، إلا بعد دفع كمية كبيرة من الذهب. وبذا فقد استطاع بلوغ المرفأ حيث نقلته إحدى السفن إلى جاليبولي، وحتى يضمن أن ما من أحد يتعقبه، قام بتعطيل بقية السفن الراسية في المرفأ. وحين وصوله، وليتأكد من عدم عودة السفن مرة أخرى، قام بسحبها إلى البرّ، ووضع حراساً لمراقبتها،

(1) أو طروادة المدينة التاريخية.

ليتوجه بعدها نحو قلعة جاليبولي.

وفي المقابل كان السلطان مراد يرغب في التخلص من مصطفى بالسرعة الممكنة، لذا فقد كان أول ما فعله حين علم بتحطم سفنه، أنه أرسل للسيد أدورنو الجنوي، يطلب منه القدوم إليه مع طاقمه من السفن. وقد قام بإعدام قاضي بيغا، الذي أغراه الطمع وسمح للمحتال مصطفى بعبور النهر والهرب.

وعلى الفور قدِم أدورنو مع سبع من سفنه الحربية، ووصل إلى لابسيكي، حيث ركب السلطان مراد أكبر السفن، واصطحب معه خمسة آلاف من جنده. وكان يضع في الحسبان، احتمال أنّ الفرنجة قد يوافقون على تسليمه لمصطفى إن عرض عليهم الأخير مبلغاً ضخماً من المال، لذا فقد كان يتوخى الحذر المطلق في تحركاته، وقد جعل بقية جنده يرافقون الفرنجة ويخالطونهم في بقية السفن.

حين بلغت السفن عرض البحر، انكبّ أدورنو على قدمي السلطان راجياً أن يعفيه من دفع ديونه لخزينة الدولة العثمانية جراء تجارة الشب، والتي بلغ مجموعها ما يقارب السبع وعشرين ألف ذهبية. وقد كان الوقت مناسباً من أجل كسبه بشكل مطلق، ما دفع بالسلطان للموافقة على طلبه، حيث قدم له بياناً كتابياً، يعفيه من كل ديونه.

ومن فوق أسوار قلعة جاليبولي شاهد مصطفى جلبي أشرعة السفن الجنوية وهي تبحر نحوه. وعلى الفور أرسل أحد رجاله لمقابلة أدورنو حيث عرض عليه خمسين ألف ذهبية، مقابل عدم السماح للسلطان مراد بالرسو على الشاطئ، ولكن الجنوي رفض عرضه رفضاً قاطعاً.

وحين وصلت السفن إلى الشاطئ، أراد مناصرو مصطفى التصدي لها لمنعها من بلوغ اليابسة. ومنعاً لحصول ذلك، قام أدورنو بوضع أكثر من خمسمئة من رماة السهام على ظهر حوالي عشرين قارباً وأرسلهم نحو الشاطئ، ليقوموا بإبعاد رماة سهام الطرف المقابل، ما سمح لبقية المحاربين بالتوجه

نحو الشاطئ دون خوف. حيث قام السلطان مراد باصطحاب ألف من خيرة رماة السهام في جيشه، وثلاثة آلاف من أشجع جنوده، وتوجهوا نحو اليابسة.

واستطاعت هذه القوى المتحالفة ومن خلال معركة خاطفة، إبادة قوات مصطفى، والذي أدرك أنه فقد كل الإمكانات لمجابهة مراد بأي شكل من الأشكال، فلاذ بالفرار عائداً إلى إدرنة، وهناك أخذ كل كنوز القصر ونفائسه، وكان ينوي الهرب إلى الأفلاق. فيما كانت فرقة من نخبة الجيش تطارده طوال الطريق. أخيراً تمكنوا من إلقاء القبض عليه شمال إدرنة، على ضفة نهر تونجا، في كِزِل آغج[1]. وتمّ سوقه إلى إدرنة من جديد.

وقد أوضح مصطفى جلبي أن هناك ما يريد البوح به للسلطان مراد، الذي تغاضى عن هذا الطلب، وأمر بقتله كأي شخص عادي، حيث علقت مشنقته على برج القلعة. ليثبت بهذه الطريقة للجميع جيشاً وشعباً، أنّ مصطفى لم يكن ينتمي للسلالة العثمانية. ذلك أنّ كل من كان يتوجب قتله من السلالة، كان يتم قتله بطريقة الخنق حينها.

لقد حكم مصطفى جلبي منطقة روميلي لما يقارب العام ونصف العام تقريباً، كان خطيباً مفوهاً وبارعاً بشكل لافت. وأكبر دليل على ذلك هو تمكنه من إقناع جيش بيازيد باشا بالانضمام إليه.

أما السلطان مراد الثاني فقد أغدق العطايا على أدورنو، الذي كان له دور مهم في مساعدة السلطان، من خلال نقله هو وجيشه إلى جاليبولي، حيث تمكنوا من القضاء على مصطفى جلبي. كما قام بمنحه واردات كل من قرية بريتونيون الواقعة على الساحل الغربي لتراقيا وفوتشا مدى الحياة، وأجزل في العطاء لرجاله ومرافقيه أيضاً.

أما أهالي إدرنة الذين استقبلوه استقبالاً حافلاً حاراً، فقد تكرّم عليهم السلطان وعلى الجندي – الذي كان بادي الرضا من استقبالهم – بالعطايا والمنح.

---

(1) أغلب الظن أنها مدينة يامبول البلغارية.

على مشارف إسطنبول

سببت الهزيمة التي ألحقها السلطان مراد بمصطفى جلبي، قلقاً عظيماً للإمبراطور مانويل، وابنه وشريكه في الحكم يوحنا، وتخوفا من انتقام السلطان منهما، قام الإمبراطور على الفور بإرسال اثنين من أعيان البيزنطيين وهما؛ لاكاناس وماركو غانيس، كسفيرين إلى إدرنة. وذلك من أجل تهنئته بالسلطنة، ومن أجل تجاوز الخلافات التي حصلت بين الطرفين.

وقد ألقى السفراء باللوم على بيازيد باشا، واتهموه بأنه سبب الخلاف الذي نشب بين الطرفين. فهو قد خالف وصية السلطان محمد، برفض إعطاء الأميرين للإمبراطور، وقام فوق ذلك بطرد الرسل الذين بعثهم هذا الأخير، وبذا فقد زاد من هوة الخلاف بين الطرفين.

لكن السلطان مراد رفض اللقاء مع السفيرين، وأمر إلى ذلك باحتجازهما مؤقتاً، حيث كان يرمي إلى إجراء جذري، ينهي مكائد البيزنطيين وألاعيبهم. وبعد أن أكمل كل التحضيرات، أطلق سراح السفيرين، وخاطبهم بالقول: «اذهبا، وأخبرا الإمبراطور أنني قادم إلى إسطنبول على وجه السرعة».

وعلى إثر ذلك كلّف محمد بيك ميهال أوغلو، بالتوجه مع عشرة آلاف جندي، وضرب حصار على إسطنبول. وبعد أن قام ميهال أوغلو بالاستيلاء على المناطق المحيطة بإسطنبول، اتجه نحوها، حيث وافاه السلطان مراد في العشرين من حزيران عام 1442، بعشرين ألفاً من الجنود، ليعسكروا أمام أسوار المدينة.

وقد وجدت المدافع أيضاً في جيش السلطان، الذي ضرب حصاراً على جميع أسوار المدينة الممتدة من يالذْلى كابي وحتى الخليج. وبدأوا بصنع أبراج ذات عجلات بارتفاع الأسوار وحتى أعلى منها، من أجل تسلقها.

ورغم أنّ الإمبراطور قد أرسل وفداً للتفاوض مع السلطان من أجل الصلح، إلا أنه قوبل بالرفض. وبدأ الحصار بقصف المدافع، ولكن هذه

المدافع لم تكن بتلك القوة التي قد تسبب أضراراً جدية في جدران القلعة. وقد قام السلطان مراد بإنشاء متاريس خشبية سميكة غطاها بطبقة من الطين، بعيداً عن مرمى سهام العدو، وذلك من أجل حماية جنوده من ضربات المنجنيقات، ومن الأسلحة النارية التي ستنهال عليهم من فوق الأسوار.

ومع كل يوم جديد كانت وطأة الحصار تزداد، فكانت هناك المدافع والأبراج السيّارة، وقد أضيفت إليها الخنادق، وكانت الهجمات بين الطرفين بالغة الضراوة. وفي هذه اللحظات بالذات، حصل أمر رفع من معنويات المهاجمين.

فقد جاء حضرة الشيخ الجليل أمير سلطان، بناء على طلب الجند من أجل المشاركة في الحصار، وقد لفت الأنظار إليه، بطوله الفارع وهو يمتطي صهوة حصانه الأبيض الجموح متجولاً بين صفوف الجيش. وبعد أن ابتهل داعياً للسلطان بالنصر، انضم إلى المحاصِرين. وهكذا أصبح الجنود واثقين من فتح إسطنبول هذه المرة، وارتفعت الهمم، وباتوا يبذلون جهداً مضاعفاً.

وقد لاحظ أهل المدينة المحاصرة، هذا التغيير الذي طرأ على المحاصِرين، ما زاد من يأسهم وخوفهم أكثر من ذي قبل. وفي يوم الرابع والعشرين من آب، وبعد أن أقام الشيخ الجليل صلواته، وتضرع لله راجياً النصر، خرج من خيمته، وكان برفقته خمسمئة من طلبته أيضاً. فأخرج حسامه الماضي من غمده ولوّح به عالياً ثلاث مرات وهو يهتف: «يا لله! يا رسول الله!..» وحينها بدأ الهجوم العام. وتوجه الجيش كسيل جارف نحو الأسوار الواقعة بين بابي؛ ألتين كابي وأودون كابي.

في تلك الأثناء كان الإمبراطور العجوز مانويل يلفظ أنفاسه الأخير، أما ابنه وولي عهده يوحنا، فقد كان يترأس الحامية التي تدافع عن باب سان رومان (توب كابي). وكان يشجّع جنوده ويبثّ فيهم الحماس ويذكرهم بضرورة الدفاع عن وطنهم ودينهم وحريتهم، ويقاوم الهجوم معهم ببسالة.

وقد تحول دخان المدافع التي كانت تُطلق إلى ضباب كثيف خيم على الأرجاء. كما قام جميع سكان المدينة بمن فيهم الرهبان والقساوسة والكهنة بحمل السلاح، في هذا اليوم العصيب. وكان النسوة والأطفال يحملون المناجل كأسلحة، وينتزعون أغطية البراميل الخشبية ليستخدموها كدروع. أما الجيش العثماني فقد تحمل طوال النهار المياه المغلية وكرات النار الملتهبة والأحجار التي كانت تنهمر عليه من فوق الأسوار، ولم يكترث بها كثيراً وهو يحاول التسلق. ولكن السلالم التي كانوا يسندونها على جدران الأسوار لم تكن تتحمل نيران الكرات الملتهبة وكانت تسقط محترقة. أخيراً، انسحب الجيش مع مغيب الشمس.

أما الإمبراطور مانويل الذي كان ينازع في فراشه، فقد كان ما يشغله أكثر من الموت، هو رسالة السلطان مراد إليه «إنني قادم». حيث كان يحاول البحث عن مخرج من هذا المأزق بكل ما بقي من الرمق. فبعد أن رفض السلطان كل عروضه من أجل الصلح، قام بمراسلة الأمير مصطفى شقيق السلطان مراد الذي لجأ إلى أمراء قرمان، حيث وعده بالدعم المطلق ضد أخيه السلطان. وقد تمكن الإمبراطور الذي توفي بعد أسبوع من تحقيق غايته. ففي الوقت الذي كان فيه السلطان يقود الهجمات لفتح المدينة، جاءه رسول ليبلغه: «لقد دخل شقيقك مصطفى إلى بورصة، وقد استقبله سكان المدينة بالترحاب، وارتضوه سلطاناً. ومن هناك اتجه إلى إزنيك[1] مع شاراب دار إلياس بيك».

وبشكل مفاجئ انسحب الجيش العثماني صبيحة اليوم التالي، بعد الحصار والهجمات الشديدة التي شنوها على أسوار المدينة. وحين رأى البيزنطيون ما حصل، خرجوا في مسيرات دينية يقودها رجال الدين، احتفاءً بالسيدة مريم العذراء التي هبطت من السماء، ومدتهم بالعون حسب زعمهم.

(1) مدينة تركية، تقع بالقرب من مدينة نيقية التاريخية في أقصى شمال غرب الأناضول وتتبع محافظة بورصة.

مكيدة جديدة

حين توفي السلطان محمد جلبي، كان ابنه مصطفى الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً، والياً على إقليم الحميد. وخوفاً من أن يقتله أخوه الذي استلم العرش، هرب إلى أمراء قرمان، ليبقى في حمايتهم. ومع حصار السلطان مراد لإسطنبول، أخذت رسائل الإمبراطور تصل تباعاً، لشاراب دار إلياس بيك، مربي الأمير، وقد أرفق مراسلاته بكمية وافرة من الذهب، والوعد بمساندة الأمير بكل ما يحتاجه إن قام بالمطالبة بالعرش. كما أنه كان في الوقت نفسه يحاول دعوة أمراء الأناضول للانضمام إلى حلفهم.

ولم يكن إقناع إلياس بيك يتطلب الكثير من الجهد، في ظل النعم والمكانة التي سيبلغها، إن نجح ربيبه الشاب في الاستيلاء على العرش. كما وافق أمراء قرمان وجيرميان على الاشتراك في الحلف، وأرسلوا جنودهم لمساندة الأمير الشاب، الذي ترأس قواته المجتمعة، وتوجه بها نحو بورصة. وكان كل من إلياس بيك ومحمود كارا تاج الدين أوغلو، يتوليان منصبي الوزارة وقيادة الجيش. وقد انتفض أهل بورصة حيال تسليم المدينة للأمير مصطفى، حيث قاموا بتكليف اثنين من أعيانها هما؛ يعقوب بيك، وهوشكاديم بيك للتفاوض مع الجيش الرابض على أبواب المدينة. وقد قدّم السفيران الهدايا، ومقداراً من الذهب لإلياس بيك، وأوضحا له أنّ أهل بورصة يدينون بالولاء للسلطان مراد، وفي حال أجبروا على ما يخالف ذلك، سيضطرون للدفاع عن أنفسهم، وهذا ما سيستهلك الكثير من وقت الجيش، وقد أوضحوا بالمقابل لأمير قرمان أنّ ضرب الجيش لمدينة عثمانية ليس بالأمر الحميد، فهو سيولد الكراهية في النفوس اتجاههم.

وقد انصاع شاراب دار إلياس بيك لمطلبهم، واتجهوا نحو إزنيك، حيث قاموا بحصار قلعتها لمدة أربعين يوماً. فأرسل قائد حامية القلعة، فيروز بيه أوغلو علي بيك، للسلطان مراد يبلغه بالأمر، وقد أمره السلطان بتسليم القلعة دون قتال أو مقاومة، ومحاولة إلهاء الأمير مصطفى. في هذه الأثناء، قام السلطان

بمراسلة شاراب دار إلياس بيك، ليبلغه أنه سيعينه والي ولاة الأناضول في حال قام بتسليم الأمير مصطفى، وأرفق رسالته بقرار العفو عنه في حال نفذ الأوامر.

وقد قام علي بيك إثر تعليمات السلطان، وبعد أخذ المواثيق من الجيش بالحفاظ على أمن المدينة وسكانها، بالموافقة على التسليم. أما إلياس بيك، وبعد البشارة التي تلقاها، فقد استقر في المدينة ولم يبارحها، في حين أقام الأمير مصطفى في قصر تشاندرلي إبراهيم باشا، حيث أخذ بالانشغال ببعض الأمور الإدارية.

أما السلطان مراد الذي فكّ الحصار عن إسطنبول حالما وصلته الأخبار، فاتجه مع جيشه نحو جاليبولي على وجه السرعة، حيث عبر من هناك إلى الطرف الآسيوي قاصداً إزنيك. وحين علم جيرميان وبقية قادة الجيش، أرادوا أخذ مصطفى جلبي والتوجه نحو قرمان، لكن شاراب دار إلياس بيك حال دون تحقيق ذلك، ما عززّ الشكوك حول خيانته، فخاطبوه بالقول: «دعنا نأخذ الفتى يا بيك، ونصطحبه إلى قرمان أو إلى إسطنبول. فنحن لا نريد خيانة من ائتمننا، وهذا الأمير الذي لبّى الدعوة، وامتشق سيفه وامتطى صهوة جواده، لا يستحق منا أن نخونه». لكن كلماتهم ذهبت سدى، ولم يطعهم المربي.

وهكذا وصلت قوات السلطان مراد ذات صبيحة بشكل مباغت إلى إزنيك. وكان حينها الأمير مصطفى جلبي في الحمام، فقام الوالي تاج الدين أوغلو محمود بيك على الفور بتأمين حصان للأمير من أجل تهريبه، ولكن محمد بيك ميهال أوغلو باغته وحاول منعه، ورغم أنّ تاج الدين استطاع قتل المهاجم العجوز، حيث ألقى به من على صهوة حصانه، إلا أنه لم يتمكن من الهرب. فحين رأى الجنود قائدهم مضرجاً بالدماء وقد فارق الحياة، اندفعوا غاضبين ليلحقوا بالهارب ومزقوه إرباً إرباً.

أما شاراب دار إلياس فقد قام بالقبض على الأمير مصطفى، وقدّمه للسلطان مراد الذي كان يربض أمام بوابات المدينة. وبأمر من السلطان تمّ أخذ مصطفى

جلبـي خـارج المدينـة، حيث خنقوه تحت إحدى أشـجار التين وذلك في العام 1423، وتمّ أخذ جثمانه ليوارى الثرى في بورصة إلى جانب قبر والده السلطان محمد جلبي.

ولـم يحظَ تصرف شاراب دار إلياس بيك برضى بقية الرجال، وحين سُئل عن السبب الذي دفعه لارتكاب هذه الخيانة بحق ربيبه، برّر ذلك بالقول: «قد يوحي لكم الظاهر أنني ارتكبت خيانة بحق الأمير، ولكن الباطن يشير إلى أنني قمت بالأمر الصواب، فلو تركته يهرب، لكان التصادم بين الجيشين أمراً لا مفرّ منه، وهذا ما كان ليسـبب خراب البلاد. لذا فالضرر الخاص أهون من الضرر العام». ورغم ذلك فقدَ الرجل المكانة والاعتبار في أعين البقية.

أحداث الأناضول

أراد السلطان مراد معاقبة كل من أمراء قرمان[1] وأبناء إسفنديار[2]، بسبب تأييدهـم للأميـر مصطفـى فـي عصيانه، وتسـببهم فـي رفع الحصـار عن مدينة إسـطنبول. حيث لـم يكتفِ إسـفنديار بيك جاندار أوغلو بدعم الأمير مصطفى فحسب، بل قام بمحاصرة قلعة سافرانبولو[3] التي كانت تابعة للعثمانيين، وذلك أثناء فترة حصار إسـطنبول. ولكن قاسـم بن إسـفنديار، لجأ إلى السـلطان مراد

(1) إمارة قرمان: هي دولة إسلامية نشأت عام 1250 جنوبي الأناضول. حكامها من أصول أرمنية حيث أسسها نوري الصوفي الأرمني الذي اعتنق الإسلام. وتوالى على حكمها سلالته من بعده. وقد نصبت التركية المكتوبة في ذلك العهد بالأبجدية العربية كلغة رسمية للدولة. وقف القرمان مع السلطان العثماني خلال محاربته للمماليك في الشام وكانت الانتصارات العثمانية على المجريين شمالاً، أدت إلى ولاء القرمان طواعية للسلطان مراد العثماني ونهاية إمارة قرمان عام 1487 بعد 237 سنة من تأسيسها.

(2) إمارة اسفنديار أو أبناء جاندار: هي إحدى إمارات الأناضول خلال الفترة الثانية وقد حكمت منطقة شملت قسطموني وسينوب وأجزاء من زنغولداق وبارتين وكارابوك وسامسون وبولو وأنقرة وجانقري. وقد امتد حكمهم من 1292 إلى 1461. مؤسس هذه الإمارة هو تيمون يمان جاندار. وقد انتهت الإمارة بعد أن ضمها السلطان الفاتح إلى السلطنة العثمانية.

(3) تقع إلى شمال أنقرة وجنوب البحر الأسود.

بسبب خلاف بينه وبين والده.

وهكذا أرسل السلطان مراد، قاسم بيك على رأس القوات العثمانية، حيث اتجهوا نحو إمارة جاندار. وقد كان النصر حليف العثمانيين في المعركة التي وقعت بين بولو[1] وغيريدى[2]، وذلك لانتقال الجنود الذين برفقة إسفنديار بيك، والذين يدينون بالولاء لقاسم بيك، إلى الطرف العثماني. وقد انسحب إسفنديار بيك من المعركة، بعد أن أصيب، ليحتمي في قلعة سينوب.

وقد استطاعت القوات العثمانية التي تعقبته، أن تمسك به في المنطقة الواقعة بين قسطموني، وكورِى. فأرسل وفداً بقيادة ابنه مراد، لمقابلة السلطان وطلب العفو منه، وقد ورد في الرسالة التي أرفقها مع الوفد: «ولدي السلطان مراد، لقد أغدق عليّ جدك ووالدك بالكثير من الأفضال. وأنت السلطان مراد، أصل العطاء والكرم، فهلّا أنعمت عليّ وشملتني بعين العطف، وغضضت النظر عن سفاهتي! وسأتشرف بتزويج حفيدتي لك».

كما أنه راسل معظم رجالات الدولة، وأرفق رسائله بالهدايا والرجاء، من أجل التوسط لدى السلطان للعفو عنه. وقد وفقّوا في جعل السلطان يعفو عنه، بعد أن أقنعوه بأنّ الرجل نادم على ما ارتكبه.

وبحسب الاتفاق الذي أبرم، أُلزم جاندار أوغلو بتسليم قلاع توساي، كاليجيك، وجانكِرِى، لقاسم بيك، وسينسحب العثمانيون من قسطموني وكورِى، وإلى ذلك سيقوم إسفنديار بيك بتقديم نسبة كبيرة من أرباح محاصيل كورى للعثمانيين، كما سيقدم لهم الدعم العسكري وقت الحاجة.

وبعد ذلك تمّ إرسال وفد إلى قسطموني من أجل اصطحاب خديجة خاتون، ابنة إبراهيم ابن إسفنديار بيك، والمعروفة بجمالها، للذهاب بها إلى بورصة. حيث تزوجها السلطان وسط مراسم باذخة وحفل باهر. وبذا توطدت

---

(1) محافظة تقع في الجزء الغربي من منطقة البحر الأسود.

(2) منطقة تابعة لمحافظة بولو.

علاقته مع عائلة جاندار أوغلو، وتوثقت العرى معهم.

أما محمد بيك قرمان أوغلو الذي كان قد انضم مع أمراء عائلة تورغت أوغلو لتأييد الأمير مصطفى الصغير أثناء مطالبته بالعرش، فقد قام بالاتفاق مع عثمان بيك تيكه أوغلو، ضد العثمانيين الذين يحاصرون قلعة أنطاليا للسيطرة عليها. ولكن والي أنطاليا حمزة بيك فيروز بيه أوغلو، والذي اطّلع على أمر هذا الاتفاق، قام بمهاجمة عثمان بيك الذي كان ينتظر محمد بيك في هضبة كوركوتيلي ليلاً، حيث تمكن من قتله. وقام بتفريق مناصريه وبطانته، وسيطر على جميع ممتلكاته. وبذا قضى على تحالفه مع أمراء قرمان.

في اليوم التالي، قام محمد بيك قرمان أوغلو بالتوجه مع 26 ألف جندي، حيث قاموا بمحاصرة أنطاليا. وقد بقي محاصراً القلعة لمدة طويلة، بمساعدة من التركمان، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها، بسبب المقاومة الكبيرة التي أبداها حمزة بيك وجنوده في الدفاع عنها. وفي هذه الأثناء وصلت أنباء عن توجه السلطان مراد نحو أنطاليا، بعد أن تمكن من القضاء على التمرد الذي قام به أخوه مصطفى. لذا قام محمد بيك، بهجوم كبير من أجل السيطرة على القلعة قبل وصول السلطان مراد. ولكن أحد الحجارة التي كانت تنهمر من فوق الأبراج على الجنود، أصابت رأسه، فوقع من فوق حصانه ومات وذلك سنة 1423.

هذا الحادث تسبب في صراع داخلي من أجل السيطرة على عرش إمارة قرمان، حيث تمكن بينغي علي بيك، أمير منطقة نيغدة[1] شقيق محمد بيك، من تولي عرش الإمارة. وعلى إثر ذلك لجأ أبناء محمد بيك الثلاثة؛ إبراهيم، علاء الدين علي، وعيسى إلى السلطان مراد. وقد أشفق السلطان مراد على هؤلاء الأمراء الثلاثة، وزوّج كل واحد منهم واحدة من شقيقاته. وبذا زادت قوة صلة

(1) إحدى المحافظات التركية وتقع في الجزء الجنوبي من منطقة وسط الأناضول ومدينة نيغدة هي عاصمة المحافظة.

القرابة التي كانت تجمعهم من قبل، وتجددت مع هذه الزيجات.

كما ولّى السلطان كلا من الأمير علاء الدين علي والأمير عيسى علي، ولايتين في روميلي، أما الأمير إبراهيم، فقد أرسله مع الجيش العثماني المتجه نحو قرمان. وبهذه الطريقة استطاع الأمير إبراهيم، الوصول إلى قونية وتسلم الحكم فيها بكل يسر وسهولة. ذلك أنّ بينغي علي بيك الذي أدرك أنه غير قادر على مجابهة هذا الجيش، انسحب إلى نيغدة. ومقابل هذه المساعدة، قام الأمير إبراهيم بمنح إسبرطة[1]، وإغيردير[2] والتي كان والده مسيطراً عليها، للسلطان مراد وذلك في العام ألف وأربعمئة وأربعة وعشرين.

وبعد أن تمكن السلطان مراد من حلّ الفتن الداخلية، ودرء الخطر القادم من إمارات الأناضول، اتجه نحو الإصلاحات الإدارية. وفي تلك الفترة كان كل من إبراهيم باشا، وحاجي إيفاز باشا، وأبناء تيمورتاش باشا الثلاثة؛ علي، أومور وأوروج، يشكلون بطانة السلطان الأساسية. ولم يحبذ السلطان بقاء هؤلاء الرجال الخمسة الأقوياء في عاصمة سلطنته، خاصة أنّ الخلافات والمناوشات التي كانت تحدث بينهم، أصبحت تصعّب عليه اتخاذ القرار الصحيح. فإرسال بيازيد باشا وحده على رأس الجيش الذي اتجه لمواجهة مصطفى المحتال، كان نتيجة مكيدة منهم، وهذا ما عرضه للوقوع في الفخ حيث تمّ قتله.

لذلك قام السلطان بتعيين أومور بن تيمورتاش باشا والياً على كوتاهيا. أما أخوه علي، فقد عينه والياً على منطقة صاروخان (مانيسا). وعين أوروج والي ولاة الأناضول. وبذا لم يبقَ في ديوان السلطان سوى إبراهيم باشا، وإيفاز باشا. كما قام بتعيين مربيه يورغوج باشا، والياً على أماسيا التي كانت جزءاً من ولاية رومية الصغرى[3].

---

(1) مدينة إسبرطة هي عاصمة محافظة إسبرطة تقع في جنوب غرب تركيا.

(2) منطقة تابعة لمحافظة إسبرطة في تركيا.

(3) كانت تضم في العهد العثماني كلّا من ولايات أماسيا وسيفاس وتوكات.

جونيت بيك إزمير أوغلو

بالإضافة لكنيته (إزمير أوغلو)، يطلق عليه في المصادر العثمانية لقب قره جونيت. وقد لعب أدواراً متباينة، في فترة النزاع (فترة خلو العرش)[1] التي مرّت بها الدولة العثمانية والصراع الذي نشب بين الأمراء. ففي البداية قام بمساعدة الأمير عيسى جلبي، ومن ثم انحاز إلى طرف الأمير سليمان جلبي، حيث عينه الأخير والياً على مدينة أوخريد[2]. وعندما اشتدّ الصراع بين الأمراء، عاد مجدداً إلى ولاية آيدين، ليستعيد جزءاً من إمارته السابقة. إلا أنّ محمد جلبي الذي تمكن من السيطرة على العرش، سار نحوه على رأس جيوشه، وأخذ القلاع التي كان يسيطر عليها، حيث استسلم وتم أخذه إلى سنجق نيكوبول[3]. ورغم كل ذلك لم تخمد رغبته في أن يتولى إمارة إحدى الولايات. لذا فقد حاول استغلال كل فرصة كانت تلوح في الأفق.

وحين قام المحتال بالتمرد والمطالبة بالعرش، لم يتوانَ عن الانضمام إليه على الفور، وبذا وقف مرة أخرى في مواجهة السلطان محمد جلبي. وعندما لحقت بهم الهزيمة لجأ إلى البيزنطيين. وحين رفع الأمير مصطفى راية العصيان في وجه أخيه السلطان مراد الثاني، كان جونيت يقف إلى جانبه، ويدير التمرد بصفته وزيراً. وقد لعب دوراً مهماً لكي يتمكن مصطفى من فرض سيطرته على منطقة روميلي. فقد قام بمنح جنود المشاة المنضمين إليهم خمسين آكجة[4]، كما انضمت قوات الحامية إلى الجيش بفضل جهوده. حيث كان كل ما يرمي

(1) هي الفترة التي أعقبت موت السلطان بيازيد الأول عام 1403، والذي أسره تيمورلنك في العام 1402، حيث تنازع أبناؤه على العرش، حتى استطاع ابنه محمد جلبي، التخلص من تمرد إخوته وانفرد بالعرش.

(2) بلدة في جمهورية مقدونيا على الشاطئ الشرقي لبحيرة أوخريد، وهي مركز محافظة أوخريد.

(3) مدينة تقع شمال بلغاريا على ضفاف نهر الدانوب.

(4) آكجة: عملة عثمانية تصك من الفضة، وقد تمّ صك أول عملة منها في عهد أورهان غازي عام 1327.

إليه، هو استعادة إمارة إزمير التي خسرها في العام 1415.

وفي المعركة التي نشبت عند بحيرة أولوبات[1]، عمد السلطان مراد، رغبة في إضعاف الأمير مصطفى، إلى مراسلة جونيت بك سراً، حيث وعده بمنحه إمارة إزمير وآيدين. وبناء عليه فقد انسحب جونيت بيك مع سبعين من جنوده الأشداء من المعركة. وقد سار طوال الليل، حتى وصل إلى جوار آك حيصار[2]، وفي اليوم عند حلول المساء وصل إلى إزمير. وقد استقبله أهالي المدينة بترحاب كبير، حيث أنه ولد وترعرع بينهم.

في تلك الفترة كان مصطفى بيك بن أومور الثاني آيدن أوغلو يحكم المنطقة. ولكن جونيت استطاع في وقت قصير أن يجمع أربعة آلاف جندي، من منطقتي جيشمه وأورلا. وفي المعركة التي نشبت بينهما، تمكن جونيت من إسقاط مصطفى بيك عن صهوة حصانه وقتله، وقد تمّ دفنه في بيرغي. وأخيراً استطاع جونيت استعادة أملاك أجداده مرة أخرى.

وبعد أن تمكن السلطان مراد الثاني، من القضاء على تمرد عمه مصطفى جلبي، ومن ثم شقيقه مصطفى جلبي، طالب جونيت بيك بإرسال أحد أبنائه إليه بحسب الاتفاق المبرم بينهما، وفي حال الرفض سيعتبر ذلك تمرداً على أوامر السلطان، ولكن جونيت بيك لم يلقِ أذناً صاغية لهذا التحذير.

وعقب رفضه لأوامر السلطان، ودرءاً لانضمامه إلى فتنة جديدة، قام مراد الثاني، بإرسال أوروج بيك والي ولاة الأناضول إليه. والذي قام برفقة ياهشي بيك الذي كان والياً على إمارة آيدن، بشن حملة على سلجوق[3]. وحين أدرك جونيت بيك أنه غير قادر على مواجهة هذه القوات القادمة نحوه، هرب نحو قلعة إيبسيلي الحصينة ليحتمي فيها.

---

(1) تقع في محافظة بورصة.

(2) مدينة تابعة لمحافظة مانيسا في تركيا.

(3) مدينة تقع جنوب محافظة أزمير، على ساحل بحر إيجة.

وبعد أن قام أوروج بيك بكل الإصلاحات الإدارية في المنطقة، قام بتسليم الإدارة لياهشي بيك، وعاد إلى سنجقه. وما إن غادر المنطقة، حتى عاد جونيت بيك إلى مواصلة جهوده، وشن الهجمات من جديد. وقد كان في الوقت ذاته يتواصل مع أمراء قرمان في منطقة الأناضول، ومع بيزنطة أيضاً، ويقوم بتحريض جميع الأطراف للعصيان والتمرد. وكان هذا يسبب وقوع مناوشات متواصلة بين قوات ياهشي بيك، وقد فقد سنان بيك، شقيق ياهشي بيك حياته في واحدة من هذه المناوشات. وحين وصل للسلطان خبر الفتن والأعمال المناوئة التي يقوم بها على أراضي السلطنة العثمانية، ثارت ثائرة مراد الثاني، واحتدّ غضبه. حيث قام بتوبيخ وزرائه، قائلاً: «إن قيام هذا الثعلب المخادع، بكل هذه الفتن التي يدفع شعبنا من أمنه وسلامته ثمناً لها، ما هو إلا بسبب إهمالكم أنتم. عليكم إما بالتوحد لإيجاد سبيل للتخلص منه، وإما مغادرة هذا الباب دون عودة».

وقد تزامن الأمر مع وفاة أوروج بيك، فتولى حمزة بيك منصب والي ولاة الأناضول. وقدّم الوزراء إلى مراد خان هذا الاقتراح: «مولاي، إن خادمكم حمزة، هو من أشجع الشجعان، باسل في ساحات الوغى، لا يخشى العدو أو يهابه. فإن شئتم كلفوه بمحاربة هذا العاصي المتمرد، والقضاء عليه».

وعلى إثر ذلك سار حمزة بيك برفقة ياهشي بيك، في حملة مشتركة للتخلص من جونيت. وفي تلك الأثناء كان هذا الأخير قد استطاع جمع قواته كافة، حيث كان بانتظار وصول العثمانيين إلى تخوم آك حيصار.

وقد تولى كورت حسن بيك، ابن جونيت بيك الهجوم على قوات ياهشي بيك. فانسحب الأخير وفق خطة محكمة، حيث أوقع الملاحقين بين فكي كماشة. وفيما كان كورت حسن يلاحق العثمانيين، وقد زاد الاعتقاد بالفوز من حماسته وتهوره، فطن للطوق المحكم الذي أحاط به. أما جونيت بيك الذي لاحظ، أن عددهم لا يساوي شيئاً أمام ضخامة جيوش أعدائهم، فقد وجد

الانسحاب مجدداً إلى قلعة إيبسيلي أسلم السبل، وفي تلك أثناء تمّ القضاء على قوات كورت حسن كافة، وأُلقي القبض عليه.

ظل جونيت بيك، الذي رفض كل عروض التسليم، محتمياً في القلعة لمدة أربعين يوماً. وحين أدرك أن لا سبيل للمقاومة والنصر، قام بتولية أخيه بيازيد مكانه، وانسحب هارباً مع أربعين من أشجع فرسانه في إحدى الليالي، فاخترقوا صفوف العثمانيين كالبرق، وأخذوا اتجاه بلاد القرمان.

وقد كان يأمل أن يضع أمراء قرمان قوة كبيرة من جيوشهم تحت إمرته. ولكن ابن قرمان الذي خاف من زحف قوات السلطان مراد نحوه، لم يحقق طلبه. واكتفى بإعطائه بعض المال، وخمسمئة جندي لا غير. فقام بالعبور من الطريق الساحلي الوعر بين سارت[1] ونيف[2]، هابطاً نحو قلعة إيبسيلي من جديد، حيث فاجأ العثمانيين من الخلف بهجوم خاطف. وحين رأى المدافعون عن القلعة ما حصل، خرجوا منضمين إلى قوات جونيت بيك، وهاجموا العثمانيين الذين تشرذمت قواتهم، وتضعضعت. وحين انسحبوا من المعركة، استطاع جونيت بيك الدخول إلى القلعة مع الجنود الخمسمئة الذين أحضرهم معه، بكل سهولة.

أدرك حمزة بيك صعوبة السيطرة على القلعة براً، فقام بالاعتماد على سفن الجنويين، لمحاصرة القلعة من البحر أيضاً. وحين لاحظ جنود أمير قرمان، أنّ الحصار سيدوم طويلاً، وأنّهم سيكابدون الجوع والضنك في ظل الحصار، انسحبوا في إحدى الليالي من القلعة.

وبعد أن فقد جونيت بيك كل أمل له بالنجاة، اضطر للاستسلام مع أخيه بيازيد. وقد قام حمزة بيك، وياهشي بيك بخنق جونيت بيك وكل المقربين منهم، في خيامهم في تلك الليلة، وبذا تخلصوا منهم جميعاً، وكان ذلك في العام 1426. وفي صبيحة اليوم التالي حين شاهد أهالي القلعة الرؤوس

(1) مدينة ساحلية تابعة لمحافظة مانيسا.

(2) سلسلة جبال تتبع جبال بوز داغ في أزمير، كانت تسمى في العصور الرومانية بجبل أوليمبوس.

المقطوعة المعلقة استسلموا فوراً.

لقد تولى جونيت بيك حكم إمارتي أوخريد ونيكوبول، ولكنه خاض كل تلك المغامرات من أجل الاستقلال في بلاده. ولو أنه سلك طريق الصلح والتفاهم مع السلطان مراد، وأرسل أحد أبنائه إلى قصر السلطان، لبقي يحكم إمارته مدة طويلة. ولكنه دفع مع أفراد عائلته كافة، ثمن كل تلك الخيانات التي ارتكبها من قبل.

نشاطات يورغوج باشا

قام السلطان محمد جلبي بعد معركة أنقرة، بالقضاء على معظم أمراء منطقة أماسيا وتوكات وسيفاس الذين كانوا يشقون عصا الطاعة، ويتمردون على السلطنة، أما من بقي منهم، فقد اعتراه الخوف من القيام بأي نشاط مناهض. ولكن مع تولي السلطان مراد الثاني العرش، وانشغاله لمدة طويلة بالفتن والاضطرابات الداخلية التي حاقت بعرشه، استغل هؤلاء الأمراء الفرصة، وبدأت الكثير من الرؤوس تنهض متمردة. وكان حسن بيك بن آلب أرسلان في جانيك، والإخوة كِزِل كوجا الأربعة، وحاكم كوجاكايا حيدر بيك الذي كان موالياً للعثمانيين، أكثر هؤلاء خطورة.

كانت معظم أراضي توكات وأماسيا خاضعة لسيطرة تركمان منطقة كِزِل كوجا. وقد تزعزع استقرار المنطقة ونظامها، بسبب جورهم وإخلالهم بالأمن، وقد وصلت بهم الرعونة حدّ إخراج النساء من الحمامات جهاراً نهاراً. وفي هذه الأثناء كان دول قادر أوغلو[1] يحرض كلًا من التركمان، والآق قوينلو[2]

(1) والأسرة الدلغادرية التي حكمت مرعش والبستان وما حولهما قرابة 190 عاما وهي منطقة الحدود بين الدولتين العثمانية والمملوكية – هي بالأصل عشيرة تركمانية نزحت نحو الأناضول فراراً من جنكيز خان برئاسة زعيمهم ذي الغادر.

(2) اتحاد قبائل تركمانية من الأغوز (الغز) استقرت في منطقة ديار بكر جنوب شرقي تركية، وكونت دولة الآق قوينلو في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والتسمية من أصل تركي وتعني الشاة البيضاء، إذ كانت تتخذ شعاراً لهم وترسم على راياتهم.

من أجل الاستيلاء على أراضي السلطنة العثمانية.

وقد أمر السلطان مراد، مربيه يورغوج باشا، الذي ولاّه إمارة روميلي الصغرى (أماسيا، توكات وسيفاس)، بعد وفاة أميرها حمزة بيك بيجر أوغلو، بالتصدي لهؤلاء المتمردين. فقام يورغوج باشا، بمراسلة أمراء التركمان نيابة عن السلطان، ووعدهم بمنحهم أراضي في منطقة أرتوكوفا[1]، في حال أعلنوا الولاء للسلطان مراد. وقد رحّب الإخوة الأربعة بهذا العرض، وقبلوا به راضين. حيث كانوا يضمرون التخلص من يورغوج باشا، ليصبحوا حكّام المنطقة المطلقين.

وحين وصلوا مع رجالهم إلى أماسيا، استقبلهم يورغوج باشا بحفاوة وكرم. وقام بتوزيعهم على شكل مجموعات مكونة من ثلاثة أو خمسة أشخاص، على البيوت من أجل أن يرتاحوا. وبذا فقد تمكن من تفرقتهم، وإضعاف قوتهم.

وفيما كانوا يتناولون الطعام والشراب، في البيوت التي استضافتهم، كان يورغوج باشا قد أعد العدة لكل شيء. فقام رجاله بهجوم مفاجئ على الإخوة الأربعة وعلى كافة رجالهم من ذوي البأس والنفوذ، وقتلوهم. أما البقية فقد أمسكوا بهم، وحكموا عليهم بالإعدام.

ودون أن يهدر الكثير من الوقت، سار يورغوج باشا على رأس جنوده نحو قلعة كوجا كايسى الواقعة في أوسمانجك[2]، وذلك لمحاصرة حيدر بيك، والذي كان قد ملأ هذه القلعة المحصنة بمؤن تكفيه سنوات. ولكن يورغوج باشا الذي استطاع القبض على تيفون جلبي، وهو أحد رجال حيدر باشا المعتمدين، عرف منه مكان مستودعات المؤن وقام بإحراقها جميعاً. ولم يبقَ أمام حيدر بيك سوى الاستسلام، وكان ذلك في العام ألف وأربعمئة وسبعة وعشرين.

وقد أرسل يورغوج باشا، للسلطان مراد يعلمه بالأمر، فأمر السلطان بتخصيص إحدى الإقطاعات الجيدة لحيدر باشا، الذي أذعن لشروط

(1) اسمها الحديث هو غوموش هاجي كوي، مدينة تقع جنوب محافظة أماسيا.

(2) اسمها القديم أفلانوس، بلدة تقع في شمال محافظة جوروم الواقعة شمال تركيا.

الاستسلام دون أي اعتراض. وقد ضمن لنفسه حياة آمنة كريمة حتى وفاته، تحت ظل السلطنة وعطفها.

كان هدف يورغوج باشا التالي، هو القضاء على حسام الدين حسن بن آلب أرسلان تاج الدين أوغلو، الذي كان يحكم كلا من جارشمبا[1]، وأردو[2]. ولتحقيق غايته دعاه لحضور عرس مدبّر. لكن حسن بيك الذي خمّن الهدف من وراء هذه الدعوة أرسل هذا الرد: «إن كانت غايتكم من هذه الدعوة، هي السيطرة على الأراضي والغابات التي تحت يدنا، فأمر السلطان مجاب. ولعله يتكرّم علي بمنحي مكاناً آخر». ولكنه بالمقابل رفض الدعوة. وحين علم أن يورغوج باشا ينوي الزحف نحوه على رأس جيشه، ترك إمارته، وذهب لملاقاته بنفسه، من أجل الاستسلام. فقام يورغوج باشا، بإرساله إلى السلطان، في العام 1428.

وقد منح السلطان مراد خان سنجق غومولجينة[3] في روميلي، لحسام الدين حسن بيك، والذي قام بإحضار عائلته أيضاً. وهناك جامع لحسن بيك حتى الآن في جارشمبا. وإن قمنا باستثناء أمراء قرمان في الأناضول، والذين كانوا يشقون عصا الطاعة ويواجهون السلطنة العثمانية في كل فرصة، فقد استطاع العثمانيون بناء كيان سياسي موحد يديره بقدر كبير من العدل بعيداً عن القلاقل.

غرميان بيك

فيما كان السلطان مشغولاً بتسيير أمور السلطنة الإدارية والدينية، وصل رسول من إمارة غرميان (كرمايان)[4]، وأعرب عن رغبة يعقوب بيك الثاني،

(1) مدينة كبيرة تقع في الشرق من محافظة سامسون التركية في منطقة البحر الأسود.

(2) هي إحدى محافظات تركيا عاصمتها مدينة أردو تقع في شمال البلاد.

(3) كان سنجقاً تابعاً للسلطنة العثمانية، على أقصى الحدود الغربية لإدرنة، يقع اليوم ضمن أراضي بلغاريا واليونان.

(4) هي إحدى إمارات الأناضول التي نشأت في فترة انحلال دولة سلاجقة الروم، وقد اتخذت من مدينة كوتاهيا عاصمة لها. تعود أصول هذه الإمارة إلى الكرد.

في زيارة السلطان. وقد أبدى السلطان الرضا والقبول بهذه الزيارة، كما أرسل فرماناً إلى والي بورصة، يأمره بتسهيل عبور يعقوب بيك من جاليبولي وأن يستقبله مع أعيان بورصة ورجالاتها استقبالاً يليق به.

وبناءً على أوامر السلطان، فقد تمّ استقبال يعقوب بيك في بورصة، وفق مراسم وحفاوة بالغين، في العام 1427. حيث قام أول الأمر بزيارة قبري السلطانين عثمان وأورهان، وتلا الأدعية طالباً الرحمة والمغفرة لروحيهما، كما طلب من المقرئين المعروفين بأصواتهم الشجية، تلاوة سور من القرآن الكريم على قبريهما، ووزّع الكثير من الأموال عليهم وعلى المحتاجين، صدقة على أرواح كلٍ من السلطانين. ومن ثم زار قبور كل من السلطان مراد الأول، ومحمد جلبي، ويلدرم بيازيد، حيث وزّع الكثير من الصدقات عن أرواحهم أيضاً.

وتوجه بعد ذلك لزيارة ولي الأولياء؛ حضرة أمير البخاري، وحظي بصحبته والاستماع إلى حديثه. وقد نال شهرة واسعة بكرمه، حيث أرسل العطايا والمنح إلى كل رجال العلم والدين والأولياء الذين في بورصة.

وبعد أن اجتاز المضيق من جاليبولي، اتخذ طريق إدرنة. وقبل وصوله المدينة بمسافة قليلة، ذهب وفد من خيرة رجال الجيش والدولة وأعيان المدينة لاستقباله. حيث تمتّ مرافقته إلى القصر الفخم الذي خصص له في المدينة، وسط ترحيب وحفاوة بالغين. وخصصت له ولائم ومكارم في أبهة تليق بمكانة الدولة العثمانية وفخامتها. قضى يعقوب بيك يومه الأول في هذا المنزل الذي يسر الخاطر والناظر. وفي اليوم التالي أقبل أعيان المدينة ورجالات الدولة، وهم في أبهى الحلل، من أجل مرافقته للقاء السلطان، والذي منحه السلطان حصاناً من أجود الأحصنة التي يزخر بها إسطبل القصر، حيث زيّن سرجه بالذهب والأحجار الكريمة. وقد امتطى الضيف صهوة حصانه، وتوجه مع مرافقيه إلى دار السعادة.

وحين اقتربوا من قصر السلطان، خرج مراد الثاني بنفسه، من أجل استقبال

الضيف والترحيب به. وقد تبادلا التحيات، وعبارات المديح والترحيب كصديقين قديمين. فقد كان تمتين علاقة الصداقة القديمة التي تجمعهما، باللقاء وجهاً لوجه، مدعاة لتقويتها، ودعمها بصورة أكثر عمقاً.

وقد استمرت ضيافة السلطان، وترحيبه بضيفه على هذا المنوال لعدة أيام، حيث أظهر خلالها كرم ضيافته واحتفائه الذي يليق بالسلاطين والملوك. وفي كل مناسبة كان السلطان العثماني يظهر كرماً وعطاء يفوق الوصف، وقد وقع هذا الأمر في نفس الضيف أحسن موقع.

أخيراً، حين جاء يوم الوداع، أعاد السلطان توزيع الهدايا الباذخة على يعقوب بيك ومرافقيه، بالإضافة إلى مجموعة من أفضل الخيول الأصيلة التي في إسطبل القصر.

وفي طريق عودة يعقوب الثاني إلى بلاده، عاد ليوزع الصدقات والعطايا على كل من صادفه في طريقه من محتاج، امتناناً لكرم السلطان وحسن ضيافته. وحين وصل جاليبولي، أرسل للسلطان يقول له: «لم يبقَ معنا شيء يسدّ احتياجاتنا في الطريق، حبذا لو يرسل لنا شقيقنا بعض المال».

وقد قال السلطان مراد لرجالاته ممازحاً: «لقد منّ الله تعالى علينا بأخ، لا تكفي كل أموال خزينته وخزينتنا لتأمين احتياجاته...» وقد أرسل له كمية كبيرة من الذهبيات.

وبعد مرور عام من وصول يعقوب الثاني إلى إمارته في كوتاهيا، وقع مريضاً. وحين اشتدّ عليه المرض، أرسل إلى السلطان مراد الثاني رسالة، أبلغه فيها أنه يورثه بلاده بعد أن توافيه المنية. واستناداً لهذه الوصية دخلت ولاية غرميان تحت حكم العثمانيين في سنة 1428. وكان أول والٍ عليها من قبل السلطان هو عثمان جلبي أومور بيك أوغلو.

كان هذا التصرف بمثابة رسالة قوية من يعقوب الثاني، لبقية إمارات الأناضول من أجل التجمع حول راية موحدة. فحين رأى عدالة السلطان

العثماني، وقوة إيمانه، وتفانيه في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وحسن معاملته لرعاياه، أدرك أنه ما من موجب للانقسام والتشرذم والعداوات، والخضوع للأعداء واستجداء المدد منهم.

كانت مستنقعاً في ما مضى

رغم انشغال السلطان مراد الثاني بالحروب والفتوح، فإنه كان مهتماً بالحركة العمرانية، وتشييد ما يلزم من المرافق التي تؤمن راحة رعاياه وسلامتهم. وكان يحرص على بناء الأوقاف والمرافق العامة في الأماكن التي تشغلها مستنقعات، أو في أماكن مقفرة، من أجل استثمارها، والتخلص من مضارها في الآن ذاته. وشكّل ذلك دافعاً لتطوير المنطقة اقتصادياً واجتماعياً.

ولم يكن الموقع الذي بني فيه جسر أوزون كوبور[1] (الجسر الطويل) في زمن مراد الثاني، سوى غابة مليئة بالمستنقعات، تشكل مرتعاً للخارجين عن القانون، ومخبأ للصوص. وبين الفينة والأخرى كان هؤلاء يغيرون على المسافرين والعابرين، حتى ضاق الناس ذرعاً بهؤلاء الأشقياء الذين يعيثون فساداً. حتى وصلت شكاويهم ومطالبهم بحل المشكلة إلى مسامع السلطان نفسه. ولأنه كان يعتبر مهمته الأولى هي حل مشاكل رعاياه، وتأمين راحتهم، فقد تحرك على الفور صوب المنطقة، ليقف على حقيقة الأمر بنفسه، ويجد الحل الناجع. وقد كان القضاء على هذا المأوى الآمن، وذي الطبيعة الخلابة، ضربة قاصمة للصوص الذين ساءهم الأمر كثيراً.

لذا أمر المعماري مصلح الدين، ببناء جسر فوق مياه نهر إرغنة عام 1428. وقد تلقى توجيهاً خاصاً يشير بمنحه كل ما يلزم من تكاليف مقابل عملية البناء،

(1) بلدة تابعة لمحافظة إدرنة سميت بهذا الاسم لأن الجسر الذي بني عليها كان أطول جسر حجري في ذلك العصر، وهي تقع على ضفة نهر إرغنة.

وكانت مهمته الأولى تقتضي تمهيد المكان المحيط بالجسر المزمع بناؤه، فقام بتنظيف الغابة بادئ الأمر. ومن ثم شرع في بناء جسر وصل طوله إلى 1392 متراً، وعرضه يتراوح بين ستة أمتار وثمانين إلى تسعين سنتيمتراً، حيث كان إضافة لحله كثيراً من المشاكل، تحفة معمارية أيضاً.

وقد أسس السلطان مراد على أحد طرفي الجسر مجمعاً عمرانياً يحوي جامعاً، وخاناً ليرتاح فيه المسافرون، ومدرسة. ومع مرور الزمن أنشئت الحمامات والمحال التجارية في المكان. وفي وقت قصير ازدهرت الحركة العمرانية على جانبي الجسر، وتم إنشاء سوق كبيرة على أحد طرفيه، لتلبية احتياجات الناس. وقد دعا السلطان مراد كل من في إدرنة، من علماء ورجال دين، أغنياء وفقراء، لحضور حفلة تدشين الجسر. وقام بتوزيع أول وجبة طعام بيده للمدعوين، كما أشعل شموع الجامع بنفسه، وأغدق الكثير من العطايا والهدايا على العلماء ورجال الدين. كما أنه أجزل العطاء للمعماري ومن عمل معه، ووزع ما لا يُحصى من النقود على الفقراء والمحتاجين.

وبذلك وبعد مرور أقل من خمسة عشر عاماً على بناء الجسر، نشأت حاضرة عمرانية في المكان، تحفل بكثير من النشاطات الاجتماعية، والمؤسسات الثقافية، وقد أصبحت مدينة جميلة أطلق عليها اسم إرغنة عام 1443. وحين أعلن السلطان إعفاء البلدة من دفع الضرائب، انتقل الكثير من أعيان المنطقة للسكن فيها، وبذلك اتسعت وازدهرت بسرعة قياسية.

وكان هذا الجسر العظيم (أوزون كوبرو) الذي بناه السلطان، سبباً في نشوء هذه البلدة، والتي سميت على اسم الجسر فيما بعد، والتي دشنها السلطان بنفسه، وسط احتفال مَهيب.

فتح سالونيك

سيطر السلطان يلدرم بيازيد (بيازيد الأول) على مدينة سالونيك عام 1394، ولكن بعد معركة أنقرة[1]، ورغبة أمير سليمان[2] التقرب من الإمبراطور تُركت لسيطرة البيزنطيين.

وبعد أن انتهى السلطان مراد من القضاء على تمرد مصطفى جلبي، أرسل تورهان بيك على رأس جيش، حيث قام بحصار سالونيك[3]. وحين أدرك سكان المدينة أنهم لن يتلقوا أي مساعدة من بيزنطة، أرسلوا سفراءهم إلى البندقية، وقد عرضوا عليهم الخضوع لسيطرتهم، مقابل دفاعهم عن المدينة. وقد وافق البنادقة على هذا العرض المغري، أولاً لأسباب تجارية، وبسبب غنى المنطقة بالموارد البشرية الأمر الذي سيدّر عليهم كثيراً من الفوائد.

وتحت شرط بقاء سكان المدينة أوفياء في ولائهم في ظل كل الظروف، قام البنادقة بدفع خمسين ألف دوكا[4] من أجل شراء حاكمية المدينة. وقد قام أهالي المدينة بعزل الطاغية أدرونيكوس الذي كان مريضاً، وفيما كانوا يلوحون له مودعين بعد أن قرروا إرساله إلى مورا، مع أحر التمنيات بقضاء حياة سعيدة، كانوا يهللون مستقبلين الحاكم الجديد عام 1423.

ولأسباب عدة لم يلعب السلطان مراد دوراً في عملية تداول السلطة الغريبة هذه. فقد كان مشغولاً في تلك الفترة بالقضاء على المتمرد جونيت إزمير أوغلو، ومن ثم في عام ألف وأربعمئة وستة وعشرين توجه نحو منطقة

(1) أكبر معركة في القرون الوسطى من حيث حجم الجيشين والنتائج، ووقعت بين القائد التتري تيمورلنك والسلطان العثماني بايزيد الأول وأدت، لأول مرة في التاريخ العثماني، إلى أسر السلطان وموته، ودخول السلطنة في عهد الفترة الذي كاد أن يقضي عليها.

(2) أو سليمان جلبي، أمير عثماني، ولاه تيمورلنك إمارة مانيسا.

(3) كانت إحدى ولايات الدولة العثمانية ما بين عامي 1867 إلى عام 1913 والتي تغطي اليوم إجزاء من أراضي اليونان، مقدونيا وبلغاريا.

(4) عملة ذهبية تعود للبندقية، وكانت على درجة عالية من النقاء.

آياسلوغ، حيث استقبل سفراء جزر لسبوس (ميدلي)[1] ورودس[2] وخيوس[3]، ليجدد معهم المعاهدات القديمة.

وكان سفراء البنادقة أيضاً ينتظرون السلطان، فقد كانوا راغبين في الحصول على موافقته لحكمهم سالونيك، ولكن السلطان رفض أن يقابلهم. وحين عاد إلى إدرنة، جاء وفد من البنادقة لمقابلته. وقد خاطب السلطان الوفد الذي كان يطالب بموافقته على حكم المدينة بالقول: «سالونيك هي ملكية ورثتها عن والدي، وقد استطاع جدي العظيم بيازيد بفضل قوته وسواعد جيشه أن يأخذها من الروم. ولو كان الروم من أعادوا السيطرة عليها الآن، لربما وافقت على الأمر. ولكنكم لاتينيون أتيتم من إيطاليا، فما الذي دفعكم لفرض وجودكم هنا؟ وها أنا أنذركم؛ إن لم تنسحبوا من هناك بإرادتكم، فسأتجه نحوكم على رأس جيشي للتو».

وإزاء هذا الرد الحاسم من السلطان انسحب السفراء، دون الحصول على ما يبتغون. لذا توجهوا صوب البيزنطيين، يطلبون وساطتهم لحل مشكلة سالونيك. وقد اعتبر مراد الثاني، إرسال الإمبراطور سفراء لأمر مماثل، طلباً غريباً. وأخبرهم لو أنَّ المدينة أصبحت تحت سيطرتهم، لسمح بذلك، ولكنه لن يقبل أبداً أن يقوم اللاتينيون بالتدخل في مناطق تعود للطرفين.

وفي شهر شباط من العام 1430، أنهى مراد الثاني تجهيزاته، لحملة كبيرة سيقودها باتجاه سالونيك، حيث قام بحصار القلعة في بداية شهر آذار. وقد حاول البنادقة الدفاع عن المدينة بكل ما أوتوا من قوة، ولكن تحت وطأة

(1) وتكتب أيضاً مدللي في بعض المصادر – هي ثالث أكبر جزيرة يونانية وتقع في شمال بحر إيجة.

(2) هي جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط. تعرف الجزيرة تاريخياً بكونها موقع وجود تمثال أبولو رودس سابقاً، وهو إحدى عجائب الدنيا السبع. تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص.

(3) خيوس هي جزيرة يونانية في بحر إيجة. تعتبر خامس جزيرة في اليونان وهي تبعد 7 كم عن الساحل التركي.

الهجمات العنيفة، وبعد إعلان الهجوم العام الذي انضم إليه مراد الثاني بنفسه، في التاسع والعشرين من آذار، تمكن جنوده من تسلق أسوار القلعة وفتح أبوابها، حيث تمت السيطرة عليها.

وبعد أنّ تم الفتح، ومن أجل إرجاع الأهالي إلى المدينة، سمح مراد لكل من استطاع افتداء نفسه من الأسر، بالعودة إلى بيته وممتلكاته في المدينة. وقد أحضر بعض المواطنين الأتراك من مدينة يانيتسا[1]، وأسكنهم المدينة، وبفضل الحركة العمرانية النشطة تحولت سالونيك قبل مرور وقت طويل، إلى حاضرة ترك-إسلامية مزدهرة.

متاع ساحات الوغى

اعتاد المجريون على الدوام، لعب دور الحامي لكل من الأفلاق وصربيا، واعتبارهما من المناطق التابعة لهم، كما كانوا في كل فرصة يزعزعون علاقاتهما مع الدولة العثمانية. لذا رأى مراد الثاني، أنه حان الوقت لتلقين المجريين درساً قاسياً.

ولكن إبراهيم بيك قرمان أوغلو، الذي استطاع بمساعدة العثمانيين، التخلص من عمه علي بيك، بدأ بالتمرد والخروج عن طاعة السلطنة. فبعد أن وطد مكانته وحكمه، أخذ يستغل الفرص في محاولة لاستعادة بعض الأراضي التي استولى عليها العثمانيون. وقد تحالف مع حاكم صربيا، وحكام المجر ضد العثمانيين. وأخذ يعتدي على مدن حميدلي وبيه شهير، وتمكن من أسر الوالي شاراب دار إلياس بيك.

وفي الوقت ذاته بدأ المجريون بالتحرك، حيث قاموا بضرب قلعة غولومباج، في مدينة غوفرجينليك[2]. وبدل توجه السلطان لمقاتلة قرمان

(1) مدينة يونانية، ومركز لبلدية تقع في شمال البلاد ضمن مقاطعة بيلا، التابعة لمنطقة إقليم مقدونيا الوسطى الإدارية. وقد كانت هذه المدينة مركزاً لفتوحات العثمانيين في البلقان.

(2) -بلدة قريبة من مدينة بودروم التركية الواقعة على ساحل المتوسط.

أوغلو، بقي في إدرنة من أجل متابعة الجبهتين. فأرسل سنان باشا والي ولاة روميلي على رأس القوات المتجهة لمحاربة المجريين، وحين وصل الباشا إلى تخوم قلعة غولومباج، وعلم أن أعداد جيش العدو تفوق جيشه بأضعاف، أدرك أنه لن يستطيع فك الحصار عن القلعة، فتوقف.

ولكن سنان بيك حاكم فيدين[1]، الذي كان محارباً في غاية الشجاعة والبأس، حيث طبّقت سمعته الآفاق كفارس لا يهزم، أخذ يتململ من هذا الانتظار، فقام باستدعاء رجالات الجيش إلى خيمته بحضور سنان باشا والي ولاة روميلي، وخاطبهم بالقول: «ألا أيها الرجال، لقد قمنا بخيانة السلطان».

ولكن كلماته هذه وقعت موقعاً سيئاً في نفس سنان باشا، الذي اعترض قائلاً: «ما هذا الكلام الذي تقوله؟».

«لو لم نكن خونة، لما بقينا منتظرين دون حراك هنا، وقد سيطر العدو على قلعة السلطان، إنّ هذا الانتظار والتردد ما هو إلا خيانة للسلطان. وقد تكون هذه دلالة على ضعف إيمانك، فلا يمكن أن تدّعي الدفاع عن أرض المسلمين وممتلكاتهم، ونحن نرى الكفار قاب قوسين أو أدنى من إحراق القلعة والسيطرة عليها. وإن كان العدو كثير العدد، فالله سبحانه وتعالى قادر على مساعدة جنود المسلمين. ومن لم يدرك أنّ متاع ساحات الوغى هو الجرأة قبل العتاد، والبأس قبل العدد، فلا مناص من خسارته. فالتردد والقلق هما أول خطوات المحارب على طريق الهزيمة».

وقد ردّ عليه سنان باشا مؤنباً، بعد أن ساءته هذه الكلمات: «إنّ هذه الأراضي تقع ضمن حدود ولايتك، وكان عليك أن تعرف كيف تحميها من الكفرة، وتملك معلومات كافية عن قوتهم، لذا فأنت سبب تأخرنا في الهجوم. فكيف لنا أن نبدأ الهجوم، ونحن لا نملك المعلومات عن عددهم وعدّتهم،

(1) فيدين بالإنجليزية، هي مدينة بلغارية تقع على ضفاف نهر الدانوب في شمال غرب بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية الصربية.

وإن هاجمناهــم ففــي ذلــك هلاكنا جميعاً. وإن كنــت صادقاً فيما تدعيه، عليك أن تزودنــا بأخبــار وافيــة عــن الأعداء. وإن كنــت محنكاً كما تقول، فقم بعملك بشكل صحيح. إن جرح النبال يشفى مع الزمان ويُبلى، ولكن جراح الكلمات تبقى أبد الدهر فلا تُسلا».

إلا أنّ ردّ سنان باشا، لم يترك في نفس الحاكم سوى الحنق، حيث انبرى بالقول: «وما نفع المعلومات والجواسـيس بعد أن تذهب القلعة، وطلبك هذا هو التخاذل بعينه، فيما مدافع العدو تهزّ الأرض تحت حوافر خيولنا. ولكنني أعرف ما يجب عليّ فعله». ومن ثم خرج، وجمع حوله فرسـانه الذين يدينون له بالولاء مخاطباً: يا أسـود سـاحات الوغى، هذا نداء: إن كنتم تبغون القتال، لنجاهد في سبيل الله، ولنذق العدو الموت والأهوال، ولنتضرع لله قلباً وروحاً، ليعلي راية الدين الحنيف حتى الجبال، فلنهجم على الكفار قلباً واحداً، ولندك جنـود العـدو تحـت النعال، وليكـن الهدى نور دربنا، فإما الشـهادة وإما النصر والإجلال، ولا نفع باقٍ في دنيا الفناء، ولا بقاء فيها إلا لصالح الأعمال، فلنفنِ العمر في الجهاد، ولنجعل راية الكفر إلى زوال».

وقد دبّت الحماسـة في قلوب أولئك الفرسـان الذين سـمعوا كلمات هذا المحارب الشـجاع، ولم يعودوا مبالين بقوة الأعداء وكثرتهم. كما تحرك بقية أمـراء روميلـي للحـاق بحاكم فيدين. وحين رأى سـنان باشـا، أنّ معظم جنوده أيضـاً قـد لحقـوا بالمتوجهيـن للقتال، أدرك أن عـدم انضمامه إليهم لا مبرر له. وبذلك ترأس بقية القوات، وانطلق مُغيراً على المجريين.

فـي تلـك الليلـة، لـم يترجـل فارس عن صهـوة جواده، ولم يترك السـيف مـن يـده ولـو لبرهة، وكما الشـمس التـي تلهب الظهور بسـياط نيرانها، انقضّوا كشـعلة مـن النـار على الأعداء، وباغتوهـم قبل أن يدركوا ما الذي يجري. وقد فرّ معظمهم كما تفرّ الحمامة من انقضاض النسر، واضطر الكثير منهم أن يرموا بأنفسـهم فـي ميـاه نهر الدانوب هربـاً. ومن لم يغرق في مياه هذا النهر العميق،

مات بضربة سيف أو أصابه سهم.

ورغم نجاة ملك المجر بعد أن ألقى بنفسه في النهر، إلا أنّ معظم كبار قادته قد وقعوا في الأسر، وغنم العثمانيون الكثير من العتاد والسلاح، وكان ذلك عام 1433.

فهو عبدك العاجز

وعلى وقع أخبار النصر، انطلق السلطان مراد في حملة إلى الأناضول ليُغِير على أمراء قارمان، تاركاً ساروجا باشا ليدير الأمور في إدرنة. وقد تمكن من السيطرة على آك شهير[1]، قونيا، بيه شهير، وسيدي شهير، ووصل حتى بوزكِر. ورغم أنّ إبراهيم بيك، حاكم قرمان قد لجأ للاحتماء في تاشيلي[2]، لكن القوات العثمانية لحقت به إلى هناك أيضاً. وقد أعلن السلطان في هذه الأثناء عيسى بيك حاكماً على المنطقة، وهو أحد أمراء قرمان الموالين له، والذين كانوا برفقته.

وحين رأى إبراهيم بيك، أن لا مناص من قرار السلطان في تعقبه، أرسل رجل الدين الجليل، الشيخ حمزة، ليتوسط له لدى السلطان ويطلب منه العفو. وقد قابل السلطان، الشيخ الجليل الذي كان من أكثر رجال الدين علماً ومعرفة ومكانة، ببالغ الحفاوة والإكرام.

وبعد أن دعا الشيخ للسلطان بطول العمر، والنصر على الأعداء، مدح عدله ورحمته الواسعة، وهو يطلب منه العفو عن قرمان أوغلو الذي أعلن أنه مخطئ، ويريد التوبة، بالقول: «إن قرمان أوغلو هو أحد الرعايا الذين ربتهم عائلتكم، ومهما بلغ شأنه وعلت مكانته، فهو عبدك العاجز، وصلة القرابة التي تجمع بينكم، تجعل مكانته أقرب إليكم من باقي الولاة. أجل، لقد ارتكب خطأً

(1) مدينة تتبع لمحافظة قونيا.

(2) أحد الأقاليم الجغرافية السبعة في تركيا، يقع على ساحل المتوسط.

بالخـروج عـن طاعتكـم، ولكنه يطمع فـي طيبة قلبكم، وكرم أخلاقكم. فلو لم يرتكب العبد إثماً، فكيف لجلال العفو بالتجلّي! وهو نادم على ما ارتكبه، تائب عـن أخطائـه. وقـد تعهـد عهـداً لا رجعة فيه، بالوفاء لكم، والبقـاء عبداً مطيعاً، لا يخالف لكم أمراً ما بقي حياً. وسينسـحب من ولاية حميد بشـكل تام، ولن يقـوم بـأي اعتـداء على ما يمسّ سـلطتكم. ولن يعتـرض على أي مكان يختاره السلطان لكي يوليه عليه.

وما أرجوه منك يا مولاي، ألا تغلق سبل الأمل والعفو في وجه رعاياك، وألا أخرج محزوناً مكسـور القلب، من الباب الذي دخلته بكل أمل». وأنشـد يقول:

إن كان سلطانك كريماً فأي شيء في الدنيا تريدُ
فإن أنت زدت الخطايا ظلّ هو في العفو يزيدُ

تأثر السلطان جراء هذه الكلمات التي صدرت من الشيخ الجليل، وأجابه بالقول: «يا شيخنا الجليل! إن نكث هذا الرجل بوعوده، وقيامه بالاعتداء على عرض وأرض المسلمين، ما هو إلا خصلة ورثها عن أجداده بكل أسف. وأنا لسـت مقتنعـاً بصـدق توبته وندمـه، ولا بالتزامه بالوعود التـي يقطعها. ولكنني سـأعفو عنـه هـذه المـرة أيضاً تقديراً لمقامك لا أكثـر. إلا أنني وكما وليته على هذه الإمارة، سـأقوم بعزله، وتعيين أخيه عيسـى قرمان، الذي أظهر الإخلاص في خدمتنا، بدلاً منه».

ولكـن الشـيخ ظـلّ يرجو السـلطان من أجل ألا يعزلـه، ويبقيه في منصبه، وقطع وعداً للسـلطان، بأنّ إبراهيم بيك لن ينكث بعهوده هذه المرة، فما كان من السلطان إلا الموافقة والإذعان. وقد تمّ الاتفاق على العفو عنه في حزيران سـنة 1434، شـرط إعادة الأراضي التي كان قد سـلبها من العثمانيين. وفي تلك الأثناء تلقى السلطان خبر قيام المجريين بالاعتداء على المناطق الواقعة بالقرب

من ألاجاحيصار[1]، فأيقن أنه قد استعجل بالعودة.

حملة إنغوروس[2]

بعد عودة السلطان مراد من حملته على بلاد قرمان، تلقى من إسحاق بيك، والي سنجق أوسكوب، تقريراً مفصلاً عما يجري في منطقته. وقد ذكر الوالي في تقريره، أن قرمان أوغلو، قد اتفق مع ملك المجر بوساطة من ملك صربيا، والذي يشكل طرفاً ورأساً للفتنة في هذا الحلف المشترك.

وعلى إثر ذلك، تقرر تجهيز حملة والتوجه نحو صربيا. وحين أدرك حاكمها جورج برانكوفيتش خطورة موقفه، أرسل رسولاً إلى السلطان يبلغه أنّ جهاز عرس ابنته التي كان قد وعده بتزويجها إليه قد أصبح جاهزاً، وعرض عليه الإرسال في طلبها. وبعد أن تناقش السلطان مع أركان دولته، قرروا إحضار العروس حالياً، ومن ثم انتظار الوقت المناسب من أجل تلقين والدها الطاغية درساً مناسباً. وقد توجهت زوجة إسحاق بيك مع اثنين من نساء القصر هما ريحان وأورنِك، إلى سمنديرة (سميديريفو)[3] من أجل إحضار العروس. وقد استقبلهن الملك الطاغية أحسن استقبال، وأكرم ضيافتهن أحسن إكرام. وعادت القافلة إلى إدرنة مع الكثير من الهدايا، وجهاز العروس الضخم.

ولكن السلطان مراد الذي كان ناقماً على الطاغية، لم يولِ هداياه أي اهتمام، ولم يسمح بإقامة عرس للعروس، مبرراً ذلك بالقول، إنه ما من داعٍ لإقامة عرس لابنة أحد الكفرة. وبعد أيام عدة، حمّل العروس أضعاف ما أحضرته معها من هدايا، وأرسلها إلى بورصة، وذلك عام 1435. حيث كان يجهز حملته التي سيقودها نحو المجر.

فما إن عاد من حملته على قرمان، قام بإرسال علي بيك إفرِنوس أوغلو

(1) مدينة كروسيفاتش، تقع وسط صربيا.

(2) إنغوروس هو الاسم الذي أطلقه العثمانيون على بلاد المجر.

(3) مدينة تقع وسط صربيا.

على رأس جيش نحو بلاد المجر. وقد انطلق علي بيك بناء على أوامر السلطان، عام 1436، على رأس حملة تضمّ فرسـان روميلي الأشـداء، وسـار دون توقف لمـدة أربعيـن يومـاً، حتى بلغ بلاد المجـر وأغار على أراضيها، وعاد مع غنائم وافرة. وأبلغ السلطان أنّ فتح المنطقة سيكون أمراً يسيراً بسبب الأضرار المادية التي لحقت بها.

وفي ربيع العام 1437، وبعد أن وضع السلطان أسس الجامع الجديد في إدرنـة، بـدأ المعماريـون ببنائـه، ووزع الكثير من العطايـا والهبات على العلماء ورجال الدين والفقراء والدراويش، حيث أخذ الجميع يبتهل إلى الله، من أجل نصـرة السـلطان فـي حملتـه على المجر، والتي قادها بنفسـه، حيـث اجتاز نهر الدانوب بالقرب من سميديريفو، ودخل ترانسيلفانيا.

وبناء على دعوة السلطان التحق ملك الصرب؛ برانكوفيتش، وملك الأفلاق فلاد دراكول، مع قواتهما بالجيش العثماني. ورغم توغلهم حتى مدينة سيبيو[1]، لم يلتقيا بالعدو. فحين علم المجريون بقدوم السلطان مراد، قاموا بترك قراهم ومدنهم، وفرّوا هاربين. وبعد أربعين يوماً من قرع طبول الحرب، دون أن يلتقي السـلطان بـأي مـن أعدائـه، وتمكن خـلال هذه الفترة من فتـح بعض الحصون والقلاع التي صادفها في طريقه، عاد إلى إدرنة وسـط ابتهاج عارم، وذلك بعد أن أرسل علي بيك إفرِنوس أوغلو على رأس جيش نحو ألبانيا.

فتح صربيا وحصار بلغراد

لـم يكـن السـلطان مـراد راضيـاً عـن تحـركات ملـك الصـرب الطاغيـة برانكوفيتش، فقد كان يتلقى تقارير متواصلة عن محاولاته التآمر مع المجريين. ولم يكن راضياً عن تصرفاته في الحملة الأخيرة، لذا قام بدعوته إلى إدرنة حال

(1) مدينة تقع وسط رومانيا عاصمة محافظة سيبيو في إقليم ترانسيلفانيا.

وصوله إليها. وقد أمره أن يحضر معه مفاتيح عاصمته سميديريفو معه.

ولكن برانكوفيتش لم يأخذ المفاتيح، ذلك أنه لم يذهب إلى إدرنة، واكتفى بإرسال أحد أبنائه فقط. وإزاء هذا الوضع أدرك السلطان أنه من أجل ضبط بلاد المجر بصورة أكبر، لا بدّ له من فتح سميديريفو، لذا بدأ بتجهيز حملته على صربيا. وقد تفاجأ برانكوفيتش من رد فعل السلطان، فترك هناك ابناً آخر من أبنائه يُدعى غريغوفار، وغادر مصطحباً معه ابنه الذي يدعى لازار، ليذهب إلى إمبراطور الألمان، وملك المجر ألبرت.

وبعد حصار دام ثلاثة أشهر استطاع مراد الثاني الدخول إلى قلب صربيا، وأسر غريغوفار ابن الطاغية برانكوفيتش الذي كان يدافع عن القلعة حيث أرسله إلى إدرنة، وهناك تمّ أخذه بعد سمل عينيه مع بقية إخوته، الذين كانوا رهائن السلطان إلى قلعة توكات.

كان دراكول أمير الأفلاق أيضاً موجوداً في سميديريفو لدى حصارها، وقد تمّ أسر اثنين من أبنائه، وأخذهما إلى قلعة إميت في كوتاهيا، وبهذه الطريقة استطاع الأمير العودة إلى بلاده.

وفي هذه الأثناء، عاد الغازي إسحاق بيك- الذي كان بحسب المصادر التاريخية، على الدوام أسد ساحات الوغى، لا يتوانى عن دفع النفيس والغالي في طريق الجهاد- من أداء فريضة الحج وانضم إلى الجيش. وقد كلف السلطان إسحاق بيك، بفتح قلعة نيكوبول، فتوجه الأخير نحو منطقة نوفوبردو[1] المشهورة بثروتها الحديدية. ورغم أنّ المنطقة قد تمّ السيطرة عليها من قبل موسى جلبي، ولكن بسبب تغير الظروف خلال حكم محمد جلبي، فقد تمّ تركها لستيفان لازاروفيتش. وقد استطاع السلطان السيطرة على القلعة في وقت قصير، حيث تحولت إلى أهم المناطق التي تزود الجيش العثماني بالعتاد لعقود متعاقبة.

---

(1) تتبع لمدينة جيلان شرق كوسوفو في جمهورية كوسوفو.

ومن جهة أخرى فقد تلقى إسحاق بيك أخباراً تشير إلى هجوم وشيك للمجريين عليه، بسبب حصاره لقلعة نيكوبول، وعلى إثر هذه الأخبار أمر بأن يستعدّ جنوده، فرساناً ومشاةً. ولكن الجيش المجري كان من الضخامة بحيث ضاقت الأرض والسماء عن استيعاب أعدادهم. وبعد أن قام إسحاق بالتشاور مع عثمان بيك بن أومور بيك ابن تيمورتاش باشا، وأخذ رأيه، تم الاتفاق على الهجوم على المجريين وسط أصوات التكبير وقرع الطبول. وقد استطاعوا سحق جنود الأعداء تحت حوافر الخيل التي هجمت عليهم كسيل جارف. كما تمكن رماة السهام العثمانيون المهرة، من ثقب دروع وخوذ جنود العدو. وحين أدرك المجريون أن لا قبل لهم بالصمود والدفاع عن أنفسهم انسحبوا على الفور. ولكن أشاوس روميلي لم يكونوا ينوون ترك الفارين وشأنهم، فقد تمكنوا من القضاء على الكثيرين منهم قبل أن يتمكنوا من الهرب بعيداً. وتمكن المهاجمون من عبور نهر سافا[1] إلى الضفة الأخرى ودخول أرض المجر، حيث قاموا بتدمير الكثير من ممتلكاتهم، وعادوا بغنائم وافرة.

وفي هذه الأثناء توفي إمبراطور الألمان وملك المجر ألبرت، وبدأ الصراع على استلام عرشه في بوهيميا[2]. لذا حاول السلطان استغلال الأمر لصالحه، والسيطرة على قلعة بلغراد التي كانت تحت نفوذ المجريين. فقام علي بيك إفرِنوس أوغلو بحصار القلعة براً، ومن جهة النهر أيضاً، وبعد مدة وجيزة، أقبل السلطان بنفسه يرافقه جيش ضخم، من أجل الانضمام للحصار.

كان المسؤول عن حماية القلعة راهب يدعى زوفان، وقد استمر ضرب القلعة بالمدافع والمنجنيقات لأيام متوالية. حيث تمكن الجنود بعد هجمات ضارية من اختراق أحد الخنادق التي كانت تحيط بالقلعة، وفتح ثغرة مكّنتهم

---

(1) هو نهر يخترق كلًا من سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك وصربيا. يعتبر أحد روافد الدانوب حيث يصب فيه في العاصمة الصربية بلغراد.

(2) منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى. تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى من جمهورية التشيك.

من الدخول إلى المدينة، ولكن المدافعين عن القلعة أجبروهم على الانسحاب نتيجة السهام وكرات النار التي انهمرت عليهم.

وفي نهايات الحصار، تولى ملك بولونيا فلاديسلاف عرش المجر، وقد راسل السلطان مراد من أجل رفع الحصار، الذي استمر رغم ذلك. وبعد مرور ستة أشهر أدرك السلطان أنه لن يصل إلى نتيجة، فقرر رفع الحصار عن المدينة، وذلك في العام 1439. حيث قام العثمانيون برمي القلعة بالكثير من قذائف المدافع الكبيرة والصغيرة.

إيوان دي هونيدوارا [1]

رغم رفع الحصار عن بلغراد ظلت الصدامات مع المجريين متواصلة. وقد دخل مزيد بيك، مع جيشه في الثامن عشر من آذار العام 1442 إلى ترانسيلفانيا، حيث تمكن من إلحاق الهزيمة والهوان بقوات بيسكوبوس جورج ليبس في موقع يقال له سِنت إيمريه. وفي هذه الأثناء توجه إيوان دي هونيدوارا – الذي يطلق عليه في المصادر العثمانية اسم يانكو – برفقة صديقه سيمون دو جيميني، لمناصرة القلعة المحاصرة. وقام مزيد بيك برفع الحصار عن القلعة، من أجل الذهاب لمواجهة جيش هونيدوارا، حيث هجم مع فرسانه المعروفين بالبأس والجسارة على العدو، واستطاع أن يقتل ثلاثة آلاف جندي بمن فيهم سيمون دو جيميني.

وقبيل ترديد أهازيج النصر، خرج جنود هيرمانتشاد من القلعة، وانضموا للقتال. وهذا ما جعل الجيش العثماني في وضع حرج جداً، حيث أصبح محاصراً من الأمام ومن الخلف أيضاً.

(1) ولد في مدينة هونيدوارا غربي البلاد عام 1387، قائد عسكري روماني ممثل المملكة الهنغارية منذ 1446 – 1452، أحد حكام منطقة ترانسيلفانيا التاريخية الرومانية منذ عام 1441 حتى وفاته. كانت معاركه مع العثمانيين سجالاً وعلى الرغم من أنه انتصر عليهم مرات كثيرة وضايقهم كثيراً، إلا أنه هُزم أكثر من مرة قبل مراد الثاني ومحمد الفاتح، توفي أثناء حملة عسكرية ضد القوات العثمانية.

وفي تلك الأثناء سقط مزيد بيك صريعاً، فيما كان يحارب الأعداء بشجاعة قل نظيرها. ومع استشهاد مزيد، خسر الجنود قائدهم، وتشتتوا وأجبروا على الفرار والهرب. وهذا ما أدى إلى فناء المهاجمين.

أما إيوان دي هونيدوارا الذي أمر بوضع ولائم النصر في ساحة القتال بالذات، فقد كان يأكل طعامه من جهة، ومن جهة أخرى كان يراقب قتل الجنود الأتراك الذين تمّ أسرهم، بوحشية بالغة.

وقد استشهد ابن مزيد بيك أيضاً في هذه المعركة التي بلغت فيها خسائر الجنود الأتراك أكثر من عشرة آلاف جندي.

وبعد النصر، اجتاز هونيدوارا كزل كولى وجبال الألب متجهاً نحو الأفلاق. وقام بنهب وتخريب جميع الأراضي التي كانت تحت نفوذ الأتراك على ضفتي نهر الدانوب. وحين عودته استُقبل من قبل مواطنيه، كبطل قومي مخلص للبلاد. كما أنّ هذا النصر المفاجئ الذي حققه هونيدوارا، جعلت شهرته تشيع في كل أوروبا.

ويصف لنا هامّر[1] الهدايا التي أرسلها هونيدوارا إلى حاكم صربيا بعد الانتصارات التي حققها، والطريقة التي قدمت فيها على الشكل التالي: «لقد كان هونيدوارا مثل جنوده، شخصاً متعطشاً للدماء، وقد أرسل عربة تجرها عشرة خيول، مليئة بالأسلحة والغنائم، بالإضافة لرأس كل من مزيد بيك وابنه. وقد أُرغم عجوز تركي على الجلوس فوق هذه الغنائم الغريبة، ليقدمها بنفسه إلى برانكوفيتش».

إنْ هرب القائد

عندما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان مراد، شعر بحزن شديد، وقد كان لخبر وفاة مزيد بيك، أثر بالغ على الجميع. فجمع السلطان رجالاته، وخاطبهم

(1) جوزيف فون هامر: 1774–1856 مؤرخ وسياسي نمساوي، وخبير في شؤون الشرق.

بالقول: «ما الذي علينا فعله بعد هذه الخسارة، وكيف نستطيع تعويضها؟ ما الذي يجب أن نتخذه بحق هؤلاء الكفرة الذين تجاوزوا كل حدود؟».

وقد اقترح عليه والي ولاة روميلي شهاب الدين باشا (والذي يلقب أيضاً بكول شاهين باشا)، السماح له بقيادة حملة نحو الأفلاق، ليأخذ بثأر الجنود المسلمين الذين استشهدوا. وحين رأى السلطان إصرار شهاب الدين باشا وعزمه، أعطاه قيادة الجنود الموجودين في روميلي، وستة سناجق في الأناضول، وكلفه بمهمة الأخذ بثأر مزيد بيك. وقد توجه الجيش نحو بلاد الأفلاق في شهر أيلول من العام ذاته.

وحين لم يواجه شهاب الدين باشا، أياً من الأعداء أثناء توغله في روميلي، أخذ يكدّس الغنائم جذِلاً، ويقضي جلّ وقته في اللهو والتسلية. وقد حذره قادة الجيش، ومن معه من أركان الدولة بالقول: «ليس من الصواب في شيء عقد مجالس اللهو في ديار غريبة، كما أنّ الأخبار التي تصلنا، تشير إلى أنّ العدو يجمع قواته. لذا يجب علينا توخي الحذر». ولكن تحذيراتهم لم تلقَ آذاناً صاغية. حيث ردّ عليهم بغرور واستعلاء: «إنّ جنود الأعداء ما إن يسمعوا باقترابي منهم، حتى يفروا خوفاً وذعراً. ولكن سيفي القاطع، يخيم فوقهم كغيمة ستمطر دماء حتى تغرقهم. وإن كنتم تقارنون بيني وبين مزيد، فلا خوف عليكم، لأنكم طالما بقيتم تحت ظلال حمايتي، فما من كافر يجرؤ على الاقتراب».

وبينما كان يردد هذه الكلمات الرنانة على مسامع قادة الجيش العثماني، كان هونيدوارا يقترب منهم، على رأس جيش قوامه خمسة وعشرون ألف جندي. وقد تعاهد مع جنوده على النصر أو الموت دون ذلك. وأشارت الأخبار القادمة من بلدة وازاج والتي تقع في القسم الشمالي من الأفلاق، أنّ العدو بات قريباً جداً، وأنّ أعدادهم ضخمة. وقد تضعضعت ثقة الباشا الذي لم يكن ينتظر قوة بهذا العدد الكبير. وأمر بالانسحاب على الفور من الموقع الذي كانوا فيه. وقد اعترض قادته على الأمر بالقول: «ليس من الشجاعة في شيء،

الانسحاب أمام الكفرة. ولو بدأنا بالفرار، فلن ينجوا جنودنا من سنابك خيول الأعداء. كما أنه من المبكر التفكير في الهرب، والسيوف في أغمادها، وما من نقطة دماء قد أُريقت بعد».

في كل مجلس كنت تتبجّح شجاعة وبأسا
فما لك تهرب ولم تشهر السيف والترسا.

لقد كانوا يرمون من هذه الكلمات القاسية، إثارة حمية شهاب الدين باشا، علـه يتراجـع عـن قراره بالانسـحاب. ولكن الخوف الذي عشّـش في قلبه كان أقوى من أن تقتلعه أي كلمات. فبعد منتصف الليل، انطلق هارباً لينجو بنفسه، دون أن يعير مكانته وسمعته أدنى اهتمام. وكان يسأل فيما هو هارب، إن كان نهر الدانوب بعيداً، أم قريباً منه؟

وقـد قـرر والـي كوتاهيا عثمان جلبي بن أومور بيك– والذي كان من قادة الجيـش ومعروفـاً بشـجاعته التي خولته الانتصار فـي العديد من المعارك– مع بقية القادة الصمود ومهاجمة العدو، بعد أن سـاءهم هرب شـهاب الدين باشـا، واعتبـروا الأمـر خيانـة لا تُغتفـر. وعند بزوغ أولى خيـوط الفجر، وتبيّن الخيط الأبيـض مـن الأسـود، اسـتل الجنـود سـيوفهم وانطلقـوا منقضين علـى العدو كالسـهم. ومع شـروق الشـمس وتوسطها كبد السـماء، كان القتال بين الطرفين على أشـده، وسـاحة الوغى تفور وتغلي. ولكن خبر هرب قائد الجيش كان له وقع سيئ جداً على معنويات الجنود، بحيث بدأ الكثيرون منهم بالفرار واللحاق به مع اشتداد وطيس المعركة. وكانت النتيجة أن استشهد خمسة عشر قائداً من خيرة قادة الجيش ورجالات الدولة بمن فيهم عثمان بيك. وقد سيطر المجريون على الكثير من القلاع والسناجق التي أُجبرت على الرضوخ.

عمّ الخراب واليأس، فقد كانت خسارة العثمانيين أكبر من تلك التي لحقت بهم أمام أسوار هرمانشتاد[1]. وكان من ضمن من وقع شهيداً من القادة: فيروز

(1) تقع هذه المدينة إلى الشمال الغربي من بوخارست في رومانيا.

بيك، يعقوب بيك موزاك أوغلو، خضر بيك وعمر بيك.

وقد كان لانتصار هونيدوارا في كل من هرمانشتاد ووازاج، أعظم الأثر على انتشار سمعته كالنار في الهشيم في جميع أنحاء أوروبا بوصفه قائداً لا يُهزم، وبالتالي اقتنعوا بأنهم عثروا على الرجل الذي سيقود الحملة الصليبية.

إنها الفرصة الأنسب

قام البابا يوجينوس الرابع بالتحرك على الفور من أجل عقد حلف بين الدول الأوروبية، وقد انضم كل من المجريين والصرب والقوميين في الإمبراطورية الألمانية، بالإضافة إلى الفرنسيين والبلجيكيين، إلى هذا الحلف بحماس بالغ.

انطلق هذا الجيش الصليبي من بودين[1]، في الثاني والعشرين من تموز عام 1443. وكان المتطوعون يلتحقون به في كل مدينة وبلدة يمرّ بها. وحين اجتاز نهر الدانوب بالقرب من سميديريفو، كانت أفواج المتطوعين تلتحق به من صربيا وبلغاريا، والبوسنة وألبانيا. ورغم أنّ الإمبراطور يوحنا كان يظهر للسلطان أنهما حليفان، ولكنه أرسل سفراءه إلى ملك المجر محملين بالنقود وبتأكيدات أنه يبارك هذه الحملة الصليبية، وأنه يقف إلى جانبهم ويدعمهم.

كما أنّ أمراء قرمان الذين تمكنوا من البقاء على عروشهم بعد العهود والوعود بالولاء للسلطان، قد انضموا إلى هذا الحلف، حيث أرسلوا سفراءهم إلى ملك المجر، برسالة هذا فحواها: «هاجمهم من الأمام، ونحن سنهاجمهم من الخلف، بحيث تصبح روميلي لك، والأناضول لنا، لكي نجتث جذور العثمانيين من هذه الأرض، ونسيطر على كل الممالك الخاضعة لهم».

وكان اثنان من أهم القادة يترأسان هذا الجيش المشترك هما؛ المحارب

(1) تسمية كانت تطلق على القسم الجنوبي من العاصمة المجرية بودابست، ولكننا سنستمر بذكرها بالاسم الذي اعتمده المؤلف لدلالته التاريخية.

الفذّ إيوان دي هونيدوارا، وفلاديسلاف ملك بولونيا والمجر. وبالإضافة إليهم كان هناك ملك صربيا الطاغية جورج برانكوفيتش الذي التجأ إلى المجر، ودراكول أمير الأفلاق، ووكيل البابا الكاردينال جوليان سيزاريني أيضاً.

وكان هونيدوارا يتقدم الجيش باثني عشر ألف جندي من خيرة المحاربين. وبينما كان السلطان مراد يتعقب أخبار الحملة الصليبية بقلق بالغ، بعد الهزيمة التي مني به جيشه في وازاج، ويتداول مع قادته ورجالات دولته حول ما يجب فعله، وصلته أخبار مفجعة من الأناضول. فقد بدأ إبراهيم بيك قرمان أوغلو الذي انضم للحلف الصليبي بوساطة من حاكم صربيا برانكوفيتش، بنكث العهود، والتنصل من الوعود التي قطعها للسلطان، وأخذ يُغير على الأراضي والممتلكات العثمانية.

وقد أخذ الجيش الذي أرسله بقيادة حسن بيك تورغوت أوغلو، يغير على كل من بولفادين وبيه بازرى وسيت غازي[1]، وأنقرة، وكوتاهيا، ويعيث خراباً وفساداً في الأرض والعرض. وتمكن من احتلال آك شهير، وبيه شهير. وقد لاقت العوائل المسلمة الهوان، وذاقت الذل والموت على أيديهم. وقد أوضح النشري[2] في تاريخه، ما حدث بالقول: «وفي المحصلة فقد ارتكبوا من الفظائع في المناطق التي وطأتها أقدامهم، بحيث لا يقدم الكافر على ارتكابها بحق أعدائه».

وعلى إثر ذلك، قام السلطان مراد بإرسال ابنه علاء الدين علي، والي أماسيا على رأس جيش لمحاربة قرمان أوغلو، وقد لحق به هو أيضاً بعد أن جهّز جيشه، وجمّع قواته. وقام بتسليم قيادة روميلي إلى قادته.

وقد أظهر الأمير علاء الدين علي الشاب، شجاعة وجرأة تفوق عمره بمراحل، أثناء محاربته لقرمان أوغلو. فاستطاع التقدم حتى قونيا، ودارندة،

(1) بلدات ومدن في تركيا.

(2) محمد نشري مؤرخ عثماني توفي العام 1520.

بعد أن فاجأ قرمان أوغلو بهجومه السريع الذي سحق قواته. ولم يجرؤ إبراهيم بيك قرمان أوغلو على مواجهته، بل لاذ بالفرار محتمياً بجبال سارب. وعلى الفور أرسل هيئة من رجالاته لمقابلة السلطان مراد الذي كان على مشارف قونيا، عارضاً عليه الصلح.

ولأن السلطان كان يراقب تحركات الجيش الصليبي الذي يزداد عدداً يوماً فيوم، لم يكن راغباً في تشتيت قواه على جبهة الأناضول، لذا قام بقبول شروط الصلح. وقد تمّ توقيع التحالف الذي نصّ على إعادة الأراضي التي احتلها إبراهيم بيك، ومن ثمّ انطلق السلطان على وجه السرعة، عائداً على إدرنة. وقد رافقه ابنه علاء الدين حتى حدود بورصة ومن ثمّ عاد إلى إمارته في أماسيا.

من جهة أخرى بعد أن دخلت قوات هونيدوارا إلى صربيا، قامت بإحراق كل من كروسيفاتش[1]، شهيركوي[2]، ونيش[3]. كما أسروا أهالي هذه المدن، ونكّلوا بهم موتاً وحرقاً.. وكان هدفهم الوصول إلى زلاتيتزا[4]، ومن ثم إلى فليبة[5] ومن هناك الوصول إلى إدرنة، من أجل السيطرة على المنطقة برمتها.

أيام عصيبة على العثمانيين

في شهر تشرين الأول من العام 1442، دخل الصليبيون الأراضي العثمانية، وحدثت أول مواجهة بين الطرفين بالقرب من نيش على ضفاف نهر موروفا. وبالرغم من أنّ الجيش العثماني الذي كان تحت قيادة قاسم باشا والي ولاة روميلي، قد حارب بثلاثة ألوية لكنه تعرض للهزيمة. حيث بلغت الخسائر ألفي

---

(1) مدينة وبلدية في وسط صربيا.

(2) مدينة تقع في جنوب شرقي صربيا.

(3) ثالث أكبر مدينة في صربيا بعد بلغراد ونوفي ساد وأكبر مدن جنوب صربيا.

(4) بلدة صغيرة تقع وسط بلغاريا.

(5) أو بلوفديف: ثاني أكبر مدن بلغاريا بعد العاصمة صوفيا. وهي أكبر وأهم مدن منطقة تراقيا التاريخية، تقع جنوب البلاد.

قتيل، وأربعة آلاف أسير.

وحين وصل السلطان مراد إلى إدرنة، بلغته أخبار عبور الجيش الصليبي نهر الدانوب بقيادة هونيدوارا وملك المجر فلاديسلاف، بالإضافة لحاكم صربيا، وبدأوا بالاستيلاء على الأراضي العثمانية، وكان ذلك في شهر تشرين الأول العام 1443 ولكن الخبر الذي زعزع كيانه، هو ذاك الذي وصله من أماسيا. فقد تعرض ابنه الأمير علاء الدين علي - الذي أبدى بطولة كبيرة في مواجهته لأمير قرمان، وعاد ظافراً من حملته عليه - للمصير ذاته الذي تعرضه له جده سليمان قبلاً، حيث وقع عن صهوة جواده في إحدى رحلات الصيد، ولقي حتفه.

وعلى وقع هذا الخبر المؤلم تحرك السلطان من إدرنة متجهاً نحو صوفيا، حيث علم بالخسارة التي تعرض لها جيشه على ضفاف نهر موروفا، فاضطر للانسحاب إلى جنوب البلقان. أما الجيش الصليبي، فقد تمكن من السيطرة على بلغاريا، وأخذ صوفيا. وكان البلغار يدعمون الجيش الصليبي بالرجال وبالمؤن والعتاد أيضاً.

وتوجه الجيش الصليبي الذي ازدادت قوته، نحو جنوب البلقان. ولكنهم كانوا مجبرين على اجتياز طرقات جبال البلقان الوعرة ومعابره الضيقة. وعندما أدركوا أن هذه المضائق تقع تحت سيطرة الأتراك، شعروا بالخشية من العبور. وحين ولجوا مضيق ترايان في جبال البلقان وذلك في كانون الأول من العام 1443، وجدوه مغلقاً بسبب الصخور الكبيرة، والسيول التي تنهمر من قمم الجبال والتي غطاها الثلج، بحيث تحول الطريق إلى كتلة جليدية يصعب عبورها، لذا تخلوا عن الفكرة. وأجبروا على التحول إلى مضيق زلاتيتزا، الذي يكون عادة أقل وعورة.

جهز السلطان مراد الذي يراقب تحركات الصليبين ويعلم بوجهتهم، تحضيراته على الطرف الآخر من معبر زلاتيتزا. وفي المجلس الحربي الذي عقده، اقترح قاسم باشا والي ولاة روميلي الهجوم عليهم، فيما كان رأي تورهان

بيك الانسحاب وانتظار الوقت المناسب للانقضاض عليهم، أما عيسى بيك إفرِنوس أوغلو فقد فضّل البقاء من أجل الدفاع في حال اقترابهم، وبالنتيجة تمّ ترجيح رأي عيسى بيك.

وفي الرابع عشر من كانون الأول وقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين في مضيق زلاتيتزا. حيث كان جنود الطرفين يخوضون وسط الثلوج، وكانوا يستخدمون كتل الثلج والصخور التي تنهمر عليهم من قمم الجبال كأسلحة في معركتهم.

وقد تمكن المجريون من عبور المضيق، بعد أن نصبوا كميناً للجنود العثمانيين الذين كانوا يترصدونهم هناك. أما على جبهة سفوح جبال كوني بيجة فقد تمكن الصليبيون من إحراز النصر بعد أن نال منهم التعب والإرهاق. وكانوا ينوون قضاء الشتاء في وادي توبلِجا (كوزلو ديري) الواقعة بين فيلبة وأتولوكوي، ولكن بسبب قسوة الشتاء، والنقص الذي عانوه في المؤن ووسائل التدفئة، اضطروا للانسحاب مخلفين ورائهم الكثير من عتادهم. فكانوا من جهة مضطرين لمواجهة ظروف الشتاء القاسية، ومن جهة أخرى مواجهة الضربات التركية التي لم تكن لتتركهم بسلام، وهذا ما كبّدهم الكثير من الخسائر. وكانت أهم مشاكلهم هي تأمين قوت لكل أولئك الجنود.

وفي المحصلة اضطروا للانسحاب، وحين رأى القادة الأتراك ما جرى، ظنوا أنّ العدو يهرب، وبموافقة من السلطان قاموا بمطاردتهم. وحين علم القائد المحنك هونيدوارا أنهم يتعقبونهم، ضاعفوا سرعة مسيرهم. ورغم أنّ تورهان بيك راودته الشكوك في أن يكون هناك كمين ما في الأمر، وأشار لتوخي الحذر، لكن والي ولاة روميلي قاسم باشا تغاضى عن هذه التحذيرات، وأخذ يلاحق العدو بالسرعة ذاتها. ولكنه حين وصل مضيق نيش، تفاجأ بنفسه محاصراً من كل الجهات، حينها أدرك حقيقة ما يجري.

لقد سقط عدد كبير من جنود الجيش العثماني الذي حوصر من الطرفين

شـهيداً، كما تمّ أسـر الكثير من خيرة رجالات الجيش وقادته. وكان ضمن من وقعوا في الأسـر، والي بولو محمد بيك تشـاندرلي زاده شـقيق الصدر الأعظم خليل باشا وصهر السلطان في الوقت ذاته. أما قاسم بيك الذي استطاع النجاة بنفسه مع عدد قليل من رجاله، فقد اتهم تورهان بيك بأنه سبب هذه الخسارة بسـبب قلـة اكتراثـه، وعـدم تقديـم معلومات كافية عن العدو، وقام بحبسـه في قلعة توكات.

عاد السلطان مراد الذي تعرض لسلسلة من الهزائم المؤلمة، والتي خسر فيها خيرة قادته ورجال دولته إلى إدرنة بقلب ملؤه الأسـى والحزن. وكأن كل مـا حصـل لـم يكـن كافياً، فقد قـام أمراء قرمـان الذين وصلتهم أخبـار الهزائم التي تعرض لها الجيش العثماني بنقض عهودهم كعادتهم، والحنث بوعودهم، وشنوا هجمات متلاحقة على الأراضي العثمانية، حيث عاثوا فيها خراباً وتدميراً أشد وطأة من كل ما قاموا به من قبل.

وبدأ السلطان يشعر بنفسه واقعاً في متاهة من الهلاك لا مهرب منها. وقد لجـأ إلـى رجـال الديـن وأهل العلم يطلب منهم المشـورة حول: «ما حكم أمير من أمراء مسلمين، قام بنقض الوعود وتراجع عن الأيمان التي حلفها، ووضع يده في يد العدو الكافر، ضد السـلطان الذي على دينه، والذي يريد نشـر كلمة الحق في أرجاء العالـم، فعاث جنده خراباً وقاموا بتدمير الأراضي التي تخضع لحكم السلطان؟».

لقد كانت الصدمات تتوالى على السـلطان مراد الثاني، فمن الهزائم التي لحقـت بجيوشـه علـى يـد الكفرة، وخسـارته لابنه علاء الديـن، الذي مات في ريعان شـبابه، إلى التناحرات والمؤامرات التي كانت تنشـب بين بطانته ورجال دولتـه، والاعتـداءات التـي تتعرض لها دولته الإسـلامية من كل الجبهات، فلم تعد به رغبة في مواصلة الحكم. لذا أمر بإحضار ابنه الأمير محمد والي مانيسا إلى إدرنة.

أمـا الصليبيـون فقـد كانوا ينـوون تعزيز انتصاراتهم وتوسـيعها، وقد بدأوا يحشـدون قواهم من أجل هجوم محتمل في الربيع. ولم يتوقف قرمان أوغلو عـن اعتداءاتـه. لذا، وجد السـلطان أن أنسـب الحلول هـو الجنوح نحو الهدنة والسلم.

صلح إدرنة سيغدين[1]

بواسطة من ملك صربيا، جورج برانكوفيتش تمّ عرض الصلح على ملك المجر، وقد أبدى فلاديسلاف موافقته، حيث قام بإرسال وفد إلى إدرنة.

وافق السـلطان على اسـتقبال سـفراء ملكي صربيا والمجر، بعد يومين من وصولهـم إدرنـة، وذلـك فـي الثاني والعشـرين من آذار العـام 1444. وفي اليوم التالي قام السلطان مع وزرائه بمناقشة العرض الذي قدّمه السفراء. وبعد مرور ثلاثة أيام، تمّ إبلاغهم بالموافقة على الشـروط التي جاؤوا بها. وفي اللقاءات التي تلت اسـتقبال السـلطان للسـفراء، حصلت مناقشـة حامية بخصوص قلعة غلوبـاك[2] وبسـبب إصرارهـم على تخلـي العثمانيين عن هـذه القلعة، وصلت المناقشات إلى طريق شبه مسدود. ولكن السلطان مراد آثر التراجع عن موقفه، ووافـق علـى طلب السـفراء، وتعهد بتحقيق مطالبهـم، وتـم توقيـع المعاهدة في الثاني عشر من حزيران عام 1444.

وقد كانت المعاهدة التاريخية التي وضع السلطان مراد الثاني أيضاً قسماً من شروطها، تنص على إعادة ممتلكات الحاكم برانكوفيتش التي سيطر عليها العثمانيـون، بالإضافـة لإطلاق سـراح أبنائه، وفي المقابل سـيعود برانكوفيتش إلى وضعية التبعية التي كان عليها من قبل. كما سـتواصل الأفلاق دفع الجزية للسـلطنة العثمانيـة، ولكنهـا سـتصبح تحـت نفوذ المجر. وسـيتم إخلاء قلعتي

(1) مدينة زيجيد وهي رابع أكبر مدن المجر، تقع في جنوب البلاد.
(2) بلدة تقع في الشمال الشرقي من صربيا، على ضفاف نهر الدانوب.

غلوباك وسميديريفو، حيث ستُعاد إلى الصرب. وسيتم افتداء محمد جلبي تشاندرلي زاده الذي وقع أسيراً بيد جنود برانكوفيتش، وذلك بعد دفع سبعين ألف دوكا. وستستمر هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات. ولا يسمح للعثمانيين ولا للمجريين بالاعتداء على أراضي الطرف الآخر، بل عليهما مواصلة العيش كجارين صديقين.

وكما وقّع السلطان مراد بنفسه على هذه المعاهدة أمام السفير ستويكا، فقد أرسل سليمان بيك سفيراً باسمه للحصول على توقيع الملك بشكل شخصي. وهكذا، بعد أن أخذ سفراء الملك نسخة المعاهدة التي عليها ختم السلطان الشخصي، انطلقوا برفقة سليمان بيك بالطا أوغلو الذي ترأس هيئة الوفد العثماني، متجهين نحو مدينة زيجيد في المجر برفقة مئة من الفرسان.

في هذه الأثناء كان حلفاء المجر السياسيين منقسمين إلى فريقين، أحدهما يطالب بالصلح، والآخر باستمرار الحرب. وقد كان إمبراطور بيزنطة والبابا من أشدّ أنصار استمرار الحرب، وقد عرض البنادقة على الملك، في حال استمر في الحرب، الاشتراك فيها إلى جانبه، ووعدوه بإرسال أسطولهم إلى مضيق جناق قلعة[1]، ما دعم موقف المطالبين بالحرب.

وفي المقابل كان حاكم الصرب الذي استعاد مملكته وفق معاهدة إدرنة، يحاول إقناع الملك بعدم جدوى استمرار الحرب، لأنّها قد تجر عواقب وخيمة عليهم بدل مزيد من المكتسبات، ويعمل على إقناعه بتوقيع المعاهدة. كما كان هونيدوارا أيضاً من مناصري الهدنة ولو بشكل مؤقت. وبذلك وقّع الملك فلاديسلاف على المعاهدة في زيجيد، وذلك في الثاني عشر من تموز العام 1444، وسلمها للوفد التركي. وأقسم أمام العثمانيين على كتابه المقدس أنه لن ينقض شروط الصلح.

(1) أو مضيق الدردنيل: وهو ممر مائي دولي يربط بحر إيجة ببحر مرمرة ويفصل المضيق ما بين شاطئ آسيا الصغرى وشبه جزيرة جاليبولي في الجانب الأوروبي وهما من الأراضي التركية.

الفتاوى بخصوص أمير قرمان

بعد أن وقّع العثمانيون معاهدة الصلح، واستطاعوا التقاط أنفاسهم، وصلت إلى السلطان من العالم العربي، فتاوى من أكبر شيوخ المذاهب الأربعة وأكثرهم علماً ومعرفة، بخصوص قرمان أوغلو. وكانت أكثرها قسوة تلك التي أصدرها الشيخ ابن حجر العسقلاني، إمام المذهب الشافعي، والفقيه المعروف بسعة علمه وتبحره. فقد أفتى الشيخ بوجوب محاربة إبراهيم بيك قرمان أوغلو، على كل من له القدرة على ذلك، واعتبر قتله أمراً لا بدّ منه.

كما أنّ كلاًّ من شيخ الإسلام وقاضي القضاة، وإمام المذهب المالكي؛ بدر الدين الطونوسي، وإمام المذهب الحنبلي وشيخ الإسلام وقاضي القضاة، بدر الدين البغدادي، قد أفتيا بوجوب قتل إبراهيم بيك أيضاً.

أما المفسر الكبير، والفقيه المشهور؛ قاضي القضاة وشيخ الإسلام، الشيخ سعد الدين الديري، فقد أفتى بقبول توبة إبراهيم بيك، إن هو توقف عن اعتداءاته وتاب عنها، ولم يعد للتحالف مع الفرنجة، ومدّ الجيش العثماني بالرجال والسلاح وقت الحاجة، ولكن ما لم يتقيد بهذه الشروط، فهو قد خسر الدنيا والآخرة معاً.

وبناء على هذه الفتاوى التي تلقاها السلطان مراد من أهم رجال الدين والفقه في العالم الإسلامي، فقد جمع جيشه بعد شهر من معاهدة إدرنة، وذلك في ربيع العام 1444، وترك ابنه الأمير محمد والي مانيسا على عرش السلطنة. وانطلق نحو جناق قلعة، ليدخل أراضي قرمان وذلك في الثاني عشر من تموز من العام نفسه. ولأن السلطان كان يدرك خطورة الأوضاع في روميلي، فقد اكتفى باصطحاب ما يقارب الستة آلاف إنكشاري، وبعد انضمام جيوش الأناضول إليه، لم يترك الجيش في القرى والأماكن التي مرّ بها، حجراً فوق حجر.

وإزاء هذا الانتقام العثماني، لم يجد إبراهيم بيك الذي أصابه خوف عظيم، سوى الهرب إلى تاشيلي. ولأنه كان يدرك بأن السلطان لن يتوقف عن ملاحقته

هذه المرة، فقد أرسل زوجته التي هي شقيقة السلطان، مع وزيره سرفر آغا، من أجل التفاهم مع السلطان. وقد بكى كلاهما، وترجيا مراد الثاني كثيراً، وأبلغاه موافقته على كل ما يشترطه. وقد خاطبته شقيقته بالقول باكية: «طالما أنك كنت تنوي القدوم وتحطيم بيتي، فلماذا زوجتني إليه من الأساس؟». أما سرفر آغا، فقد أوضح للسلطان أنّ ما جرى كان بفعل تحريض من أمراء أسرة تورغوت، وأن إبراهيم بيك لا علاقة له بما جرى، وأخيراً تمكن الاثنان من إقناع السلطان بقبول الصلح.

وبالإضافة للوعود التي قطعها إبراهيم بيك، فقد أُجبر على الموافقة على شروط السلطان القاسية، وفق تعهد خطي.

وبحسب المصادر، فإن هذه المعاهدة خُطت باللغة التركية، وأقسم إبراهيم بيك فيها على القرآن الكريم بأنه لن يقوم بأي تحرك معادٍ للسلطنة العثمانية. وسيعتبر أعداء السلطان مراد خان بن السلطان محمد جلبي أعداء له، وأصدقاء السلطان أصدقاءه، كما تعهد أنه وفي حال دخول العثمانيين في أي حرب، سيرسل قواته لمؤازرتهم، وذلك بقيادة ابنه. وقد بدا من رضوخ إبراهيم بيك لهذه الشروط، أنه راغب في تخليص سمعته واسمه في العالم الإسلامي، بعد تلك الفتاوى التي ظهرت بحقه، والتي عرضته لعار كبير.

من أنا أيها العالم الفاني

بعد أن عفا السلطان مراد الثاني مرة أخرى عن قرمان أوغلو، عاد مع جنوده إلى بورصة، وبعد مكوثه هناك أياماً عدة بغرض الراحة، ذهب إلى وادي ميهاليج، حيث استدعى رجالاته، وقائد خضر آغا الجيش الإنكشاري، وخاطبهم قائلاً:

«اسمعوني جيداً أيها القادة والباشوات، لقد كنت أنا سلطانكم حتى هذه اللحظة. واعتباراً من الآن، سيكون سلطانكم الجديد هو ابني. ذلك أنني سأمنح

ابني تاجي وعرشي، وكل سلطتي. فهو سلطانكم الجديد».

وحين أدرك قادته ورجالاته أنه مصمم على قراره، ولن يتخلى عن فكرة تولية ابنه الشاب العرش، ولن يغير قناعته، لم يكن أمامهم من سبيل سوى طاعة السلطان والخضوع لرغبته.

ولكن ما الذي دفع السلطان مراد الثاني، إلى التخلي عن العرش بطريقة قلّ نظيرها، وما هي الأسباب التي دفعته إلى ترك السلطة لابنه الشاب؟

لقد كانت الخسائر المتتالية التي مني بها في الفترة الأخيرة، والتي كان أكثرها وقعاً في نفسه خسارة ابنه الشاب علاء الدين علي، هي ما جعلته يصاب بحالة من اليأس ويزهد في الدنيا، ويتنازل عن العرش لابنه محمد جلبي.

فقد كان موت علاء الدين المفاجئ- الذي كان في الثامنة عشرة من عمره، وإلى ذلك فارساً شجاعاً، يمتلك كل مقومات الأمير الناجح- ضربة قاصمة للسلطان مراد الثاني. فتلك الشجاعة والحنكة التي أبداها الشاب في حملته على قرمان، والنصر الساحق الذي حققه في فترة قياسية، تركت في نفس والده أعظم الأثر.

وقد جاء في وصيته التي كتبها بعد ثلاث سنوات من وفاة ابنه، ما يلي: «عليكم بدفني في بورصة إلى جانب قبر ابني علاء الدين».. والتي كانت تشير بوضوح إلى حالته النفسية، والصدمة الكبيرة التي رزح تحت ثقلها.

وبموت علاء الدين، انتقلت ولاية العهد إلى الأمير محمد، الذي كان في الثانية عشرة من عمره. وبعد الخسارة التي لحقت بجيشه في روميلي، أمر بإحضار هذه الأمير الذي كان يعدّ طفلاً حينها، إلى إدرنة.

وحين ذهب لمحاربة قرمان أوغلو، ولاه العرش نيابة عنه. وبحسب بعض المصادر التاريخية، فقد كانت رغبته في إحضار ابنه إلى إدرنة وتسليمه العرش أثناء حملته، خطوة استباقية وتحضيرية من السلطان.

ونتيجة معاهدة إدرنة وسيغدين، التي وقّعها مع دول الغرب من جهة،

والصلح الذي أبرمه مع أمراء قرمان من جهة أخرى، فقد وفرّ لدولته فترة طويلة من السلام والاستقرار.

من جهة أخرى كانت الخلافات التي نشبت بين أمراء روميلي، في حملته الأخيرة، قد أثارت قلقه ومخاوفه. ذلك أنه حين استلم العرش بعد وفاة والده محمد جلبي، انحاز أمراء روميلي إلى طرف بيزنطة، الذين أيدوا مصطفى (المحتال)، أثناء حروبه للاستيلاء على العرش. والآن فإنّ الأمير أورهان بن الأمير سليمان في يد البيزنطيين. وإن حصل له أي مكروه، فليس من المستبعد أن يقفوا في صف الأمير أورهان، ضدّ ابنه الذي ما زال صغيراً في العمر.

ولهذه الأسباب، فقد عمد السلطان إلى تسليم العرش لابنه، وجعل الشعب بالإضافة للأمير الذي يدّعي أحقيته بالعرش في إسطنبول، يتقبلونه كسلطان شرعي، بينما لايزال هو بكامل قواه وصحته. وكان من الأنسب تحقيق هذا الأمر، وهو لايزال على قيد الحياة. وبناء على هذه الفكرة، فقد تخلى مراد الثاني، عن السلطة، ليسمح للأمير اليافع باكتساب الخبرة والحنكة في الحكم، بينما لايزال الأب حياً يُرزق.

وقد نقل المؤرخون العثمانيون لنا، تنازل السلطان مراد الثاني عن عرشه على الشكل التالي: «لقد استطاع السلطان بعد سنتين من الحروب الدامية، والمخاطر التي أحاقت بدولته وعرشه، وبعد الكثير من الخسائر، أن يبرم الصلح مع أعدائه، وأن يؤمن السلام والاستقرار لدولته. وبعد تحقيق هذه الأمور، كان هناك أمر آخر يشغل باله. فبعد أن اطمأن على أمور رعاياه، وسلامة شعبه، أخذ يفكر بالتفرغ للعبادة، وقضاء ما بقي من عمره في إرضاء الله عزّ وجلّ. وعوضاً عن التاج والعرش والسلطة، فضل العزلة والزهد، وكان راغباً في صحبة رجال الدين والعلماء، زاهداً في صحبة الوزراء والقادة. لذا فقد استبدل عمامة السلطة، بعمامة الزهد، وركن للعزلة والهدوء، بدل صخب المُلك، وتفرغ للعبادة والعمل الصالح الذي هو زاد الحياة الأبدية.

وقد صارح خليل باشا، بما يعتمل في نفسه قائلاً: «اسمعني يا شيخي، لقد سعيت طوال سنوات حكمي من أجل مصالح عباد الله، ووأد الفتن في بلاد الإسلام، ومحاربة أعداء الدين والدولة. وكنت على الدوام أخوض في طريق الجهاد، وأبذل الغالي والنفيس من أجل نشر كلمة الحق أينما حللت. فعملت ما في وسعي من أجل نشر هذا الدين الحنيف. ولكن بي رغبة الآن في الابتعاد عن أمور الدنيا ومشاغل الحكم، والتفرغ لعبادة الله في عزلة وسكون.

فنحن في حضرة الحق راغبون ولا نبدلّ تبديلا

وكل تيجان العالم لا تحوّلنا عن دربه تحويلا

لقد اختبرنا الجاه والسلطة، وعرفنا أين يفضي بنا هذا الدرب. وبفضل من الله، زالت من قلبنا رغبة التمسك بالعرش والمقامات الدنيوية الفانية.

وما هذه الدنيا إلا كذبة ودار للفناء

وفي لحظاتها الهاربة ليس سوى لذكر الله من بقاء

لذا حان وقت وداع العرش والتاج، والاتجاه نحو نيل رضى صاحب العرش الذي لا ينفى ولا يزول.

إلى طاعة الله وفضله ننوي المثول

وقضاء الليل بذكر اسمه الذي لا يزول

لا رغبة لنا في تاج وملك فاني

فالموت قادم ولقاء وجهه غاية الأماني

سنجاهد ما استطعنا رغبات النفوس

لنرتوي من لدن شمس الشموس

ورغم ذلك كانت تراود السلطان بعض المخاوف نتيجة صغر سن ابنه وولي عهده. فقد كان يخشى من الأخطاء التي قد يقع فيها شاب في مثل سنه، لذا وباستثناء تورهان بيك- الذي كان يقبع سجيناً في قلعة توكات- فقد كلف جميع وزرائه ليكونوا جزءاً من بطانة السلطان الشاب.

فخليل تشاندرلي باشا بقي في منصب الصدر الأعظم، أما الشيخ ورجل الدين الكبير ملّا خسرف، فقد كُلّف بمنصب قائد الجيش.

وبذا فقد سلّم ابنه الذي كان فقط في الثانية عشرة من عمره، إلى ثلة من رجال الدولة ذوي الخبرة والحنكة.

أما هو فانسحب مع اثنين من رجاله المعتمدين، وأهل الثقة هما؛ إسحاق باشا، وحمزة بيك، للانزواء في منطقة قريبة من بورصة، من أجل التعبّد.

ولكن هل سيتمكن السلطان حقاً، من تحقيق رغبته في التفرغ لعبادة الله وطاعته، دون قلاقل أو منغصات؟ أم سيتحقق القول القديم «لا مفرّ من أفراح وأتراح هذه الدنيا الفانية»..؟

لقد فقد ابن عثمان عقله

حين أعلن السلطان مراد الثاني اعتزاله العرش وتعيين ابنه محمد الثاني، قام هذا الأخير بمراسلة سلطان مصر المملوكي الظاهر سيف الدين جقمق، وبقية حكام العالم الإسلامي، وعلى وجه الخصوص أمراء عائلة تيمور بقرار السلطان. وقد كان انسحاب رجل في حنكة مراد الثاني وقدرته من السلطة، وتسليم العرش لابنه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، سبباً في تحول أنظار جميع ملوك العالم ورجالات الحكم نحو الدولة العثمانية مرة أخرى.

وبدأ الأوروبيون على وجه الخصوص، يتباحثون في كيفية انتهاز هذه الفرصة وتجيير الوضع لصالحهم. أما إبراهيم بيك، وبسبب الأيمان والعهود التي قطعها آخر مرة، لم يقم بأي تحرك فعلي لانتهاز الفرصة، واكتفى بمراسلة حلفائه القدامى ليبلغهم عن الأوضاع داخل السلطنة، وأنها الفرصة المناسبة من أجل التحرك.

وقد ورد في الرسالة التي أرسلها إلى ملك المجر: «لقد فقد ابن عثمان (مراد الثاني) عقله. ولم يعد قادراً على التفكير بشكل صحيح. ذلك أن لوثة

مـن الجنـون قـد أصابتـه، فهو يقضي جلّ وقته في صحبة النسـاء، ويسـهر حتى الصبـاح برفقـة الـكأس مـع ثلة من بطانته وندمائـه. وقد ترك العرش لابنه الذي لا يزال طفلاً، لكي يدير أمور دولته ويشرف على شؤون رعاياه. وسيكون من السـهل عليكم هزيمة هذا الشـاب الذي يفتقر إلى الحنكة والقدرة، إن أعلنتم الحـرب عليـه. فهـو نبتـة يافعة طرية العـود، لم يخض من قبل معركة ولم يمتطِ جواداً في ساحات الوغى. ولم تصقله السنون بالخبرة والدراية. ولا يعرف كيفية التصـرف، ولا تؤهلـه سـنواته القليلة تأديـة مهامه على الوجه الصحيح. والأهم من ذلك أنه لم يبلغ بعد مراقي الشـاب، وقد ترك ليدير الدولة بمفرده بعد أن تخلى والده عن السلطة وواجباتها. لذا فهي الفرصة الأنسب للتوحد والتكاتف. ذلك أنّ الانتظار والتمهل سـيمنحه فرصة النضوح واكتسـاب الخبرة والحنكة، وحينهـا لـن ينفـع النـدم. فتكرار فرصـة مماثلة هو من الصعوبـة بمكان، بل قد يكون معدوماً»..

لن ينفع الندم حين ضياع الفرصة العظيمة

والحسرة لن يزيلها شيء سوى قوة العزيمة

ومـن جهـة أخـرى فقد اعتبـر البابا وإمبراطور بيزنطة اللـذان اعترضا على صلح سـيغدين، أنها الفرصة الأنسـب التي لا يجب تفويتها. وهكذا أخذ رسـل الإمبراطـور يتجولـون في قصور ملك فرنسـا وملـك المجر والفاتيكان، ليقنعوا الجميـع بأنهـا الفرصـة المناسـبة من أجل الانتقام لهزيمـة نيكوبول، وأنه يجب عليهم التحرك على الفور وإعداد العدّة للحرب.

ومـن جهتـه فقـد أعلن البابا رفضه صلح سـيغدين، وكلف نائبه لدى ملك المجـر؛ الكاردينـال جوليان سـيزاريني، بإقناع الملك بنقـض المعاهدة التي تمّ إبرامها. ولكن الملك فلاديسلاف لم يكن راغباً في نقض الحلف، بعد أن وضع يده على الكتاب المقدس وأقسم على الالتزام. إلا أنّ سيزاريني تمكن من إقناعه بالقبول، مدّعياً أن العهود والأيمان التي تمّ قطعها مع الكافرين (المسلمين) لا

قيمة لها، وأنه في حلٍّ من تبعات نقضها. ولكن ذلك لم يمنع حصول مناقشات حامية بين حاشية الملك على اختلاف آرائهم.

وعلى إثر ذلك أعلن الملك والمجلس الملكي نقض الحلف الذي تمّ عقده مع العثمانيين، والذي لم يكن حبره قد جفت بعد، وفي الأول من أيلول أقسموا باسم الآب والابن والروح القدس، على بدء حصار أورشوفا[1].

وقد تمكنوا من إقناع هونيدوارا الذي كان معترضاً على نقض المعاهدة، بالانضمام إليهم، وذلك بعد أن وعدوه بتنصيبه ملكاً على بلغاريا التي سيستردونها من العثمانيين. ولكنه في المقابل طلب منهم تأخير الإعلان عن نقض الحلف، لحين استلام قلاع صربيا التي وعد العثمانيون بتسليمها في الأول من أيلول بحسب الاتفاق المبرم بين الطرفين، وقد وافقوا على طلبه هذا. وقام العثمانيون بتطبيق بنود المعاهدة وسلّموا هذه القلاع كما نص الاتفاق المبرم بينهم دون أي تأخير.

أما في أوروبا فقد تسبب القرار بتحضيرات كثيفة على كل الأصعدة، وأخذت التحركات تتصاعد بوتيرة محمومة وسط شعوب كرواتيا وبوهيميا والمجر وبولونيا وألمانيا والفاتيكان. كما وعد البنادقة سراً، بتقديم أسطولهم للمشاركة في هذه الحملة.

ورغم تردد البنادقة أكثر من البقية بعد الهزائم التي تعرضوا لها، إلا أنّ انتصارات هونيدوارا منحتهم بعض الشجاعة، وكانوا يأملون في حال انتصارهم الحصول على جاليبولي، وسالونيك وبعض المناطق على ساحل البحر الأسود. ولكنهم بدل رفع أعلامهم على الأسطول الذي سيقدمونه للمتحالفين رفعوا

(1) أورشوفا، مدينة جنوب غرب رومانيا تقع في محافظة مهيدينتس على البحيرة الاصطناعية المتشكلة خلف السد الحديدي على نهر الدانوب. حيث تعتبر أيضا نقطة حدودية بين رومانيا وصربيا.

أعلام الفاتيكان، وجمهورية راغوزا[1] وبورغونيا[2] على السفن، وبذلك سيظل العثمانيون على اعتقادهم بحياد البنادقة إزاء هذا الحلف المشترك.

كانت جمهورية راغوزا التي تقدم الجزية للدولة العثمانية، تأمل من انتصار هذا الحلف، الحصولَ على فلوره[3] وكانينا بعد أن يتقاسم المنتصرون حصيلة مكتسباتهم. أما الإمبراطورية البيزنطية فرغم أنها كانت تصبو إلى المنافع التي ستحصل عليها إن تمكن المتحالفون من تحقيق النصر، لكنها في الوقت ذاته كانت تخشى من الدولة العثمانية، لذا لم تصرح عن موقفها بشكل علني، ولكنها كانت تقدم لهم بالمقابل كل ما في استطاعتها من مساعدات من تحت الطاولة. وكان أكثر أسلحتها قوة وتأثيراً، هو إطلاق سراح مدّعي السلطة أورهان، ودعم مطالبه وقت الحاجة.

وعندما أعلنت الحرب، قامت بيزنطة بإطلاق سراح أورهان. وبدعم من الإمبراطور توجه أورهان إلى إينجغيز[4]. حيث كان يأمل أن ينضم إليه ولاة روميلي. ولكن حين لم يهب أحد لمساعدته، هرب إلى ديلي أورمان (لودوغوريه)[5] وأصبح حاكماً على البلقان.

وعلى إثر هذه التطورات، قام السلطان محمد الثاني بتكليف شهاب الدين باشا، والي ولاة روميلي بإلقاء القبض على أورهان. وبعد أن أحكم الباشا سيطرته على كل الطرق المؤدية إلى إسطنبول، وقام بإرسال كوج حسين

---

(1) كانت جمهورية بحرية تركزت في مدينة دوبروفنيك (راغوزا بالإيطالية واللاتينية) في دالماسيا (اليوم في جنوب كرواتيا الحديثة) والتي عاشت بين 1358–1808 ووصلت إلى ذروتها التجارية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت حماية الدولة العثمانية.

(2) إقطاعية كانت قائمة داخل أراضي مملكة فرنسا حالياً. بورغونيا وُجدت بين عامي 843 و1477 كان يحكمها دوقات بالوراثة وانتهت هذه الدوقية بوفاة شارل الجريء سنة 1477 إلى أن تم استيعاب الدوقية في التاج الفرنسي من قبل لويس الحادي عشر ملك فرنسا.

(3) فلوره هي من كبرى مدن ألبانيا وثاني ميناء في البلاد بعد دراج.

(4) بلدة قريبة من إسطنبول.

(5) منطقة شمال شرق بلغاريا، تمتد على الهضبة التي تحمل الاسم نفسه.

أوغلو على رأس حملة من أجل إلقاء القبض على الهارب. وحين رأى الأمير تدهـور أوضاعـه، فرّ من سـواحل البحر الأسـود إلى ميديـا[1]، ومن هناك توجه إلى إسطنبول مجدداً.

لقد كان إطلاق سـراح أورهان، ومطالبته بالعرش إحدى خطط إمبراطور بيزنطـة والمتحالفيـن، مـن أجل محاصرة الدولة العثمانية. ولكنه لم يجد له أي حليف، لأنه وضع يده في يد أعداء الدولة من أجل مطامعه الخاصة في السلطة. وعلاوة على ذلك فقد كان العثمانيون في تلك الفترة يخوضون حرب بقاء أو فناء ضد البلقان، لذا فقد كان الجميع ينفر من أي شخص يسبب حرباً داخلية في هذه اللحظات الحرجة.

نحو معركة فارنا [2]

حيـن عبـر الجيـش الصليبـي نهـر الدانـوب مـا بيـن الثامن عشـر والثاني والعشـرين من شـهر أيلول، ووصلت الأخبار إلى إدرنة، تسـبب ذلك في إثارة موجـة مـن القلـق والبلبلـة فـي العاصمة التي لم تكن أمورها علـى خير ما يرام بالأسـاس. فظهر خلاف جدي وانقسـامات واضحة بين الباشـوات، حيث كان رجال الدولة المؤيدون لاعتلاء السـلطان الشـاب للعرش، يطالبون بأن يترأس الحملة التي سـتنطلق لمواجهة الأعداء، وذلك من أجل تمكين سـلطته بشـكل فعلي، ويروّجون لهذه الفكرة.

أما الحزب الآخر من الباشـوات الذي كان يضم بين صفوفه خليل باشـا، فقـد اعترضـوا علـى الفكـرة، وحالوا دون تنفيذها. وكانـوا متخوفين على وجه الخصوص من احتمال وصول أسطول العدو إلى سواحل البحر الأسود. فإزاء

(1) منطقة حدودية بين بلغاريا والدولة العثمانية أيام انحسارها.

(2) فارنا هي ثالث أكبر مدينة بلغارية وهي عاصمة محافظة فارنا، وفيها ميناء مهم بالنسبة إلى البلاد، يقع في الجهة الشرقية من البحر الأسود. تسمى بالعاصمة البحرية وكذلك العاصمة الصيفية لبلغاريا.

هذا الوضع الصعب كانوا يرون من الأنسب بقاء السلطان الشاب في العاصمة، واستدعاء والده من أجل قيادة الجيش.

وقد خاطب خليل باشا السلطان محمد بالقول:

«لا قِبل لنا بمواجهة العدو ومقاومته. ولن يستطيع أحد سوى والدكم السلطان القيام بهذه المهمة، وهذا ما اتفق عليه جميع رجالاتك ووزرائك. فما من حل آخر، لذا عليك استدعائه».

ولكن السلطان محمد لم يرق له سماع هذه الكلمات، فرد على الباشا قائلاً:

«ألا يجب علينا أولاً أن نُعمِل الفكر قبل أن نقدم على التنفيذ؟ وما تشير به إنما يدل على تقصير مني إزاء واجبي».

لقد كان السلطان الشاب يرى أنه كان يجب التفكير في هذا الاحتمال قبل أن يتنازل له عن السلطنة، وأنه يجب على وزرائه العمل بما تقتضيه أصول الحكم وقواعده. ذلك أنّ ترك العروش وتبديل السلطات ليس لعبة يمكن تغييرها حينما نشاء. وبذلك كان يرمي أن يلقن وزيره الخبير والمحنك درساً. وما هذه الكلمات سوى دليل بيّن على الطريقة التي تمّ فيها تنشئة الفاتح وتحضيره للسلطة.

ولكن بسبب إجلاله واحترامه لميراث أجداده، ولأنه لم يكن راغباً في إحداث بلبلة وفتنة في ظل هذا الظرف العصيب، وافق على استدعاء والده ليستلم قيادة الجيش. ولكن السلطان مراد لم يلقِ بالاً لهذا التكليف، ورفض الأمر بالقول: «هناك من يقودكم، فليقم هو بواجبه»..

وعلى إثر ذلك، أرسل السلطان محمد رسالة أخرى إلى والده جاء فيها:

«إن كنت حقاً سلطاننا، فعليك العودة من أجل الحفاظ على دولتك ورعاياك من هجمات الكفار. وإن كنت أنا السلطان فعليك الطاعة، والقيام بما أمليه عليك. أرجو ألا تتنصّل من واجبك، حتى لا يتعرض ديننا للخطر».. وحين

وصلت هذه الكلمات المهذبة إلى يد السلطان الذي كان حتى ذلك الوقت راغباً عن العودة إلى السلطة، وقعت في نفسه أحسن موقع، وراعه الخطر الجسيم الذي يهدد دولته، فبدأ بالتحضيرات للعودة بانفعال وتأثر شديدين. وفي وقت قصير شكّل جيشاً قوامه أربعون ألف جندي، واجتاز الأناضول متجهاً نحو جاليبولي.

وحين وصل الميناء ورأى أسطول الأعداء قد سيطر على المضيق من جهة جناق قلعة، أدرك أن عبوره من هناك أمر محال. ومن أجل أن يفاجئ الأعداء، ترك قسماً كبيراً من جنوده عند مضيق جاليبولي مع السفن المجهزة لنقل الخيول، واتجه بشكل سري وسريع عن طريق كوجايلي، نحو المكان الذي يوجد فيه الآن أناضول حيصار.

في تلك الأثناء، كان خليل باشا، ينتظر مع الإنكشاريين وجنود روميلي والمدافع والجنود المدرعين في إينجغيز. وحين وصله خبر وصول السلطان إلى مضيق إسطنبول، مكث بعض الوقت لكي لا يثير شبهات العدو، ومن ثم تحرك على وجه السرعة إلى الموقع الذي يوجد فيه الآن روميلي حيصار.

وبواسطة المدافع التي أحضرها معه تشاندرلي خليل باشا، تحولت ضفتا المضيق إلى مرمى لنيران المدافع. وقد كلفت بيزنطة اثنتين من سفنها بمراقبة هذا الموقع من المضيق، وحين حاولت السفينتان منع القوات العثمانية من العبور، تعرضتا لضربات المدافع المتلاحقة. وقد تمّ إغراق إحداهما بواسطة مدافع ساروجا باشا الشهير بخبرته في هذه المجال. أما الأخرى فبعد تعرضها لأضرار كبيرة، استطاعت النجاة، والفرار بسرعة نحو إسطنبول. وبذلك تمكن السلطان مراد من نقل جنوده بواسطة السفن الجنوية، إلى الطرف المقابل دون أي مشاكل، بعد منحهم دوكا واحدة مقابل كل جندي. وما إن وطأت قدم السلطان وجنوده أرض روميلي، أجزل العطاء لقائد فرقة المدفعية ساروجا باشا الذي كان له عظيم الفضل في هذا العبور.

مـن جهـة أخـرى، قـام القبطان حمـزة بن غازي كارا عبـد الرحمن، القائد الشهير الذي قام بفتح قوجة ايلي[1]، بدعوة أهالي المناطق المحيطة بإزميت من أجل المشاركة في الحرب، واستطاع تشكيل أسطول ضخم، قام بالقضاء على أسطول الصليبيين في جاليبولي وتشتيته. وبهذه الطريقة تمكن جنود الأناضول من الانتقال إلى روميلي، والانضمام إلى الجيش. وحين وصل السـلطان مراد الثاني إلى جوار إدرنة، خرج الناس لاستقباله مهللين ومستبشرين، حيث نصب خيمته خارج العاصمة.

فلنشهر سيوفنا في وجه الكفار

في هذه الأثناء استدعى السلطان محمد وزيره خليل باشا ليطلب منه:

«أرغب في أن تقنع والدي بأن يعود للجلوس على عرشه في إدرنة لحمايتها من الأعداء في إسـطنبول، ويكلفني أنا بمهمة قيادة الجيش الذي سـيتوجه إلى المجر»..

وقد ردّ عليه خليل باشـا الذي كان يعامله معاملة أمير لا سـلطان، ويعتبر السلطان الحقيقي هو والده، بالقول:

«سمو الأمير، لست بقادر على نقل هذه الكلمات لمولانا، فالحمد لله لقد عاد سلطاننا، وبدأ منذ الآن باتخاذ التدابير اللازمة. وما يأمرنا به هو ما يجب أن يكون. كما أنّ هذا العدو، عدو ماكر، وأنت يا سمو الأمير ما زلت وردة يانعة. وما يليق بسموك فعله، هو الامتثال لأوامر السلطان، وتنفيذ ما يراه مناسباً»..

ومـن المحتمـل أنّ زاغنـوس باشـا وإبراهيـم باشـا، همـا من كانـا يرغّبان السـلطان الـذي لايـزال فـي مراتع الطفولة بقيـادة الجيش. لذا حين رأى محمد الثاني أنـه غيـر قـادر على إقناع خليل باشـا، ذهـب لملاقاة والـده وتقبيل يده، وأفصح له عن رغبته في قيادة الحملة بنفسه قائلاً:

(1) محافظة تقع شمال غرب تركيا، مركزها مدينة إزميت.

«مولاي السلطان أرجوك أن تسمح لي بالذهاب في هذه الحملة، وأن تمنحني شرف الجهاد في سبيل الدين المبين، وإشهار سيفي في وجه الكافر اللعين»..

ولكن مراد الثاني ردّ على ابنه:

«لا يا بني، لا تقل هذه الكلمات، بل قم بإطاعة ما أمرتك به. يا بني هذا العدو عدو غادر، كما أنك يجب أن تحمي عرشك من كفرة إسطنبول، فيما أقود أنا هذه الحملة»..

ومن ثمّ أخذ يدعو لابنه بأن يوفقه الله ويحفظ ملكه.

وقد ظنّ مراد الثاني أنّ خليل باشا، هو من أوعز للسلطان الشاب بهذه الأفكار، فقام باستدعائه وخاطبه موبخاً:

«يا باشا، أنت رجل محنك، صاحب حكمة وتدبير. فكيف تقوم بتحريض ابني من أجل أن يقود الجيش، ألا تعلم أنّ أعداءنا يتحينون الفرص للنيل منا وسلبنا العرش؟»..

ولكن خليل باشا، ركع أمام السلطان، وأقسم له أن لا علاقة له بالأمر، فردّ عليه مراد الثاني:

«حسناً يا باشا، بينما أنطلق في قيادة هذه الحملة، ستبقى أنت هنا في إدرنة، لكي تهتم بابني وتوجه تصرفاته وتحمي المدينة من كفار إسطنبول، وتكون يقظاً لمكائدهم. وإن استجد أي طارئ فعليك إخباري به على الفور».. وبعد أن قدّم له نصائح وافية، امتطى حصانه، ودقت الطبول، لينطلق مع جيشه على وجه السرعة.

من جهة أخرى لم يدخل الجيش الصليبي الذي انطلق في أيلول، أراضي ملك صربيا الذي رفض الاشتراك في الحملة، بل عبر أورشوفا، ووصل سهل فيدين. وبعد أن عاث الجنود خراباً وحرقاً هناك، توجهوا نحو نيغبول، حيث

انضم إليهم الملك فلاد دراكول[1] مع عشرة آلاف جندي.

وقاموا بمهاجمة قلعة نيكوبول ولكن قائد حامية القلعة، محمد بيك بن فيروز بيك دافع عنها دفاعاً مستميتاً. وفيما كانوا معسكرين أمام القلعة، كان هو يقوم بشن حملات هجوم مفاجئة عليهم، تشتت قواهم وتكبدهم خسائر جمّة. وحين أدرك هونيدوارا أنّ القلعة ستستمر في المقاومة لوقت طويل، لم يرغب بإضاعة مزيد من الوقت، وأمر قواته بالتحرك من هناك. وبذلك لم يكرر الخطأ الذي وقع فيه من قبل الإمبراطور سيجموند[2]، والفرنسي جان الشجاع. لأنه كان يرمي لإخلاء منطقة البلقان برمتها من الأتراك، والتقدم للسيطرة على إدرنة، دون أن يشتت قواه على الطريق.

وحين دخل الجيش الصليبي حدود الأراضي التركية، بدأ شهاب الدين باشا والي ولاة روميلي أيضاً بالتحرك، وقام بإحكام سيطرته على معابر جبال البلقان. وكان يتواصل في الوقت ذاته مع قائد حامية قلعة نيكوبول؛ فيروز باشا، للاطلاع على تحركات العدو وتقدمه.

وللأسباب ذاتها فقد خشي هونيدوارا اجتياز معابر جبال البلقان، فاتجه نحو وادي نهر الدانوب، ليصل من هناك إلى شواطئ البحر الأسود. وبهذه الطريقة تمكن الجيش الصليبي من اجتياز بوادي بلغاريا وقفارها، في طريق أطول من السابق ولكنه أكثر أماناً، مجاورين سفوح سلسلة جبال البلقان.

كان هونيدوارا يتقدم الجيش مع خمسة آلاف من الفرسان، ومجموعة من جنود الأفلاق. ولكن القوات الأساسية كانت تلحق بهم بقيادة الملك فلاديسلاف. وبحسب المؤرخ النمساوي هامّر، فلم تكتفِ الحملة التي تمّ تسليحها باسم السيد المسيح، بتخريب وتدمير المدن والقرى التي تمرّ فيها،

---

(1) فلاد الثالث أمير ولاكيا، أحد أفراد عائلة دراكوليشتي التي تُمثّل بدورها فرعاً من أفرع عائلة باسراب المتشعّبة، والذي اشتُهر بلقب دراكولا قبل أن يُطلق عليه اسم فلاد المخوزق (1476-1413).

(2) ملك المجر، الإمبراطور الروماني المقدس (1411-1437) وملك بوهيميا (1420-1437).

بل كانت تقوم أيضاً بإحراق وتدمير حتى كنائس الروم والبلغار في طريقها.

وحين قام الصليبيون بالسيطرة على شومون[1]، وتوجهوا نحو فارنا عن طريق بروفاديا[2]، وصلتهم أخبار عن وصول السلطان مراد إلى إدرنة على رأس جيش قوامه أربعون ألف جندي، ما أثار دهشتهم. ذلك أنهم لم يضعوا في الحسبان عبور الجيش العثماني من الأناضول إلى روميلي، وكانوا يتصورون أنّ القوات الموجودة في إدرنة ستلوذ بالفرار حال وصولهم. وعلى أثر ذلك فقد استاء الملك فلاديسلاف من إمبراطور بيزنطة الذي تبجح بالوعود قائلا: «لن أمنح ابن عثمان فرصة العبور من البحر على الإطلاق، وحين قدوم الفرصة المناسبة سأقوم بدكّ المدينة على رأس هذا الملعون». كما أنّ قيادة السلطان مراد للجيش، وهو المعروف بحنكته وخبرته الكبيرة، قد أثارت مخاوفهم، حيث أدركوا أنهم لن يتمكنوا من تحقيق غاياتهم بالسهولة التي كان يأملون.

وفي المقابل كان هونيدوارا القائد الشجاع، والذي تسبب في كثير من الخسائر للعثمانيين هو من يقود الجيش الصليبي. وحين أدرك أنّ السلطان مراد مقبل نحوه، توقف على الفور عند فارنا، من أجل ألا يتعرض لهجوم مفاجئ على الطريق، وبدأ بالاستعداد للمعركة من هناك.

غادر السلطان مراد إدرنة على وجه السرعة، وانطلق باتجاه يامبول[3] ومن ثم إلى الموقع الذي يسمى حيصارلك حيث انضم إليه شهاب الدين باشا أيضاً. وبسبب رغبة السلطان اللحاق بجيش العدو بأقصى ما يستطيع من سرعة، بدأ النزول إلى وادي نهر نادير، وفي اليوم التالي توجه نحو موقع كنيسة آلا القريب من فارنا، ومن هناك أخذ الاستعداد للمعركة. كان الإنكشاريون المعتادون على تحمل أقسى الظروف، تحت إمرته في الوسط. أما الميمنة فكانت تحت قيادة

(1) مدينة في الشمال الشرقي من بلغاريا.
(2) بلدة تقع شمال شرق بلغاريا، تابعة لمدينة فارنا.
(3) إحدى مقاطعات بلغاريا تقع في جنوب شرق البلاد.

والي ولاة الأناضول كارجا سنان باشا، أما الميسرة فقد كانت تحت قيادة والي ولاة روميلي شهاب الدين باشا.

أيا سلطان السلاطين

قام السلطان مراد بجمع رجالاته وقادة الجيش والإنكشارية، والباشوات في خيمته، وبعد أن سأل عن أحوالهم واطمأن على أوضاعهم، خاطبهم قائلاً:

«أنتم رفاق دربي في كل معركة، ولقد سبق لكم أن رفعتم سيوفكم كثيراً من المرات في وجه هؤلاء الكفار، من أجل نصرة دين الحق، وكما تعلمون فالجهاد له أجر عظيم، ومنزلة الشهداء أسمى المنازل، وطالما أنه قُدّرت لنا الولادة، فلا مفر من الموت. لذا فلنقم باستغلال هذه الفرصة التي أُتيحت لنا، ولنبذل كل ما نستطيعه في هذه الحملة، ليكون أمواتنا شهداء، أمّا أحياؤنا فيصبحون فاتحين منتصرين. فننال الأجر والثواب في كلا الدارين»..

وقد ردّ عليه قادة الجيش والإنكشارية بالقول:

«فلتطمئن يا مولاي السلطان، كلنا فداؤك وفداء هذا الدين القويم، وسنشهر سيوفنا في وجه هذا العدو الكافر كما فعلنا في الكثير من الفتوحات، ونحن مستعدون أن نضحي كلنا في سبيلك، وسبيل إعلاء كلمة الله»..

وفي تلك الليلة وبعد أن أدى السلطان صلاة العشاء، وصلى النوافل في تلك الليلة، رفع يديه بالدعاء قائلاً:

أيا سلطان السلاطين
إلهي يا قبلة الأمل وغاية كل رجاء
إلهي يا شفاء كل داء
مدداً لعبدك ونصرةً من هذا البلاء
الدمع منهمر والقلب مكسور
ولا مطلب لي سوى وصلك والرضاء

يا خالق هذه الكون العظيم
يا رب هذه الأرض ورب السماء
من سلك دربك فلا ندم
فرحمتك تغمر العصاة كما الأتقياء
بخاطر حبيبك وصفيك
ارحم عبادك فأنت نصير الضعفاء
لقد اجتمع الكفار يا رب
ولا يريدون لدين الحق الخير والبقاء
فيا رب رحمة من لدنك
ونصراً مبيناً إن كنت تشاء

وظل طوال الليل ساجداً يتضرع ويدعو الله سبحانه بالنصر لجيشه على الكفار، وفي الفجر حين انجلى الخيط الأبيض من الخيط الأسود، انطلق مع جنوده نحو الوجهة التي قصدها الأعداء.

كانت مستنقعات فارنا تحيط بميسرة الجيش الصليبي، حيث كان قسم من جنود المجر والأفلاق متمركزين هناك، وقد كان حاكم الأفلاق فلاد دراكول قائد هذه القسم بالإضافة إلى جنود كارا ميهال[1]، أما الميمنة فقد كانت تنحدر باتجاه السهل والمدينة، وتضم قسماً كبيراً من القوات المجرية وكانت اعلامهم سوداء اللون. وكانت القوات المنضوية تحت قيادة الكاردينال جوليان سيزاريني في هذا القسم أيضاً. أما الملك فلاديسلاف فقد كان في الوسط يحيط به خمسون من خيرة الفرسان من أجل حمايته، ويرفعون راية القديس جورج. وكان هونيدوارا الذي يشرف على الجيش برمته، ينتقل بين جميع الألوية والأقسام.

وقد تفاءل الصليبيون لأن يوم المعركة صادف عيد القديس سان مارتين.

(1) أو رازغراد مقاطعة في الشمال الشرقي من بلغاريا.

وكان ما يزيدهم طمأنينة وجسارة، هو ضخامة أعدادهم المشاركة في الحملة. لذا لم يكن لديهم أدنى شك في الفوز. وقد جمع الملك فلاديسلاف كل قادة الجيش، ليخاطبهم بالقول:

«اسمعوني جيداً، أريدكم حين ينهزم ابن عثمان ويحاول الهرب، ألا تنشغلوا بالغنائم ولا تتهاونوا عن اللحاق به حتى القضاء عليه، ذلك أنه لا يمكن أكل العسل ما لم تقضِ على النحل. تحلوا بالشجاعة وأحيطوا بالعدو من الجهات الأربع، ولا تمنحوه الفرصة لكي يهرب، فإن استطعنا كسرة شوكة الأتراك، لن تستطيع أي قوة أخرى الوقوف في وجهنا، لذا فعليكم بالحذر»..

وبينما كان عدد جيش العدو يناهز المئة ألف جندي، لم يكن الجيش العثماني، وبحسب أقصى التقديرات، يتجاوز السبعين ألف جندي.

الحرب

بدأت المعركة بشكل عنيف، ففي البداية تمّ تبادل إطلاق السهام المكورة من منتصفها، إشارة إلى هزيمة الطرف الآخر والقضاء عليه. وبعدها بدأت السهام التي تغادر الجعاب تتراشق بغزارة بين الطرفين، لتهدأ بعد برهة. وتحل محلها السيوف المسلولة الصارمة بصليلها المتوعد، والخناجر التي تقتطع الأكباد وتنتزع القلوب من مكانها. ومن ثم قام فلاد دراكول قائد الميسرة بهجوم عنيف على ميمنة الجيش العثماني، وقد حاول كراجا باشا والي ولاة الأناضول، الذي كان يرافقه ابن فناري وعيسى بيك إفرِنوس أوغلو، المقاومة قدر استطاعته. وفي خضم القتال انفصلت الكثير من الرؤوس عن أجسادها، وطارت التيجان عن الكثير منها في حمّى الهجوم المتبادل، ونال الكثير من الأبطال والشجعان شرف الشهادة، وذهبوا لملاقاة وجه ربهم. ورغم المقاومة المستميتة التي أبداها كاراجا بيك مع رجاله، لكن ضخامة جيش العدو أجبرتهم بعد مقاومة شديدة على التراجع والتقهقر.

أمـا ميسـرة الجيـش العثمانـي التي كانت تحت قيادة شـهاب الدين باشـا، والـذي كان يرافقـه مـن القـادة؛ فيـروز بيـه أوغلو، خضر بيـك، مالكوج أوغلو وداوود بيك، فقد جرت بينهم وبين الجنود المجريين معركة بقاء أو فناء، وكأنها كانت نموذجاً عما سيجري في يوم الحشر، وقد بذل جوليان سيزاريني كل جهده لتحقيق النصر، وبالمقابل لم يكن شهاب الدين باشا أقل إصراراً وتصميماً منه علـى الفـوز في هـذه المواجهة. ولكن المجريين الذي كانوا مدجّجين بالدروع والتـروس الحديديـة مـن الرأس وحتى أخمص القدم، كانـوا يقاومون ضربات سـيوف العثمانيين دون أي تأثر، بل كانت السـيوف تتكسـر على الحديد الذي يغطيهـم، لـذا قـام هؤلاء بحمل الفؤوس والهـراوات وأخذوا يضربون بها على أجساد العدو بكل ما أوتوا من قوة وعزم. واشتد وطيس المعركة بحيث لم يعد الأب يعرف ابنه ولا الولد يعرف أباه. ولم يعد الجنود الذين برفقة كل من فيروز بيه أوغلو، وخضر بيك، ومالكوج أوغلو، قادرين على المقاومة أكثر، لأنهم ما إن يقتلوا أحد الصليبيين حتى يظهر خمسة آخرون في مكانه، وبالتالي حاولوا عصيان أوامر قادتهم، وحين رأى شـهاب الدين باشـا ما يجري، غلى الدم في عروقه، واستشاط غضباً، وصرخ فيهم قائلاً:

«ألا أيهـا الرجـال أيـن المفـر؟ فـإن هربتم من قبضة الأعـداء، فكيف لكم الهـرب مـن قبضة السـلطان؟ فلنهجم هجمة رجـل واحد، ولننقض على العدو بكل ما أوتينا من قوة..».

وبذلك عادت الصفوف للانتظام مرة أخرى، وانطلقوا يهاجمون بحماسة وبأس.

أما على الميمنة، فقد تزعزعت صفوف جنود الأناضول، وعاثت الفوضى بينهم، وبدأوا بالفرار. وحين رأى كارجا باشا، أنه ما من خير في قواته التي كان يعتمد عليها، رفع يديه نحو السـماء، وأخذ بالدعاء: «يا الله، يا كريم، يا رحمن يا رحيم، أنت القادر على كل شيء، ولا ناصر لنا سواك. فالفرصة والنصرة من

عندك، يا إلهي إن لم يكن النصر من نصيبنا، فلا تحرمني من نيل الشهادة، فأنا لم أعد قادراً على مواجهة مولاي السلطان بعدما حصل..» ومن ثم رفع هراوته الفولاذية وهو يصيح الله الله، واندفع مع الفرسان الباقين معه نحو جنود الأفلاق والبولونيين، كمثل ذئب جائع انقض على قطيع من النعاج، أو كأنه سهم من النار انطلق ليحرق كل ما يعترض سبيله، حيث كرّ على الفرقة التي كانت تحت إمرة توماس جوبان وأعمل فيهم قتلاً وتشتيتاً، ولكن بسبب المستنقعات التي كانت تحوطهم خلفاً، فقد وقع كراجا باشا ومن معه بالإضافة لكثيرين من جنود الكفار في البحر، وأصبح شهيداً.

وباستشهاد قائد بشجاعة كراجا بيك، تخلخلت صفوف جيوش المسلمين وانهارت قواهم، وفقدوا قدرتهم على المقاومة، فلاذ معظمهم بالفرار. وحين رأى هونيدوارا ما آل إليه الجيش العثماني، توجه نحو الملك فلاديسلاف قائلاً:

«انظر يا مولاي كيف قضينا على ميمنة الجيش العثماني، واستطعنا قتل كارجا بيك المعروف بشجاعته. وما يتوجب علينا الآن فعله، هو أن تبقى في موقعك ولا تقدم على أي تحرك، فيما أنطلق مع فرساني للقضاء على شهاب الدين باشا، ومن معه. وإن تمكنا من القضاء على الميسرة أيضاً فلن تقوم قائمة لآل عثمان بعد الآن».. ومن ثم هجم على ميسرة الجيش العثماني بكل ما أوتي من قوة.

حين رأى شهاب الدين باشا ما آلت إليه الأمور، ازداد حماسة ورغبة في القتال، وأخذ يهتف في جنوده وقادتهم مشجعاً:

«إنه اليوم المنشود، والوقت المحمود، هيا يا أبطالي فلتهبوا، يا من جاهدتم في سبيل دين الحق طوال حياتكم.. اسمعوني أيها الأشاوس، لقد خُلقنا لنضحي بأنفسنا في سبيل الله، واليوم أبواب الجنة مفتوحة لنا، خُلقنا البارحة وسنموت اليوم. وفي هذه اللحظات سيتضح الشجعان من الجبناء».. فأثار حماسة رجاله، وعاد ليهتف الله الله، وهو يتصدى لجموع الأعداء التي كانت

تندفـع نحوهـم. والتحم الجيشـان في صـراع مميت، وأخذت الأرض تميد من تحت أقدامهم، وبعد معركة حامية الوطيس بين الطرفين، بدأت قوات روميلي بالتراجع والتقهقر، ما سبب فرحة عارمة للصليبين، حيث كان هونيدوارا يهتف في رجاله مشجعاً: «هيا يا أبطالي، انقضوا عليهم حباً بالآب والابن»..

ومن جهة أخرى فقد أصيب السلطان الذي يراقب مجريات المعركة بخيبة كبرى حين لاحظ انهيار ميمنة الجيش واستشـهاد أحد أهم قادته كاراجا باشـا، كمـا أخـذت الميسـرة أيضاً بالتضعضع والتخلخـل، وبدأ الجنود يعصون أوامر قادتهم، فترجل عن حصانه، وتوجه نحو الوجهة الوحيدة التي يطلب منها المدد والعـون دون يـأس، وخـرّ سـاجداً ليسـبح باسـم الله ومن ثم رفـع يديه بالدعاء مبتهلاً:

إليك لجأت يا خير من أعان
فلا تخذلني أمام هذا العدو الكافر
وأنت الكريم الذي لا حدّ لكرمه
وأنت الرحيم وعلى كل شيء قادر
تعلقت بك الآمال يا إلهي
وأنت إن شئت فلطفك غامر
فانصر كلمة الحق يا ربي
واجعل اسمك يعلو كل المنابر
فلا داء لعلتي سوى عندك
فبجاه الحبيب لا تعدنيَ عاثر
وليعلُ سيف العدل فوق العروش
فسيف عدلك لكل ظلم قاهر

حين رأى الملك فلاديسـلاف تضعضـع ميسـرة الجيش العثماني أيضاً، لم يطـق البقـاء منتظـراً فـي موقعـه أكثر، وأغـار مع القوات التي تحـت إمرته على

السلطان مراد، الذي يتمركز وسط الجيش. وكان يأمل استغلال قلة عدد الجنود الذين في الوسط، ليستطيع القضاء عليهم في وقت قصير. وما إن أقبل العدو، أخذ الإنكشاريون وبقية الفرسان الذين تحت أمرة السلطان يهتفون الله، والتحم الطرفان معاً في قتال ضارٍ. فأخذت الرؤوس تتطاير كالحصى في كل الاتجاهات. وقد انقضّ المهاجمون بسرعة بالغة بحيث لم يتمكن الإنكشاريون من تدارك الخلل الذي اخترق صفوفهم. وحين لم يرَ الملك فلاديسلاف سوى بضع مئات من الجنود يحيطون بالسلطان، هتف جذلاً:

«أيا سيد الأتراك، لقد اغتنمتُ الفرصة، تعال ودافع عن نفسك، إياك والهرب يا مراد، إياك والهرب».. لكن الإنكشاريين تمكنوا من الانتظام بسرعة، وأخذوا يحيطون بهم، بحيث وجد الصليبيون أنفسهم بين فكي كماشة عاثت فيهم قتلاً وتشتيتاً. وفي هذه الأثناء لم يتحرك السلطان مراد من موقعه، بل ظلّ مرابطاً، يواصل سير المعارك، ويصدر الأوامر بكل صلابة وهدوء. وحين حاول الملك الهرب مع الفرسان الخمسين المنذورين لافتدائه بأرواحهم، لم يتمكن من ذلك. فقد استطاع أحد أبطال الإنكشاريين من إصابة قائمة حصانه بضربة فأس، أدت لوقوع الحصان والملك معاً.

وحين شاهد قائد المشاة؛ كوجا خضر وقوع الملك أرضاً، ركض على الفور ليلقي القبض عليه، ورغم أنّ هذا الأخير بدأ بالصراخ مستجدياً: «الأمان يا مراد، النجدة يا مراد» ولكن كوجا خضر لم يلق بالاً لتوسلاته، واجتث رأسه عن عنقه بضربة حاسمة. ومن ثم علق الرأس المقطوع على رمح طويل، ليراه الجميع وأخذ يهتف بأنه قتل الملك، وحين رأت قوات التحالف هذا المنظر، سيطر عليهم الارتباك وبدأوا يتململون ومن ثم أخذوا في التقهقر.

أما هونيدوارا الذي كان يقاتل ميسرة الجيش العثماني فحين علم بما جرى، انطلق بسرعة ليتدارك الموقف وأخذ يهتف في الجنود: «نحن لا نحارب من أجل الملك، بل أتينا للدفاع عن ديننا» ولكنه لم يتمكن من بث الحماسة

والعزيمة في نفوسهم. ذلك أنّ الجنود العثمانيين الذين سمعوا بمقتل الملك، عادوا إلى مواقعهم وأخذوا في شنّ هجوم عام على العدو الذي أخذت قواه في التضعضع. وقد استغل العثمانيون هذه الفرصة، وأخذوا ينقضون عليهم في هجمات متلاحقة ومفاجئة فيما هم لا يزالون تحت وقع الصدمة من هذا التحول الذي حصل، وأخيراً أصيب هونيدوارا أيضاً باليأس، ولاذ بالفرار مع البقية الباقية من قوات الأفلاق والمجر وبولونيا.

ورغم أنّ شهاب الدين باشا، ظل يقاتل الأعداء حتى المساء، لكن التعب لم ينل منه، بل قام مع الأبطال الذين برفقته بملاحقة فلول الهاربين والقضاء ما أمكن عليهم. وظلّ يطاردهم حتى بلغوا نهر الدانوب، فأُسر من أُسر وقُتل من كُتب له الموت.

وبذلك تمكن شهاب الدين باشا من محو العار الذي ارتكبه في العام 1442 حين فرّ أمام العدو. وقد شهد السلطان بنفسه على المقاومة الهائلة التي أبداها الرجل، وقد أخذ يسأل عنه قلقاً، بعد أن بدأ العدو بالتقهقر والهرب، إن كان حياً، أو أصيب بمكروه ما. وحين علم أنه حي يرزق يلاحق فلول الأعداء، غمره فرح عظيم.

لو أنّ فيهم كهلاً خطّ الشيب شعره

من أهم عوامل إحراز النصر، أنّ السلطان مراد لم يغادر ساحة المعركة، بل انخرط في القتال والإشراف على سير الأمور. وقد استمر القتال من الصباح وحتى المساء، أي ما يقارب العشر ساعات متواصلة. وفي تلك الليلة خلد السلطان للنوم والراحة، ولكنه عاد للاستيقاظ فجر اليوم التالي، لأداء الصلاة، ومن ثم رفع يديه بالحمد والشكر على هذا النصر المبين الذي كان بفضل الله تعالى. وبعدها قرر التجول في ساحة المعركة، فتم تجهيز حصانه، وإحضاره على الفور.

كانت الأرض غارقة في دماء القتلى من الطرفين، ولكن جثث قتلى العدو المتناثرة في الميدان كانت من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. وهنا لفت انتباه السلطان أمر ما، فخاطب آزاب بيك، وهو أحد رجاله المعتمدين، بالقول:

«إنه لأمر غريب، فجميع جثث العدو من الشباب، ولم أجد حتى الآن عجوزاً واحداً».

وقد ردّ عليه آزاب بيك: «مولاي، لو أنّ فيهم كهلاً خطّ الشيب شعره، ودمغت السنون لحيته ببياضها وخبرتها، لما رموا بأنفسهم إلى هذه التهلُكة. فالقوة والشباب إن اجتمعا يا مولاي، فهو الهلاك بحد ذاته»..

وبعد ذلك دخل السلطان إلى خيمة الملك، وحطم عرشه بسيفه، وجلس وهو يحمد الله ويشكره على فضله ونصره.

لقد سقط والي ولاة الأناضول كارجا باشا شهيداً في ساحة الوغى خلال معركة فارنا، أما من الجيش الصليبي، فقد قُتل كل من الملك فلاديسلاف، والكاردينال جوليان سيزاريني، وكان لمقتلهما أثر بالغ في تشتيت شمل العدو، وانهيار معنوياته. كما تمّ أسر كثير من قادة العدو ذوي المكانة الرفيعة؛ ومن هرب منهم تمت ملاحقته حتى الدانوب، وخاض الجنود العثمانيون الماء حتى الأعناق من أجل القضاء على من يمسكون به. وقد بلغت خسائر العثمانيين ما يقارب العشرة آلاف جندي، فيما قاربت خسائر العدو الستين ألف جندي.

وقد تمكن الأتراك من اغتنام مئتين وخمسين عربة تحتوي على كنوز الملك ومقتنياته الثمينة. كما قاموا بتحرير الأسرى الذين جمعهم الأعداء من القرى والبلدات المجاورة لفارنا، وقد غمرت الأهالي فرحة عارمة، فمنهم من وجد بين الأسرى أبناءه أو أحد والديه، بل حتى زوجته. وأجزل السلطان مراد العطايا على هؤلاء الأسرى الذين تمّ إطلاق سراحهم، حتى اغتنى من كان منهم فقيراً.

ومن ثم قام السلطان على الفور بإرسال الرسل إلى ابنه محمد لكي يزفّ إليـه أخبـار النصـر المبيـن، وأن دولة الإســلام قُدّر لهـا النصر، وهذا ما جاء في نص رسالته:

لقد منّ القدير علينا بالهدى

فيا بشائر النصر أغمري العالم

تحت حوافر خيولنا سقط العدو

وصليل سيوفنا كان للفوز علائم

ودماؤنا التي طهرت هذي البيادر

كانت بشارة الحق لما هو قادم

غاب صوت الكافرين في الردى

أما جنود الله فكانوا الغانم

فيا بني إليك أزف البشارة

مجد لا يُضاهى ونصر حاسم

وبعـد أن قـام الســلطان محمـد الثانـي بالتصدّق على الفقـراء وأجزل لهم العطـاء، توجـه لله ليحمـده على نصره المبين، ومـن ثم بدأت الاحتفالات التي استمرت سبعة أيام بلياليها في إدرنة.

انطلق الرســل إلى حكام العالم الإســلامي يحملون بشـارة النصر. وقد تمّ إرفـاق خمســة وعشـرين محاربـاً مجرياً مـن الذين تمّ أسـرهم، بكامل عتادهم وأسلحتهم لسلطان مصر المملوكي. وقد قوبل نصر فارنا في العالم الإسلامي، بفرحـة عارمـة. وبعـد أن اسـتمع السـلطان المملوكي سـيف الديـن جقمق إلى الرسالة التي أرسلها السلطان مع عماد الدين آزاب باشا، ورأى هؤلاء الخمسة وعشـرين فارسـاً المدجّجين من الرأس وحتى القدم بالأسـلحة والدروع، ابتهل إلـى الله أن يسـاعد آل عثمـان ويحميهـم مـن هذا العدو. وأمـر بالاحتفال بهذه المناسـبة في كل أصقاع مملكته، وفي يوم الجمعة تمّ ذكر اسـم الخليفة ومن

ثم السلطان مراد على جميع المنابر، ورفعت الدعوات لله من أجل حمايته.

لقد أدى نصر فارنا، التي تعتبر من المعارك المفصلية في التاريخ، إلى تعزيز نفوذ آل عثمان في منطقة البلقان ولم تعد هناك من قوة قادرة على الوقوف في وجههم. حيث تفرق البولونيون والمجريون بعد موت الملك فلاديسلاف، ولم يعودوا للاجتماع مرة أخرى. واختفت الدولة المجرية البولونية العظيمة التي كان نفوذها يمتد من سواحل البلطيق وحتى البحر الأدرياتيكي، ولم تقم لها قائمة.

كما تسبب هذا النصر بقطع الآمال التي كان البيزنطيون يعقدونها على البلقان وأوروبا.

رسالة فتح معركة فارنا

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] لقد أنعم الله سبحانه وتعالى علينا، كما على كل مخلوقاته بالنعم التي لا تنتهي، وأوكلنا مهمة حفظ ديار المسلمين، وإعلاء كلمة الحق في جهات الدنيا الأربع، وأمرنا بالدفاع والذود عن دينه وعباده، وتعمير الأرض بالخير والبشر والإحسان، وبشّرنا بقوله ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقد نُذرنا من أجل التسبيح حمداً بعطاياه ونعمه التي لا تحد، ونحن مقبلون بكل قلوبنا ومانحون كل سنوات عمرنا لخدمة دين الإسلام، ونسعى لإحلال سعادة البشر وسلامهم، روحاً وجسداً وتفكيراً، على هذه الأرض التي وكلنا الله سبحانه وتعالى بحكمها. ولأننا موقنون أنّ تحقيق السعادة في الدنيا

(1) سورة العنكبوت: 69.

(2) سورة آل عمران: 169 – 170.

وفي الآخرة لا يتم إلا عن طريق دين الإسلام؛ فقد تعاهدنا على أن نفني كل عمرنا في رفع راية دين النبي الكريم محمد ﷺ، لننشر كلمة الله إلى الإنسانية كافة. وقد بذلنا كل جهدنا من أجل تطبيق سنّته. وهذه هي أقصى وأسمى غاياتنا ومقاصدنا في الدنيا. وسعياً لتطبيق هذه الغاية النبيلة قمنا بفتح البلدان، لنوصل الدواء الناجع لأرواح العباد، ونهديهم إلى الطريق القويم. وجهاداً في سبيله جلّ جلاله، سخّرنا أفضل الأدوات والأسلحة والوسائل، للقضاء على الفتنة والفساد واجتثاث جذورهما من الأرض، ولم ندّخر جهداً أو وسيلة لكي نتمكن من مواصلة جهادنا هذا. ولم نهدر لحظة واحدة من عمرنا هباءً. وكان العدل والإنصاف هما سبيلنا الوحيد مع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ممن نتولى مسؤولية رعايتهم، وإدارة شؤونهم. فقد كنا نتصرف على الدوام انطلاقاً من الرحمة والشفقة.

وقد نال الملايين ممن يتبعون لحكمنا السعادة. فنحن لم نفكر في شيء سوى خدمة ونشر هذا الدين الحنيف وفق ما يرتضيه الحق، ولم نعلِ على هذه الغاية شيئاً آخر. وجهاداً في سبيل الله، لم نترك الخوذة والدرع، وصرفنا مبالغ طائلة من أجل القضاء على الفاسدين الضالين. وكنا مصممين منذ البداية على خوض هذا الدرب، وهدفنا واضح وحاسم، وهو بذل أقصى ما نقدر عليه للقضاء على أتباع الشيطان، ومحو ذكرهم عن وجه الأرض. ونحن رفاق على درب مرضاة الله والسير على هديه، وبروق صاعقة تنهال على رؤوس الأعداء. حماستنا ومشاعرنا نقية وصافية، فالله تعالى هو من ينير دروبنا وقلوبنا، ويفتح في وجهنا الأبواب. لذا فنحن مشمولون بعون الله في كل يوم. ونحن هداة الناس إلى طريق الحق، وسبيلهم لبلوغ طريق السعادة. ومن أجل ذلك فقد منّ الله تعالى علينا بالحماسة والعناية، والعزم للقيام بواجباتنا الدينية على أكمل وجه. ومن اتقاد جذوة الحماس في أرواحنا، وصدق نوايانا، ربحنا الكثير من المعارك، وخضنا الكثير من الفتوحات بنجاح. وثمرة نجاحنا هذه التي حققناها

من خلال الحكم الذي باركه لنا الله، هو أنّ كلمة الله بلغت الإنسانية جمعاء.

وأحد تجليات هذه العناية الإلهية، والفتوحات المقدسة هو نصر معركة فارنا التي خضناها ضد جيش البابا وحليفه ملك المجر، ومن انضم إليهما من الشعوب والملل التي تسير على دربهم وذلك عام 848 هجرية الموافق عام 1444، منتصف شهر أيلول. فقد فرّق الله تعالى شملهم، وشتّت صفوفهم، ومحى قوتهم عن وجه الأرض. كانت جيوشهم تناهز المئة ألف جندي، وقد قطعت أسرابهم التي كالجراد نهر تونا، وانتقلت إلى ضفتنا. وكانوا يصرخون متبجحين، يهددوننا بالموت. وكان سلاحهم وعتادهم يفوق الحسبان، وغايتهم سفك الدماء، وهدم سعادة الناس واستقرارهم، وإضعاف قوة المسلمين، وأسرهم وإذلالهم. ومن أجل تحقيق هذه الغاية فقد اعتدوا في مرات كثيرة من المرات على العباد الذين منّ الله عليهم بنعمة الإسلام، وعاملوهم بقسوة ووحشية. كما دنسوا الأرض والعرض، وسفكوا دماء الآلاف من الأبرياء، واستغلوا كل قواهم من أجل تخريب البلاد بما عليها، وقاموا بهدم المدن والبلدات التي صرف عليها المسلمون الكثير من الوقت والجهد لكي تنعم بالرفاه والاستقرار. بل وقد بلغت بهم الجرأة حدّ محاولة السيطرة على إدرنة المباركة، معقل قوة الإسلام وعزته، وعرين أبطاله، وقبلة الهدى والنور، من أجل جعلها مرتعاً للكفر وأتباع الشيطان.

ولكن كل ما يفكر به الكفار، لا يودي بهم سوى إلى حتفهم.

لقد قاسى المسلمون كثيراً، وقدموا تضحيات باهظة من أجل إحلال نور الحق والهدى في أوطانهم وبلدانهم، لكي يعيشوا في أمان وسكينة. وكل ما نبغيهٔ ونسعى من أجله هو السير على هذا الدرب بكل تفانٍ وإخلاص، ورفع حجب الضلالة والفساد عن هذا العالم، وهدّ جدران العداء والبغضاء وتجفيف منابع الشر والكفر في ديار الإسلام. ولتحقيق هذه الغايات، بذلنا كل ما في وسعنا من جهد، فلا يجوز التهاون في هذا الجهاد.

والحمد لله وله جزيل الشكر، فنحن لم نخالف أوامره على هذا الدرب. فقد عملنا على نشر تعاليم الحق والحقيقة، وقمنا ببناء دور العبادة المباركة والتكايا التي تشكّل منابر النور والهداية بين بني البشر، ولم يحدث منّا تهاون أو تقاعس في العمل ضمن حدود العدالة والإحسان، من أجل نشر علوم الدين والمحافظة عليه.

ولكن أعداء الدين من الكفرة الملعونين اعتدوا على ديار المسلمين، وعاثوا خراباً في مدننا وقرانا. وقد خسرنا كثيراً من رجال الدين وعلمائه الذين هم منارات العباد على دروب الهداية، ممن كانوا قد نذروا حياتهم لنشر ديننا الحنيف والحفاظ عليه، واستشهدوا تحت ضربات سيوفهم. كما جعلوا من نسائنا خدماً، وأطفالنا عبيداً. وقد وصلت أخبار كل هذه المظالم والمعاناة والضحايا إلى بابنا العالي. لذا كان واجباً علينا التحرك ذوداً عن الدين والأرض والعرض، والقضاء على هذا الظلم من خلال طريق الجهاد المبارك، واغتنام ممتلكاتهم الدنيوية، والقضاء على فسادهم وفتنهم، وتخليص ديار المسلمين من براثنهم القذرة. وقد أعملنا كل أفكارنا وجهودنا من أجل تحقيق هذه الغاية، وكان القرار حاسماً، لذا وكّلنا أمرنا لله تعالى، وانطلقنا موقنين بحمايته ورعايته.

وباسم الله وحمده استطعنا فتح قلاعاً كثيرة ورفعنا راياتنا عليها. وقد راسلنا كل قادة جيشنا وجنودنا من أجل التحضير لهذه الحملة. ورغم أنّ هؤلاء الكفرة قد زرعوا الذعر في قلوب رعايانا المسلمين بوحشيتهم، لكن الله جل جلاله شاء أن يتحقق هذا النصر على أيدينا وفي عهدنا. فسخّرنا كل مقدرات حكمنا في هذا السبيل. وأبلغنا أوامرنا للجميع ببذل كل جهد مادي ومعنوي من أجل نشر الحق والحقيقة، وإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، وإن شاء الله سنحقّق الفتوحات التي نسعى إليها، وسنوقد منارة جديدة تعلي اسم الله ودينه، لتكون قدوة وهدية لمن سيخلفنا على هذه الأرض.

على الصفحات البيض تضيء أخبارنا

وستظلّ باقية ما بقيت دنيا الفناء

ومن ضحى منا فنعم المصير والعُقبى

بدمائهم علت راية الحق في الأرجاء

جهّزنا جيشنا، وانطلقنا نحو فارنا، حيث ساحة المعركة. وفي بدايات شهر شعبان من العام 848 (الموافق 1444) بدأت الحرب، ليتحول ذلك اليوم إلى يوم تتجدد فيه سعادة المسلمين وعزتهم. وقد تخلينا عن كل غاية أو رجاء، وتوكلنا على الله الذي لا يخيب فيه رجاء، محتمين بعنايته الرحمانية، منطلقين نحو النصرة الإلهية. فلا أحد سواه جل جلاله، قادر أن يرشدنا نحو أبواب العون والفتح.

فهو من يفتح جميع الأبواب، وهو من يخلق العلل والأسباب، ومن يملك بيده مفاتيح الشفاء والعذاب. وقد نصّ كتابه الكريم على أنه الوحيد القادر على مدّ العباد بالعون والرحمة. فهو العزيز الحكيم، لذا فقد كنا متيقنين من أنّه جل جلاله معنا، وسينصرنا، وراضٍ عنا، فلا غاية يمكن أن تتحقق دون إرادته، ولا شيء يمكن له الوجود خارج مشيئته. وقبل انطلاقنا لهذه الحرب، صلينا له، وتضرعنا بعيون تفيض دماً، ورجوناه أن يشملنا بعنايته وعفوه.

ومن ثم خطبنا في الجنود لكي نبثّ فيهم الشجاعة ونزيد من توقّد جذوة الإيمان في قلوبهم، وأبلغناهم أنه حان الوقت لرفع السلاح. وبدأ الجيش برمته، ميمنة وميسرة وقلباً، بالهجوم على العدو هجوم الأسد على الفريسة. وكانت مقدمة الجيش قد بدأت القتال بالفعل حين التحم الجيشان. وكان محاربونا الذين يستمدون قوتهم من عمق إيمانهم، ينقضون على العدو الكافر دون خوف، ويتلقون ضرباته كجبال راسخة، وقد استمر هذا الوضع من صلاة الفجر، وحتى صلاة الظهر. كان الطرفان يقومان بالحملة تلو الأخرى، والهجوم تلو الآخر، ولكن جنودنا المسلمين كانوا متيقنين من كلمات الله ﴿... وَكَانَ حَقًّا

عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وكان محاربونا ومجاهدونا من ذوي الخبرة والبأس يهجمون على العدو بزخم وقوة ضاريين، ويتعاركون معه.

ورغم أنّ أسراب العدو كانت ضخمة، ولكن ملائكة الله كانت تهبط إلينا وتبشرنا بالنصر والفتح. وبعد هجوم كبير بدأ جنوده بالانسحاب ومن ثم الهرب، وقد استطاع أحد مجاهدينا الأبطال من أن يوقع ملكهم أرضاً بضربة سيف واحدة. وحين سمع جنودنا هذا الخبر، ازدادوا همة وقاموا بهجمة أخيرة على العدو، ليقطعوا الطريق أمام أسراب الكفرة الفارين. كانوا يهاجمون كما الأسود وكانت أصوات التكبير والحمد تشق عنان السماء. وقد كانت هذه الهجمة كافية لتمحق جيش العدو الذي خارت قواه وتفرق شمله. وقد استطاع عدد قليل منهم الفرار والنجاة بأرواحهم، ولكننا تمكنا من أسر معظم الفارين. ونرجو من الله تعالى أن تكون شوكة الكافرين قد كُسرت، وألا تقوم لهم قائمة، بعد أن مرّغنا بكرامتهم التراب. ومن الآن وصاعداً لن تخضع ديار المسلمين للحرب والخراب.

فقد انتقلت ملكية أراضيهم، وكل مدنهم وأموالهم – بفضل الله – إلى رعايتنا المباركة. فقدرته مطلقة لا حدود لها، وما نصرنا هذا إلا رحمة منه وعوناً.

لذا فإعلان هذا النصر المبين، والفتح المكين، هو فرض عين على كل رجل دين، وفي كل بلاد المسلمين، لكي يعلموا بالفضل العظيم الذي منّ به الله علينا. ولكي يُعملوا الفكر في نعم الله سبحانه وتعالى عليهم، ويجزلوا له الحمد والشكر الذي هو أهل له. وليوزعوا الصدقات وليطعموا الفقير والمحتاج، وليصلوا لله في الأوقات الخمسة، ويكثروا الدعاء في كل الأوقات، من أجل أن تتسع هذه الفتوحات التي حققها دين الإسلام، وليغدو ديننا ودولتنا أكثر قوة ومنعة، وألا يحرمنا الله من هذه النعمة. فليعلنوا هذا النصر بين المسلمين كافة،

(1) سورة الروم: 47.

لكـي يحمـدوا الله علـى هذه السـعادة المباركة، ولا تتوقفوا عن الدعاء والحمد ما بقي الدهر. والسلام.

هذه المرة إلى مانيسا

بعـد انتهـاء معركـة فارنـا مكث مـراد الثاني في إدرنة لبعـض الوقت، طلباً للراحـة. ويعتبـر بعـض المؤرخيـن أن الهدف من عودته إلـى إدرنة مرة أخرى، هـو نـزع العـرش مـن يد ابنه محمـد الثاني، وأما عودته الثانية إلى مانيسـا، فهي تنازل ثانٍ عن العرش. ولكن كل تصرفات مراد الثاني، أثناء توليه قيادة الجيش في المعركة، وحتى بعد عودته ومكوثه في إدرنة، كانت تشـير إلى أنه يتصرف كقائد جيش لا أكثر.

فـكل الغنائـم والمجوهـرات والممتلـكات التي تم اغتنامهـا من المعركة، قُيِّـدت فـي السـجلات على اسـم السـلطان محمد الثاني. وكل مـن تمّ تعيينهم وتغيير رتبهم عوضاً عمن استشهد من زملائهم، وإن تمّ على يد مراد الثاني، فإنه كان يوقع بختم السـلطان الابن. كما أنّ رسـائل الفتح التي تمّ إرسـالها إلى كل من السلطان المملوكي جقمق، وإبراهيم بيك قرمان أوغلو، والملك التيموري شـارهون ميرزا، وحاكم القره قوينلو، جيهان شـاه[1]، كانت ترسـل تحت اسـم السلطان محمد الثاني.

وهذا خير دليل على أنّ السلطان مراد قام بقيادة الحملة، بصفة قائد جيش، ورغم ذلك بقي الكثير من رجالات الدولة، كما مجموعة من الدول، تعتبر أنّ مراد الثاني هو السلطان الفعلي. ذلك أنّ استثنائية هذا الموقف وفق خصوصيته التاريخيـة، قـد أثـرت حتى علـى وجهة نظر الكثير مـن المؤرخين المعاصرين، فكيف بمن عاصره من مؤرخين ودول.

---

(1) قره قوينلو (الخروف الأسود) هي اتحاد قبائلي تركماني حكم أذربيجان والعراق من حوالى 1475 إلى 1468.

فالوثائق المصرية التاريخية، تذكر أنّ السلطان مراد هو من قام بإرسال الرسل، كما أنّ كل من في إدرنة، وعلى الخصوص الصدر الأعظم خليل باشا، كانوا يعاملون مراد الثاني، معاملة سلطان حقيقي. ومن جهة أخرى فكيف لمحمد الثاني الذي لايزال في الثانية عشرة من عمره، والذي يكنّ كل الحب والاحترام لوالده، الجلوس على عرش السلطنة، ووالده موجود في المكان ذاته. ولهذا السبب فإن بعضاً من رجال الدولة والشعب، كانوا يرون أنّ عودة مراد الثاني من أجل استلام قيادة الجيش، كانت شكلاً من إعادة استلام السلطة.

ولكن بعد كل ما مرّ به السلطان، فقد كان من المحال أن يعود للجلوس على العرش مرة أخرى. ورغم أنّه استلم قيادة الجيش وأموره، ورغم عودة بقية السلطات إلى نفوذه من جديد، لكن لم تكن لديه نية بالعودة إلى السلطة التي أعلن تركها له في ميهاليج[1]، ذلك أنه لم يقم بإرسال محمد الثاني إلى ولايته مجدداً.

فبعد أن تخلى السلطان مراد الثاني عن العرش أمام كبار الدولة ورجالاتها، وأرسل الرسل إلى كل الأرجاء ليبلغهم بقراره، لم يكن من المحتمل أن يعود عن هذا القرار بهذه السرعة. كما أنه قام بتعيين ابنه محمد بدلاً منه، من أجل فرض سلطته وحمايتها من أعدائه المتربصين به في بيزنطة، وخاصة دعيّ العرش الأمير أورهان الذي يقبع تحت نفوذهم. لذا فمن المحال أن يعمل على إضعاف قوته في وقت حرج كهذا.

ونستطيع القول إنّ مراد الثاني وبعد عودته من فارنا، مكث في إدرنة لفترة من الوقت، وقام بتشكيل مجلس وزاري يترأسه برفقة خليل باشا وبقية رجالات الدولة ووزرائها، من أجل ضمان استقرار الأمور، والتأكد من زوال الخطر إلى غير عودة. ولكن كونه سلطاناً سابقاً، والسلطان الأب حالياً، والقائد المحنك الذي حقق ظفر فارنا، فقد عادت إليه السلطة والصلاحيات بشكل مؤقت.

(1) أو كارجا بيه منطقة تقع في القسم الغربي لمحافظة بورصة.

ولكنـه لـم يطـق البقـاء مدة أطول، رغم إصرار خليل باشـا، وبعض رجال الدولـة مـن ذوي الجـاه والنفـوذ. وعاد ليصطحب معه أكثـر رجاله المعتمدين؛ إسـحاق باشـا وحمزة بيك، واتجه هذه المرة إلى المدينة التي يحب، مانيسـا. وقد خصّص لنفسه الأموال القادمة من سنجق مانيسا وآيدين، ومنتيشة[1].

الانقسام

ولكن سـلطة محمد الثاني لم تدم كثيراً هذه المرة، فالتناحر بين الحزبين المحيطيـن بالسـلطان، خليـل باشـا وأتباعه، ومؤيدي السـلطان محمد، قد بلغ حدود الخطر.

حين خرج السلطان مراد في العام 1443 لمحاربة المجر، ومن ثم في العام 1444 لمواجهة إبراهيم بيك، وكّل خليل باشا بتولي شؤون السلطة في العاصمة حتى عودته. وحين تنازل عن العرش لابنه محمد، كان خليل باشا بمنزلة الوصي عليه. ولكن مع تغير السـلطة، بدأت أيام الباشـا العصيبة، حيث التف الشـيوخ والمربـون ورجـال الدولـة ممن يناصرن محمد الثانـي حوله، من أجل مواجهة هيمنة نفوذ الصدر الأعظم، وتحول الأمر بينهم إلى صراع حقيقي على السلطة. وكان من يترأس الحزب المناوئ لخليل باشا، والداعي إلى تقوية نفوذ محمد الثاني، وتسليمه كل الصلاحيات بشكل فعلي من أجل إكسابه الخبرة والحنكة اللازمين، هو زاغنوس باشا، الذي سيغدو السلطان محمد الثاني في المستقبل صهره.

كان زاغنـوس باشـا الـذي ينحدر من ألبانيـا، رئيس الخزنة في القصر، ومن ثم غدا مربي الأمير محمد، وانتقل معه إلى سـنجق مانيسـا، حين توليه الإمارة. وحين تسـلم محمد الثاني، العرش للمرة الأولى، عينه بمنصب وزير. ولـم يكن هناك شخص أكثر حرصاً منه على حماية نفوذ السلطان الشاب، وترسيخ دعائم

---

(1) إحدى مناطق محافظة موغلا التركية.

مستقبله العظيم. ورغم أنه حاول كثيراً لكي يرافق السلطان الصغير والده في حملة فارنا، لكنه لم يوفق في مسعاه هذا. وحين عاد مراد الثاني للانسحاب مرة أخرى، أخذ يبحث عن الأرضية المناسبة لتثبيت دعائم سلطة السلطان الشاب ونفوذه.

وكان أكثر الأسماء بروزاً في حزب زاغنوس باشا، وأكثرهم قوة، والرقيب اللدود لخليل باشا، والي ولاة روميلي، شهاب الدين باشا. حيث تولى حكم سنجق ألبانيا في العام 1432، وأصبح بفضل نجاحاته، والي ولاة روميلي عام 1439. وقد اكتسب شهرة كبيرة حين تمكن من السيطرة على نوفوبردو وقلاع الصرب التي كانت تحت نفوذ جورج برانكوفيتش عام 1441. ولكنه فقد نفوذه، حين هرب من مواجهة هونيدوارا في الحملة التي خرج فيها من أجل الانتقام لمزيد بيك، وعُزل من منصبه حال وصوله إدرنة. ولكنه أعيد إلى منصبه في العام 1443 بعد الخسائر التي تعرض لها خليفته قاسم باشا أمام جيوش الصليبيين. لقد كان على الدوام، قائداً بارعاً في فنون الحرب. وحين الجلوس الأول لمحمد الثاني على العرش، قام بتعيينه بمنصب الوزير الثاني. وقد كان له دور كبير في القضاء على مدّعي السلطة أورهان، وانتصار معركة فارنا. وكان الشخصية الثانية في الدولة بعد خليل باشا، من حيث النفوذ والقوة، وقائد قوات روميلي، ويخضع لسيطرته ولاته الثلاثة، كما كان يمثل التيار الحيوي المضاد للسلام، والذي يدعو لمزيد من الفتوحات، على عكس خليل باشا الداعي للصلح.

وكان الوزير الثالث في الديوان السلطاني، ساروجا باشا أيضاً من مناوئي خليل باشا. كان ساروجا باشا الرومي الأصل قد دخل إلى الديوان كوزير قبل خليل باشا، وكان له دور في تزويج الأميرة ماريا ابنة حاكم الصرب برانكوفيتش من السلطان مراد الثاني. ولكنه فقد نفوذه بعد أن غض الطرف عن سيطرة برانكوفيتش على سميديريفو، وتمّ عزله من منصب والي ولاة روميلي. إلا أنّه كسب ثقة السلطان مرة أخرى حين انضم بشكل تطوعي إلى القتال في معركة زلاتيتزا. وحين غادر السلطان إلى مانيسا، قام بتعيينه وزيراً في الديوان. ورغم

أنه لم يكن بأهمية نفوذ خليل باشا، ولكنه كان يعدّ أحد رقبائه الأشداء.

وبالمقابل كان عيسى بيك أوغور أوغلو أهم مناصري خليل باشا، حيث أخذ موقع كارجا باشا الذي استشهد في معركة فارنا، وأصبح والي ولاة الأناضول. ولأنه كان مسيطراً على قوات الأناضول، فسيلعب دوراً مهماً فيما بعد من أجل تنفيذ مخططات خليل باشا.

وبالإضافة إليه كان قائد القوات الإنكشارية، كورتوجو دوغان، من أهم مناصري سياسة خليل باشا. وكان أحد أخلص رعايا السلطان مراد، حيث نجح في الحفاظ على هذا الموقع لسبع سنوات. ولأنه كان يعمل برفقة خليل باشا بصفته قائد قادة الفرق، فهذا كان سبباً لاكتساب الصدر الأعظم قوة عظيمة في العاصمة. وكان أحد أكثر الرجال الذين يعتمد عليهم السلطان مراد، والذي رافقه في ذهابه إلى مانيسا، الوزير السابق إسحاق باشا، من مناصري خليل باشا أيضاً. وكان على اتصال مستمر معه، يتلقى تعليماته وخططه، ويعمل على إقناع السلطان بها، وتوجيهه في الاتجاه الذي يريد.

ومع انزواء السلطان مراد في مانيسا، أخذت التناحرات بين الطرفين، تبدو واضحة للعيان. ففي مقابل سياسة خليل باشا الحذرة، والداعية للسلام. كان هناك سياسة ثلة الوزراء المحيطة بالسلطان الشاب، والتي تعارض بشدة هذا العزوف نحو السلام، وتدعو إلى استمرار المعارك، والتمسك بتقاليد الدولة في مواصلة الفتوحات. فالانتصارات والفتوحات الجديدة، ستعمل على تقوية نفوذ السلطان الشاب، وترسيخ أحقيته واستحقاقه للعرش. لذا كان على خليل باشا تأمين استقرار الجبهة الخارجية من جهة، ومن جهة أخرى كان عليه محاربة خصومه من مناوئي سياسة السلم.

بدأت الأجواء بالاحتقان كثيراً بعد معركة فارنا. ففي صيف عام 1445، أخذ أسطول صليبي يهدد سواحل البحر الأسود، بينما كان الجيش الذي يقوده هونيدوارا يعسكر على ضفة الدانوب، مهدداً بالاستيلاء على روميلي، وفي

الوقت نفسه انضم حاكم البلقان إلى هذه القوات، وتمكن من السيطرة على جورجيو[1]. في هذه الأثناء توجه شهاب الدين باشا على رأس قوات روميلي، نحو صوفيا من أجل مراقبة تحركات العدو. ومع ذلك لم يتوانَ الطرفان عن مواصلة الحرب الداخلية الناشبة بينهما.

وكان السلطان الشاب وبتأثير من المجموعة المحيطة به، قد انخرط في محاولات متعدّدة للتوسّع. وفي الوقت ذاته بدا من الواضح أنّ وحدة الأناضول أخذت بالتزعزع، حيث بدأ قرمان أوغلو يعامل كلاً من حاكم قسطموني[2] وبقية الولاة الذين في الجوار، وكأنهم خاضعون لحكمه هو. ورغم أنّ محاولات التوسع لم تصل حدود فتح إسطنبول ولكنها عززت من شدة الخلافات الداخلية إلى أبعد حد.

فنتيجة توجهات السلطان الشاب التوسعية، أرسل كل من قرمان أوغلو، وحاكم قسطموني، وملك صربيا، وإمبراطور بيزنطة، سفراء إلى السلطان مراد في مانيسا، وطلبوا منه إسداء النصح لابنه من أجل التخلي عن سياسته الرامية إلى الحرب. وعلى إثر ذلك أرسل السلطان مراد رسالة إلى ابنه وخاطب فيها كل وزرائه، من أجل تنبيههم للابتعاد عن سياسة الحرب، وتجنب الشدة والعنف بشكل نهائي. لذا فقد اضطر السلطان محمد الثاني لاتباع سياسة أكثر ملاءمة وليناً.

وفي المقابل قام خليل باشا، الذي لا يصوّب سياسة السلطان محمد الرامية إلى الحرب، والذي كان يرى أنّ محاصرة إسطنبول ستوقع الدولة في مهالك هي في غنى عنها، بإرسال رسالة للسلطان مراد يرجوه فيها العودة وتولي زمام السلطة من جديد. فقد أصبح الباشا مقتنعاً باستحالة إبعاد السلطان الشاب عن تأثير المحيطين به، وهذا ما يزيد من صعوبة مواصلة عمله وبقائه في منصبه

(1) مدينة جنوب عاصمة رومانيا بوخارست، عاصمة محافظة جورجيو وتقع أقصى جنوب رومانيا على ضفة نهر الدانوب الذي يفصل رومانيا عن بلغاريا.

(2) إحدى محافظات تركيا. عاصمتها مدينة قسطموني التي تقع شمال البلاد.

مع مرور الوقت.

وكان يرمي من عودة السلطان مراد – الذي اكتسب مكانة أعلى من ذي قبل، بعد الانتصار الذي حققه في فارنا – إلى توليه العرش مجدداً، لكي يتخلص من هذه الازدواجية في الحكم من جهة، ومن جهة أخرى ليتمكن من مواصلة عمله ومخططاته بصورة أكثر سهولة مع السلطان مراد الذي يشاركه التوجه ذاته نحو السلم والاستقرار. والأهم أنه سيتمكن من القضاء على الحلف المناوئ له من المحيطين بالسلطان الشاب، والذين يريدون القضاء على نفوذه، ليستطيع مواصلة سلطته المطلقة بشكل تام.

حادثة بوجوك تيبى

قبل مرور وقت طويل، دخلت العاصمة في معمعة المشاكل بسبب هذا الانقسام الداخلي. ففي البداية وقع حريق كبير في إدرنة في شهر آذار من العام 1446. وقد احترقت منطقة بدستان، وتاهتاكالى بالإضافة لكثير من المتاجر. وأعقبها التمرد الذي قام به الإنكشاريون في المدينة، وعلاوة على زرعهم البلبلة في الأجواء فقد تهجموا على قصر شهاب الدين باشا وزير الديوان ووالي ولاة الأناضول، وقاموا بنهبه. وكانوا يتهمونه بأنه ورفاقه قد تعمدوا الخسارة في معركة ترانسلفانيا عام 1442، وينوون قتله، ولم يتمكن من النجاة من الموت إلا حين لجأ إلى قصر السلطان محتمياً.

وعلى إثر هذه الأحداث اجتمع الصدر الأعظم بكل من قائد الإنكشارية كوروجو دوغان، وعيسى بيك أوغور أوغلو والي ولاة الأناضول، وساروجا باشا بشكل سري. وقرروا إعادة السلطان مراد لاستلام العرش من جديد. ولتحقيق هذه الغاية تمّ إرسال ساروجا باشا إلى مانيسا. وقد تمكن خليلي باشا من إقناع ساروجا باشا بالوقوف معهم مبيناً له بأنّ بقاء السلطان مراد بعيداً عن السلطة قد يؤدي إلى حرب داخلية، ولا يستطيع أحد وأد هذه الفتن والقلاقل

سوى مراد الثاني من خلال عودته لتولي العرش.

من جهة أخرى بدا أنّ العصيان الذي قام به الإنكشاريون قد تمّ إخماده من خلال زيادة نصف آكجا إلى راتبهم اليومي. ولكن مع بداية مغادرة السلطان مراد لمانيسا بدأ الجزء الثاني من العصيان، وبدأت فرقة من الإنكشارية التي اعتلت إحدى التلال المحيطة بإدرنة، تقود العصيان نحو مراحل أخطر.

فقد كانوا يهددون بالانضمام إلى مدعي السلطة في إسطنبول، ما لم يتنازل السلطان محمد عن العرش ويعود السلطان مراد. وهذا ما وضع ليس السلطان محمد فحسب، بل وتشاندرلي خليل أيضاً في موقف صعب. وبمساعدة بقية قادة فرق الإنكشارية ودعم أهالي المدينة، أمر السلطان محمد بإعدام رؤوس هذه الفتنة ومسببيها. وبذا فقد وجد الشعب كما وجد أولئك الذين غالوا في عصيانهم، تشاندرلي خليل طرفاً لحل النزاع.

في هذه الأثناء، كان السلطان مراد قد اقترب، ولم يعلم السلطان الشاب بقدوم والده إلا حين دخوله روميلي. وعندما أوضح له تشاندرلي خليل أنّ والده قادم في زيارة مؤقتة، وقصيرة، توجه لملاقاة والده وتقبيل يده. وكان السلطان مراد ينوي نقل السلطة دون التسبب في أي خلاف أو مشاكل. ويحرص على ألا يأخذ الأمر طابع الخلع أو العزل، حتى لا يشكل ذلك خطورة على مستقبل ابنه.

وقد وجد تشاندرلي خليل الحجة المناسبة مرة أخرى، ففي اليوم التالي قام بتوكيل محمد الثاني بترؤس رحلة الصيد المقامة على شرف والده، والتي ستستمر لفترة طويلة في الغابة. وبهذه الطريقة تمكن السلطان مراد من دخول إدرنة بكل سهولة، وقام بجمع الديوان ليظهر نفسه للشعب والجيش.

وقد أبدى كل من الشعب الذي ملّ القلاقل، والإنكشاريين الذين كانوا مستمرين في تنقلهم بين تأييد السلطان محمد ومعارضته، الولاء للسلطان مراد على وجه السرعة.

ولم يجد محمد الثاني بداً من إطاعة هذا التغيير المفاجئ، حين وصلته

الأخبار. فقد عاد للقاء والده وتقبيل يده، وتمنى أنّ يكون هذا التغيير في صالح الدولة. وكان ذلك في شهر آب من العام 1446، أي بعد مرور حولين كاملين على تنازل السلطان مراد عن العرش للمرة الأولى، في شهر آب 1444.

كان لعودة السلطان مراد إلى العرش مرة أخرى، أثر بالغ على توطيد سلطة خليل باشا واستمراره في منصب الوزير الأعظم. وكان يرافقه في المنضمين إلى الديوان كل من إسحاق باشا وساروجا باشا أيضاً. حيث تمكّنا من إبعاد غريميهما؛ شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا عن العاصمة وعن الحكومة. فقد رافق زاغنوس باشا السلطان محمد كوزير له، أثناء عودته إلى مانيسا، وكان نيشانجي إبراهيم باشا أيضاً برفقة السلطان محمد هذه المرة.

حملة مورا

ما أن استلم السلطان مراد السلطة مجدداً، حتى اتجهت أنظاره نحو شبه جزيرة المورا[1] وألبانيا. فقد كانت المورا تحت حكم قسطنطين شقيق الإمبراطور يوحنا الثامن، والذي سيستلم العرش من بعده عام 1448. واستناداً إلى مجموعة الظروف الملائمة التي سبقت معركة فارنا، فقد انخرط في بعض جوانب الحملة، متأملاً الاستفادة مما سيليها. ولأنه كان يطمح إلى تحطيم قوة العثمانيين بشكل نهائي في فارنا، فقد اجتاز مضيق كورينثوس[2] وقام بالاستيلاء على كل من طيبة[3] وبيوتيا[4] وجبال بيندوس[5] وقد اكتشف العثمانيون الأمر حين طلب دوق أثينا، التابع للدولة العثمانية، النجدة من السلطان مراد. وبعد

(1) أو بيلوبونيز هي شبه جزيرة تقع في جنوب اليونان.

(2) هي قناة تربط خليج كورينثوس بخليج سارونيك في بحر إيجه.

(3) أو ثيفا مدينة يونانية ومركز لبلدية تقع في وسط البلاد ضمن مقاطعة فيوتيا التي تتبع إدارياً لإقليم ستيريا إلاذا الإداري.

(4) بيوتيا هي إحدى مقاطعات اليونان تضم مدناً عدة منها عاصمة المقاطعة ليفاذيا ومدينة خايرونيا التاريخية ومدينة ثيفا.

(5) تقع سلسلة جبال بيندوس في شمال اليونان وجنوب البانيا.

انتهاء فارنا، طالب السلطان مراد، قسطنطين بإعادة المواقع التي قام باحتلالها، ولكنه لم يتلقَّ جواباً بالموافقة.

كما قام قسطنطين من جهة أخرى بإحكام سيطرته على مضيق كورينثوس، الذي يشكل بوابة المورا، تحسباً لهجوم العثمانيين القادمين من الشمال. ولأن قواته كانت متحالفة مع الفرنجة المسيطرين على البحر من جميع الجهات، فلم يكن أمام العثمانيين سوى التوجه نحو أثينا عن طريق برزخ كورينثوس من أجل دخول المنطقة.

ورغم أنّ العثمانيين قد سيطروا على شبه جزيرة المورا في عهد السلطان يلدرم بيازيد، ولكنها خرجت من تحت نفوذهم بعد معركة أنقرة، ودخلت تحت حكم ثيودورس، ومن ثم قسطنطين، وقد أولى كلاهما اهتماماً بالغاً بتحصين مضيق كورينثوس. كما حظيت هذه المنطقة، عبر مختلف عصور التاريخ، بكثير من التحصينات في عهد أبرز الحكام كديمتريوس بوليرست، وسيزار، ونيرون وكاليغولا..، فبعضهم قاموا بحفر القنال، وبعضهم بنوا جسوراً متينة تربط بين الطرفين، وأقاموا أسواراً وجدراناً تحصينية عالية.

أخذ قسطنطين وبمساعدة من شقيقه إمبراطور بيزنطة، بصيانة الأماكن المتضررة، وإعادة بنائها، وفرض تحصينات أكبر، بحيث تشكلت خمسة حصون منيعة مترابطة فيما بينها بإحكام يصعب خرقه. وكان أكبر هذه الحصون ذاك الذي يمتد من خليج إغنه، وحتى خليج ليبانتو[1]. وكل قادم من البر، لا يستطيع دخول المورا ما لم يجتز هذا الطريق. وبالإضافة لذلك فقد تمّ حفر خندق عميق أمام حصن غيرمه وكان كلا الطرفين ينفتح على البحر، بحيث يمتلأ الخندق بالماء طوال الوقت ويتحول إلى سرداب يبتلع كل من يحاول اجتيازه. ولكن تحصينات قسطنطين لم تغب عن ناظري السلطان مراد.

ومن جهة أخرى كان دوق أثينا يحذر السلطان على الدوام، ويظهر خشيته

(1) تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورينث في اليونان اليوم.

مـن هجـوم محتمـل عليـه. لـذا اتخذ السـلطان قـراراً بإعادة المورا إلـى النفوذ العثمانـي. وبنـاء عليـه فقـد اجتمع السـلطان بكل من الباشـا ييـت قائد الجند، وتورهـان بيـك اللذيـن يعرفـان سلسـلة التحصينات معرفة كافيـة، تمكنهما من رصد جميع المخارج والمداخل المؤدية إليها، من أجل وضع خطة مشتركة.

ومـن ثـم قـام بتعييـن تورهـان بيـك قائداً علـى الحملة التـي توجهت إلى المنطقـة. وقـد اصطحـب معـه الكثيـر مـن المدافـع مـن أجل دكّ أسـوار قلاع كورينثـوس[1]. ومـن أجـل ضرب القلاع الخمس معاً، تمّ أخذ حمولة كبيرة من النحاس على ظهر الجمال لصبّ قذائف المدافع. أما السلطان الذي جمع جند الأناضـول وروميلـي في جيش كبير قوامه سـتين ألـف محارب، فقد اتجه نحو المورا، وحين وصولهم طيبة اليونانية انضم إليهم نيري دوق أثينا.

أما قسـطنطين الذي علم بتحركات السـلطان مراد، فقد عسـكر مع شـقيقه توماس وقواته كافة خلف السـد الجديد الذي أقيم على البرزخ. وفي السـابع والعشـرين من تشـرين الثاني، وصل السـلطان على رأس قواته إلى كورينثوس، وأرسـل إلى قسـطنطين سـفراء من أجل الاستسـلام، وقد أرسـل الأخير بدوره سفيراً يعرض على السلطان تخليه عن جميع الأراضي التي تمتد خارج المورا والبرزخ مقابل السلام. ثار غضب السلطان إثر هذا الطلب الجريء، فقام بحبس السـفير والمؤرخ هالكوندي سـيزر الذي رافق الوفد. وحين أصبحت المدافع العثمانيـة جاهـزة وأكثـر تطـوراً، بدأت بدك أسـوار الحصون التي أشـيع بأنه لا يمكن تجاوزها.

في اليوم الثالث عشر من الحصار بدأت التصدعات والفجوات تظهر على الأسـوار، وقـد أضـاء العثمانيون الليلة الرابعة عشـرة، مـن خلال نيران المدافع التي كانت تدكّ الأسـوار على طول امتدادها. وكانت أصواتهم التي تنادي الله الله، دليلاً على بدء الهجوم الشامل في اليوم التالي.

(1) كورينث: أيضاً كورينثوس مدينة يونانية تقع في وسط جنوب البلاد ضمن منطقة البيلوبونيز.

ففـي صبيحـة اليـوم التالـي أعلنـت أصـوات الطبـول ونفيـر الأبـواق بدء الهجوم، وقد اسـتخدمت الألغام والسـلالـم من أجل تفجير الأسوار المتهالكة، وتسـلقها. وقد تمكن أحد الإنكشـاريين الذي يسـمى خضر (من المحتمل أن يكون الشـخص ذاته الذي قطع رأس إمبراطور المجر فلاديسـلاف) من تسـلق الأسوار بنجاح، ورفع العلم العثماني على الأبراج. وحين رأى الروم ما حصل رجحوا أنهم خاسـرون وبدأوا بالفرار نحو الجبال، وكان ذلك في العاشـر من كانون الأول عام 1446.

بـدأ الجيـش العثمانـي الذي تمكن من عبور البرزخ بالتقدم على قسـمين، أحدهما بقيادة السلطان مراد والثاني بقيادة تورهان بيك. وقد استطاع السيطرة علـى كل مـن مدينـة كورينثـوس المطلـة على خليجي ليبانتـو وإغنه والمعروفة بفنونها الجميلة المميزة وأنها مركز للتجارة والتي تسمى في المصادر العثمانية بـ (باليابادرا)، ومدينة بترا[1] التي تشكل مركز المورا وأكبر مدنها على الإطلاق. وإزاء هذا الوضع اضطر قسطنطين إلى طلب الصلح.

وبحسب نص المعاهدة المبرمة، تحولت المورا إلى إحدى الإمارات التابعة للدولـة العثمانيـة، والتي سـتدفع لها جزية سـنوية. وتمّ تدميـر كل التحصينات التـي قـام بهـا قسـطنطين، كمـا قام تورهان بيـك بأخذ كل الغنائم التي كسـبها، واصطحـاب آلاف الأسـرى الذيـن وقعـوا في قبضته، دون أن يطلق سـراحهم. وبحسب المؤرخ البيزنطي دوكاس، فقد تمّ أسر ما يقارب الستين ألف شخص. وبالمقابل ترك السلطان مراد المورا تحت إدارة قسطنطين، وعاد إلى إدرنة.

وقد اسـتفاد قسـطنطين من تحسـن علاقاته مع السـلطان مراد، والاستقرار الـذي بينهمـا، حيـن أصبح إمبراطور بيزنطة فيما بعـد. فعندما توفي الإمبراطور يوحنا الثامن في الواحد والثلاثين من تشـرين الأول عام 1448، حاول شـقيقه توماس اعتلاء العرش، ولكن تم ترجيح حاكم المورا قسطنطين بدلاً منه، ذلك

(1) ثالث أكبر مدن اليونان.

أنه كان أكبر سناً، وأكثر شعبية بين الناس. وقد أرسلت الملكة إرينا الأم ورجال الدولة، الرسل إلى السلطان مراد من أجل الحصول على موافقته. وإثر إبداء مراد الثاني القبول، تمّ تتويج قسطنطين وهو لايزال في المورا، وفي أواسط كانون الثاني من العام ألف وأربعمئة وتسعة وأربعين وصل إلى إسطنبول ليعتلي العرش.

حملة ألبانيا

حال وصول مراد الثاني إلى إدرنة عكف على قضية ألبانيا، ذلك أنّ إسكندر بيك الذي هرب أمام جيش هونيدوارا مع ابن أخيه حمزة بيك في معركة مورروفا، وتسبب في هزيمة الجيش العثماني، قام بالسيطرة على قلعة كروجا[1]، وقد رفع راية العصيان. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى دبّ الخلاف بين إسكندر بيك وحمزة بيك، حيث عاد الثاني من جديد للعمل تحت راية السلطان.

وحين عاد السلطان مراد من حملة المورا، خرج في حملة على ألبانيا بعد أن حثّه حمزة بيك على الأمر. وقد اصطحب معه ابنه الأمير محمد الذي كان في بداية السابعة عشرة من عمره. وبعد أن قام السلطان مراد بفتح قلعة كوجاجيك، تقدم نحو قلعة كورجا، وحاصرها، وكانت حصينة تستند إلى جبال شاهقة.

بدأ العثمانيون بدك أسوار القلعة بالمدافع، فيما انسحب إسكندر بيك إلى أحد الجبال لكي يقوم بشن الهجمات من الخارج على الجيش العثماني، ليوقعه بين نارين.

وحين رأى السلطان مراد المقاومة الكبيرة التي يبديها المدافعون، أدرك أنّ الحصار سيدوم لأمد طويل. لذا قام بقطع سبل المياه عن القلعة، لإجبارها على الاستسلام. وفيما كان سقوط القلعة مسألة بضعة أيام لا أكثر، وصلت أخبار

(1) أطلق عليها العثمانيون اسم آكجا حيصار. بلدة ألبانية شمال شرق العاصمة، فيها المبنى الأكثر أهمية وهو قلعة كروجا. ويعتبر مكاناً قومياً للشعب الألباني.

عـن حاكـم صربيـا، وأميـر فيدين، فقد انضما إلى الجيـش الضخم الذي تمكن هونيدوارا من تشكيله. وعلى وقع هذه الأخبار، رفع السلطان مراد الحصار عن القلعة على وجه السرعة، وتوجه نحو صوفيا، من أجل مراقبة تحركات العدو.

في البداية، قام هونيدوارا وبعد مقتل الملك فلاديسلاف في معركة فارنا، بوضع ابن أخ ملك المجر وإمبراطور ألمانيا السابق الملك ألبرت، لاديسياس الرابع الذي كان لا يزال طفلاً، على العرش، وعيّن نفسه نائباً له، وبذلك استطاع أن يدير البلاد وفق ما يشاء ويرغب.

وكان أكثـر مـا يريـده هونيـدوارا الـذي يطمح أن يصبح ملـك المجر، هو الانتقـام مـن هزيمـة فارنا، وغسـل العار الذي لحق بـه، بل وكان يطمح لما هو أكبر؛ وذلك بقيادة الحملة التي ستقوم بطرد الأتراك من البلقان.

ومـن أجـل ذلـك، وبموافقـة مـن البابـا ومباركته، انخرط في اسـتعدادات مكثفـة، لتجهيـز حملة صليبيـة جديدة. وقام بالتواصل مع جميع بلدان أوروبا، للمشـاركة فـي الحملـة التـي سـيقودها، بهدف إخـراج العثمانيين مـن البلقان، وإيقاف تقدمهم، والقضاء عليهم.

أما فلاد دراكول حاكم البلقان، فبعد انتصار فارنا الذي حققه العثمانيون، أدرك مـدى قوتهـم، وعمـل علـى التقـرب منهم. لذا فقد عارض الاشـتراك في الحملـة الصليبيـة الجديـدة. وعلى إثر ذلك قام هونيـدوارا الذي دخل البلقان، بالقبـض علـى دراكـول وإعدامه، وتعيين فلاد الثالـث، وقد قام الحاكم الجديد بالانضمام إلى هونيدوارا برفقة ثمانية آلاف محارب.

أما الإنجليز والفرنسيون الذين خسروا قسماً كبيرا من جنودهم في معركة نيكوبول، فلم يلبوا طلب هونيدوارا بالانضمام للحملة. أما القوات التي أرسلتها الأفـلاق وبوهيميـا، وبولونيـا وألمانيا، فقد انضمت إلـى القوات المجرية. كما وعد إسكندر بيك والي ألبانيا أيضاً بإرسال قوات لتنضم إلى الحملة.

معركة كوسوفو الثانية

استطاع هونيدوارا وفي وقت قصير، تشكيل أقوى جيش يمكن تأسيسه في المجر. كان الجيش الصليبي المكون من تحالف الجنود المجريين والألمان والبولونيين والتشيك السلاف والإيطاليين، يقارب تعداده التسعين ألف جندي. وقد كان جيشا منظماً، معظم جنوده من المحاربين الأشداء الذين عركتهم الخبرة في ساحات المعارك. وقد كان هونيدوارا ناقماً على ملك صربيا لأنه لم ينضم إليهم في معركة فارنا، وحين علم أنه مزمع على الرفض هذه المرة أيضاً، انتابه غضب عارم. لذا كانت خطوته الأولى هي احتلال صربيا، ومن ثم التقدم نحو بلاد العثمانيين.

غادر مراد الثاني ألبانيا على وجه السرعة حين علم أن هونيدوارا على وشك اجتياز الدانوب، وتوجه نحو صوفيا. وقد جمع جيشه كله هناك تحت إمرته، وبدأ تجهيزات الحرب. وبحسب معظم المصادر التاريخية كان عدد جنود الجيش العثماني، يتراوح ما بين الثمانين والمئة ألف جندي. وهذا يعني أن قوة كلا الطرفين كانت متعادلة على وجه التقريب.

وبناء على الاتفاق المبرم مع العثمانيين، قام أمراء قرمان بإرسال قواتهم لتنضم إلى جيش السلطان. وأثناء وصول الجيش لإلقاء التحية على السلطان، لاحظ الأخير مدى رثاثة ثيابهم وفقر تسليحهم، والفوضى التي تطغى على صفوفهم، فالتفت إلى القادة الذين برفقته مبتسماً وهو يقول:

«لم يكن لدى جنودنا ما يسخرون منه ويتندرون به، ولكن أمراء قرمان وفروا لهم هذا الأمر مشكورين».

نحن لا نعلق عليهم حبائل الآمال
بل نريد باباً للصلح معهم لا القتال

كان الجيش العثماني الذي يناهز تعداده المئة ألف جندي، يتمتع بعناية وتنظيم فائقين على مستوى التسليح والنظام والطعام، كما أنّ المصادر التاريخية،

أشـادت بعدالة السـلطان، وسياسـته الصالحة إزاء رعاياه وقت السلم والحرب. وهذا بعض مما ورد فيها:

«نظراً لعدالة السلطان وسياسته المنصفة، فقد أمر الجنود بعدم الإساءة لأي مزارع أو محصوله على امتداد الطريق، فمن يقتلع عوداً أخضر سيغرق في غور بئر بـلا قـرار. ومن كان يأكل حبة قمح واحدة ليسـت مـن حقه، كان يتم طرده من خدمة السلطان. ومن كان يعتدي على شرف عذراء، كان يُقطع رأسه»..

وباتباع هذا الأسلوب السمِح، أطلعهم جواسيسهم حين وصلوا كورشون كالى، على أن العدو قد اقترب من كوسـوفو. ولأن السـلطان مراد كان يراقب تحـركات العـدو، فقـد اتجـه بعـد معرفـة مقصدهـم إلـى براري كوسـوفو. في هذه السـاحة الدامية التي شـهدت منذ تسـعة وخمسـين عاماً، هزيمة الصليبين، واستشهد فيها مراد الأول، ستنشب معركة دامية جديدة.

حين دخل السـلطان مراد براري كوسـوفو، كان فجر يوم الجمعة يوشـك على الانبلاج، وعلى الفور صلى صلاة الفجر، وخرّ ساجداً على الأرض، ومن ثم رفع يديه بالدعاء:

«يا الله! احمِ جنود أمة محمد، واشملهم بعطفك ورعايتك. واجعل النصر والظفر من نصيبهم. بجاه حبيبك وخير عبادك ساعدنا. إلهي! لقد كثرت آثامي، فـلا تدفـع جنـود أمتك بسـبب خطايـاي وذنوبي نحو التهلكـة، ولا توقعهم بيد الكفار يا رب»..

وبحسـب قوانين الحرب التركية الإسـلامية، أرسـل السـلطان مراد رسله، عارضـاً الصلـح. وحيـن جاءه الجواب بالرفض، قام بإعلان حالة الحرب، وبدأ يراجع كل المعلومات التي وصلته عن جيش العدو. وقد تمركز السلطان بنفسه مع ابنه الأمير محمد ووزرائه في قلب الجيش، أما الميمنة فكانت بقيادة خاله والي ولاة روميلي كارجا باشا، وكانت الميسرة تحت قيادة والي ولاة الأناضول عيسـى بيـك أزغـور أوغلـو. وكان أبناء بعض المحاربيـن القدماء في الصفوف

الأولى من الجيش مثل: عيسى إسحاق بيه أوغلو، تورهان باشا ييت أوغلو، خضر ميهال أوغلو. أما قوات الاحتياط فقط فكانت تحت إمرة سنان بيك، شقيق ساروجا باشا.

أما القوات التي تحت قيادة هونيدوارا، فقد كانت ميمنتها من جنود المجر وصقلية، أما الميسرة فقد كانت تضم الألمان والبولونيين والرومانيين. ورغبة من هونيدوارا في إطالة خط امتدادهم، فقد قام بوضع سبعة عشر ألف جندي بكامل عتادهم ليقفوا على شكل خط مستقيم في مقدمة الجيش.

وفي السابع عشر من تشرين الأول عام 1448، قام هونيدوارا واثقاً من انتصاره، بالاعتداء على الجيش العثماني معلناً بذلك بدء الحرب، فيما كان القادة العثمانيون يتجولون بين المحاربين وهم يهتفون مشجعين:

«أين هم من قالوا إن من يقترب من ظلّ السلطان، سنجعل رأسه يهتز على رؤوس الرماح؟ يا أبطال، اليوم هو يوم الشجاعة، فلنرَ مَن من الأمهات قد أنجبت بطلاً. من الذي سيتجلل رأسه بتاج النصر، ومن الذي سيتجرع كأس الموت؟ هيا يا من نذرتم أنفسكم على طريق المجد والبطولات..».

ورغم أنّ جيش التحالف قد هجم بمعنويات مرتفعة، ولكنهم لم يتمكنوا من إحراز التفوق على الأتراك في اليوم الأول. وحين نفذ هونيدوارا هجوماً آخر في ظهيرة اليوم التالي ولم يحرز أي نتيجة، قام بشنّ هجوم عند حلول الليل، ولكن الإنكشاريين الذي كانوا متمركزين في مواقعهم باستعداد تام، قابلوهم كسدّ معدني غير قابل للاختراق، فعاد العدو منكسراً مشتتاً.

وفي الهجوم الذي قام به العدو في صبيحة التاسع عشر من تشرين الأول، قام الجيش العثماني بانسحاب متعمد، وابتعدت كل من الميمنة والميسرة، فاتجهت قوات العدو لتستهدف قلب الجيش. وقد اندفع العدو بحماس مأخوذاً بوهم الانتصار بعد رؤيتهم لانسحاب الجيش، وظل يندفع محموماً نحو مركز الجيش. وبينما كان الإنكشاريون يتصدون بشكل رائع لضربات العدو، كانوا

يواصلون الانسحاب بشكل مدروس. وأخيراً حين وصل جيش التحالف إلى أعمق نقطة يمكن بلوغها، التفت عليه كل من الميمنة والميسرة، لتحاصره ضمن دائرة محكمة.

حوصرت قوات هونيدوارا، والتي كانت تقاتل قوات تورهان بيك في الميسرة. وحين أدركوا أنهم وقعوا في فخّ مطبق، قاموا بهجمة أخيرة بكل ما لديهم من قوة.

كانت صفحة السماء معتمة بسبب الغبار، وكانت الرؤوس تتساقط الواحد تلو الآخر، أما الدماء فبدأت تتدفق كنهر. وأخذ جنود الأناضول المترعرعون في ساحات الوغى، ينهالون على العدو المتدفق نحوهم بالسيوف، وهم يرددون بحمية وحماس يا الله يا الله، بحيث كانت الرؤوس تتفتت تحت ضرباتهم، والحديد يتحول في أيديهم إلى حبال. وفي هذه الأثناء أنشق جيش الأفلاق عن التحالف الصليبي، لينضم إلى الجيش العثماني.

ولم يبقَ أمام الصليبين سوى إيجاد سبيل للفرار، بعد أن خسروا جزءاً كبيراً من قوتهم وجنودهم. ورغم ذلك تمكن هونيدوارا من النجاة هذه المرة أيضاً وانسحب مع الفرسان الذين كانوا برفقته إلى معسكرهم. ومع حلول الليل، كان العثمانيون قد حسموا المعركة لصالحهم.

اجتمع هونيدوارا مع قادة جيشه، وقرر أن القوات المشكلة من الألمان ستبدأ الهجوم صباح اليوم التالي، مع توجيه جميع المدافع التي برفقتهم نحو مركز الجيش العثماني، أما هو فسيهجم بكل القوات المتبقية معه، ليحاصر العثمانيين من كافة الجهات. وبعد أن أبلغ قادته بهذا القرار، اختار مجموعة من صفوة جنوده، وهرب معهم بعد منتصف الليل، تاركاً جيشه في الميدان.

وفي صبيحة اليوم التالي قام العثمانيون بشن هجوم نهائي على العدو، وبدأوا بالسير نحوهم. ورغم أنّ الألمان والبوهيميين أظهروا رغبة في الدفاع عن مواقعهم ومواصلة القتال، ولكن حين أدرك الجند أن قائدهم لاذ بالفرار،

عمّ الاضطراب والخوف الجميع. وعلى إثر ذلك تمّ القضاء على قسم كبير من الجيش معظمهم من المجريين. وخلا من تمكن من الهرب في بداية القتال، فقد كان عدد الناجين قليلاً جداً.

وحين أدرك الأوروبيون مع معركة كوسوفو الثانية، أن من المحال إخراج الأتراك من البلقان، توقفوا عن الهجوم، واتبعوا سياسة الدفاع. وكان هذا النصر هو الخطوة الأخيرة من أجل تأمين جبهة البلقان، قبل الانطلاق نحو فتح إسطنبول، وخطوة البداية على طريق إخضاع معظم العالم للسلطنة العثمانية. وقد ظلت الدولة العثمانية بعد هذا النصر، محافظة على موقع أقوى وأكبر إمبراطوريات العالم لمدة ثلاثة قرون على التوالي. ولذلك كان لهذه الموقعة أهمية كبيرة في التاريخ العثماني.

غايتنا في هذه الدنيا

وبعد أن عاد السلطان مراد من كوسوفو سعيداً وأكثر قوة، خاطب وزيره تشاندرلي خليل بالقول وهو جالس على عرشه في أحد الأيام:

«خليل، ما رأيك أن نزوّج ابني محمد؟ ماذا تقول في ابنة سليمان دول قادر أوغلو؟

«إنها مناسبة يا مولاي»..

«كما أنه من كبار التركمان، وهو يكنّ لنا غاية الود والإخلاص»..

في الحقيقة كان سليمان دول قادر أوغلو يحاول إظهار ولائه للسلطان العثماني، وحسن نواياه في كل مناسبة ممكنة. وبناء عليه فقد تواصل تبادل الرسائل بين الطرفين من أجل تقوية هذه الصداقة وتمتين روابطها أكثر.

في البداية تمّ إرسال زوجة خضر بيك والي أماسيا إلى منزل أهل الفتاة من أجل نقل رغبة السلطان، ومعرفة رأي الفتاة، وحمل جواب. وحال وصول الأمر إلى خضر بيك، قام باصطحاب زوجته مع بعض النساء، وثلة من رجاله

الخُلّص، إلى البستان، من أجل رؤية ابنة سليمان بيك.

كان لـدى سـليمان بيـك حينها خمس بنات، وحيـن علم القصد من زيارة ضيوفـه، قـام بتقديـم كل مـن بناته التي تنافس كل منهن شـقيقاتها في الجمال، إلـى زوجـة خضـر بيـك. كانـت الفتيـات الخمس إلى حسـن خلقهـن، يتّصفن بالعفـة والاحتشـام. وحيـن اختارت زوجة خضر بيك إحـدى الفتيات، تقدمت إليها وقبّلت جبينها لتمييزها عن الأخريات. وعندما عادت وقابلت السـلطان، حدثته عن جمال ستي مكرم، وهي الفتاة التي اختارتها، وقد وافق السلطان على اختيارها. وفي ربيع عام 1449، ذهبوا لإحضار العروس. وقد رافق زوجة خضر بيك هذه المرة، الكثير من زوجات الباشوات ورجال الدولة.

وحين علم سليمان بيك أنّ رجال السلطان على الطريق، وأنّ موعد العرس قد اقترب، ذهب على الفور لاستقبالهم. وقد استضافهم بطريقة تليق بمكانة السـلطان، وأظهـر لهـم الكثير مـن الترحيب والحفاوة. وبعـد انتهاء تحضيرات العـروس وعقـد القـران، تمّ توضيب الجهاز، والذي تمّ إعداده على أكمل وجه ممكن، وسُلم لزوجة خضر بيك. ومن ثم أقيمت حفلة لتوديع العروس والقافلة السلطانية.

وقد اتجهت زوجة خضر بيك مع العروس الشابة نحو إدرنة.

كل قصر في دربهم بات محفلاً

وكل بستان غدا للزهر موئلا.

وحين اقتربت القافلة من إدرنة، خرج رجال الدين وشيوخ الدولة وأعيانها وأركانهـا، وكل ذي قـدر وشـأن، لاسـتقبالهم والترحيـب بهـم كمـا يليـق بكنة السـلطان. وعندما مثل الأمير محمد مع عروسـته أمام السـلطان، أضاف الأب على جهازها الكثير مما يغنيه.

وقد أقيم عرس ضخم حضره الأمراء والسلاطين كافة وكل أهل المدينة. وكان السـلطان مـراد ذو القلـب الرحيـم، يبحـث عـن ذريعـة مـن أجـل توزيع

الصدقات، والإحسان لذوي الحاجات. لذا فقد فتح الخزينة، ووزع الكثير من مقتنياتها النفيسة، وأهدى أفضل خيول اسطبلاته لضيوفه. وقد أكرم الشيوخ ورجال الدين أيّما إكرام. وكان لهم النصيب الأوفر والأثمن من العطايا. أما الشعراء؛ أولئك البلابل المغردة في بساتين اللغة، فقد منحوا جوائز ثمينة مقابل قصائدهم التي ألقوها بمناسبة العرس، ووُزِّعت عليهم الكثير من النقود والهدايا، حتى رضي الجميع دون استثناء. وكل فقير حضر العرس، غادره غنياً مكتنزاً..

استمر العرس أياماً عدة بلياليها، وعمّ الفرح كل شوارع العاصمة. وبعد أن عادت الأمور إلى سابق عهدها، جمع السلطان مراد وزراءه من حوله، والتفت نحو خليل باشا بالقول:

«أيا تشاندرلي العظيم، ما هي أقصى غاياتنا في هذه الدنيا؟ أن ننجب الأبناء والبنات؟ لقد حققنا ذلك بفضل الله وحمده. ولم يبقَ سوى أن نغادر ونحن مؤمنون صالحون».

الوفاة

بعد هذا العرس الكبير الذي أقيم للأمير محمد، ذهب لملاقاة والده وتقبيل يده للعودة إلى إمارته في مانيسا. وكان هذا آخر لقاء بين الأب والابن. وكان السلطان مراد يقضي آخر سنتين من حكمه في الاهتمام بالعمران، وأمور الدولة، ومجالس رجال الدين وعلمائه.

وفي أحد الأيام خرج برفقة إسحاق باشا، وساروجا باشا للتنزه خارج إدرنة. وحين اجتازوا جسر الجزيرة، وجدوا في انتظارهم أحد الدراويش، فأذن له السلطان بالاقتراب، ليخاطبه الدرويش بالقول:

«أيا سلطاني، كيف حالك».. ومن ثم واصل كلماته:

لا تهدر ما بقي من وقت في الملذات

ولا تنطق سوى بالحمد والصلوات

فالأجَل بات قريباً من بابك العالي

ليسأل سلطان العالم عن الصالحات

ولا مفر منه سوى القبول والرضا

ولا سبيل سوى التوبة قبل الممات

فكل من عليها فان إلا وجهه

لكن اللبيب يكثر من الباقيات

فاسلك دروب التقوى ما استطعت

واغتنم ما بقي لك قبل الفوات

فالتفت السلطان نحو إسحاق باشا، وأمره بالقول:

«تبيَن لنا من هو هذا الدرويش ومن يتبع».

فأوضح له الباشا من يكون الرجل:

«مولاي، إنه درويش من مريدي حضرة أمير سلطان في بورصة، وهو شخص ذو قلب مخلص صاف. وأحد متبعي طريقة الشيخ الجليل».

فالتفت السلطان الورع نحو ساروجا باشا بالقول:

«اسمعني يا ساروجا، غداً وفي يوم الحشر، ستكون شاهدي. فها أنا ذا أتوب عن كل ذنوبي».. وتاب توبة نصوحاً، واستمر في طلب العفو والغفران. وأغدق على الدرويش وعلى أصحابه في التكية الكثير من العطايا والحسنات.

عاد السلطان مشياً إلى القصر الذي ما إن دخله حتى انتابه صداع قوي. وعلى الفور قام بكتابة وصيته، حيث عيّن تشايدرلي خليل باشا وزيراً ووكيلاً لابنه محمد، ومن ثمّ شدد على ما يلي في وصيته:

«كما أوصيكم ببيع خاتمي الياقوتي – وقد كان ثمنه حين اشتريته، خمسة وتسعين ألف آكجة – وتوزيع ثمنه على قارئي القرآن، ممن سيتلون سوره الكريمة على قبري.

وأوصيكم أيضاً ببيع خاتمي ذي الفصّ الماسي، وتوزيع ثمنه على كل من يردد كلمة التوبة في اليوم سبعين ألف مرة. وليستمر هذا لمدة سبعة أيام متتالية. وإن لم يتم بيعه، فليتم رهنه، ومن ثم يتمّ استرداد الخاتم بعد دفع الرهن».

كما قام السلطان مراد حينها، ببيع بعض ممتلكاته الخاصة، وأوصى بتشييد قبر مفتوح القبة له لا يُبنى عليه حجر في بورصة.

وبعد أن رقد مريضاً ثلاثة أيام، توفي في الأول من محرم عام ثمانمائة وخمسة وخمسين هجرية من يوم الأربعاء، الموافق الثالث من شباط عام 1451.

فكل من يتنشق هواءها، يتجرع كأس المنية لا محالة
وكل ما على وجهها فان، ولا بقاء إلا له تعالى

شخصية مراد خان الثاني

ولد سادس السلاطين العثمانيين؛ السلطان مراد الثاني عام 1404 في أماسيا، أبوه هو السلطان محمد جلبي، وأمه هي السيدة أمينة ابنة سولي بيك دول قادر. بعد أن تلقى مبادئ التربية والتعليم في حضن عائلته، بدأ بتلقي الدروس التعليمية على أهم علماء عصره. وقد انقضت طفولته بين بورصة، أماسيا وإدرنة. وفي العام ألف وأربعمئة وخمسة عشر، تمّ إرساله مع مربيه يورغوج باشا إلى ولاية أماسيا لتولي إمارتها، بغرض اكتساب الخبرة في الأمور الإدارية وفنون الحرب والحكم، وذلك لقيادة الدولة مستقبلاً.

كانت الحدود الشرقية للدولة العثمانية، منطقة على غاية الأهمية والحساسية. فقد كانت نزعة الاستقلال والانفصال قوية لدى المغول والتركمان الذين يقطنون هذه الأراضي. وكان من الصعوبة بمكان، السيطرة عليهم.

وبعد انشغال الأمير الشاب بهذه التحركات والمسائل لمدة عام، تمكن مع مربيه حمزة بيك بيجر أوغلو، من أن يقتلع سامسون الكافرة من تحت سيطرة الجنويين. وفي العام ذاته تم إرساله إلى منطقة إيجة لإخماد الفتنة التي قام بها

كل من بوركلوجة مصطفى، وتورلاك كمال، وذلك برفقة الصدر الأعظم بيازيد باشا. ورغم أنّ التمرد كان قد بلغ مراحل خطرة، لكن الأمير الشاب تمكن من لعب دور مهم في إخماده. وقد اعتلى العرش عام 1421، واستمر في الحكم لمدة ثلاثين عاماً. ويقع قبره إلى جوار الجامع الذي بناه في بورصة في منطقة مرادية.

كان السلطان مراد الثاني، الذي توفي في السابعة والأربعين من عمره، متوسط القامة، بأنف أفطس، وجبين واسع، تميل بشرته للبياض، عيونه بنية اللون، وشعره كستنائي فاتح، أفلج الأسنان بعض الشيء، كان باش الوجه، ذا خلق حسن، كريماً يحب الإحسان، وسلطاناً ذا طباع حميدة. وقد كان أباً لستة ذكور وأربع بنات. أما أبناؤه فهم: السلطان أحمد الكبير، السلطان علاء الدين، السلطان محمد خان، السلطان أورهان، السلطان حسن، والسلطان أحمد الصغير. وقد توفي ابناه الكبيران السلطان أحمد الكبير والسلطان علاء الدين، على التوالي أثناء توليهما إمارة أماسيا، وتمّ دفنهما في بورصة. كما توفي ابناه السلطان أورهان والسلطان حسن في إدرنة، وتم دفنهما بالقرب من دار الحديث على ضفاف نهر تونجا. وقد تزوجت ابنته إرهوندو خاتون من يعقوب بيك، وفاطمة خاتون من محمود جلبي ابن تشاندرلي إبراهيم باشا، وشيه زاده خاتون من سنان بيك والي الولاة، ولا معلومات عن خديجة خاتون التي ترقد في قبر إلى جوار قبر والدها.

وحين استلم السلطان عرش السلطنة التي تعاني من مشاكل وقلاقل مزلزلة، كان لايزال في مقتبل العمر. ففي الأناضول كانت الإمارات التركية تتعرض لخطر طموحات تيمورلنك، أما البلقان والدول الأوروبية فكانت تتربص أدنى فرصة لانتهازها والانقضاض على الدولة التي انتابها الضعف في روميلي. وكانت بيزنطة تحيك الدسائس بمكر بالغ، وتفتعل في كل يوم فتنة جديدة داخل الدولة. وقد جاهد السلطان الذي تولى العرش في عصر

مضطـرب، طـوال عمـره من أجل وحدة إمارات الأناضول وحمايتها. ورغم أنه فضّل العيش في روميلي، ضمن حدود الاعتدال، لكنه لم يتهرب من واجبه حين كان الأمر يتعلق بمنفعة دولته، ولـم يكتفِ بالتضحية براحته في هذا السبيل، بل لقد بلغت شجاعته حدّ التضحية بنفسه إن اقتضى الأمر، وإلى ذلك فقد كان ذا إرادة قوية، وحاكماً عظيماً.

وكان شـاهروه ابـن تيمـور خـان الذي كان أكبر سـلاطين التـرك في ذلك العصر، يتجنب الاصطدام بالسلطان مراد، ويتبع معه سياسة حذرة. وهذا ما منع حدوث مواجهات بين الدولتين السنيتين. ولا يجوز فقط تقييم أعمال السلطان السـابق الـذي عاصـر الكثير من الفتن والأخطـار الداخلية والخارجية، فقط من خـلال سياسـته وحروبـه، فقـد ترك لابنه السـلطان محمد الذي سـيفتتح عصراً جديداً في التاريخ، دولة مستقرة ومتطورة على كل الصُعد.

وكان شـعبه الـذي اسـتطاع السـلطان أن يحظـى بمحبته، يلقبـه بمراد بيك العظيم، والغازي العظيم مراد. كما كان السلطان مرهف الروح حساساً، لطيف الطباع، عادلاً رحيماً، صادقاً في وعوده، شـجاعاً وذا حنكة وتدبير، وإلى ذلك كان قائـداً حربيـاً بارعـاً، ورجـل دولة حصيفاً. وقد بـدأ بخوض الحروب وهو لايـزال أميـراً فـي الثانية عشـرة من عمره، واسـتمر على ذلـك حتى قبيل وفاته. وكان يحـب صحبـة العلمـاء، كمـا كان يرعاهـم، ويقدم لهـم كل ما يحتاجونه. وكان يمضي يومين من الأسبوع في المجالس العلمية والدينية. وكان هو نفسه متعبداً زاهداً ورعاً، شديد التقوى، كل غايته أن يلفظ آخر أنفاسه على الإيمان، ليقابل وجه ربه الكريم، بجبين عال، وروح مطهرة من الذنوب.

بالإضافة لقضاء معظم سنوات حكمه في الحروب والفتوحات، كان يهتم بتعميـر البـلاد، حيـث ترك الكثير من الآثار العمرانيـة، لذا لقب بأبي الخيرات. وفي فترة حكمه أنشأ الكثير من المباني الخيرية للفقراء والمدارس للعلماء في كل من بورصة وإدرنة، وبقية المدن..

وقـد أنشـأ فـي إدرنـة كلية تحوي جامعاً، ومدرسـة من أجـل تلقين الجيل الناشـئ أحاديث الرسـول الكريم، وتعليمهم مبادئ الدين. وهناك رواية شـعبية تقـول إنـه قـام بتعميـر هـذه الجامـع بعـد أن رأى النبي الكريم فـي منامه، وهو يأمره بإنشاء دار الحديث. وقد ظلت هذه الكلية تُعرف حتى يومنا الحالي بدار الحديـث. كمـا قـام بإنشـاء حمام تاهتلى كولة أيضـاً ليتبع هذه الكلية. وقد بقي من الكلية في وقتنا الحالي، الجامع والفسقية وقبران في الحديقة.

أما أهم الآثار العمرانية التي أنشأها مراد الثاني في إدرنة فهو جامع الثلاث الشـرفات، وقد منحت المنارة بشـرفاتها الثلاث وطولها البالغ سـبعة وسـتين متراً، اسـمها للجامع. وقد أكسـبت الحجارة الحمراء، والمربعات البيضاء التي تتخللها، المنارة شـكلاً حيوياً. ويمكن بلوغ كل شـرفة من شـرفاتها من طريق مغاير. ويشـكل جامع الشـرفات الثلاث، نموذجاً للعمارة العثمانية الكلاسيكية المبكرة. أما القبة المركزية في الوسط والتي كانت بارتفاع أربعة وعشرين متراً، فقد كانت تستند إلى ستة أعمدة، وإلى جوارها قبتان أقل حجماً، وكانت مغطاة بحجارة سود وبيض بالتناوب. أما المصلى فقد كان مربع الزوايا، وهو ما شكّل طـرازاً جديـداً فـي البناء. وبذا فقد أخذت الجوامع التي أنشـئت فيما بعد، تتبع أسلوب المصلى المربع في بنائها.

وقد وصف المعماري الشهير أكرم حقي أيفردي بيك هذا الجامع بالكلمات التالية: «يشكل هذا الأثر نقطة تحول في تاريخ العمارة العثمانية. وهي أسلوب جديـد وجـد لـه طريقـاً في هـذه العمـارة، وكان فاتحة ناجحة لطراز الشـرفات الثـلاث الـذي سـاد فيمـا بعد. ومن ثم سـتنتقل هـذه العمارة إلى السُـليمانيات (نسبة إلى السلطان سليمان) والسليميات (نسبة إلى السلطان سليم)، وما تركه السلطان أحمد»..

وأنشـأ السـلطان مـراد الكليـة في منطقة المرادية علـى قمة منيعة. ويحدثنا الشيخ سعد الدين أفندي، عن هذا الجامع الذي يعتبر أجمل الجوامع المحيطة

به، على الشكل التالي:

«هذا الجامع الذي اشتهر بجمال بنائه وأناقته حمل اسم السلطان الذي قام ببنائه. وقد خصصت فيه غرف الضيوف لإقامة الفقراء والمحتاجين، ومنازل فخمة للمسافرين والعابرين. وفي كل صباح ومساء كانت تقدم ولائم ضخمة لإكرام الجميع. كما تمّ إنشاء اسطبل واسع من أجل حيوانات الركوب والحمل. وبسبب الطعام المجاني الذي كان يقدم لهذه الحيوانات، فقد كان المسافرون المنهكون من مشقة الطريق، يرتاحون من عناء إطعام حيواناتهم. كما تمّ إنشاء دار التعليم، من أجل تربية وتعليم الأطفال واليافعين. بالإضافة إلى أنه قام بإنشاء دار الدراويش من أجل الدراويش الذين ترعرعوا في تكية حضرة مولانا (جلال الدين الرومي)، والذي عُرف بحدائقه الغنّاء كجنات. وكان المكان يضيء من نورانية قلوب مُحبي الله، ولم يكن يمضي يوم من أيام الجمع دون أن يرتل الحَفظة سوراً كريمة بأصواتهم الشذية، بعد قراءة ديوان المثنوي لجلال الدين الرومي».

ويحدثنا الشيخ سعد الدين أفندي عن الجامع والمدرسة والطراز المعماري للمقبرة التي دُفن فيها السلطان مراد في بورصة، والتي منحت اسمها للمنطقة التي تقع فيها، بالقول:

«وقد كان جامع المرادية الكبير الذي أنشأه في بورصة أيضاً على قدر كبير من جمال العمارة. وفي مدخل الجامع تم بناء مكان واسع من أجل قدور الطعام الكبيرة. وقد كان مخصصاً لتقديم وجبة صباحية وأخرى عند حلول المساء لكل فقير وجائع، وكل صاحب حاجة. وبذا كانت الأرامل واليتامى الذين يشبعون جوعهم، يغادرون إلى منازلهم وهم يدعون للسلطان. وكما كان يفعل أجداده المتغمدون برحمة الله، فقد قام بإنشاء دار لتعليم اليافعين والنشء. وفي كل يوم كان أكثر من ثلاثمئة فتى يتلقّون العلم فيه»..

وإلى ذلك فقد قام السلطان مراد الثاني بإنشاء جسر على نهر إرغنة بالقرب

مـن إدرنـة، حيـث قامت مدينة أوزون كوبور. كما أنشـأ الجوامع في سـالونيك وإبسالا[1]. وفي أنقرة أنشأ سبيل ماء ضخماً باسم (بالك حيصار) ليرتوي منها حجاج مكة والقرى المجاورة. وفي كل مدينة يوجد فيها، كان في كل عام يوزع عشـرة آلاف ذهبية على شـيوخها بنفسـه. وكان يبالغ في الإحسـان إلى رعاياه، ويقف على الدوام مع حقوقهم. كما أنه استمر في العادة التي ورثها عن السلطان محمد جلبي، في إرسال الأموال إلى فقراء مكة والمدينة المنورة، والهدايا إلى جيران قبر الرسول الكريم.

والحادثة التالية تظهر مدى إيمانه القوي وورعه.

فحسـب ما أورده المؤرخ عاشـق باشـا زاده[2] في تاريخه، فقد جاء رجل صاحـب علـم يُدعـى فضـل الله من بلاد العجم واسـتطاع التقرب من السـلطان مـراد. حتـى أنـه تمكـن مـن بلوغ رتبة وزير في النهاية وذلـك عام 1436. وحين جاء موعد الأموال التي يتم إرسـالها إلى بيت الله الحرام. أمر السـلطان وزيره فضل الله بالقول:

«يـا فضـل الله، قـمْ بإعـداد النقود التي تمّ تخصيصهـا إلى كل من: القدس الشريف والحرم الإبراهيمي، قبلة الله والمدينة المنورة. فقد نوى مولانا الشيخ يغن أن يحج، لذا أرسل النقود معه».

ولأنه لم يكن في الخزينة مال كافٍ، فقد استدانوا بقية المبلغ من تشاندرلي خليل باشا، وقد سأله السلطان:

«خليل، هل هذه النقود التي أعطيتنا إياها من مال حلال؟».

و قد ردّ عليه الباشا:

«إنه ورثة وقد ورثتها من والدي يا مولاي».

و قـد لاحـظ فضـل الله أن السـلطان بيـن الحيـن والآخر يكـون في حاجة

(1) بلدة تتبع لمحافظة إدرنة في تركيا.

(2) هو درويش أحمد العاشقي 1400–1484 مؤرخ ومتصوف عثماني.

المال، لذا اقترح عليه:

«مولاي المعظم، السلاطين بحاجة لخزينة خاصة، وإن أعطيتنا الإذن سنقوم بجمعها».

وحين سأله السلطان:

«وكيف ستجمعها؟».

«معظم الشعب لا يعطي أموال زكاته للخزينة، لذا سنأخذها منهم بالقوة».

فاستاء السلطان مراد الثاني:

«أيها الوزير، ألا تعلم أن الزكاة والصدقات هي من حق الفقراء، فهل تحق لنا الزكاة حتى نأخذها عنوة، اذهب للاهتمام بعملك».

وقد استبعده السلطان منذ ذلك الوقت.

كما كان مراد الثاني يهتم كثيراً بالعلم والعلماء ويبجّلهم ويكثر لهم العطاء والإكرام، حتى تحولت السلطنة إلى مقصد العلماء والأولياء. حيث كان ينال دعواتهم جميعاً.

حتى أن العالم الكبير الملا يغن قد أحضر معه بعد عودته من الحج، الملا غوراني كهدية، والذي أصبح معلم الأمير محمد فيما بعد. وهي حادثة لم تجد لها نظيراً في تاريخ الأمم والدول، بل هي استثناء يشير للقيمة الكبيرة التي كان مراد الثاني يوليها للعلماء والعلم. وقد كتبت في عهده الكثير من الأعمال على مختلف مواضيعها من النثر والشعر والعلوم، بحيث تحول القصر العثماني إلى خزينة للأعمال الفكرية والإبداعية.

وأهم خدمة قدمها السلطان مراد للثقافة القومية، هو الأهمية التي أسبغها على اللغة التركية. حيث كان يبدي تشجيعاً واضحاً لكتابة هذه الأعمال باللغة التركية. فكُتبت أعمال كثيرة باللغة التركية في عهده، كتاب علي يازجي أوغلو (تاريخ السلاجقة) الذي يتحدث فيه عن عادات الأتراك الغزيين، وكتاب ملا عارف جلبي الذي يتحدث فيه عن فتح الأناضول وتحولها إلى التركية

(دانيشمند نامه)، شيرين وخسرف للشيخ، (المحمدية) لمحمد يازجي أوغلو، وكتاب (كابوس نامه) الذي ترجمه مرجميك أحمد عن الفارسية، وتحتل هذه الكتب أهمية لا تُضاهى في الثقافة واللغة التركية.

وللإشارة إلى مدى اهتمام السلطان باللغة التركية، نورد الحادثة التي وقعت بينه وبين مرجميك أحمد مترجم (كابوس نامه):

«في أحد الأيام اتجهت من فيليبة إلى السلطان لأمر ما، فوجدت أن سلطان العالم، المنتصر، سليل السلاطين؛ السلطان مراد الثاني يقضي معظم وقته وهو يحمل كتاباً. وتوجهت أنا العبد الفقير إلى جنابه بالسؤال:

- ما هذا الكتاب يا مولاي؟

فرد بوجهه الباسم:

- إنه (كابوس نامه) وهو يحوي الكثير من الفوائد والعبر، ولكنه باللغة الفارسية، وقد قام أحدهم بترجمته إلى اللغة التركية ولكنها ترجمة غير مفهومة، لا توضح المعنى والمقصود. لذا فلا نستطيع الاستمتاع بالقصص الواردة فيه، حبذا لو كان هناك من يستطيع ترجمته بشكل واضح وصحيح ليستمتع الجميع بما جاء فيه».

وقد قام مرجميك أحمد إثر هذه الحادثة بترجمة الكتاب إلى اللغة التركية بأسلوب ظريف ولغة معبّرة.

وبحسب ما ترويه لنا الموارد التاريخية، فقد كان السلطان مراد أول السلاطين الذين قاموا بتدوين الأشعار التي يؤلفها:

قد يكون النصح أبلغ من مقامي
لكن قليل الكلام، خير الكلام

وقد كان يملك موهبة شعرية تمكنه من كتابة الشعر بشكل بليغ، ولعل هذه الأبيات توضح ما كان يجول في ذهنه وروحه:

أيا حبيباً شُغل عن ذكره الأنام

إنّا في ذكر اسمك نمضي خاشعينا
يلهو عنك خلقك في جنان الفناء
ونحن لجنان الخلد نرنو دامعينا
وإن الشوق يحرق دون رحمة
ولا تخفي الجلادة نار العاشقينا
فيا كامل الأوصاف عونا ورأفة
لإن تهنا قليلاً صرنا هالكينا
ويا بصيراً بكل ما نكابده
فاض بنا الشوق فمتى تَلاقينا

وفي المجالس الشعرية التي كانت تعقد في ذلك العصر، كان يتم الاحتفاء باسمه كشاعر متمرس، كما نرى اسمه يتكرر في الكثير من الأشعار. وهناك أعمال شعرية مهمة تشير إليه كإرشاد المراد إلى المراد، والمراد المثنوي. وبالمحصلة فقد افتتح السلطان بداية حركة الثقافة والعلم في عصره والتي ستزداد وتترسخ بصورة أكبر في السنوات المقبلة.

أيا فلذة كبدي

وأما أكبر ما قدمه لنا السلطان مراد، فهو أنه كان والداً للسلطان الذي سيصبح أعظم الفاتحين الذين دخلوا التاريخ التركي.

لقد تنازل عن العرش لابنه من خلال حكمة نادرة وفراسة قلّ نظيرها لدى الحكام، وذلك ليكتسب الشاب خبرة في إدارة الحكم وينضج باكراً، وأما خبرته الطويلة في الحكم وقيادته للدولة سلماً وحرباً، والتي نقلها بدوره لابنه وهو لا يزال في سن باكرة فقد قام بتدوينها في كتاب خاص، وقد بدأ الأمر على الشكل التالي:

«كان السلطان جالساً على عرشه في إدرنة في أحد الأيام، فيما كان الأمير

الصغيـر- لـم يكـن قـد تولـى الإمارة بعد- يلعب في حديقـة القصر، وقد توجه نحو والده مسرعاً وقال له:

«يا سـلطاني السـعيد ووالدي المحترم، لا أريد إقلاق راحتك ولا إشـغال ذهنك، ولكنْ هناك سؤال لا ينفك يشغل ذهني ولم أجد بدّاً من طرحه عليك».

وقد أجاب السلطان مراد ابنه بالقول:

«أيا فلذة كبدي ويا ولدي الغالي، ما هو السـؤال الذي تريد طرحه؟ دعنا نسـمعك وإن شـاء الله سـنرد على سؤالك ونشبع فضولك. وسيسعدني جداً إن استطعت ذلك».

مـن هنـا بدأ السـلطان يـدون نصائحه، والأحاديث التـي كانت تدور حول هذه المواضيع في كتاب خاص، وهذا بعض مما جاء فيه:

«في كثير من الأحيان أفكر في أجدادنا العظام، وفي كيفية استمرار ذريتنا من بعدنا، وما الذي ستؤول إليه سلالتنا.

لقد كنا على الدوام نحترم ونشعر بالولاء لهم، وأتمنى أن يستمر هذا الحال في المستقبل. أتمنى أن نرحل كما جئنا وعلى ما كنّا عليه.

لقد حاولت ما اسـتطعت مسـاعدة الأشـخاص المتواضعين ومن يتحلون بالطيبة، وبذا فقد مكّنت كثيرين من أفراد شعبي الذين كانوا يعيشون حياة عادية لا أهمية لها، من شغل مواقع مهمة ومؤثرة. وما زلت أحاول ترقية من يتحلون بالكفاءة والحكمة في المواقع التي يسـتحقونها، ومنح كل شـخص ما يليق به. ومع ذلك فهناك من بينهم من أصبحوا جواسـيس لأمراء قرمان، أو أبناء علاء الدولة، وتورطوا في كثير من المكائد لصالحهم ودانوا بالولاء لهم.

أمـا أنـا فأنظـر إلـى الأمـر على النحـو التالي: من كان يدين لسـيده بالولاء المطلـق، ويتحلـى بالـذكاء وحسـن التصـرف، فعلـى سـيده معاملتـه بالمثـل. فالخدمات والتضحيات التي من الممكن أن يقدمها هؤلاء الأشخاص، لا يمكن أن يكون لها ثمن ولا حتى بكل أموال الدنيا.

وهنـاك أمـر تيقنـت منه بعد كل هذه التجارب؛ ذلك أنني قمت بترقية كثير من رعاياي ووليتهم مناصب عديد ، مقابل امتناني عن إخلاصهم في خدماتهم. ورغم ذلك فكثير من الأشخاص الذين رقيتهم، دفعوا ثمن ذلك غالياً. فقد جرّ عليهم المنصب الجديد الكثير من المشاكل. فأخطاء الأشخاص لا تظهر جلية للعيـان حيـن تكـون رتبتهـم صغيرة. ولكن حين تعلـو الرتب يتبدى بوضوح ما يفعلونه وما يقصّرون عن فعله. وبذا لا يتأخر تقييم أفعالهم وما يستحقونه من مقابل.

أيـا بنـي هنـاك أمـر عليـك أن تدركه جيـداً: يوجد فرق كبير بيـن ما يمكن تحقيقه بالقوة، وحد السيف، وأعمال التسلط، وبين ما يمكن تحقيقه بالحكمة والصبر والخبرة التي أكسـبتنا إياها تجارب الحياة الصعبة. فالطريق الأول، لا يمكن الاسـتمرار فيه لوقت طويل، فهو يحمل الكثير من الصعوبات والمشـاق أيضاً. فالتسهيلات التي تقدمها لنا الحياة، من خلال توفير الفرص في الأوقات المناسبة، لا تكون غايتها دفعنا للتسرع أو الإفراط في استعمال القوة. لقد خبرت الأمر عن تجارب عديدة، وكنت على الدوام أصلاً للنتيجة ذاتها. لذا إن أردت أيّ شيء في هذه الحياة، فعليك الاستعداد لكل ما سيجلبه إليك من خير وشر.

فلو شاء رجل أن يدخل بستاناً، ويأكل من فاكهته، دون انتظار نضج ثمره، فلـن يكـون مـا يتناولـه فاكهـة، بل قد يكون سـماً في بعض الأحيـان. ولكن لو تحلّـى بالصبـر، وانتظـر نضج المحصول، حينها فقط نسـتطيع القول إن الرجل تمتع بثمار غرسه.

وأنـا حيـن أتوجـه إلـى ربي، وأقيم ما عليّ مـن فروض وعبادات فأنا أفعل ذلـك مـن قلـب مؤمـن، وقناعة صادقـة. وأنا على تمام الثقـة أن صدق إيماني، سيرتد عليّ بالخير والفائدة حين الحاجة.

وأستطيع توضيح الأمر بصورة أفضل في هذا المثال:

لو طلب ابن بار، من والده المحب الحاني أن يلبي له رغبة يمكن تحقيقها

بسهولة، فستكون فرحة الوالد ليس في منح ذلك الأمر لابنه، بل في قدرته على تحقيق ما طلبه منه ابنه.

وبذا فنحن نستطيع مقاربة رغباتنا بما وعدنا الله تعالى بمنحه لنا.

وأنا أؤمن بأن كل ما مررت به وقاسيته في هذا العالم الفاني المضطرب، سيعوضني الله عنه بما لا يُقاس في الآخرة، ولا أنفك أواصل هذا الرجاء والدعاء، رغم أنني راض بما ارتضاه الله لي.

وحين تحين ساعتي، وأحظى بالمثول بين يديه، لن أخشى أو أتهرب من ملاقاته، بل ربما سأغدو أكثر رضا وسأزيده حمداً على ما منحني إياه. فهو سيخرجني من هذا العالم، إلى آخر جديد، مغاير كلياً لما قبله. وما سأقبل عليه، يختلف تماماً عن هذا العالم الفاني الذي سأغادره. وأنا متيقن أنه عالم أكثر كمالاً بما لا يقارن.

حين يكون المرء شاباً، تراه على الدوام يتجاوز الحدود في تلبية رغباته من مأكل ومشرب وجنس. رغم أن هذا الإسراف ما هو إلا طريق لإجهاد الجسد وإنهاكه، بحيث لا يتبقى منه عند الكبر سوى هيكل تعب، لا علاج ينفع معه. وتضيع حرمة الشيخوخة وسط أنين الجسد ومعاناته.. فحين تحتاج إلى حصان ما، ويقوم السائس بإحضار أكثر الأحصنة هزالاً وبؤساً، ففي هذه الحالة هل الحق عليك، أم على من يهتم بالخيل ويرعى شأنها؟

بالطبع إنه من يرعى الخيل ويهتم بها، وأنت لا يفترض بك سوى ركوب الخيل، لا رعايتها.

وقد عرفت كثيرين من كبار السن الذين كانوا يواصلون حياتهم وهم بأتمّ الصحة والعافية، دون أن يحتاجوا أي حكيم على الإطلاق. وكل ذلك كان بفضل الاعتدال والتعفف، فحتى في شبابهم كانوا حريصين على عدم الإفراط في شيء. ذلك أن الوقوع في يد الأطباء في خريف العمر يكون سبباً لآلام معنوية وجسدية عظيمة.

وهناك أمر آخر أريدك أن تعرفه تمام المعرفة:

هناك ثلاثة أنواع من البشر في هذا العالم:

الأول صاحب عقل وذكاء، يعمل الفكر في ما ستحمله الأيام القادمة، ولم يُبتلَ بأي ميول تخالف الطبيعة البشرية. والثاني هو الذي لا يعرف إن كان طريقه مستقيماً أو متعرجاً، ولكنه لم يقع في هذا الوضع رغبة منه، بل بسبب رغبات من حوله. ولكنه يستمع إلى النصيحة حين يتلقاها، فيقبلها، وفي الكثير من الأحيان يحاول تطبيقها على نفسه. أما النوع الثالث، فلا يدري ما هو عليه، ولا هو ملتفت للنصائح التي تُزجى له، ولا هو بقادر على فهمها. فلا همّ له سوى تلبية رغباته، وهو يرى نفسه مطلعاً على كل شيء، وهو أسوأ الأنواع وأكثرها فساداً.

فيا بني!

إن كان الله جل شأنه قد أنعم عليك أن تكون من الصنف الأول فذلك سبب سعادتي، وإن كنت من الصنف الثاني الذي حدثتك عنهم، فأوصيك أن تمعن الفكر في النصيحة. ولكن إياك أن تنحدر إلى الصنف الثالث، ذلك أنهم مذمومون من خالق العباد ومن عباده على السواء.

يا بني! السلاطين، كمثل من يمسك الميزان بيده

وحين تصبح سلطاناً، أريدك أن تمسك الميزان بالشكل الصحيح

حينها حتى الله جل جلاله، سيقدّر لك الخير».

ما الذي قيل في حقه

اجتمعت آراء المؤرخين سواء من معاصريه أو من معاصرينا على وصفه بالدهاء والحكمة، وعلى شخصيته العظيمة، وحبه للخير والإحسان، واهتمامه بالحركة العلمية والثقافية والعمرانية على حد سواء.

ويحدثنا المؤرخ البيزنطي الشهير دوكاس، عن السلطان مراد الثاني قائلاً:

«لقد كان السلطان مراد محباً لرعاياه، كريماً مع المحتاجين منهم. ولم يكن هـذا الإحسـان مقتصـراً علـى الناس الذين من عرقـه أو دينه فقط، ذلك أنه كان عطوفاً على رعاياه النصارى أيضاً، وكان يرعى المواثيق والعهود التي يقطعها مع الحكام النصارى ومع شعوبهم. ولكن حين كان بعض حكام النصارى ينكثون بوعودهـم ويخلـون بالمعاهـدات المبرمة بين الطرفين، كانوا يتعرضون لغضب السلطان وعقابه الشديد. ولكن غضب السلطان وحدته لم يكونا يستمران لوقت طويل، فهو لم يكن يواصل عقاب عدوه بعد تحقيق النصر، ولم يقم ولو لمرة بمحاولة القضاء على شـعب ما. فما أن يصل إليه السـفراء طالبين السـلم، حتى يوافق على الفور، ويشعر بالرضا، وكان يبرم معهم معاهدات الصلح ويتركهم وشأنهم.

أما المؤرخ اليوناني لانيكوس تشالكونديلس[1] فقد قال عنه:

«لقـد كان السـلطان مـراد رجـلاً محباً للعـدل وتطبيق القوانيـن، ولم يكن يدخـل حربـاً إلاّ إن اضطـر للدفاع عن نفســه. ولم يكـن يهاجم أحداً دون وجه حـق، ولكـن إن تعـرض للحـرب فكان لا يتجنبها. ولـم يكن ذلك عن جبن أو كسل، فحين الحاجة كان يترأس الجيش بنفسه، دون التهرب من أي واجب».

ويخبرنا المؤرخ هامّر عنه ما يلي:

«لقـد حكـم مـراد الثاني بلاده لمدة ثلاثين عاماً بإخلاص وعدل، وقد بقي في ذهن الشعب ذلك السلطان الورع، المحسن، العادل ورجل الدولة القوي. وكان متمسكاً بوعوده في السلم كما في الحرب. ولكنه كان ينتقم أشد الانتقام ممن يخلون بعهودهم معه».

أما فرانز بابينغير [2]فيقول عنه:

(1) مؤرخ يوناني ولد عام 1430كتب مؤلفا من عشرة مجلدات يروي تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في الـ 150 سنة الأخيرة.

(2) مؤرخ ألماني 1891–1967 عرف بمؤلفاته عن التاريخ العثماني والسلطان محمد الفاتح.

«لقد اكتسب السلطان مراد بسبب عدالته وصدقه، وصراحته، وشخصيته القوية، ليس احترام العثمانيين فحسب، بل وحتى المؤرخين البيزنطيين الذين ذكروه مادحين».

أما سولاك زاده محمد همدمي أفندي[1] فيمدحه بهذه الأبيات:

لأنه سلطان السلاطين وفخرهم
كان الجهاد له قدرا واقتدارا
وهو الذي قضى العمر فارسا
أنار دروب الحق مجداً وانتصارا
وراعى العلم حتى غدت البلاد
مدارس ولاذ الجهل منها فرارا
وللتقوى بنى ألف جامع
تكبر باسم الله ليلاً نهارا
تفانى وأخلص في كل خطوة
فصار الدرب إلى المجد دارا
فيا رب تقبل ما جنت يداه
وأنزله حيث تنزل الصالحين والأبرارا

ويصفه النشري قائلاً:

«لقد كان السلطان غازي مراد خان، حامي الشعب والجند على حد سواء. وفي عصره كان العلماء والصالحون والفقراء من رعاياه يعيشون في أمان، وكانت البلاد في عصره تعم برفاه مادي وبتجارة زاهرة، وكان رأي كل الرحالة ممن واكبوا عصره، أنهم لم يروا بلاداً عامرة بالعدل ومزدهرة كبلاده، ولم يقابلوا سلطاناً بعظمة أخلاقه وخلقه. وكانت البلاد تنعم بالمذهب السني.

(1) – مؤرخ وشاعر وموسيقار عثماني من القرن السابع عشر.

وكانت شعوب من اثنتين وسبعين أمة تعيش في ظل الحكم العثماني، وتنعم بالأمن والأمان».

ويقول شكر الله[1] عنه:

«كانت البلاد في عهد هذا السلطان المتدين، البعيد عن المحرمات، وارتكاب المعاصي، وضيق الفكر والصدر، والمجون، تنعم بالرفاه والرخص، على خلاف دول الروم المجاورة. فقد كان يقدّر المتدينين حق تقدير، ويعرف حقوق رعاياه، وبحسب الكثير من البحّاثة المطّلعين على أوضاع بلاد العالم كافة، والذين على معرفة واسعة بأمور الدنيا «كانت الدولة العثمانية في عصر السلطان مراد، المنعمة بالدين الحنيف على المذهب السني، تتصف بالعدل والاستقرار، وكان المسلمون ممن تنعم بلادهم بظل رعايته المباركة، يتمتعون بالراحة والأمان، وكان عصر هذا السلطان التقي، زاخراً بالخيرات، والانتصارات على أعداء الدين، وفتح البلدان، وبناء المدارس والمساجد والمنابر والخانات، والجسور الحجرية، ودور لإيواء الفقراء وعابري السبيل، وقد أولى العلماء ورجال الدين عناية فائقة، وعمل على تطوير العلم ونشره، وأسبغ عنايته الخاصة على الزهّد والمتعبدين، واهتم برعاياه ونصر الضعفاء منهم، وهذا ما لم يصادف مثيل له في أي عصر آخر».

وقد ختم كلماته بالأبيات التالية:

فحين يدعوك الرحمن إلى ربوع جنانه

ألن تطير الروح شوقاً إلى لقائه؟

(1) مؤرخ عثماني من القرن الخامس عشر.



القِسْمُ الثَّاني

السلطان محمد الفاتح

الموت لداء القلوب شفاء

وباب بين روحك والهموم

وإن طلبت الراحة فوصاله

ورجاء قربه خير ما تروم

فيا عوني ما عذابك هذا إلا

طالع سعد من لدن القيّوم

الأيام الأولى

عـاد الأميـر محمـد إلى مانيسـا عام 1449، بعد زواجه من سـتي مكرم ابنة سليمان بيك دول قادر أوغلو، لكنه لم يمكث فيها سوى عامين، فحين وصله خبر وفاة والده السلطان مراد الثاني، انطلق مع بطانته وحاميته على وجه السرعة متجهاً إلى إدرنة عبر جاليبولي.

وجلس على العرش في الثامن عشـر من شـهر شـباط عام ألف وأربعمئة وواحد وخمسـين. وكما تقتضي العادة، ففي أول يوم لجلوس السـلطان على العرش يتم عقد اجتماع في حضرته. وكان تشاندرلي خليل باشا ومن يؤيده من رجال الدولة والذين كانوا يتوقعون عزلهم من مناصبهم، يقفون إلى جانب بقية الوزراء، بعيداً عن السلطان قليلاً، فخاطبهم السلطان الشاب بالقول:

«لماذا يقف وزراء أبي بعيداً عني؟». وعلى إثر ذلك اقتربوا منه، حيث أمر ببقاء تشاندرلي في منصبه. وبذا فإن السلطان الشاب، كان إما متناسياً الخلافات القديمـة، وإمـا أنهـا رسـالة منه توضح أن لا مكان للانقسـام والتحزبات داخل جهاز دولته.

من جهة أخرى فقد تسـابقت الدول الأوروبية التي علمت باعتلاء محمد الثانـي العـرش، إلـى إرسـال سـفرائها لتهنئته. وهـم إمبراطور بيزنطـة، وملوك الصـرب والأفـلاق والمجـر، وإمبراطـور طرابـزون والـروم، وحاكـم المـورا، وحكومتا جنوة وراغوزا، وفرسان رودوس، وحكام كل من جزيرتي خيوس[1] وليبسوس (ميديللي)[2].

(1) خيوس هي جزيرة يونانية في بحر إيجة. تعتبر خامس جزيرة في اليونان وهي تبعد 7 كم عن الساحل التركي.

(2) هي ثالث أكبر جزيرة يونانية وتقع شمال بحر إيجة.

وكان السلطان الشاب يطمح إلى فتح إسطنبول منذ أن كان في الثانية عشرة من العمر، حين استلم عرش والده أول مرة. ورغم تمسكه بالفكرة، لكنه حرص على استقبال السفراء أحسن استقبال، وكان باسم الوجه، لطيفاً وودوداً. هذا الكتمان الذي اتسم به الفاتح منذ أولى لحظات توليه العرش، سيبقى خصلة ملازمة له طوال الثلاثين عاماً؛ مدة حكمه.

ففي إحدى المرات حين سأله أحد وزرائه عن وجهة الحملة التي يقودها، رد عليه السلطان بالقول:

«لو أنّ شعرة في لحيتي عرفت ما أخفيه، لنتفتها وقذفت بها في النار».

وبذا أوضح سياسته أمام الجميع، والتي عادت عليه بالكثير من الفوائد في مختلف الظروف.

كان سفير كل دولة من الدول يعرض طلباته– ضمن حدود المقبول– والسلطان الشاب يوافق عليها، حيث تم تجديد معاهدة السلام التي تمّ إبرامها مع البنادقة في العاشر من أيلول، ووقع سفراء المجر معاهدة سلام لمدة ثلاثة أعوام. وكان أكثر تقرباً من سفراء صربيا، فوافق على إرسال زوجة والده مارا خاتون – بناء على رغبتها – إلى والدها وخصص لها الكثير من الأراضي والممتلكات على حدود صربيا.

وإثر التفاهم بين الطرفين قام بترك قلعة كروسيفاتش للصرب. كما قام بعقد المعاهدات والاتفاقيات مع حكام كل من الأفلاق، وجزر ليبسوس ورودس وخيوس.

أما سفراء إمبراطور بيزنطة فكانوا أكثر من لاقوا حسن الاستقبال من السلطان. ومقابل عدم إطلاق سراح الأمير أورهان، تنازل لهم السلطان الشاب عن جورلو[1] والمناطق المحيطة بها. ووافق راضياً على تخصيص ثلاثمئة ألف آكجة سنوياً، لقاء مصاريف الأمير، وبحسب رغبة السفراء، سيتم تحصيل هذا

(1) مدينة تابعة لمحافظة تكير داغ، وهي حاضرة مأهولة منذ القدم.

المبلغ من منطقة كاراسو المجاورة لسالونيك.

ما رُوِّج عن السلطان الشاب

لقد كان استقبال السلطان محمد الثاني للسفراء، وتلبية طلباتهم بطيب خاطر، دليلاً آخر على بطلان سوء ظنونهم تجاهه. ذلك أنهم فيما كانوا يحضّرون لحملة صليبية ضد الدولة العثمانية، بعد استلامه العرش أول مرة وهو في الثانية عشرة من عمره، اتهموا السلطان الشاب حينها بالكثير من الافتراءات والأباطيل للتقليل من شأنه، وذلك لتأليب الآراء عليه. ولكن قيادة السلطان مراد الثاني ذات الخبرة الواسعة للجيش المتجه لفارنا والنصر الذي حققه، وما تبعه من تطورات حيث أُبعد السلطان الشاب عن العرش، منعت الدول المجاورة من تكوين انطباع ثابت عنه. وعلى الرغم من ذلك، فقد انتشرت في أوروبا مقولات تصفه بأنه مجرد شاب يفتقر الحنكة والقدرة على الإدارة.

مع اعتلائه العرش بعد وفاة والده، شعر معظم جيرانه بالسرور والراحة. وطغت فكرة مفادها أن الإمبراطورية العثمانية ستتفتت من تلقاء نفسها تحت حكم هذا الشاب قليل الخبرة وستمزقها الانقسامات والمشاكل الداخلية، حتى تزول وتختفي. لذا فقد بقي الأوروبيون والبلقان ساكنين على غير عادتهم ولا يقومون بأي تحرك مضاد للأتراك بعد تغير السلطان.

ولكن فيليلفو الذي أقام في قصر بيزنطة لمدة سبع سنوات والذي كانت له مطامع وآمال سياسية، انتقد بشدة عدم استفادة الأوروبيين من هذا الوضع، فبحسب رأيه لقد حان الوقت ليقوم الغرب برمته ويبدأ بالتحرك الحقيقي.

وقد جاء في إحدى رسائله: «إن مسؤولية قيادة حملة صليبية ضد الأتراك توضع على عاتق ملك فرنسا. فرجل محنك مثله سيجد مبرراً لقيام حملة مماثلة بكل سهولة. وأقصى ما يستطيع العثمانيون تحقيقه هو جيش لن يتجاوز تعداده الستين ألف جندي. والسلطان الذي اعتلى العرش مؤخراً يفتقر أدنى حدود

الخبرة، وإلى جانب افتقاره الخبرة العسكرية فهو جاهل وغرّ، وقد أسلم نفسه للنساء والشرب، وما من فرصة أفضل لإلحاق هزيمة قاصمة بالأتراك. فلا سبيل لهم إلى مقاومتنا مطلقاً. وسيمتد الجيش الصليبي حتى القسطنطينية دون أن يواجه أي مصاعب، ليتحد مع جيشها، من أجل إخراج الأتراك من البلقان إلى الأبد. بل وبمقدورهم فعل المزيد، بالعبور إلى آسيا، وسحقهم دون تردد أو هوادة. حتى لا تقوم لهم قائمة قط»..

وهذا ما جاء في نص رسالته إلى الملك شارل[1]: «إن من نواجههم، هم مجموعة من الجهلة والرعاع ليس إلا. إنهم ثلة من اللصوص، والمرتشين، وعبيد بلا أخلاق. لذا أرجو منك أن تضع كل تفكيرك وطاقتك في هذه الحرب المباركة، والتي هي على أقصى درجات من الأهمية، وأن تصغي لصوت قلبك وإيمانك. وإن وافقت، فإذاً هيا إلى الأمام أيها الملك المنتصر».

تلك كانت مجموعة الافتراءات والتقوّلات التي شكلها الغرب وأخذ يروجها عن السلطان الشاب بأنه أرعن، يقضي معظم وقته في الشرب وبين أحضان النساء. وكان مصدرها أولئك الذين لم يجدوا سبيلاً للإبقاء على بيزنطة قوية سوى بسحق الأتراك والقضاء عليهم. وأخذوا يخططون لدفع أوروبا برمتها من أجل التحرك، والذين كانت لهم غايات ومطامع شخصية إضافة إلى كل ذلك. ولكن من يصدق تقولات أشخاص كهؤلاء، ويجري وراء مآربهم، دون التحقق من صدق هذا الكلام، ويتصرف بعيداً عن مبادئ المنطق والعقل، أليس من الواضح ما سيلاقيه من مصير؟

من جهة أخرى، لم تبدأ أولى الحركات المناهضة للسلطان محمد الثاني من الغرب، بل من الشرق. فكعادة أمراء قرمان بالعصيان حين اعتلاء سلطان جديد للعرش، قاموا هذه المرة أيضاً باحتلال الأراضي العثمانية وضمها لنفوذهم. وكانوا يأملون أن دول الغرب بدورها ستنتهز هذه الفرصة، من أجل

(1) من المرجح أنه شارل السابع ملك فرنسا.

تحرك مضاد للسلطان، وبذا سيتمكنون من التخلص من النفوذ العثماني للأبد.

حين علم السلطان محمد بأمر تمرد أمراء قرمان، أرسل في البداية إسحاق باشا - الذي عينه والي ولاة الأناضول - على رأس حملة، ومن ثم قام بإعداد التجهيزات اللازمة في روميلي لينطلق هو أيضاً مع بقية جنوده على رأس حملة أكبر.

أمراء قرمان من تعاهدوا لنا بالولاء

سنمحي ذكرهم بإذن الله بعد هذا الابتلاء

هذا ما قاله السلطان قبل الانطلاق على رأس الحملة. وحين سمع إبراهيم بيك قرمان أوغلو بالاستقبال الحافل الذي يلاقيه السلطان في المناطق التي يمر بها في طريقه، لم يجرأ على البقاء في قونيا أكثر من ذلك، بل عاد للفرار إلى الجبال المحيطة بمنطقة تاشيلي، وقد أرسل وفداً برئاسة الشيخ الولي، من أجل إبرام الصلح وطلب عفو السلطان، حملهم بالنفيس من الهدايا.

أما التقوّلات التي كانت تتردّد في أوروبا وبيزنطة، بحق السلطان الشاب، فقد لاقت قبولاً، وترسخت في الأذهان. لذا اعتقدت بيزنطة أنها استعجلت إبرام المعاهدة معه، وأنه بوسعها الحصول على منافع أكبر من هذا السلطان الشاب. ألم يكن احتلال أمراء قرمان للأراضي العثمانية خير دليل على صدق هذه القناعة؟ وبعد مناقشات حامية، قرروا إرسال وفد جديد من السفراء إلى محمد الثاني.

بيزنطة من خرقت المعاهدة

وهكذا توجه سفراء بيزنطة، لملاقاة العثمانيين الذين كانوا يعسكرون جوار منطقة آك شهير، للتوجه إلى محاربة أمراء قرمان. وقد قاموا في البداية بزيارة الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا، وأخبروه بما يلي: «الأمير أورهان، ينتمي إلى السلالة العثمانية مثل السلطان محمد، كما أنّ المئات من الأشخاص

يقومون بزيارته ويرونه سلطاناً حقيقياً، وهم مستعدون لفعل أي شيء لتحقيق هذه الغاية. وبالمقابل يغدق الأمير العطايا والهدايا على من يخلصون له الولاء ويزورونه على الدوام، ولكنه يعاني من نقص مخصصاته المادية ويراجع الإمبراطور باستمرار حول هذا الشأن. ولأنّ وضع الإمبراطور لا يسمح له بتلبية متطلبات الأمير، فيجب مضاعفة مبلغ الثلاثمئة ألف آكجة المخصصة للأمير، وإلا سيضطر الإمبراطور لإطلاق سراحه. فهو ليس مجبراً على إعالة آل عثمان».

لكن الصدر الأعظم أدرك ما يرمي إليه البيزنطيون، وتوقع أن يكون هذا الإخلال هو الخطوة الأولى لبداية الخلاف بين الطرفين والتي قد تتطور إلى حصار إسطنبول. وهو ما لم يكن يرغب في حدوثه. وسيظل متمسكاً بالفكرة ذاتها أثناء حصار إسطنبول لاحقاً، حيث سيستمر في الدعوة إلى الصلح والتفاهم، وسيدعو على الدوام لرفع الحصار عن المدينة. لهذه الأسباب استاء كثيراً من موقف البيزنطيين، ورجّح أنهم أساؤوا تقدير السلطان الشاب وينوون نكث معاهداتهم معه. فخاطبهم غاضباً:

«أيها البيزنطيون الأغبياء والسذّج! أنا أدرك الأفكار الخبيثة التي تجول في أذهانكم منذ البداية، ولكم من الأجدى أن تتخلّصوا منها. ذلك أن المرحوم السلطان مراد الثاني، الذي كان على الدوام مجانباً للصلح، وصادقاً في معاهداته حتى النهاية، وصديقاً صدوقاً للجميع، قد رحل. أما السلطان الحالي فليس على القدر ذاته من سعة الصدر، وعلى خلاف ما تتوقعون فهو لا يحمل نوايا الوفاق ذاتها اتجاهكم. ولأنني أعرف جيداً شجاعته وجرأته وحِدة طباعه، فستكون نعمة إلهية إن نجت إسطنبول من سيطرته.

أيها الحمقى لقد تعاهدتم أمامنا ووقعتم مواثيق السلم معنا في الأمس القريب، حتى إن حبرها لم يجف بعد. وحين رأيتم أننا نخوض هذه الحملة، أردتم استغلال الفرصة، وكعادتكم بدأتم تهددوننا بأباطيلكم وتخرّصاتكم

لإخافتنا. لكننا لسـنا سـذّجاً لتنطلي علينا هذه الخدع، وإن كنتم تنوون تنصيب أورهان سلطاناً على تراقيا، فافعلوا ذلك. وإن كنتم تنوون جلب المجر ليعبروا الدانوب إلينا، فلا تتمهلوا. وإن كان في نيتكم إعادة السيطرة على ما خسرتموه من قبل، فعليكم بالأمر دون تأخير إن استطعتم.

ولكن عليكم أن تعلموا جيداً بأنكم لن توفقوا في كل ما تسعون إليه، بل على العكس ستخسـرون ما بحوزتكم أيضاً. إلا أنني سـأبلغ السـلطان بالأمر، وسنلتزم بكل ما يراه مناسباً.

سنلتقي حين العودة إلى إدرنة

حيـن علـم السـلطان محمـد الثاني بقـرارات الإمبراطور ومجلسـه، ولقاء وفدهم مع خليل باشا، احتدّ كثيراً. ورغم ذلك فقد حرص على إخفاء مشاعره حيـن اللقـاء بهـم. فاسـتقبلهم بوجه باسـم، واسـتمع إليهم في هـدوء. ومن ثم خاطبهم بالقول: «سنلتقي حين العودة إلى إدرنة بعد فترة قصيرة. وحينها سألبي كل طلباتكم». كان جواباً قصيراً ولكنه يحمل الكثير بين طياته. وقد أثار هدوء السلطان المناقض لحدة الصدر الأعظم، حيرة السفراء بعض الشيء، ومنحهم بعـض الأمـل أثنـاء عودتهـم. ومـن المرجّح أنهـم لم يدركوا مـا كان يرمي إليه السلطان على وجه الدقة.

لذا وبسـبب تورط بيزنطة في هذه المؤامرات ومحاولات نكث مواثيقها، تخلى السلطان عن ملاحقة إبراهيم بيك، ولبى طلب الوفد المرسل إليه، ورغبة وزرائه في السلام، وعفى عنه.

وبعد عودة سـفراء بيزنطة، وإبرام الصلح مع إبراهيم بيك بأيام عدة، عاد السلطان محمد الثاني إلى إدرنة. وعندما توجه إلى جاليبولي، وصلته أخبار عن سفن الفرنجة التي توجد في مضيق جناق قلعة، وحين عبوره من الأناضول إلى روميلي توجه إلى خليل باشا بالقول:

«يجب بناء حصن هنا». وكانت تلك البداية لبناء روميلي حيصار[1]. وكان المكان الذي أمر السلطان بناء الحصن فيه هو أضيق المواقع على المضيق، قبالة أناضول حيصار[2].

ودون شك ستعود السيطرة على المضيق، بفوائد جمة على العثمانيين، فخلا تأمين عبورهم من طرف إلى آخر، سيمنع ذلك سفن العدو من عبور المضيق، وسيُترك البيزنطيون دون دعم من الخلف.

وكانت أول خطوة قام بها السلطان حال وصوله إدرنة هي إرسال أمر إلى منطقة كاراسو، لإيقاف إرسال المخصصات الممنوحة للأمير أورهان، وطرد أتباع الإمبراطور القادمين لأخذها. وبهذه الخطوة كان السلطان يوضح أن الاتفاق المبرم بين الطرفين قد أُلغي قانوناً. أما الخطوة الثانية فكانت إرسال فرمان إلى كل الولاة في أرجاء سلطنته، يأمرهم بتجهيز كافة البنائين، والنجارين، والعمال، والحدادين مع كل ما يحتاجونه من مستلزمات.

هذا السلطان لا يشابه من سبقه

حين سمع الإمبراطور ورجال دولته بتحضيرات السلطان، شعروا لأول مرة أنهم أمام كارثة حقيقية، وعلى الفور أرسلوا وفداً جديداً إلى إدرنة. ولكن التعليمات التي تلقوها هذه المرة من الإمبراطور لم تكن تشابه ما سبقها، فعدا عن أنهم لم يأتوا على ذكر مخصصات الأمير أورهان، فقد عرضوا على السلطان قبول كل شروطه، وتقديم كل ما يلزم لمواصلة المواثيق والعهود المبرمة بينهم،

(1) القلعة التي بناها السلطان الغازي محمد الفاتح وكانت منطلق فتحه للقسطنطينية وبنيت في 4 أشهر فقط وهي روعة في الجمال. بنيت القلعة تمهيدًا لفتح القسطنطينية ولإحكام الحصار حولها، وتعد «قلعة روملي حصار» من أهم معالم مدينة إسطنبول التاريخية، وتتميز القلعة التي تطل على مضيق البوسفور بأسوارها وأبراجها العالية.

(2) قلعة تاريخية بُنيت على الضفة الآسيوية لمضيق البوسفور قبالة روميلي حصار، ولكنها أقدم حيث بُنيت على يد السلطان بيازيد الأول عام 1393.

لإقناعه بالعدول عن فكرة بناء الحصن.

وقد خاطبوه بالقول حين سمح لهم بالمثولِ أمامه:

«لقد مضى أكثر من مئة عام على سيطرة جدك مراد بيك على إدرنة. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، فإن كل السلاطين عقدوا معنا المواثيق، ولم يفكر أحد منهم في بناء حصن أو قلعة داخل إسطنبول. وحتى في الحالات التي نشبت بينهم حروب وخلافات، كانوا على الدوام يجدون طريقاً لإبرام الصلح والتفاهم. وحين رغب جدكم في بناء حصن على شاطئ الأناضول، بادر لطلب الإذن من الإمبراطور مانويل، كما يرجو الابن من أبيه. وقد وافق الإمبراطور على الأمر، على اعتبار أن الأناضول كانت مسكونة بالأتراك منذ أمد طويل. أما أنت فتريد منع سفن الفرنجة من اجتياز البحر الأسود وذلك في أكثر الأوقات سلاماً بيننا، وتريد القضاء على إسطنبول جوعاً، ومنعنا من الحصول على الضريبة التي نتلقاها مقابل العبور. وعلى ما يبدو فإنك مصر على المضي في هذا الطريق، لذا فنحن نتقدم إليك برجاء التخلي عن هذه الخطوة، وأن تستمر صداقتنا القوية- التي ترسخت في عهد والدك السلطان العظيم- في عهدك أيضاً».

وقد أجابهم السلطان بالقول:

«أنا لا آخذ جزءاً من المدينة، كما أنّ لا سلطة للإمبراطور على أرض تقع خارج حدود المدينة. لذا فلا يحق لكم منعي من بناء حصن على المضيق. كما أنّ هذه الأراضي تتبع لسلطتي. والقلاع التي تقع على شاطئ الأناضول ملك لي، فقاطنوها من الأتراك. أما الأراضي الواقعة في الغرب والتي لا يقطنها أحد، فهي أيضاً ملكي أنا، ولا يحق للبيزنطيين البقاء فيها. فحين قام ملك المجر بشن الحرب علينا، كان قادماً من البر، فيما سفن الفرنجة التي جاءت من بحر إيجة إلى المضيق، أغلقت مضيق جاليبولي في وجهنا، وبالتالي منعت والدنا من العبور إلى تراقيا، وحينها قام والدي بالعبور بواسطة السفن وبعون من

الله، في مكان قريب من القلعة أناضول حيصار التي أنشأها جدي على شاطئ المضيق. ولم تغب عنا المشقات الكثيرة التي تكبدها والدنا من أجل العبور، حيث كانت سفن الإمبراطور تراقب جيئة وذهابا لمنع والدي من عبور مضيق إسطنبول. كنت حينها طفلاً أمكث في إدرنة، وكنت أنتظر قدوم المجر، والذين كانوا ينهبون المناطق المحيطة بفارنا. أما إمبراطوركم فكاد أن يطير فرحاً، فيما يراقب ما يجري. كان المسلمون يكابدون الموت والألم فيما الكفار في جذل وتشفٍّ. وقد تعهد والدي حينها، بعد المشقات الكثيرة التي لاقاها في عبور المضيق، بناء قلعة مجاورة لقلعة الأناضول، على شاطئ روميلي، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ هذا العهد. وبعون الله أريد أنا القيام بتحقيق هذه الرغبة. فلماذا تحاولون منعنا؟ ألست قادراً على بناء ما أشاء في سلطنتي؟

اذهبوا وأخبروا إمبراطوركم: هذا السلطان لا يشبه من سبقه. فهو يستطيع بسهولة تحقيق ما عجزوا هم عن تحقيقه. وكل ما رغبوا عن القيام به، فهو راغب فيه، عازم على تنفيذه. وكل من يراجعنا في هذا الخصوص من الآن فصاعداً، سيُسلخ جلده».

عنق البيزنطيين في يد العثمانيين[1]

ومنذ ذلك الحين، لم يعد السلطان إلى مقابلة السفراء، لأنه سخر كل طاقته وجهده للتحضيرات اللازمة من أجل فتح إسطنبول القادم.

أخذت الاستعدادات، التي بدأت واستمرت طوال الشتاء على قدم وساق، تؤتي ثمارها في الربيع. ففي نهاية شهر آذار، اتجهت ثلاثون سفينة حربية مع الناقلات البحرية إلى الموقع الذي سيتم فيه بناء الحصن. أما السلطان الذي جاء براً، فقد قام بنفسه بتحديد الموقع الذي سيتم فيه البناء. وبحسب التصميمات، قرر أن يكون البناء مثلث الشكل، أحد أطرافه يطل على البحر، أما الطرفان

(1) هناك جناس في العبارة، فكلمة عنق بالتركية تشير إلى العنق والمضيق في الوقت ذاته.

الباقيان فيطلان على الجهة البرية. وبالإضافة إلى ألف معلم بناء وخمسة آلاف عامل، تم إحضار الأحجار التي أُرسلت من الأناضول، أما الجذوع الخشبية الضخمة فقد أُرسلت من أزميت ومنطقة البحر الأسود، وقد خصّص السلطان ميزانية كبيرة لبناء القلعة بما فيها المبالغ التي استدانها من خليل باشا وساروجا باشا، وزاغنوس باشا، أما الأسوار والأقسام الخارجية من الحصن، فقد تكفل ببنائها من ماله الخاص. ومع بدء عمليات البناء، قامت مجموعة من القوميين البيزنط بالتحرك بشكل تطوعي، ونفذوا هجوماً لمنع إتمامه، ولكن تمّ تشتيت شملهم في وقت قصير، وقتل عدد كبير منهم. وعلى إثر ذلك أمر السلطان بمعاملة البيزنط ممن هم خارج حدود المدينة بقسوة أشد.

أما الإمبراطور الذي كان قلقاً جراء العوز الذي سيعاني منه إن تضرر الريف، فقد كان يرسل كل يوم طعام بنائي القلعة، حتى لا يتعرضوا للقرويين بسوء. كما قام بإرسال وفد أخيراً يرجو السلطان الصلح، فقوبل برفض حازم. وبعد أربعة أشهر من العمل المتواصل الذي كان يشارك فيه السلطان بنفسه في بعض الأحيان، اكتمل بناء هذا الحصن المنيع- الذي كان البيزنطيون يسمونه (قاطع العنق)، لأنه قطع الطريق عليهم، وبقي تذكاراً راسخاً حتى أيامنا هذه. وإن وقفنا قبالة القلعة بعيداً قليلاً، سنجدها تماثل شكل كلمة محمد بالعربية، اسم النبي الكريم، والسلطان الفاتح في آن.

ومع انتهاء البناء قام السلطان محمد الثاني بتعيين فيروز آغا على رأس الحامية. وترك تحت قيادته أربعمئة محارب إنكشاري، وأسلحة، وذخيرة كافية. وقد جاء في الفرمان الذي أعلنه:

«جميع السفن التي تعبر من البحر الأسود إلى بحر مرمرة وبالعكس، وبغض النظر عن الدولة التي تنتمي إليها، أو الرتبة التي تحملها، عليها أن تخفض أشرعتها وترسو أمام القلعة، وبعد أن تدفع ضريبة العبور المفروضة، تستطيع الإبحار مجدداً. وأي سفينة تحاول مخالفة هذه الأوامر سيتم إغراقها بالمدافع».

في الســادس والعشــرين من تشــرين الأول عام 1452 كانت إحدى ســفن البندقيــة التابعــة لأنطونيــو ريــزو متجهــة من الدانوب إلى إســطنبول. كان البحر ملائمــاً، والريــاح التــي تهــب من الخلف تمكّن من الإبحــار بصورة مريحة. لم تذعن السفينة لإنزال أشرعتها، ورغم مخاطرتها بالتعرض لنيران المدفعية، فقد أطلقت أشرعتها بكل جرأة آملة في تجاوز الحصن. ولكن مع أولى الضربات تحطمت مقدمة السفينة، ووجدت نفسها تتجه بسرعة نحو قاع البحر. واعتباراً من تلك الحادثة، لم تجد أي سفينة الجرأة الكافية لعبور المضيق دون النزول عند أوامر السلطان الفاتح.

جهزوا أنفسكم للحرب

تحدثنا المصادر العثمانية، عن الحادثة التي وقعت في شهر آب بعد إتمام بنــاء الحصــن حيــث خــرج عدد مــن الجنود للتنــزه، واصطدموا ببعــض الرعاة البيزنــط، وأدى الخــلاف الناشــب إلــى وقــوع جرحــى وقتلى، وعلــى إثر ذلك لــم يكتــفِ إمبراطــور بيزنطة بإغلاق أبواب إســطنبول، بل قــام بتوقيف الأتراك الموجوديــن فــي المدينــة. ولكنــه بعد فترة قام بإطلاق ســراحهم وأرســل وفداً إلى الســلطان ليعتذر منه. لكن محمد الثاني اســتقبل الوفد بجفاء، واعتبر هذه الحادثة كافية لإنهاء علاقات الصداقة بين البلدين، فإما أن يسلموا المدينة وإما أن يســتعدوا للحــرب. رغــم أنه كان قد بــدأ للتحضير بالفعل لفتح المدينة، منذ أن حــاول إمبراطــور بيزنطــة الإخــلال بالمواثيــق المبرمة بينهمــا أول مرة. ومع انتهاء بناء الحصن وبقية التحضيرات، وإثر وقوع هذه الحادثة، انطلق السلطان مع خمســين ألف محارب نحو أســوار إســطنبول. وبعد مكوثه حوالى اليومين أمام الأسوار من أجل فحصها والاطلاع على الخنادق والأبواب فيها، عاد إلى إدرنة بعد ترك قوات إضافية لحماية الحصن. وبالطبع لم تكن حادثة (الجنود-الرعاة) هي الســبب في توجه جيشــه نحو أســوار المدينة. فحتى لو لـم يحدث

أي شيء لكانت الأمور تطورت على هذا النحو. ذلك أنها كانت خطوة متوقعة بعد محاولة البيزنطيين الإخلال بالمعاهدات المبرمة، حين أرسلوا وفداً إلى السلطان بينما كان على رأس الحملة التي خرجت لمحاربة أمراء قرمان. ولهذا السبب فالمصادر البيزنطية تنتقد بشدة تصرف الإمبراطور على هذا النحو. وهذا بعض مما أورده دوكاس:

«لقد قام الحمقى البيزنطيون، دون التروي في التفكير، بالترويج لأفكار سخيفة وإرسال وفد للسلطان محمد الثاني»، ويشرح أن ما قاموا به دفع محمد الثاني للقيام بخطوة خطرة ومدمرة، فقد كان بناء الحصن هو أول الإجراءات الفعلية لبدء الحرب. ويتفق معظم الباحثين على أن المشاحنات التي حدثت بين العثمانيين والقرويين البيزنط، سواء أثناء بناء الحصن أو حتى بعد إتمامه، ليست السبب المباشر لفتح المدينة، فهي لا تعدو أن تكون تتمة لسلسلة الحوادث التي أدت للحصار وانتهت بالفتح.

وحين التمعن في سير الأحداث، سنجد أن هذا ما كان عليه الواقع بالفعل. فمع قدوم الوفد لمقابلة السلطان بعد الانتهاء من بناء الحصن، وإعلانه للحرب بشكل واضح: «عليكم أن تروا الحقيقة، إسطنبول ستكون لي، وإن كنتم غير راغبين في سفك الدماء، فعليكم الاستسلام على الفور، وإلا فجهزوا أنفسكم للحرب». ومن الواضح أن السلطان لم يعد يجد مانعاً من إخفاء حقيقة نواياه، رغم أن إجراءات فتح إسطنبول لم تستكمل بعد. وقد أمضى السلطان ذلك الشتاء أيضاً في إعداد مدافع هائلة لم يكن لها نظير في ذلك العصر.

النوم يجافي عيوني

بعد أن أتمّ السلطان بناء الحصن، وعاد إلى إدرنة، كان مندفعاً بكل جوارحه نحو هدف واحد، ليلاً نهاراً سواء كان نائماً أم مستيقظاً، في القصر أم خارجه، ومهما كان مستغرقاً في العمل. كان فتح إسطنبول هو ما يشغل ذهنه

بتواصل محموم. وفي كثير من الأحيان، وعند حلول المساء، كان يخرج مع بعض من مرافقيه الثقاة، بعد تبديل ثيابهم، متجولين في أحياء إدرنة، يتباحثون في ما يجب اتباعه من إجراءات، أو لإملاء بعض الأوامر والتحضيرات. فلم يكن يريد أي نقص في خطته.

وفي إحدى الليالي، وبعد انتصاف الوقت بأمد ليس بقليل، أرسل بعض رجاله من أجل دعوة تشاندرلي خليل باشا إلى القصر، والذين أخبروا مسؤولي حريم الباشا عن أمر السلطان حين بلوغهم القصر. فتوجه هؤلاء على الفور لإيقاظ الباشا الذي ما إن سمع بالأمر حتى أصابه خوف عظيم. ذلك أنه كان قد تورّط في بعض المؤامرات ضد السلطان، وكان يخاف أن يُقتل. وبعد توديع زوجته وتقبيل أولاده غادر القصر، وقد اصطحب معه صندوقاً مليئاً بالذهب. وحين وصل إلى غرفة السلطان، وجده جالساً وقد أنهى ارتداء ثيابه الرسمية. وكانت تمتد أمامه خرائط لإسطنبول، ومخططات الحصار المزمع. وبعد أن قبل حاشية ثوبه، وضع الذهب أمامه.

حين رأى السلطان ذلك سأله:

«ما هذا يا لالا[1]؟».

وقد ردّ الأخير:

«مولاي! حين يستدعي السلطان رجال دولته، في ساعة غير متوقعة كهذه، فمن العادة ألا يأتوا للمثول أمامه خاليي الوفاض. كما أن هذا الذهب الذي أقدمه لك ليس لي. بل هو ملك لحضرتكم وأنا أعيده إليكم».

فبدا الضيق على السلطان:

«لالا ! لا حاجة لي بذهبك، بل سأعطيك مثله وأزيد. كل ما أريده منك بالمقابل أن تعطيني إسطنبول، فلا شيء سواها كفيل بتهدئتي. ألا ترى أن النوم يجافي عيوني؟».

(1) لالا: لقب كان يطلق على المعلمين والمربين، ومن هم في مرتبتهم، توقيراً واحتراماً.

وقد أجاب خليل باشا على هذا الطلب بالقول:

«مولاي! إن جناب الحق الذي مكنك من معظم أملاك البيزنطيين، سينعم عليك بهذه المدينة أيضاً. وأنا واثق أنها لن تنجو من يديك. والحمدلله فأنا وكل رعاياك، نتسابق من أجل تحقيق هذه الغاية العظمى، باذلين أموالنا وطاقاتنا ودمائنا إن اقتضى الأمر. لذا نمْ قرير العين يا مولاي».

ربما أراد السلطان الذي ترددت على مسامعه الكثير من التقولات حول ميول الباشا لحماية الروم ومهادنتهم، الوقوف على الحقيقة من الباشا نفسه، وحين سمع كلماته شعر بالراحة.

في تلك الفترة، كان السلطان الشاب يعمل حتى الفجر على إنهاء إجراءات الفتح. فقد كان يضع أمامه خريطة إسطنبول ويمسك اليراع، ويبدأ برسم مواقع التموضع حول المدينة، ومن ثم صفّ مجسمات المدافع والأبراج وبقية معدات الحصار ويحدد المناطق التي ستحفر فيها الأنفاق على الخارطة، والنقاط التي ستعلق فيها السلالم لتسلق الأسوار وأبراجها، بحيث كان يقضي معظم النهار والليل منشغلاً بهذه الخطط.

وكان من أهم ما قام السلطان بالإشراف عليه بعد عودته إلى إدرنة، هو صب مدافع ضخمة لم يُشهد لها مثيل حتى ذلك التاريخ. وقد وكّل هذا الأمر إلى ذوي الخبرة في هذا الشأن، المهندس مصلح الدين، وساروجا سكبان، وأوربان المجري الذي فرّ من إسطنبول أثناء بناء حصن روميلي، والتجأ إلى العثمانيين.

وقد وُفق ساروجا سكبان في بناء مدفع كبير جداً. وقد أعلن أوربان المجري أيضاً عن قدرته على بناء مدفع هائل الحجم، ولكن دون التدخل في صنع القذائف. لذا قام السلطان بالتكفل بهذه المهمة بنفسه. وكانت قذائف هذه المدافع تصنع من حجر خاص يتم إحضاره من منطقة البحر الأسود. حيث يتم نحته وتحويله إلى دوائر.

وقد أطلق على هذه المدافع الضخمة التي كلفت الكثير من المال والجهد

اسم (شاهي) أو المدافع السلطانية. وحين انتهى أوربان من صنع مدفعه، أراد تجربته، فوضعه أمام باب حديقة قصر السلطان الجديد الذي قام بإنشائه في تلك السنة، ووضع القذيفة داخله. وقد تقرر إطلاقها في اليوم التالي، وتمّ إعلام أهالي إدرنة بهذا الأمر. تجنباً للذعر الذي سيصاب به الناس إن سمعوا تلك الضجة الرهيبة، والتي قد تؤدي لإجهاض الحوامل أجنتهن. وفي صبيحة اليوم التالي تمّ إشعال فتيل البارود، ووسط صخب هائل انطلقت القذيفة بسرعة، مخلفة وراءها سحابة من الدخان. وبعد قطع القذيفة ميلاً كاملاً، غارت في الأرض بعمق قامة رجل. وقد سرّ السلطان من النتيجة سروراً عظيماً.

ويجب التنويه بأن كثيراً من المراجع حين ذكرها للمدافع السلطانية، تغفل عن ذكر المهندسين العثمانيين الذين ساهموا في بنائها، وتنسب الفضل كله لأوربان المجري، رغم أن صناعة المدافع التي بدأ العثمانيون باستعمالها منذ العام 1389، كانت في غاية التطور. وكان السلطان محمد الثاني يملك خبرة واسعة في هذه الصناعة، حتى أنه كان يضع تصاميم القذيفة بنفسه.

وكانت إحدى أسطونات المدافع تعود لأوربان المجري، أما البقية فللمهندسين مصلح الدين، وساروجا سكبان. أما مدفع أوربان الذي لاقى معظم الذكر والمديح، فلن يتحمل طويلاً، وسينفجر من السخونة أثناء الحصار ويصبح غير قابل للاستعمال.

وهناك نقطة أخرى خلا توفير هذه المدافع لأسباب النصر، وهو مدى تطور العلم والصناعة في الدولة العثمانية. واقتداءً بالحديث الشريف «اطلبوا العلم ولو كان في الصين»، كان رجال العلم يلاقون أحسن المعاملة والأجر، وذلك للاستفادة من خبراتهم وعلومهم إلى أقصى الحدود. وهذا ما يؤكده المؤرخ البيزنطي دوكاس: «لو أن الإمبراطور قد دفع لأوربان ربع ما أعطاه إياه السلطان العثماني، لما غادر». وسيستمر هذا النهج الذي اتبعه السلاطين حتى آخر أيام السلطنة.

همتي ونيتي نحو إسطنبول

فيما كان السلطان محمد الثاني منشغلاً بتحضير تدابير الفتح في إدرنة، دعا إلى اجتماع يحضره قادة الجيش ورجال الدولة والدين وعلمائه للأخذ برأيهم دون أن يكشف لأحدهم الهدف من هذا الاجتماع. وبعد أن قام باستقبالهم، وبعد الطعام والشراب، بدأ وزراء الدولة بتقديم أهم التطورات والتقارير للسلطان كما هي العادة، ومن ثم خاطب السلطان ضيوفه بالقول:

«هناك أمر يشغل ذهني منذ مدة طويلة، وأريد التشاور حوله معكم، ذلك أنه مهما بلغ ذكاء الشخص واتسعت معارفه، لا يتوجب عليه الانفراد برأيه، دون التشاور مع أهل الفكر والخبرة. فهذه كانت سنّة الرسول الكريم، وقد أمرنا باتباع سنته. لذا أريد من الجميع التعبير عن رأيهم بصراحة، إزاء الموضوع الذي سأطرحه عليكم».

فأوضح الحضور إنّ الرأي والحكم للسلطان، ولكنهم ونزولاً عند رغبته فسيعرضون ما لديهم من رأي ومشورة، ليعود السلطان للكلام مجدداً:

«ما من دولة استمرت أبد الدهر، وما من أحد حاز الخلود في هذه الدنيا الفانية. وما القصد من هذه الحياة سوى أن نعرف الله ونقضي العمر في التقرب إليه وإرضائه. وأكثر الناس فضيلة، من قدر لهم العيش وسط أهل الكفر والضلال لمحاربتهم. وها هي القسطنطينية التي تشبه حدائق الجنان، حيث يتغنى الكل بجمالها وعمرانها، قاب قوسين منا. فهل يجوز لمدينة بعظمتها، وعلو مقامها أن تظل قبلة للكفار، ومرتعاً للضلال، في عهدي وأثناء فترة حكمي؟ لذا فإن نيتي وهمتي تتجه نحو إسطنبول».

ومن ثم شرح لرجال دولته ومن حضر الاجتماع، المشقات التي تكبدها أجداده من مؤسسي الدولة حين توجهوا نحو روميلي، والدسائس والمكائد التي تحوكها بيزنطة، وأنه لن يخوض في أي أمر ما لم ينتهِ من البيزنطيين أولاً. ومن ثم أراد استعراض آراء رجاله حول هذا الأمر.

وقد انقسم رجال دولته بين فريق أيّد ما يراه السلطان، وفريق رافض للفكرة. وكان الفريق الأخير يرى أن فتح إسطنبول أمر في غاية الصعوبة، ذلك أن عدد سكانها كبير، وتحيط بها أسوار منيعة، وسيدافعون عنها بشدة، ومن المرجح أن يستحيل فتحها، وهذا ما سينعكس على هيبة الدولة، لذا فمن الأفضل عدم الخوض في الأمر. وكان أعضاء هذا الفريق يلتفون حول خليل باشا، فاستاء منهم السلطان بصورة كبيرة، وخاطبهم قائلاً:

«لو قدّر الله تعالى لي فتح هذه المدينة، فسيتم ذلك حتى لو كانت جدران أسوارها وقلاعها من حديد، ذلك أن نار غضبي ستذيبها كما يذيب اللهيب الشمعة».

وإزاء إصرار السلطان الواضح، وافق الجميع بالإجماع على مسألة فتح إسطنبول.

تحضيرات البيزنطيين

مع بدء السلطان ببناء حصن روميلي، خمن البيزنطيون أن هناك صداماً عنيفاً سيقع على أبواب المدينة، ذلك أن كل الوفود التي أرسلها الإمبراطور من أجل تجديد مواثيق الصلح والسلم وكل التنازلات التي قدموها قوبلت برفض حازم من السلطان. وبناء عليه فقد تمّ التحضير بسرعة لما هو قادم.

وكانت أولى الخطوات، إرسال الإمبراطور سفراءه إلى روما طلباً للمساعدة. حيث عرضوا على البابا تطبيق قرارات مجمع فلورنسا[1]، ورفع اسم البابا في الكنائس الكبرى، وعودة البطريرك جرجس إلى إسطنبول، واستعادة منصبه السابق. كما عرضوا على البابا إرسال من يراه مناسباً من أجل إنهاء العداوات بين الطائفتين (الأرثوذكسية والكاثوليكية) وإحلال السلم والمحبة

(1) مجمع فلورنسا (1431 – 1445) هو المجمع المسكوني السابع عشر في الكنيسة الكاثوليكية عُقد في مدينة فلورنسا الإيطالية وحضره ممثلون عن الكنائس المسيحية الشرقية المنفصلة عن روما، لمناقشة قضية وحدة المسيحيين.

بين معتنقيهما. وكان الإمبراطور يأمل من توحيد الكنيستين، أن يقوم البابا بجمع قوة كبيرة من كل أرجاء أوروبا من أجل القدوم لنجدته.

وعلى إثر ذلك وصل رسول البابا، الكاردينال إيزيدور إلى إسطنبول في الثاني عشر من أيلول عام 1452، وأعلن وحدة الطائفتين، وقام بتطبيق شعائر القداس وفق ما تتبعه روما. ولكن رد فعل أهل المدنية الأرثوذكس على هذه الخطوة كانت في منتهى الحدة. فلم يكن البيزنطيون راغبين في الخضوع للمسلمين، ولكنهم في الوقت ذاته وجدوا أنفسهم أمام احتمال بيع أرواحهم لروما، والتخلي عن مذهبهم، وهذا ما جعلهم يرفضون الفكرة بشكل قاطع؛ وبالنسبة إليهم كان القبول بحكم العثمانيين حلاً أكثر قبولاً من سواه.

وكان من أكبر المناهضين لهذه الوحدة هو الأرشيدوق نوتاراس، والذي لخصت كلماته هذه، الواقع وتوجُه الأهالي في الآن ذاته:

«أفضل رؤية عمائم الترك في بيزنطة، على رؤية القبعة اللاتينية».

وقد قضى الإمبراطور قسطنطين معظم شتائه في التجهيز للحرب، فرمم الأجزاء المهدّمة من السور، وأعاد حفر الخنادق خارج الأسوار وتنظيفها وملئها بالماء. وكانت الخنادق التي بعمق وعرض عشرين متراً، والتي تملؤها مياه بحر مرمرة من جهة ومياه الخليج من جهة أخرى تحوّل إسطنبول إلى جزيرة حقيقية.

وقد كانت الأسوار الهائلة التي تحيط بالمدينة كالسوار بالمعصم[1]، هي ما يعتمد عليه البيزنطيون بشكل أساسي في دفاعهم عن المدينة، فهذه الجدران القوية استطاعت حمايتها من الكثير من الهجمات حتى الآن. وفي ظلّ الخطر المرتقب، تم ترميم الأسوار المطلة على بحر مرمرة بشكل تام، أما الأسوار المطلة على الخليج فقد ظلت ضعيفة غير محصنة، كما أنها كانت مؤلفة من

(1) تمتد أسوار إسطنبول بطول 22 كم، عليها خمسون باباً رئيسياً وفرعياً، وثلاثمئة برج، وقد تعرض قسم منها للدمار والزوال مع مرور الزمن.

طبقة واحدة من الجدران. ولأن البيزنطيين أدركوا أن هجوماً قوياً من هنا سيكون من الصعب التصدي له، فقد لجأوا إلى وسيلة دفاعية جديدة. فقاموا بوضع سلسلة معدنية ضخمة في المياه تربط بين سيركجي وغالاتا (شاطئا الخليج) لمنع السفن العثمانية من دخول الخليج.

وفي العمق الداخلي من السلسلة، كانت ترسو سفن بيزنطة والسفن التي جاءت من أجل نجدتها. وكان هذا الأسطول يحوي ستاً وعشرين سفينة. خمس منها من البندقية وخمس من جنوة، وثلاث من كريت وواحدة منها من أنكونا[1] وأخرى من إسبانيا، وفرنسا، أما البقية فكانت سفناً بيزنطية.

وقد تمّ جمع مؤونة تكفي المدينة لستة أشهر، وتأمين ذخيرة كافية وبقية معدات القتال والحرب. كما تمّ نقل القرويين الذين في الجوار مع مؤنهم وحيواناتهم إلى داخل المدينة.

وأثناء تحصين الجزر تمت مراسلة حاكم شبه جزيرة المورا، لطلب القمح وقوات مساندة. حيث أرسلت السفن إلى المورا، بغية إحضار المؤن والمساعدات العسكرية لحماية الجزر التي كانت يقطنها الروم وبعض الأجانب.

وقد وعد البابا بإرسال أسطول من أجل مساندة الإمبراطور، ورغم أن البنادقة كانوا مستائين من الإمبراطور الذي رفض تزويج ابنته من رئيس حكومتهم، لكنهم وافقوا على صنع عشر سفن كمساعدة.

وقد دخل أمير جزيرة خيوس؛ جوستنياني الجنوي ميناء إسطنبول عام 1453 برفقة سفينتين كبيرتين محملتين بمعدات الحرب وآلاته، وسبعمئة جندي. وهذا ما جعل البيزنطيين يتنفسون الصعداء، ذلك أن جوستنياني كان معروفاً بشجاعته واندفاعه وحنكته القتالية. وعلى الفور قام الإمبراطور بتعيينه

(1) أنكونا، مدينة في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا، عاصمة إقليم ماركي ومقاطعة أنكونا وهي ميناء على البحر الادرياتيكي.

قائد القوات العسكرية، ووعده في حال نجاة المدينة من الحصار، أن يمنحه جزيرة ليمنوس[1].

وقد انخرط جوستنياني مع الألفي جندي الذين وُضِعوا تحت إمرته في تجهيز تدابير الدفاع. وبعد جولة على الأسوار قام بإعادة ترميم النقاط الضعيفة، وعين مواضع تثبيت المدافع والمنجنيقات.

وقد تم وضع أكثر المدافع ثقلاً وحجماً أمام بابي مولوي خانه وتوب كابي. ومن ثم انخرط في تدريب المتطوعين. وكان حريصاً على جعلهم يدافعون عن الأسوار أثناء الحصار بكفاءة عالية. فكان يخاطب كلاً منهم وكأنه فارس لا يُقهر من أجل رفع معنوياتهم. ولتوفير متطلبات الدفاع، كان يتمّ بيع أو صهر الكثير من الممتلكات والنفائس المصنوعة من معادن ثمينة وتحويلها إلى عملة نقدية، وبذا فقد أخذ إمبراطور بيزنطة يدمر ثروة تاريخية قيّمة لا تعوض من أجل الحفاظ على عرشه.

الانطلاق من إدرنة

بعد تجهيز المدافع السلطانية، أدرك السلطان الشاب أن مرافقة هذه المعدات الثقيلة سيؤخر سيره، لذا قام في الأول من شباط عام 1453 بإرسال المدافع قبل انطلاقه. فأرسل عشرة آلاف فارس تحت قيادة كارجا بيك، بغرض حمايتها من جهة، والسيطرة على القلاع والحصون التي في طريقهم على سواحل مرمرة والبحر الأسود من جهة أخرى. وقد تمّ إرسال أسطول بقيادة آكجايلي محمد بيك، من أجل مرافقة الحملة ومساندتها بحراً.

وكان يتم جرّ كل مدفع من هذه المدافع الضخمة بوساطة أربعين أو خمسين زوجاً من الثيران، ومن أجل مساعدتهم كان يسير مع كل مدفع مئتا

(1) أو ليمني هي جزيرة في اليونان، وهي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من بحر أيجة. تشكل الجزيرة إدارياً بلدية منفصلة ضمن وحدة ليمنوس الإقليمية، والتي هي جزء من منطقة شمال إيجة.

جندي. ولتهيئة الطريق وبنائه، كان يسبقهم مئتا عامل متخصص، وخمسون من سائقي العربات.

وقد تمكن كاراجا بيك المكلف بقيادة الحملة، من السيطرة على كل من نيسيير[1] وفيزى[2]، ويشيل كوي[3] وبلوغ أسوار إسطنبول. وكانت قلعة سيليفري[4] هي الوحيدة التي أبدت مقاومة قوية ونجت من سيطرتهم. وقد اختار كاراجا بيك موقعاً حصيناً إلى جوار إسطنبول واستقر هناك، بحيث يسهل منه مراقبة الطرقات ووضع المدينة تحت الحصار أيضاً.

أما آكجايلي بيك وبعد أن أتمّ مهمته في مساندة كاراجا بيك في السيطرة على القلاع، فقد قام بتقسيم أسطوله إلى قسمين، الأول انطلق نحو مرمرة لمواجهة قراصنة البيزنطيين، أما الثاني فتوجه نحو البحر الأسود.

وأخيراً انطلق السلطان الذي قضى شتاءه في التجهيز للحملة في الثالث والعشرين من آذار الموافق يوم الجمعة من العام 1453 على رأس الجيش وبرفقة رجال الدين وعلمائه، كالملا آك شمس الدين والملا غوراني، والملا خسرف، والملا آك بيك، وحين وصل إلى كيشان[5] مكث لفترة هناك، بانتظار قوات الأناضول التي ستختار مضيق جناق قلعة. وكانت قوات الأناضول التي تسير تحت قيادة والي ولاة الأناضول إسحاق باشا، ومحمود باشا، قد اجتازت مضيق جاليبولي وانضمت لبقية القوات، حيث وصلوا أسوار إسطنبول في الخامس من نيسان.

في البداية أخذ السلطان – الذي جاء ليقف أمام هذه الأسوار في الكثير من المرات، والذي حدد بدقة متناهية أين ستقف الفرق وكيف ستتموضع الأسلحة

---

(1) مدينة بلغارية تقع على بعد 36 كم من مدينة بورغاس، على شواطئ البحر الأسود.

(2) مدينة تبعد عن إسطنبول 140 كم، تشتهر بمعالمها التاريخية وطبيعتها الخلابة.

(3) إحدى مناطق مدينة إسطنبول.

(4) مدينة تقع في منطقة مرمرة تتبع لمدينة إسطنبول.

(5) – مدينة تتبع لمحافظة إدرنة، وسادس أكبر المدن التركية الواقعة في تراقيا.

والمدافـع - يـوزع الأوامـر على قواده الذين طبقوها بشـكل حرفي بحيث أخذ الجميع مواقعهم بدقة ونظام منذ اليوم الأول لوصولهم. وبذا تمّ تطويق الأسوار الممتدة من آيفان سراي وحتى يدي كولة بشكل تام.

أما قلب الجيش الذي كان يحاصر الأسوار الممتدة من توب كابي وحتى إدرنة كابي، فكان يتمركز في الموقع الأكثر خطورة وتعرضاً للقصف، وكان مقر السلطان والصدر الأعظم خليل باشا بالإضافة لكل حاميته وقادة الفرق. وكانت الأسوار الممتدة من توب كابي وحتى يدي كولة تواجهها ميمنة الجيش، حيث قوات الأناضول تحت قيادة إسـحاق باشـا تتموضع في هذا القسـم. أما القسـم المتضمن إدرنة كابي وحتى الخليج فقد كانت تقابلها ميسرة الجيش، والمؤلفة من قوات روميلي تحت قيادة والي ولاة روميلي كاراجا بيك. والمنطقة الممتدة من تلال بيه أوغلو وحتى قاسم باشا فقد كانت تحت إمرة زاغنوس باشا، ومن أجل السيطرة على ميناء الخليج وهاس كوي في الطرف المقابل، سيقوم الباشا بإنشاء جسر على طرفي الخليج.

وقد نصبت خيمة السـلطان الحمراء المزدانة بالخيوط الذهبية على رأس تلة منيعة قبالة توب كابي. فكانت تمكنه من رؤية كل المنطقة الممتدة من مال تيبي وحتى قصر تِكفور[1]، وقد أحاطت بها قوات الحامية الخاصة على اليسار وفرق الإنكشـارية في المقدمة، وفرق الفرسـان في اليمين. وأمام خط المركز كانت تتموضع المدافع، وقد ثبتت المدافع السلطانية أمام كل من إدرنة كابي، وتـوب كابـي والأسـوار الممتـدة بينهما. وتمّ أخـذ كل التدابير اللازمة في حال أصاب الضرر أو العطل أحد المدافع، وجهزت عُدة صب القذائف.

كانت القوات العثمانية ما بين السبعين ألفاً والمئة ألف جندي. ولكن مع انضمام المتطوعين فقد وصل العدد إلى مئة وخمسين ألف جندي بحسب بعض المصادر.

(1) جزء من قصر بلاهيرنة الذي كان مقر إقامة إمبراطور القسطنطينية.

وبسبب الميل الموجود في الطريق النازل نحو وادي بيرم باشا الواقع بين توب كابي وإدرنة كابي، فقد كانت الأسوار في تلك المنطقة تتصف بالضعف. وبذا فقد كان الإمبراطور كما السلطان قد ثبت معظم قواته أمام باب (توب كابي)، وسيتم الدفاع عن هذا الباب من قبل الإمبراطور بالذات برفقة قائد حاميته جوستنياني. أما المناطق الباقية فقد تمّ تقسيمها إلى سبعة وعشرين قسماً، وتمّ وضع كل منها تحت إمرة قائد، والذين كان معظمهم من الفرسان اللاتين، فبالإضافة للبنادقة والجنويين كان الإسبان أيضاً يمتلكون مراكز القيادة. أما المنطقة الواقعة بين كوم كابي وساماتيا، فكانت تحت قيادة الأمير أورهان بن الأمير سليمان الذي تسبب بالعديد من المشاكل بين بيزنطة والسلطان، يرافقه بعض المتطوعين من الترك والرهبان.

وقد قامت بيزنطة وبسبب وجود كثير من القوات المساعدة ضمن حاميتها، بمنح معظم المواقع القيادية للقادمين الأجانب، وكان من بين الثمانية عشر قائداً، فقط ثمانية بيزنطيين. وذلك لقدوم الكثير من خارج بيزنطة ممن هم على خبرة ودراية بفنون الحصار والدفاع. وهناك مصادر مختلفة حول عدد أفراد حامية المدينة، فالمصادر تشير إلى ثمانية آلاف وعشرين ألف جندي. وبحسب أكبر الأرقام التي أوردتها بعض المصادر، فإن عدد المتطوعين تحت لواء الإمبراطور لمواجهة الحصار كانوا عشرة آلاف جندي. وإن أضفنا إليهم الجنويين، الإسبان والبنادقة والقادمين من جزر كريت وخيوس، والستمئة متطوع تحت إمرة الأمير أورهان، وجنود البحرية، سيصل الرقم إلى عشرين ألفاً بحسب أقصى التقديرات.

وبالإضافة إليهم كانت هناك أعداد كبيرة من القوات الاحتياطية التي كانت تقوم بترميم الأسوار، وإحضار الطعام والشراب للجنود وإن اقتضى الأمر، الاشتراك في القتال أيضاً. وهذا يعني أن بيزنطة كانت على أتم استعداد لمواجهة الحصار، بينما كانت السلسلة المعدنية في مياه الخليج تحكم السيطرة على مدخله.

بدء الحصار

كان العثمانيون على جري عادتهم، يقومون بأي عمل مهم في يوم الجمعة. لـذا فقـد انطلقـوا يـوم الجمعة مـن إدرنة، وهاهم يحاولـون أقصى جهدهم من أجل إتمام تحضيرات الحصار للبدء به يوم الجمعة، وقد أمر السـلطان توزيع الأسلحة على المحاربين المواجهين للأبواب الرئيسية، وإتمام بقية المحاربين لاستعداداتهم في اليوم التالي.

وأثناء اتخاذ السلطان محمد الثاني هذه التدابير، أرسل وفداً إلى الإمبراطور من أجل تسليم المدينة وحقن الدماء. وقد أقسم الإمبراطور بالمقابل على حماية المدينة، وعرض عليهم دفع جزية في حال الانسحاب، ورفض طلب التسليم. وعلى إثر ذلك وفي فجر يوم الجمعة في السادس من نيسان، وبعد أداء الصلاة مع رجال الدين، والدولة والباشوات، أمر السلطان بالتحرك، وكانت المواجهة في اليوم الأول تتمركز بمعظمها على ضرب الأسوار بالمدافع.

وفـي اليـوم التالـي ومع تواصل نيران المدافع، انطلق فريق من المتطوعين والمسـلحين باتجاه الأسـوار لتنفيذ عملية هجوم، وعلى حين غرة خرج الروم في حركة غير متوقعة متصدين للمهاجمين. وقد استشـهد العديد منهم قبل أن تتمكن القوات النظامية من الوصول ومساندتهم، وحين رأى المدافعون وصول الإنكشـاريين عادوا أدراجهم إلى داخل الأسـوار وأغلقوا الأبواب، وقد سـببت هـذه الحادثـة فرحـة عارمة داخل المدينة وكأنهم كسـبوا الحرب. ولكنها كانت المرة الأخيرة التي خرجوا فيها من الأسوار.

في الأيام الأولى انشـغل الجنود بحفر خنادق وبناء أسـوار لاتقاء السـهام، وضرب الأسـوار بواسـطة مدافع صغيرة الحجم نسـبياً، وفي الوقت ذاته كانت التحضيرات تتم على قدم وساق بحيث تمّ وضع أحد المدافع السلطانية الهائلة أمام توب كابي (سان رومان)، وذلك يوم الأربعاء في الحادي عشر من نيسان ليكون جاهزاً للإطلاق في اليوم التالي. وفي اليوم ذاته وصل الوفد الذي أرسله

ملك المجر إلى معسكر السلطان، وأوضحوا له أن هدنة سميديريفو التي عقدت بينـه وبيـن هونيدوارا حين اعتلائه عرش السـلطة، قـد أصبحت ملغية، ذلك أنه تنازل عن العرش لصالح ملك المجر الشـاب لاديلاس، وبذا أعادوا للسـلطان المعاهدة التي تتضمن ختمه، وطلبوا منه تلك التي تحمل ختم هونيدوارا.

كان الأمر بمثابة إنذار وتهديد غير مباشر من قبل هونيدوارا، بترؤس جيش المجـر والسـير لمواجهتهـم. ولكـن السـلطان الشـاب لم يكن مـن النوع الذي سيتخلى عما يريده تحت هذا النوع من التهديدات. وقد واصل الحصار بصورة أكثر شـدة. ومع صبيحة اليوم التالي (الثاني عشـر من نيسـان) أعلنت أصوات ضربات المدافع الهائلة التي هزت المدينة، بدأ الحصار الفعلي. وأخذت تلك الأسوار التي شكلت معلماً من معالم العصور الوسطى بالتداعي. وكانت هذه الأصوات القوية كافية لتدمير معنويات سكان المدينة.

وفي اليوم ذاته وصل الأسطول العثماني ليرسو قبالة المدينة، وكان مؤلفاً من أربعمئة سفينة كبيرة وصغيرة. وقد شكل رسوها القريب أمام قلعة المدينة، الضربـة الثانيـة لمعنويـات المدافعيـن، وقـد كان التأثيـر الأكبر على الأسـطول البيزنطـي وسـفن حلفائـه. ذلـك أن زمام مبـادرة الهجوم كان في يد الأسـطول العثمانـي، فيمـا توجـب علـى أسـطول المدينة البقاء مسـتعداً ليل نهـار، توخياً لأي هجوم مفاجئ. وبالإضافة إلى هذا الضغط النفسي المتواصل، فقد أصبح وصول المسـاعدات البحرية إلى المدينة أمراً في غاية الصعوبة، وهذا ما أثبط من هممهم.

ومع ضربات المدافع السـلطانية، اشـتدّ وقع الحصار، وأخذت القذائف المتتاليـة ليـل نهـار تحفـر فـي جسـد القلعة مواضع لهـا. وكانـت المنجنيقات تمطرهـم بحجارتهـا، فيمـا رمـاة السـهام يواصلـون الرمـي دون توقف. ولكن البيزنطيين بالمقابل كانوا يقومون بردم وترميم الحفر التي تحدثها القذائف على الفور، بغية منعهم من دخول المدينة من تلك المنافذ.

كانت قذائف المدافع السلطانية تحتاج إلى وقت طويل للرمي، ولم يكن ممكناً سوى رمي ثلاث أو أربع قذائف منها كل يوم. وكانت القذائف المصنوعة من البرونز تصل إلى مسافات بعيدة، بالإضافة للقذائف المصنوعة من الحجارة. ومع كل قذيفة جديدة، كانت تعم المكان غيمة دخانية، أما في المواقع التي تنزل فيها القذيفة فتنهار المنازل لتتطاير الشظايا في الأرجاء.

ومن أجل رفع معنويات سكان المدينة، أُخرجت صورة مريم العذراء من القصر وأخذوا يجولون بها في الشوارع والأحياء. فيما واصلت المدافع الصغيرة والمتوسطة بالعمل وفتح ثغرات جديدة على امتداد الأسوار..

وفي اليوم العاشر من الحصار، انفجر أحد المدافع الكبيرة نتيجة سخونتها وقتلت بعضاً ممن كانوا في الجوار. وعلى إثر ذلك أمر السلطان محمد الثاني بدهن المدافع بالشحم بعد كل رمية جديدة. لتبرد في زمن قصير، وتطلق قذائفها بشكل أسرع.

كانت المدافع تواصل إطلاق قذائفها دون توقف، والإنكشاريون يتجاوزون الخنادق أو يحتمون بالمتارس التي ينشئونها، ليمطروا المدافعين بالسهام ونيران البنادق. ولم يعد ممكناً مشاهدة أي من البيزنطيين في تلك الأرجاء. وفي اليوم الثاني عشر من الحصار (السابع عشر من نيسان)، وفيما بدأت جميع المدافع تطلق نيرانها مع بزوغ الفجر، دخل سلاح جديد إلى المعركة. حيث صُنعت أبراج سيّارة خلال بضعة أيام، لتوضع في الخنادق المليئة بالمياه قبالة قلعة المدينة. وبذا كانت الاستعدادات قد انتهت من أجل هجوم شامل. وفي الثامن عشر من نيسان ومع غروب شمس يوم الأربعاء بدأ الهجوم.

وقد استمر هذا الهجوم التجريبي على إدرنة كابي لمدة ست ساعات تقريباً. وكانت الغاية منه معرفة قوة المدافعين. وفي ظل عدم الوصول إلى حسم عسكري، تقرر مواصلة هدم الأسوار بنيران المدافع.

وفي اليوم ذاته تمكن قائد الأسطول سليمان بيك بالطا أوغلو من السيطرة

علـى الجـزر الأربـع القريبـة من المدينة وهي (ما يعـرف اليوم بجزر الأميرات) (بيوك أدا، بورغار، كينالى، وهيبلي).

وفـي اليـوم التالـي قـام بالطا أوغلو بالهجوم على سـفن بيزنطة وحلفائها، والتي تفصلها عنهم السلسلة المعدنية، ونتيجة نيران مدافع السفن وعدم تمكنه من قطع السلسلة، قرر الانسحاب وقد جرت معركة حامية الوطيس بين الطرفين في العشـرين من نيسـان من يوم الجمعة، في بحر مرمرة، حيث قامت السـفن العثمانية بقطع الطريق على ثلاث سفن جنوية وسفينة للروم، وذلك قبالة منطقة زيتيـن بورنـو، وقـد اسـتمرت المعركة لما يقارب الثلاث سـاعات، ولكن وفرة ذخيرة سـفن الصليبين، بالإضافة لاتجاه الريح المواتي، أدّيا لهزيمة الأسـطول العثماني.

أما السـلطان الذي كان يراقب مجريات المعركة من شـاطئ زيتين بورنو، فقد خاض المياه على ظهر جواده بعد أن لاحظ أن أسطوله ذاهب نحو الهزيمة، وكان يلـوّح لبالطـا أوغلـو بالأوامـر صارخاً وقد عصف بـه الغضب. وعلى إثر ذلك، قام بعزل بالطا أوغلو، وتعيين حمزة بيك قائداً للأسطول. أما البيزنطيون فقد احتفلوا بهذا النصر في صخب عارم.

السفن التي فتحت أشرعتها في البر

فـي يـوم السـبت المصادف الواحد والعشـرين من نيسـان انهمـرت نيران المدافع المنتصبة فوق تلال غالاتا، على سفن العدو الراسية في الخليج بغزارة. ولكن السلطان الذي أدرك أنّ معظم هذه القذائف لا تصيب الهدف، أمر بصب قذيفة اسطوانية، لتكون أولى قذائف الهاون التي تمّ صنعها في التاريخ.

وفيما كانت القوات البيزنطية مشغولة بهذه الهجمات، كان السلطان يضع ركائز خطة عسـكرية جديدة، لم يسـبقه إليها أحد من قبل، حيث تمّت تسـوية الطريـق الممتـد بيـن دولمـا باهتشـي- ماجـكا وحربية- دولاب ديري- قاسـم

باشا، ونقل سبع وستين سفينة حربية على الألواح الخشبية خلال ليلة واحدة، لتستقر في صبيحة اليوم الثاني في مياه الخليج. ومن الصعوبة البالغة تصور تنفيذ مشروع كهذا، ونقل ما يقارب السبعين سفينة على طريق بري يبلغ طوله حوالي الكيلو مترين، وتسوية الطريق لهذا العبور المدهش، لتصل الخليج صبيحة اليوم التالي.

وقد ورد في كتاب المؤرخ سولاك زاده الوصف التالي لهذه العملية:

«قام السلطان النجيب بجمع وزرائه من ذوي الرأي والخبرة وقال لهم:

- علينا أن نجد طريقة لضرب الأسوار من البحر أيضاً، وبسبب السلسلة الموضوعة في مياه الخليج من الصعب بل من المحال الدخول إلى الميناء الواقع بين إسطنبول وغالاتا، فهل لدى أحدكم حل للمشكلة؟ ورغم محاولة رجالاته ومناقشتهم وبحثهم في كل الطرق والوسائل ولكنهم عجزوا عن حل يوصل السفن إلى ما وراء السلسلة. وأخيراً خطرت للسلطان العظيم هذه الفكرة الرائعة، بحيث سيتم نقل السفن بمحاذاة يني حيصار، والالتفاف حول غالاتا، للنزول إلى مياه الخليج، ومفاجأة العدو بالقذائف التي ستنهال عليه من البحر أيضاً.

ورغم أن هذه الفكرة كانت بعيدة عن مخيلة أقوى القادة، وصعبة التحقق في آن. ولكن مع رغبة السلطان وهمته العالية، فقد اقتنع الجميع بالحل ووافقوا عليه. وبفضل عزيمة الرجال، تم تمهيد طريق بين منطقة بيشيكتاش وحتى نهر قاسم باشا، وأخذت السفن التي تقارب كل منها حجم جبل، تسير مفتوحة الأشرعة، على ألواح خشبية تغطيها طبقة من الدهن والشحم لتسهيل الحركة، ونزلت في مياه الخليج. لتحول تلك المدينة الواسعة، إلى مجرد فخ صغير أخذ يطبق على الأعداء مع مرور الوقت».

وفي صبيحة اليوم التالي، مع أول خيوط الشمس انتابت البيزنطيين حيرة وهلع شديد حين شاهدوا سبعين سفينة عثمانية تستقر بهدوء في مياه الخليج،

وعلى الفور أرسل الإمبراطور وفداً للسلطان يعرض عليه رفع الحصار عن المدينة مقابل الإذعان لشروطه مهما كانت قاسية ومكلفة. وقد كان رد السلطان على أعضاء الوفد بأنه إما أن يأخذ المدينة وإما أن تأخذه هي. وأوضح لهم أنه مقابل استسلام إسطنبول سيمنحهم حكم المورا، وبذا عاد الوفد خالي الوفاض.

وفي الثالث عشر من نيسان تمّ إنشاء جسر على الخليج يصل بين منطقتي كومبار خانه ودفتردار. حيث تمّ ربط أكثر من ألف قارب وبرميل بعضهم ببعض بوساطة سلاسل معدنية، ورصفت عليهم ألواح خشبية، لتشكل جسراً على قدر كافٍ من الغرض. بحيث كان من الممكن نقل المدافع عليه، وكان يتسع لسير خمسة أشخاص متجاورين بكل سهولة.

أما في بيزنطة فقد تمّ عقد اجتماع الاثني عشر في كنيسة سان ماري، وتقرر فيه إحراق السفن العثمانية التي دخلت مياه الخليج، وذلك في ليلة الرابع والعشرين من نيسان بهجوم مفاجئ. ولكن تمّ تأجيل الهجوم بطلب من جنويي منطقة غالاتا لأربعة أيام أخرى، والذين أطلعوا السلطان على أمر الهجوم قبل حدوثه. وفي الثامن والعشرين من نيسان وقبل شروق الشمس بساعتين تحركت السفن المكلفة بالهجوم. وفي المقدمة كانت سفينة القبطان جاكومو كوكو (البندقي الأصل). ولكن ما إن اقتربت السفن من منطقة قاسم باشا، حتى أخذت نيران المدافع العثمانية تنهمر عليهم. وخلال دقائق كانت سفينة القبطان التي تلقت ضربة صائبة، تستقر في قعر الخليج. كما غرق حوالى مئة وخمسين فرداً من طاقمها. أما السفن الباقية والتي فاجأها الأمر، فقد انسحبت على وجه السرعة، وبذا فشل الهجوم.

ومع تواصل القذائف المنهمرة على الأسوار ليل نهار، أخذت المدينة تعاني شحاً حاداً في الطعام. فتقرر في الأول من أيار أن يقوم الإمبراطور بنفسه بتوزيع الخبز على المدافعين المرابطين على الأسوار.

وفي الثالث من أيار، قام البيزنطيون بنصب مدفعين على الأسوار قبالة

الخليج، وأخذت تستهدف السفن العثمانية، حتى أنها تمكنت من إغراق واحدة من السفن. وهذا ما جعل المدافع العثمانية الثلاثة المنصوبة على تلة قاسم باشا توجه نيرانها إلى الرقعة التي تنتصب عليها مدافع البيزنط من السور، ومنعوها من مواصلة استهداف سفنهم.

مواجهات عنيفة

في يوم الأحد المصادف للسادس من أيار، وبعد غروب الشمس بساعات قليلة، قام ثلاثون ألف محارب بالهجوم على أسوار توب كابي. ورغم استمرار المواجهات العنيفة لثلاث ساعات، لكنها لم تسفر عن نتيجة. وفي الأيام التي تلتها واصلت المدافع استهداف الأسوار بتواتر محموم ودون انقطاع، فيما كان البيزنطيون يقومون بردم الأجزاء المتضررة بأكياس قمح مليئة بالصوف والبراميل، وبصناديق خشبية مملوءة بالطين..

وفي يوم السبت المصادف الثاني عشر من أيار، انطلق العثمانيون حوالى منتصف الليل وشنوا هجوماً قوامه خمسون ألف محارب على الأسوار الواقعة بين إدرنة كابي وقصر تكفور، ورغم اشتداد المواجهات بين الطرفين لكنها لم تسفر عن نتيجة.

وفي يوم الأربعاء في السادس عشر من أيار، بدأ العثمانيون بحفر الأنفاق تحت الأسوار الواقعة بين إدرنة كابي والخليج. ولكن البيزنطيين الذين فطنوا لما يقوم به المهاجمون، قاموا في اليوم التالي بحفر أنفاق مقابلة على الطرف الآخر، ومنعوا العثمانيين من تحقيق غايتهم. حيث استمر حفر الأنفاق والمواجهات التحت أرضية في الأيام التالية.

وفي يوم الجمعة الواقع في الثامن عشر من أيار، وجد البيزنطيون أنفسهم أمام مفاجأة جديدة. ففي موضع قريب من أسوار توب كابي، نصب العثمانيون برجاً خشبياً لا يشابه ما سبقه. ومن أجل حماية البرج من النار، بارتفاعه المناهز

لارتفاع الأسوار، فقد تم تغطيته بطبقة ثخينة من جلود الثيران المبلولة.

وبالإضافة إلى العجلات التي يسير عليها، فقد كان يحوي على سلالم توصل إلى قمة البرج، حيث النوافذ التي يمكن إطلاق النار منها. وبواسطة جسره المتحرك، كان يشكل جسراً لبلوغ الأسوار. وقد نشبت معارك دامية بين المجاهدين والمدافعين، ولكن حوالي منتصف الليل استطاع هؤلاء إحراق البرج، بواسطة قذائف اللهب.

وقد استمر حفر الأنفاق وواصلت المدافع ضرب الأسوار، وحين رأى السلطان الأسوار تتداعى رغم محاولات الأهالي ترميمها باستمرار، أدرك أن النهاية باتت أقرب مما هو متوقع، لذا وفي الثالث والعشرين من أيار أرسل وفداً برئاسة قاسم بيك إسفنديار أوغلو، ليعرض على الإمبراطور الاستسلام لآخر مرة، وسمح له أخذ جميع أمواله وعائلته والانتقال إلى المكان الذي يختاره، كما يستطيع من شاء من الأهالي أخذ أمواله وترك المدينة، ومن شاء البقاء منهم فسيظل آمناً لا يمسّ عرضه أو ماله. ولكن الجواب جاء بالرفض مرة أخرى.

وفي الخامس والعشرين من أيار ليوم الجمعة، طرح المجلس المجتمع في آيا صوفيا لأول مرة مسألة مغادرة الإمبراطور، والذي رفض هذا الأمر بشدة. وعلى إثر ذلك تقرر نقل نساء القصر بإحدى سفن جوستيناني.

في يوم السبت الموافق السادس والعشرين من أيار، وصل وفد جديد من المجر لمقابلة السلطان. وأخبروه بأن لاديسلاس الخامس قد استلم العرش، وطلبوا منه رفع الحصار عن المدينة، ذلك أن أسطولاً حربياً في طريقه إلى إسطنبول، وفي حال الرفض سيتحرك الجيش أيضاً عن طريق البر لمؤازرة المدينة.

وقد سببت هذه الزيارة ظهور الكثير من الشائعات، فاجتمع المجلس العسكري العثماني لآخر مرة. وقد حاول الصدر الأعظم كل جهده إقناعهم إبرامَ الصلح مع بيزنطة ورفع الحصار، ولكن إزاء إصرار بقية الوزراء كزاغنوس

باشـا، وشـهاب الدين باشـا، وتورهان بيك، ورجال الدين كالملا غوراني، وآك شمس الدين تقرر مواصلة الحصار والحرب. وقد رأوا أن العروض التي تأتيهم من أجل التفاهم والصلح ما هي إلا علامة من علامات اقتراب الفتح، لذا فمن المحال القبول بالرجوع.

اسألوا أهل العرفان هل من أمل!

انتشـر خبر إرسـال البابا أسـطولاً حربياً، وملك المجر لجيوشـه، انتشـار النار في الهشـيم بين الجنود، وسـبب الكثير من القلق، والذي انتقل بدوره إلى السلطان الشاب. وبحسب ما أورده ابن كمال، فبعد الاجتماع الأخير قام الفاتح بإرسال صديقه أحمد باشا ولي الدين أوغلو، إلى الشيخ آك شمس الدين ليسأله:

«هل هناك احتمال لفتح القلعة، والانتصار؟»

وقد أجابه الشيخ الجليل بالقول:

«إن رحمـة الله وجـوده لا حـدود لهمـا، وبعد قيام كل هـؤلاء المجاهدين بالتحرك كرجل واحد، فهل يمكن لقلعة أو حصن من حصون الكفار الصمود أمامهم، وعدم تلبية مرادهم؟ إن هذا الأمر يتطلب الهمة والجلد والصبر، وبإذن الله سـنوفق في القريب العاجل». ولكن هذه الكلمات لم تطمئن السـلطان ولم تهدئ من روعه، فعاد لإرسال أحمد باشا إلى الشيخ للاستيضاح منه أكثر، وقد جاء رد الشـيخ أكثر حسـماً هذه المرة، حتى أنه حدد يوم النصر والفتح مبشـراً باقترابه:

«فليكـن فـي معلومكـم أن يوم النصر قريب جداً، وفي الهجوم التالي حين تجتمع الهمم والعزائم، وتلتف القلوب حول الهدف الأوحد، سيكون بإذن الله آخر هجوم، حيث ستفتح المدينة أبوابها أمامنا».

وكان هـذا الـرد كافيـاً لطمأنـة السـلطان، وإبعـاد الخـوف عنـه، وأخذ في التحضير بكل ما يملكه من عزم ليوم الهجوم المنشـود. ومن أجل عدم إعطاء

الفرصة للمدافعين لترميم الأسوار أخذت المدافع تواصل ضربها ليل نهار. وفي السابع والعشرين من أيار أخذ المنادون يتجولون في المعسكر ويعلنون أن الهجوم العام سيكون بعد يومين.

وفي الثامن والعشرين من أيار الموافق يوم الاثنين، وبعد مضي ثلاثة وخمسين يوماً على بدء الحصار، كان جزء من السور الذي انهالت عليه ضربات المدافع قد تدّمر بشكل نهائي، لأنّ السلطان محمد واصل ضرب الأسوار حتى في الليل من أجل عدم منحهم الفرصة للترميم، فيما كان الجيش برمته يواصل استعداداته بتواتر محموم. وكان السلطان يمتطي جواده ويتجول على امتداد الأسوار مع مرافقيه، ويعطي الجنود والقادة التوجيهات اللازمة. وبناء عليه، كان الجيش العثماني سيتحرك يوم الهجوم على الشكل التالي: كان حمزة بيك مع جنوده سيتجه نحو الأسوار المطلة على بحر مرمرة، بحيث يقترب ليكون المدافعون تحت مرمى سهامه ونيران البنادق. ليمنعهم من الانتقال ومساعدة البقية في الجبهات الأخرى. كما أن السفن ستقترب من البر حتى أقرب نقطة ممكنة وسيحاول الجنود الذين يرتدون الدروع وضع سلالم على الأسوار لتسلقها.

وسينقل زاغنوس باشا قواته عبر الجسر الذي بناه على الخليج وسيقوم بالهجوم على الأسوار المطلة عليه، فيما سيقوم الأسطول الموجود في الخليج بمساندة الجيش، من خلال ضرب الأسوار بالمدافع والبنادق.

أما القسم الشرقي من الأسوار المطلة على الخليج، فسيتم الهجوم عليه بواسطة القوات التي يترأسها رجال الدين وعلماؤه.

والأسوار الواقعة بين إدرنة كابي وإغري كابي فسيتولى أمرها كاراجا بيك، برفقة قوات روميلي التي تحت قيادته. وما إن يبدأ الهجوم العام، ستقوم هذه القوات بالاقتراب من السور في المناطق المهدمة القريبة من النهر، متجاوزة الخنادق، وستهاجم المدافعين في هذه البقعة من أجل تسلق السور.

كما سيقوم إسحاق باشا ومحمود باشا برفقة القوات التي تحت إمرتهم بمهاجمة الأسوار الواقعة بين سيليفري كابي ومولوي كابي، وأثناء الهجوم سيحاولون تسلق الأسوار القريبة من سيليفري كابي، وستتم حمايتهم من قبل المدافع ورماة البنادق والسهام.

وبالنسبة إلى المنطقة الواقعة بين وادي بيرام باشا وتوب كابي، فستكون تحت إدارة السلطان الشخصية. وسيتولى قيادة ميمنة القوات المركزية الصدر الأعظم خليل باشا، فيما سيتولى قيادة الميسرة ساروجا باشا وسعدي باشا، وستقوم هذه القوات بالهجوم على الثغرات التي حدثت في الأسوار الواقعة إلى شمالي توب كابي، ليكون هجومهم هو الضربة النهائية والقاصمة.

كما تمّ تقسيم فرق الهجوم إلى فيالق ألفية، ليتم تبديلها على الفور في حال تعرضت لخسائر أو نال منها التعب أثناء الهجوم. وهكذا سيتم مواصلة الهجوم دون توقف حتى بلوغ النصر. أما رجال الدين والشيوخ المرافقون للجيش فسيتجولون طوال الوقت على كل الجبهات لرفع معنويات الجنود وتحفيزهم.

المجد والعظمة بانتظاركم

بعد أن جمع السلطان جميع قادة الجيش والأسطول على اختلاف رتبهم، وأبلغهم بتعليمات الهجوم، أكمل خطابه بالقول:

«أيها الباشوات، والبكوات، والشيوخ، والقادة.. يا رفاقي في السلاح!

لقد جمعتكم اليوم، لأزيد من جسارتكم وشجاعتكم، وأعلم أنكم أظهرتم ذلك دائماً وفي اللحظات اللازمة. ولكن من واجبي تذكيركم بالمجد والعظمة الأبديين اللذين ينتظرانكم بعد تحقيق النصر من هذا الهجوم.

اليوم أريد أن أهديكم مدينة على قدر كبير من الاتساع والعظمة. إنها مدينة ظلت على الدوام عاصمة الروم، ووصلت أعلى مراتب المجد والجمال والأبهة، بل وتحوّلت إلى أحد أهم مراكز العالم، وأنا أريد تقديمها إليكم.

لذا علينا أن نشجع بعضنا بعضاً من أجل معركة الظفر، ولأجل ذلك علينا تحقيق ثلاثة شروط؛ النية الحسنة، والابتعاد عن كل ما هو مسيء، وإطاعة قادتكم. فالأوامر التي تنفذ في انضباط وتروٍّ، لا يمكن لها سوى أن تحقق المرجو منها. عليكم الآن أن تظهروا كل بأسكم وقوتكم، وأن تقودوا هذا الهجوم بكل حماس وشجاعة.

أما بالنسبة إليّ، فأقسم إنني سأكون على رأس المحاربين، وسأراقب بنفسي كيف يتحرك ويقاتل كل فرد منكم.

والآن فلتعودوا إلى مواقعكم، وإلى خيمكم، كلوا واشربوا وخذوا قسطاً من الراحة لبضع ساعات، ولينعم الجند ببعض الراحة. واحرصوا على أن يسود الهدوء والسكينة كل أرجاء المعسكر. وحين تستيقظون فجراً، عليكم بترتيب طوابير الجنود على الفور، ولا تجعلوا أي عارض أو أي شخص يفسد رباطة جأشكم، وابقوا هادئين. وما إن تسمعوا الأبواق والنفير العام لبدء التحرك، عليكم بإشهار الأسلحة والانطلاق بكل قوة للهجوم».

وبعد هذه الخطبة الحماسية، قام السلطان برفقة قادته من ذوي المراتب الرفيعة بمراجعة خطة الهجوم للمرة الأخيرة.

من جهة أخرى كان أهالي المدينة والمدافعون، قد نالهم التعب والإرهاق بعد مضي ثلاثة وخمسين يوماً من العمل المتواصل. فقد كان عليهم العمل ليل نهار من أجل ترميم الأضرار التي تلحق بالأسوار الواقعة في منطقة توب كابي، وبذل مجهود إضافي؛ ذلك أن الثغرات كانت تتسع مع الوقت وتزداد الانهدامات. وهذا ما كان يسبب لهم مزيداً من التعب والقنوط.

أما الإمبراطور فكان يبذل كل ما في وسعه من جهد للاستعداد للهجوم الأخير وتجاوزه بنجاح. فقد كان يرى أن فشل هذا الهجوم سيكسر شوكة الأتراك، وسيتشتت شملهم. أما الرهبان فكما في كل يوم، كانوا يواصلون إقامة الصلوات والقداديس لرفع معنويات المدافعين والدعوة بالنصر، وهم

يحملـون صـور القديسـين ليتجولـوا بهـا في أحيـاء المدينـة. وكان تمثال مريم العذراء يرافقهم في جولاتهم، بصفتها الحامية التي أنقذت المدينة من قبل من كثير من الهجمات.

ولكـن حـدث معهـم أمر غير متوقع هذه المرة، فقد وقع التمثال المقدس مـن يـد الرهبـان وسـقط علـى وجهه. فهـبّ الجميع صارخين مـن أجل رفعه. ولكـن بـدا وكأنـه اكتسـب وزنـاً إضافياً بحيـث ظل علـى الأرض، وتعذر رفعه رغم المحاولات. وإزاء تشبث التمثال بالأرض، بدأ الجميع يصلّون وانخرطوا في الدعاء باكين. ورغم رفع القساوسة للتمثال فيما بعد، ومواصلة الصلوات، لكن هذه الحادثة الاسـتثنائية انتشـرت في كل أرجاء المدينة، واعتبرها الأهالي نذير شؤم، ما زاد الخوف والرعب في قلوبهم.

وفي هذه الأثناء كانوا يراقبون الحماس والحركة المحمومة في المعسكر العثمانـي بعـد إعـلان موعد الهجوم العام، وكان هذا سـبباً في انهيار معنوياتهم بشـكل تام. وقد أورد رئيس أسـاقفة (سـاكيز) حالة الأهالي في تلك الأيام على النحو التالي:

«لو أنكم سمعتم مثلنا هتافات العثمانيين وهم يرددون معاً بأصوات تملأ الكون (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، لكنتم تأثرتم بالفعل».

ويقول باربروس:

«أما بالنسبة إلينا نحن المسيحيين، فلم يكن في وسعنا شيءٌ سواء الدعاء ليل نهار، للرب والمقدسة مريم والقديسين كافة الذين ترقد أرواحهم في السماء لنصرتنا».

وقد اسـتمرت التحضيرات العسـكرية في الجانب البيزنطي ليل نهار. فقد احتشد الأطفال والنساء وهم يحملون الحجارة في الثغرات التي في الأسوار. أما قنصل البندقية مينيتو، فقد أمر البنادقة بالتمركز على الأسوار البرية، معتبراً أن الهجوم الأخير والقوي سيكون هناك. وكان جوستنياني، يشرف على التجهيزات

كلها استعداداً للهجوم. فأعاد تشكيل قواته من جديد ووزعهم على أكثر النقاط أهمية. وكان يواصل العمل باستمرار لترميم الأقسام المتهدمة من الأسوار. كما أمر بحفر خندق عميق شمالي توب كابي، وبنى أمامه سوراً محكماً. وفي الثامن والعشرين من أيار قام الإمبراطور برفقة جوستنياني، بجولة على كل الأسوار وتلبية النواقص والاحتياجات قدر المستطاع، وتشجيع المدافعين. ومن ثم اجتمع الإمبراطور في آيا صوفيا، بأعيان المدينة ومن فيها من الأجانب، وطلب منهم العمل والقتال يداً واحدة، وأعلن أنه مستعد للموت في سبيل مدينته وشعبه. وقد عاهده بالمثل رجال الدين والدولة ممن سمعوا كلماته.

أما الجيش العثماني فقد أنهى كل ترتيبات الهجوم مساء الثامن والعشرين من أيار، من تناول العشاء ومن ثم الراحة لبعض الوقت. وبعد غياب الشمس بوقت لا بأس به، وحين خيم الظلام على إسطنبول، أدرك أهل المدينة أنهم حوصروا داخل كتلة من النار. فقد كانت النيران تضيء الجهات الأربع. وينقل لنا خوجا سعد الدين أفندي[1] ذلك المنظر على الشكل التالي:

«في تلك الليلة، قام السلطان وجنده الذين كتب لهم الله النصر، بإشعال المشاعل والشمعدانات في كل مكان ووضعها على رؤوس الرماح بحيث غمر النور الأرجاء، وبدأوا بالدعاء والابتهال لله. وقد انعكست الأضواء على السيوف في أغمادها بحيث تضاعفت شعلتها، وأخذوا يتضرعون إلى الله ألا يمكن العدو الغادر منهم، وأوقدوا مشاعل ضخمة أمام القلعة، ونصبوا المشاعل على جدران روميلي حيصار أيضاً بحيث بدا وكأنه زين بأزاهير حمر وخضر. بينما كانت أصوات التكبير تتردد في كل الأرجاء، لتزيد من هيبة هذه الليلة، وكانت الأيادي المرفوعة نحو السماء تغسل ذنوبها بترديد الشهادتين والاستغفار. وظلت تلك المشاعل مضاءة طوال الليل، ومع النجوم التي كانت تزين صفحة السماء، تحول الليل إلى نهار، فيما ازداد العدو رعباً وغاص في ظلمات الخوف

---

(1) 1536–1599 شيخ الإسلام ومؤرخ ومدرس عثماني.

والكدر، وهو يرفع ناظريه إلى السماء، فلا يرى سوى الحلكة والظلام اللذين يغمران قلبه وحظه».

وفي قلب الظلمة لاح الضياء

يشق عنان السماء دعوة وابتهالا

وبات اسمك فوق تلك الشفاه

رعوداً تضجّ بها الأرض وزلزالا

وفيما كان البيزنطيون يراقبون هذه الأضواء وسط دهشتهم ومخاوفهم، انطفأت أضواء الأسطول عند حلول منتصف الليل فجأة، ومن ثم غمر الظلام المعسكر برمته، فيما ظلت أصوات المدافع تتردد حوالي الساعة والنصف.

الهجوم الأخير

على الأرجح بدأت الطبول والأبواق بإعلان النفير العام بعد منتصف الليل بساعتين. فبعد ضربات المدافع المتكررة لبعض الوقت، أخذت جميع الفرق تكبّر بصوت واحد وهي تنطلق للهجوم. وبعد تجاوزهم للخنادق بسهولة قاموا بتعليق مئات السلالم على الأسوار، كانوا ينطلقون بعزم وجرأة لا حدود لهما، فيما يستقبلهم المدافعون بالسهام والمياه والزيت المغلي والنار لحرق السلالم، والقذائف الملتهبة والحجارة وكل ما تطاله يدهم.

وقد شنت الفرق العثمانية الكثير من الحملات لصعود الأسوار، بحيث أنها في الكثير من المرات كانت تفشل بسبب عدم وجود الدعم الكافي من الخلف. وبعد ساعتين من استمرار الهجمات أمر السلطان محمد الفرق المهاجمة بالانسحاب. ودون إضاعة الوقت، أمر قوات الأناضول المدربة بشكل متقن على القتال بالرماح والدروع، البدء بالهجوم. وقد خاب ظن المدافعين الذين أملوا الحصول على بعض الراحة بانسحاب المهاجمين. وعلى الفور انخرط أبطال الأناضول في القتال وتمكنوا من اجتياز الخنادق وتسلق الأسوار

الخارجية بسرعة مذهلة.

وكان بدء الهجوم الثاني، سبباً لهلع كبير انتشر في المدينة، حيث بدأت أجراس الكنائس تدق دون انقطاع، وتدعوا الجميع للتوجه نحو الأسوار لمساعدة المدافعين، وقد استجاب الأهالي للنداء وتوجهوا على الفور نحو الأسوار في معركة شكلت بالنسبة إليهم مسألة بقاء أو فناء.

وكان المدافعون من ذوي الدروع الحديدية، يقومون بحرق سلالم المهاجمين ورميهم بالحجارة والسهام بشكل كثيف، وذلك لإيقاف مدّ الهجوم. أما المهاجمون فكانوا يواصلون دون كلل وينهض أحد إن وقع، ليعاود الكرة، فيما قذائف المدافعين وحجارتهم الكبيرة تنهال عليهم.

دكّت حصون العدو وخارت

ومن خلف الشقوق لاحت بشارة

فيا سلطان العالم هلّا سمعتَ

سورة الفتح ترددها الحجارة

وكان السلطان الشاب، بين الحين والآخر يختلط مع جموع المهاجمين، ويشجعهم على المواصلة ويرفع من معنوياتهم. ورغم ذلك لم تسفر الهجمات، لا في المركز ولا في بقية الألوية عن نتيجة حاسمة.

وقبل أن يرسل السلطان محمد الجناح الثالث من المهاجمين، توضّأ وصلّى الفجر ومن ثم توجه إلى ربه بالدعاء:

«يا الله! أنت الرازق العليم بكل خفي. أنت الواحد الأحد الذي لا حاجة به لأحد. لم تلد ولم تولد، ورغم ذلك فإن هؤلاء الكفرة ينادون بثالوث الآب والابن والروح القدس، وقد أزالوا من أناجيلهم النبوءة التي قالها يسوع بن مريم بأن هناك نبياً سيأتي من بعده واسمه أحمد. وقد حق القول عليهم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].. يا رب! أنا عبدك العاجز، وكل

(1) سورة الأنبياء: الآية 54.

غايتي محاربة من لا يؤمن بك، وأن أكون عند حسن ظنك بي. وأنت صاحب الإرادة والقوة والمقدرة ومصدر العون. ألهمنا الصبر، وثبت عزيمتنا، وأنصرنا على القوم الكافرين».

وبعد إتمام الصلاة عاد السلطان إلى مواقع الهجوم، وبعد مرور ساعة ونصف الساعة من الهجمات المكثفة لاحظ السلطان التعب والضيق بادياً على المدافعين. كما كان الجناح الثاني من المهاجمين قد نال منه التعب أيضاً. وعلى الفور أمر السلطان- الذي رأى أن اللحظة المناسبة قد حانت- الجناح الاحتياطي من القوات الإنكشارية ببدء الهجوم. وقد رافقهم بنفسه حتى بلوغ الخنادق، وهكذا دخلت أكثر القوات العثمانية خبرة وتدريباً ميدان المعركة.

وقد وصف لنا تاج زاده جعفر جبلي[1] هذا الهجوم الأخير على الشكل التالي:

«بدأت المدافع تطلق نيرانها كقصف الرعد، ومن ثم بدأ المهاجمون بالانقضاض. وأخذ صليل السيوف وأصوات الأسلحة تخيم على الأسوار كزئير وحش ضار.

شدّت الأقواس لتطلق السهام، وكانت السيوف والهراوات تراوح في كل الجهات، والراية لا تنفك تنتقل من يد لأخرى وترفرف عالياً، فيما خرّ الشيوخ ساجدين يتضرعون إلى الله أن يهزم الكافرين، ولم تنقطع أصوات الطبول ونفخ الأبواق ولو للحظة وهي تبث الحماس في نفوس المجاهدين.

ورغم قدور الزيت المغلي الهائلة التي كان المدافعون يصبونها على المهاجمين العثمانيين، إلا أن هؤلاء كانوا يقتحمون النار، وكلما سقط أحدهم حلّ آخرون مكانه. ولم تكن الشمس قد بلغت الأفق بعد، لترى هذا الحدث الجلل، لكن الرياح كانت تحمل أصوات المرتلين وهم يبشرون المجاهدين

(1) شاعر ومؤلف ورجل دولة من القرن الخامس عشر، من أماسيا، توفي العام 1515.

بالنصر كما وعدهم الله في كتابه العزيز﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾[1].

ومـع بـدء الهجـوم الـذي أعلنتـه أجـراس المدينة المنكوبـة، أخذ كل من يسـتطيع حمل السـلاح يتوافد على الأسـوار ليمطر المهاجمين بالحجارة، أما الأطفال والنساء فقد ملأوا الكنائس، وأخذوا بالتضرع والدعاء.

وحين رأى جوسـتنياني أنّ السـلطان زجّ بالقوات الإنكشـارية في القتال، اسـتقدم آخـر القـوات الاحتياطية من المنطقـة التي يقع فيها جامع الفاتح حالياً لتشـارك في المعركة، وخاصة في المنطقة الواقعة بين إدرنة كابي وتوب كابي والتي تدور فيها أقوى الاشتباكات والهجمات الأساسية، وقد أقدم المدافعون على خطوة جريئة وشجاعة كبيرة بزج قوات الاحتياط، في أكثر المواقع سخونة.

وبذلك فقد أخذت رحى الحرب الدائرة، تأخذ أبعاداً جهنمية، حيث كان الإنكشـاريون أكثـر فـرق الجيش العثماني خبرة وتنظيمـاً يتحركون بانتظام غير قابل للتخلخل، ويحتمون بالدروع والتروس وهم يعلّقون السلالم على الأسوار التي يحاولون تسلقها بأسرع ما يمكن، فيما كان المدافعون يصبون عليهم الزيت الحامي، والقذائف الملتهبة ومع اقترابهم ينهالون عليهم بالحجارة والهراوات وضربات السيوف لمنعهم من الصعود.

وفـي هـذه الأثنـاء كان جزء من الإنكشـارية يخوضون صراعـاً دموياً أمام الخنادق، وكانت التكبيرات تملأ الأرض والسماء.

أمام أسوار أولو باتلى

في أحلك ساعات القتال وأكثرها شدة، أصيب قائد المدافعين جوستنياني، في يده وفي ساعده. وعلى الفور جاء إليه الإمبراطور يرجوه البقاء، لكنه حين رأى أن إصابته بالغة وأن النزف لا يتوقف، ترك خطوط الدفاع، وهذا ما سبب بلبلة وهلعاً بين المدافعين. فقام الإمبراطور دون تردد بالحلول مكانه في القيادة،

(1) سورة التوبة: الآية 25.

ليرفع معنويات مقاتليه. إلا أن السلطان الشاب الذي كان يراقب الأحداث عن كثب، خمن حدوث اضطراب بين صفوفهم، وأدرك أن النصر بات وشيكاً، لذا قام بترتيب مقاتليه في تشكيلة هجومية جديدة.

بحيث أخذ الإنكشاريون يتسابقون في تسلق الأسوار وسط أصوات التكبير والتمجيد.

كانت الأسوار كبحر هائج...

والسيوف تنفث النيران كتنانين ضارية

وقد تمكن أولو باتلى حسن أحد المحاربين الإنكشاريين، والذي كان طويلاً ضخم الجثة، من تسلق السور وهو يحتمي بترسه الذي يمسكه بيده اليسرى، فيما يتسلق باليد الأخرى، وعلى الفور لحق به حوالى الثلاثين إنكشارياً، لكن المدافعين قتلوا منهم ثمانية عشر مقاتلاً برميهم بالحجارة والسهام.

ورغم إصابة أولو باتلى حسن بجراح بليغة، فقد تمكن من جعل درعه مظلة مكّنت الكثير من رفاقه من تسلق الأسوار، ولكنه أخيراً سقط في المسافة الواقعة بين السورين (الخارجي والداخلي)، واستشهد نتيجة السهام والحجارة التي انهالت عليه. إلا أنّ الإنكشاريين وجدوا موطئ قدم لهم على السور، وبدأت أعدادهم في التزايد. وقبل مرور وقت طويل تمكنوا من بلوغ الساحة التي تفصل بين السورين، نتيجة تدمير جزء كبير منهما بواسطة نيران المدافع. وهنا التحموا مع المدافعين في مواجهات ضارية بالسيوف.

بعزم السلطان وسواعد الأبطال

سقطت عروش وأسوار الضلال

وحين رأى الإمبراطور ما آلت إليه الأمور، انطلق هارباً بصحبة مرافقيه نحو السفن، وقد أصيب قسطنطين في كتفه، بينما قُتل من كان برفقته. وحين أدرك مدافعو الأسوار الداخلية أن الإمبراطور قد هرب، ألمّ بهم ذعر شديد، وحوّلت الفوضى والانفلات الذي حصل، المكان إلى جحيم حقيقي. بينما

كان الإنكشاريون يندفعون دون أن يمهلوهم لحظة واحدة. وفي هذه الفوضى العارمة كان من المحال أن يعرف أحد من يقف إلى جواره أو من يساعده، أما الإمبراطور الجريح الذي فقد أمله في الهرب فقد كان يصرخ: «أما من مسيحي قادر على قطع رأسي؟»، لكنه كان وحيداً في ذلك الجحيم. وفي هذه الأثناء قام أحد الجنود العثمانيين بتوجيه ضربة قوية أوقعته أرضاً، حيث تركه هناك لأنه لم يكن يعرف أنه الإمبراطور، وقد فقد حياته تحت وطء الأقدام المتدافعة في ذلك الهرج. وتمّ العثور على جسده في ما بعد، فقام النصارى بدفنه وسط مراسم تليق بمكانته.

وفي هذه الأثناء تمّ كسر باب توب كابي من الداخل، وأخذ المهاجمون يدخلونه أفواجاً أفواجا. وحين رأى السلطان أن نبوءة الرسول الكريم قد تحققت حين قال: «لتُفتحنَّ القسطنطينية، فلنعمَ الأميرُ أميرُها، ولنعم الجيشُ ذلك الجيش»، ترجل عن صهوة جواده، وخرّ ساجداً على الأرض، حامداً الله على فضله.

وهكذا فإن السلطان الشاب الذي اكتسب لقب الفاتح وهو لا يزال في الحادية والعشرين من العمر، دخل برفقة وزرائه وقادة الجيش ورجال الدين، وجميع بطانته المدينة من باب توب كابي وذلك في عصر ذلك اليوم وسط احتفال رائع. وقد شكل هذا الفتح نهاية العصور الوسطى بالنسبة إلى أوروبا والعالم وفاتحة العصور الحديثة. واستطاع الفاتح أن ينهي ثمانية قرون من التلهف والترقب، وأن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه في هذا اليوم الذي خُلّد إلى الأبد.

ما كان لفتح المدينة أن يكون قبلا
كانت بانتظار نِعم الأمير حتى أهلاً

كان الفاتح حين دخل المدينة يعتمر خوذته، لذا كانت الفتيات البيزنطيات ممن بقين في المدينة يقدمن باقات الورد للشيخ آك شمس الدين ذي اللحية

البيضاء، وهو على صهوة جواده، وبدوره كان يخبرهم بأنه ليس السلطان وهو يشير إلى الفاتح: «ذلك هو السلطان محمد، توجّهن إليه».

ومن أجل التخفيف من الحرج الذي ألمّ بالشيخ العجوز والابتعاد عن الفتيات المجتمعات حوله كان يردّ بالقول: «عدنَ إليه، صحيح أنني السلطان محمد، لكن ذلك الشيخ هو معلمي».

ووسط مظاهر الاحتفال هذه دخل الركب المدينة، واتجه نحو آيا صوفيا. وقد ترجل السلطان أمام باب الكنيسة، قبل دخولها، أما القساوسة والناس المحتمون داخل الكنيسة، فقد هرعوا نحو السلطان وخرّواعلى ركبهم أمام قدميه، فأشار السلطان بيده ليكفوا عن البكاء ويسكتوا ومن ثم خاطب البطريرك بالقول:

«قفْ! أنا السلطان محمد، أعطيك كلمتي، بأنه لا خوف عليك وعلى كل الشعب اعتباراً من اليوم، لا على حياتكم ولا على حريتكم» ومن ثم التفت نحو قادة الجيش ليكمل: «عليكم تبليغ الجند بعدم التعرض لأي شخص من أفراد الشعب، وكل من يخالف هذه الأوامر عليكم بقطع رأسه»

وقد أدرك السلطان وهو يتجول في الكنيسة ويرى مدى فخامتها واتساعها، عظمة النصر الذي حققه، فرفع يده بالشكر والدعاء:

«يا إلهي! يا سلطاني! يا من لا بقاء إلا لوجهه الكريم، ولا عزة ولا مجد إلا لاسمه العظيم، أحمدك عظيم الحمد على نعمتك التي أسبغتها علي، وجعلتني أتمكن من تحقيق هذا الفتح الجليل المبين».

ومن ثم أمر أحد المؤذنين ممن كانوا برفقته، برفع الآذان، وأخذ العثمانيون يسمعون الآذان الشريف وسط دموع الفرح والغبطة. وبذلك تمّ تحويل آيا صوفيا إلى جامع. وقد أمر السلطان ببناء منبر ومحراب في المكان وأن يكون جاهزاً قبل يوم الجمعة حيث ستقام الصلاة.

وأخيراً في الأول من حزيران عام 1453، وفي أول يوم جمعة أعقب الفتح،

أقيمت الصلاة في آيا صوفيا، وقام الشيخ آك شمس الدين؛ الفاتح المعنوي للمدينة، بإلقاء أول خطبة فيها.

أوسكودار[1] التي كانت تشاهد فتح إسطنبول

كان هناك من يراقب مجريات فتح المدينة لحظة بلحظة. وهؤلاء هم من دوّنوا ما كان يحدث في الجهة المقابلة يوماً إثر يوم، لتظل أعمالهم باقية عبر القرون.

وقد أعاد الشاعر يحيى كمال[2]، تدوين أحداث الفتح بذات المشاعر والاندفاع، ولكن بعد قرون عدة، حيث أصبح لسان حال أهالي أوسكودار، فنظم الفتح المبين في أبيات تفيض حماسة. وقد اكتسبت تلك المنطقة، بُعداً راسخاً في صفحات التاريخ من خلال ما دونته عن الفتح.

كانت أوسكودار التي شهدت تحقق الحلم العظيم، مثار حسد بقية المدن والمناطق. فهي المنطقة الوحيدة المسلمة التي كانت تراقب أحداث الفتح المبارك. وقد تحولت إلى شاهد تاريخي حي ظلّ باقياً رغم تعاقب القرون.

لقد شهد أهالي أوسكودار المدافع السلطانية وهي تدك أسوار منطقة توب كابي، ومن ثم إبحار الأسطول العثماني على اليابسة، في تلك المسيرة الاستثنائية نحو قاسم باشا لترسو في العمق الداخلي للخليج، والمشاعل التي حولت ليلة الفتح إلى نهار مضيء، والهجوم الظافر الذي تكلل بدخول المجاهدين المدينة كمئة ألف ملاك مجنح.. كانوا يراقبون كل هذه الأحداث العظيمة، وسط دموع الفرح، حين تكللت جهودهم بالنصر.

(1) إحدى أقدم مناطق إسطنبول على الجانب الأسيوي من المضيق.

(2) الشاعر التركي، والكاتب، والسياسي، والدبلوماسي يحي كمال بياتلي1884– 1958 اسمه الأصلي أحمد أجاه. يعد من أكبر ممثلي الشعر التركي فى عهد الجمهوريه.تولي مهمه الوصل بين الشعر الحديث مع الأدب الديواني.وقد تم قبوله كواحد من أربعة كتاب علم العروض في تاريخ الأدب التركي.

أيا مدينة شهدت تحقق الأحلام

فتمنت كل المدائن هذا النعيما

وحين تُسأل عن عظيم ما رأته

تردُ وهل من سواها رأى العظيما

خمسة وثلاثون يوماً قد مضت

كحلم يبشّرهم بنبوءة قديمة

وها قد ولّت خمسة قرون

على ما رأته المدينة يوماً فيوما

ولا زالت عيونها ترنو بلهفة

وأرواحها تقصّ علينا الحكاية دوما

عن صوت المدافع وهي تضرب

فتهزم نارها قوماً وتنصر قوما

عن سفن أبحرت فوق البرّ

بفضل سواعد تفيض عزيمة

وحين لاحت بوادر النصر

فاضت عيون لتشكر الرحيما

ورأت الملائكة أفواجاً وفيرة

تدخل أبواب المدينة العظيمة

حقوق الإنسان

مع دخول الفاتح إسطنبول، اتضح لماذا فضّل سكانها رؤية العمامة التركية فيها، على القبعات الكاثوليكية، ذلك أن السلطان أعطى الأوروبيين درساً حقيقياً حول ماهية حقوق الإنسان.

فحين تأكد الفاتح أن المدينة أصبحت في يده، وتيقن من سيطرته الكلية

عليها؛ أمر بإيقاف أعمال النهب، واتخذ التدابير اللازمة من أجل عودة السكان الذين هربوا من المدينة. وأعلن على الحشد المجتمع في آيا صوفيا أنه بإمكانهم العودة إلى منازلهم وممتلكاتهم دون خوف، حيث وعدهم بالأمان على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم.

وبعد انقضاء مدة وجيزة، قام العثمانيون بإحياء الكنيسة الأرثوذوكسية التي فقدت مكانتها قبيل الفتح، لتعيد تمثيل السكان النصارى في المدينة من جديد. كما قاموا بتعيين جورجيوس سكولاريوس بطريركاً للكنيسة الأرثوذوكسية في إسطنبول.

وقام السلطان الفاتح بدعوة سكولاريوس، وأقام وليمة كبيرة على شرفه، وبعد استقباله بشكل لائق ومهيب، منحه العصا والتاج. ومن ثم خاطبه بالقول: «بإمكانك على الدوام الاعتماد على صداقتي لك، وستتمتع بجميع حقوق أسلافك وامتيازاتهم»، وودّعه بمراسم احتفالية كبيرة، كما كان متداولاً في العهد البيزنطي. وقد رافقه رجال الدولة والوزراء ممن حضروا هذه الاحتفالية حتى كنيسة الحواريين والتي خصصت لتكون مركز البطريركية الجديد. كما منح السلطان الفاتح، البطريرك بياناً مكتوباً ينص على الامتيازات التالية:

«لا يحق لأحد التحكم بالبطريرك، فهو وكل من تحت رئاسته من القساوسة والرهبان معفون من كل الخدمات العامة. كما يمنح هذا البيان امتياز عدم تحويل الكنائس إلى جوامع. كما ستتم مراسم الزواج والوفاة وفق ما أقرته الكنيسة، ووفق ما كان سارياً من قبل».

وبذلك فإن الكنيسة الأرثوذوكسية قد تمتعت بحرية إنشاء المجالس الكنسية وعقدها، وتغييرها إن اقتضى الأمر، إضافة لربط بعض الكنائس بإدارتها. كما تمّ رفع البطريرك لمرتبة أحد وزراء الدولة، وأصبح من حقه الوجود في ديوان السلطان من أجل حماية حقوق رعاياه من الروم. واعتباراً من ذلك التاريخ فقد ارتفعت منزلة البطريرك بشكل كبير. واستمرت تبعية أرثوذوكس القدس

وقبرص لبطريركية إسطنبول، كما ظل هذا شأن الأرثوذوكس الروس أيضاً.

وهكذا فقد تحول البطاركة إلى أعلى جهة مسؤولة عن حقوق الأرثوذوكس الدينية، وشؤونهم الإدارية، وكان البطريرك يقوم بممارسة صلاحيات هذا الدور، بالاشتراك مع المجلس الكنسي الذي يترأسه. كما قامت الدولة العثمانية بتخصيص فرقة من القوات الإنكشارية لتكون تحت إمرة البطريرك، ولتحافظ على سلامته في الوقت ذاته.

وكان السبب الأهم الذي دفع الفاتح لتقوية مركز الكنيسة الأرثوذوكسية، في الوقت الذي كان فيه قادراً على القضاء عليها وإزالتها؛ هو كسب الرعايا الأرثوذوكس الذين يخضع معظمهم للسلطة العثمانية، والذين يجدون في كنيسة روما، رقيباً ومنافساً لهم، وذلك من أجل تقوية الروابط بين جميع مكونات الدولة العثمانية وتمتينها. ومن جهة أخرى فإن رجال الدين العثمانيين، والمعروفين بتسامحهم الديني كتوجه إسلامي عام نحو الآخر، قد تركوا بهذه الخطوة ومثيلاتها، طابعهم الخاص في التاريخ الإسلامي عامة. وقد استمر السلاطين الذين أعقبوا الفاتح في اتباع هذه السياسة التسامحية، ومنح الامتيازات ذاتها التي منحها لرجال الأديان الأخرى.

من جهة أخرى كان الجنويون القاطنون في منطقة غالاتا، يتابعون مجريات الحصار والفتح، وقد أعلنوا قبولهم الانضواء تحت راية الحكم العثماني وأبلغوا السلطان برغبتهم في الصلح والسلام. وعلى إثر ذلك منحهم الفاتح ميثاقاً خاصاً. وهذه الوثيقة التي تحمل إمضاء زاغنوس باشا، تأتي أهميتها ليس من قيمتها التاريخية السياسية فحسب، بل من دلالاتها الحقوقية والإدارية أيضاً.

وكانت الفعاليات التجارية القائمة بالتعاون مع الجنويين، قد أسبغت على غالاتا أهمية كبرى كمركز تجاري له طابعه الخاص والمميز. لذا كانت تدار كمنطقة منفصلة عن إسطنبول. ففي أثناء حصار السلطان محمد الثاني للمدينة، عمد جنويو غالاتا على اتباع سياسة مهادنة لكل من العالم المسيحي والعثمانيين

معاً، حتى لا يثيروا نقمة أي من الطرفين عليهم، وقد نجحوا في سياستهم هذه. ونتيجة لهذا المنهج الناجح، قام الفاتح أيضاً ومن خلال المواثيق التي أبرمها معهم، بالحفاظ على حركة التجارة في إسطنبول وتنشيطها، بل وكان صاحب الفضل في ذلك.

وبحسب هذه الوثيقة فقد استطاع أهالي المدينة معاودة حياتهم ونشاطاتهم كما في السابق. حيث نصت على عدم المساس بتاتاً بأموالهم وأملاكهم وعلاقاتهم وزوارقهم وسفنهم، بأي شكل من الأشكال، وعدم إلحاق أي ضرر بعبيدهم ونسائهم وأطفالهم وجواريهم، كما أنّ لهم مطلق الحرية في التنقل براً وبحراً، ولكنهم في المقابل ملزمون بدفع الجزية ككل الرعايا غير المسلمين. وبالمقابل لن يتم تجنيدهم في الجيش الإنكشاري، وسيتم إعفاؤهم من أعمال السخرة. كما تمتعوا بالقدرة على اختيار معتمدين يمثلونهم في أوساطهم.

وفي العام 1461 قام الفاتح بنقل الأسقفية الأرمنية من بورصة إلى إسطنبول، وأعلن الأسقف بطريركاً على الأرمن. ومنحهم جميع الحقوق والامتيازات التي كان قد منحها من قبل للبطريركية الأرثوذوكسية. ورغم أن عدد الرعايا الأرمن الذين كانوا يتبعون للسلطة العثمانية في تلك الفترة ويعيشون ضمن حدودها، ليس بالقدر الذي يسمح لهم بتأسيس بطريركية خاصة، ومنحهم تلك الامتيازات والحقوق، ولكن هذه الخطوة زادت بشكل ملحوظ من عدد الأرمن الذين قدموا للعيش في إسطنبول. ومع مرور الزمن تطور نشاطهم من الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بصورة كبيرة، مقارنة مع أقرانهم في بلدان أخرى.

وفي أحد الكتب الصادرة في أمريكا العام 1857، تم وصف حياة الأرمن الذين يعيشون في السلطة العثمانية على النحو التالي:

«يحتل هذا المجتمع (الأرمني)، مكانة أساسية في الحياة اليومية للدولة العثمانية. ذلك أن الأتراك الذين اعتادوا منذ زمن طويل على الأعمال الإدارية أكثر من الخدمية، تركوا لهم تولي كل الصناعات، لذا فقد كان الصيارفة والتجار

في معظمهم من الأرمن. وكانت تجمعهم بالمسلمين علاقات ودية ومنافع متبادلة. فانتماؤهم إلى البقعة الجغرافية ذاتها خلق تماثلاً في عاداتهم الاجتماعية وتوجهاتهم العاطفية. لذا فقد تمكنوا من مدّ جذورهم في المجتمع وأصبحوا من أكثر الفئات ذات النفوذ والإمكانات المادية، وما زالوا على هذا الوضع».

كما تمّ منح الامتيازات ذاتها والوثيقة الممنوحة لنصارى غالاتا، إلى اليهود القاطنين في غالاتا وإسطنبول أيضاً. ولكن بسبب احتراق هذه الوثيقة فلا يمكن الوصول للنسخة الأصلية منها. إلا أنّ الفرمان الصادر عام 1602 والمستمد من الفرمان السابق، يدل بوضوح على وجود الأول. واستناداً إلى هذا الفرمان وانطلاقاً من عدم مساعدة اليهود لبيزنطة أثناء الفتح، تقرر إبقاء دور عبادتهم كما هي، وعدم المساس بهم، ومنحهم حق ممارسة شعائرهم وعباداتهم، كما جاء في التوراة. لذلك كانوا يتمتعون بكافة حقوقهم، في ظل عدم مخالفة الحكام والسلاطين المستقبليين.

وبناء على كل هذه المعطيات، فقد أورد المؤرخ الفرنسي جان بول روكس ما يلي: «يميل الملوك الأوروبيون إلى أن يجعلوا شعوبهم يؤمنون بدياناتهم ذاتها، ولكن السلاطين العثمانيين على عكس ذلك قاموا بتعزيز الشمولية العالمية كنموذج، وحماية العيش السلمي المشترك بكل صدق وقناعة، وكان ذلك من أهم ما قدموه للحضارة الإنسانية. وأما عن مدى اعتماد الأوروبيين على هذا الأسلوب، فهذا موضوع آخر»....

مُضيفُ رسول الله

حين قام السلطان محمد بفتح إسطنبول، عثر على قبر الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وبنى في ذلك الموقع جامعاً هو جامع (السلطان أيوب)، ومقبرة ومدرسة، وأمر أن يتم الاهتمام ببنائه كما يجب. وقد استشار الشيخ آك شمس الدين في هذا الخصوص أيضاً. ولكن دعونا نلقِ نظرة على ما حدث

منذ قرون.

في العام ستمئة واثنين وعشرين بعد الميلاد، وفي السادس عشر من تموز، دخل رسول الله ﷺ المدينة على ظهر ناقته القصواء، تتقدمه راية الإسلام معلقة على رأس رمح، ويحيط به الأنصار مرحبين مهللين، يتسابقون من أجل استضافته في منازلهم، وكان أعيان المدينة يمسكون بزمام الناقة وهم يقولون: «يا رسول الله، تفضّل عندنا»، وكانوا يطمحون إلى نيل هذا الشرف العظيم.

وقد كان الرسول ﷺ يردّ عليهم بالقول: «خلّوا سبيلها فإنها مأمورة، وسأقيم في المنزل الذي تبرك أمامه». وبذلك فقد اختار الطريق الأنسب، دون أن يؤذي مشاعر أي منهم.

وأخيراً بركت القصواء التي كان الجميع يراقبونها بشوق، في الموقع الذي بُني فيه المسجد النبوي الشريف لاحقاً. وقد قال النبي الكريم الذي ترجّل مسروراً عن ظهر ناقته: «إن شاء الله، هنا سيكون منزلنا. لمن هذا المكان؟».

فأجابوه بالقول: «يا رسول الله، إنه لابني عمر، سهيل وسهل». وكان هذان الشابان يتيمين.

وأقام الرسول ﷺ في أقرب منزل من منازل أقربائه إلى حيث بركت ناقته، ذلك أنّ والدة عبد المطلب جد الرسول ﷺ كانت من بني النجار من المدينة. وقد قال الصحابي الجليل خالد بن زيد الملقب بأبي أيوب الأنصاري بابتهال: «يا رسول الله، إنه منزلي»، وأشار نحو باب منزله.

ولأنه استضاف الرسول ﷺ في منزله لسبعة أشهر، فقد أُطلق عليه لقب «مضيف الرسول»، ولأنه كان يحمل الراية في الغزوات الإسلامية، فقد أطلقوا عليه لقب «حامل لواء الرسول» (علم دار الرسول). وبعد مرور نصف قرن على يوم الهجرة المبارك ذاك، حين قام معاوية بن أبي سفيان بتأسيس الدولة الأموية وأصبح خليفة المسلمين، سأله عن الحديث النبوي الشريف الخاص بفتح القسطنطينية، لأنه كان كاتباً للوحي حين نزوله على الرسول الكريم. وبناء

على هذا الحديث الشريف، ولنيل شرف هذا الفتح، واستبشاراً بهذه النبوءة، قام في سنة تسع وأربعين هجرية، الموافق ستمئة وتسع وستين ميلادية، بإرسال جيش إلى إسطنبول من أجل فتحها.

وقد رافق هذا الجيش ثلاثة وثلاثون من صحابة الرسول الكريم، وكان أكبرهم سناً وأرفعهم مكانة ومقاماً هو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، وكان وجودهم مع الجيش يمنح الجنود حماسة ويزيدهم شجاعة.

ومع استمرار الحصار لوقت طويل، اعتلّت صحة الصحابي الجليل حامل راية الرسول ﷺ، فخاطب رفاقه بالقول:

«لقد سمعت رسول الله ﷺ يتحدث عن أحد عباده الصالحين ممن سيدفن قرب أسوار القسطنطينية، وأتمنى أن أكون هذا الشخص. لذا عليكم بعد وفاتي وغسلي، أن تدفنوني في أقرب موقع من الأسوار».

وقد توفي بعد ذلك. وبناء على رغبته، رافق جثمانه فرقة من الجنود إلى أقرب موقع من السور، وحين علم إمبراطور القسطنطينية بالأمر، أعلن أنه بعد رفع الحصار عن المدينة سيخرج جثمانه من القبر ليطعمه للوحوش، ولكن الرد جاء من الجيش بأنه إن فعل أمراً مماثلاً:

«ووالله لئن نُبش، لا ضُرب لكم بناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة». لذا عاهدهم الإمبراطور على عدم المساس بالقبر.

وتحول هذا القبر مع الزمن إلى تكية ومزار يلجأ إليه المسيحيون في أوقات الشدة والبلاء، كونه مكاناً يرقد فيه ولي تقي من المسلمين. وكانوا يؤمنون بأن الدعوات المقامة في حضرته مستجابة، وكانوا في أيام المجاعات والقحط يتوافدون إلى المكان من أجل إقامة الدعوات، بحسب الرحالة الذين عاصروهم، ولكن الحملة الصليبية على إسطنبول عام 1204، دمرت كل دور العبادة والأماكن المقدسة في الجوار، بالإضافة لنهب إسطنبول وتدميرها، لهذا فقد ضاع موقع قبر أبي أيوب الأنصاري.

وهكـذا لـم يطمـر قبـر حامـل لواء الرسـول الكريم فقط، بـل طمرت معه شـاهدة القبر أيضاً. وهذا الأمر متفق عليه ليس في المصادر التركية فحسـب، بل في المصادر والمراجع العربية أيضاً. وكانوا يعلمون أن قبر الصحابي الجليل يقع في مكان ما خارج أسوار المدينة، ولكن أين على وجه التحديد؟

وبعد مرور ثمانية قرون على هذه الحادثة، أي في سنة 1453، كان السلطان الفاتح الذي قام بفتح مدينة إسطنبول لتصبح عاصمة للدولة العثمانية العظمى التي أسسها، يبحث عن إجابة لهذا السؤال.

لذلك قام باللجوء للشـيخ آك شـمس الدين مرة أخرى، وهو يعرض عليه رغبته في إيجاد قبر الصحابي الجليل وقد ردّ عليه الشيخ بالقول:

«مـولاي، كنـت فـي كل ليلة من ليالي الحصار أرى نوراً يسـطع في موقع محـدد، ومـن المحتمـل أن يكـون قبر الصحابي الجليل مضيف رسـول الله ﷺ خالد بن زيد في تلك البقعة».

وقد سـرّ الفاتح كثيراً من هذه المعلومة وزاد توقاً، وعلى الفور اصطحب بعضاً من حاميته وانطلق مع الشـيخ آك شـمس الدين إلى الموقع الذي أصبح يسمى الآن سلطان أيوب. وبعد أن قام الشيخ بالتجول والتمحيص في الجوار توجـه نحـو السـلطان بالقـول مشـيراً إلـى موضـع القدميـن والـرأس: «هنا قبر الصحابي الجليل خالد بن يزيد».

وقد أمر السلطان الفاتح فيما بعد، أحد مرافقيه الذين كانوا معه أثناء العثور على القبر:

«خذ هذا الخاتم، وادفنه وسـط المكان الذي أشـار إليه الشـيخ آك شـمس الدين، ومن ثم غيّر الإشارات التي وضعناها على القبر، وضعها على بعد عشرين خطوة بالتمام من مكان القبر، واحرص على أن يكون اتجاهها نحو القبلة، وأن تكون المسافة بين الرأس والقدمين هي ذاتها، وتوخَ الحذر حتى لا يراك أحد».

وقد نفذ الجندي أوامر السلطان الفاتح بالحرف.

وفي يوم التالي ذهب الفاتح لملاقاة الشيخ آك شمس الدين وقال له:

«شيخي! أريد إنشاء مدفن في الموقع الذي وجدنا فيه قبر الصحابي خالد بن زيد، وحتى نتأكد أننا أصبنا في إيجاد الموقع، أرجو منك التدقيق في المكان مرة أخرى».

فاتجه الجميع مرة أخرى نحو موقع القبر، ودون أن يلتفت الشيخ نحو الإشارات الموضوعة، اتجه نحو الموقع الحقيقي للقبر، حين اكتشفوه البارحة وهو يقول:

«هنا يرقد الصحابي خالد بن زيد». ومن ثم أخبرهم أنه يرى خاتماً ذهبياً مدفوناً في المكان، وطلب منهم إخراجه أيضاً، وقد تأثر السلطان الشاب كثيراً وخاطب الشيخ:

«أنا أصدقك يا شيخي، ولكنني أريد الاطمئنان بصورة تامة، فهل لديك دلائل أخرى».

فأشار الشيخ نحو رأس قبر الصحابي الجليل وهو يقول:

«احفروا هنا»، وبإذن الله ستجدون قطعة من المرمر طمرت بالقرب من موضع الرأس».

وبالفعل حين تمّ حفر المكان بعمق يقارب المترين، وجدوا لوحاً مرمرياً كتب عليه بالعربية إنه قبر أبي أيوب الأنصاري، فلم يتمالك الموجودون أنفسهم من التكبير والتسبيح باسم الله.

ومنذ ذلك الوقت، أصبح قبر الصحابي الجليل الذي ظلّ راقداً أمام أسوار المدينة لثمانية قرون- والذي كان مجرد معرفة وجوده قريباً من المكان يمنح الجند طاقة إضافية أثناء الحصار- من أهم معالم المدينة.

إنه هدية لأهل المدينة من الخالق الباري

مقام مضيف الرسول الكريم، أبي أيوب الأنصاري

ولم تقتصر أعمال الفاتح على بناء تلك المقبرة فحسب، فبنى في ذلك

الموقع جامعاً، ومدرسة. وقد اكتسبت منطقة الصحابي أيوب، صبغة قدسية خاصة، حيث يرقد في مركزها السلطان المعنوي للمدينة. وكان السلاطين يتقلدون سيوفهم في حضرة ذلك السلطان الموّقر، حين اعتلائهم العرش. وكل فان كان يحترق توقاً إلى اتقاده الأبدي، فيما تحيط بهم هالة السلطان الأيوب، كنور قدسي.

إسطنبول تزدهي

بعد إقامة أول صلاة جمعة أعقبت الفتح، أقام السلطان الفاتح في أوك ميدان، احتفال النصر والفتح. وقد استمرت الاحتفالات لثلاثة أيام بلياليها، حيث رافقها الكثير من الألعاب والتسالي.. كما تمّ ختم القرآن، ورفعت الدعوات لحماية المدينة، وتمّ توزيع الأموال والأملاك والأراضي على الفاتحين، مكافأة لهم، ثم خاطبهم الشيخ آك شمس الدين بالقول:

«أيها الفاتحون! كما تعلمون جميعاً فقد وصف النبي الكريم الجند الذين سيفتحون هذه المدينة بنعم الجند. وقد نلنا شرف هذا الوصف العظيم. فهنيئاً لكم هذا المجد، الذي سيغدو غفراناً لذنوبكم بإذن الله. وما يليق بكم فعله الآن هو عدم التبذير وتبديد ما نلتموه من عطاء، بل الأجدر هو توزيعه على الفقراء وذوي الحاجة، وإطاعة السلطان في كل حين وحال، والإخلاص له. ولتكونوا قدوة لمن سيأتي من بعدكم، فلا يليق بالصالحين سوى الصلاح».

ومن ثم ختم حديثه بالدعاء لله وحمده.

وقد ساهمت خطبة الشيخ القصيرة ولكن الملهمة، في دفع كثير من المستمعين إلى التبرع من أجل إعمار المدينة وبناء الكثير من الأوقاف الخيرية فيها، حيث كان موفقاً في اختيار الكلمات والزمن الذي أطلق فيه دعوته هذه. ذلك أن إسطنبول كانت تعاني من الفقر والقفر والدمار حين فتحها العثمانيون. ولم يكونوا السبب في ذلك، إنما دول أوروبا. فمن جهة كانت هناك الحروب

الداخليـة والصـراع مـن أجـل العرش بين أفـراد عائلة كومنينيـون[1]، ومن جهة أخرى الحملة الصليبية الرابعة[2] على هذه المدينة القديمة الجميلة، والتي نهبتها وحولتها إلى خراب وأنقاض.

وقد نقل لنا المؤرخون الغربيون بأسى ما قام به الجيش الصليبي الذي دخل المدينة عام 1204، والخراب الذي لحق بها. حيث لم تعمر الكنائس المهدمة، والتـي سـرقت نفائسـها. ولـم يتـم ترميم القصور التي تعرضـت للنهب والدمار لتعود لسـابق عهدها، كما قام المحتلون بتدمير كثير من الكنائس ودور العبادة بسـبب تعصّبهـم الدينـي. ولأنهـم كانـوا بحاجة للجص، فقد هدمـوا الكثير من المباني الجميلة، وتمّ هدم الآثار المرمرية في جزيرة باروس، أو تمّ استخدامها في أبنية دميمة بشـعة. ولم يبقَ في الكثير من دور العبادة سـوى أرضية البناء، حيث تمّ تدمير معظم أعمدتها، أو لحق بها الضرر.

وقد اسـتغل الأهالي هذه الفرصة وقاموا بنهب وتخريب الكثير من أجزاء المبانـي المطليـة بالذهـب والفضـة أو المصنوعة منها. ولـم يسـلـم منهم سـوى المسـلة وآيا صوفيا وجمبرلي تاش[3]. وكانت المدينة تشـبه مدينة أشـباح. فقد كان الشـعب يعاني الفاقة، وانخفض عدد السـكان بشـكل كبير، وانهارت بنيتها الاقتصادية. حيث أدت المشاحنات العقيمة بين حكامها إلى تدمير هذه المدينة الجميلـة. وكان هـذا مـا رآه الفاتح حين دخولـه المدينة وقد أحزنه الأمر كثيراً. ولم يتمالك نفسه من ترديد هذه الأبيات العائدة للعلّامة الكبير الملا جامي[4]:

على عرش القياصرة نسج العنكبوت بعد مجد

وفي قصر الأكاسرة نعيق وزوال عهد

لـذا فـإن الفتـح المبيـن الـذي تـم على أيـدي العثمانيين يحمل بعـداً أكثر

---

(1) حكمت من العام 1081 وحتى العام 1185.

(2) (1201–1204) كان هدفها احتلال القدس، ولكنها بدلًا من ذلك احتلت القسطنطينية.

(3) – عمود بني على رأس تلة لتخليد ذكرى الإمبراطور قسطنطين حوالي عام 330.

(4) عبد الرحمن الجامي (1414–1492) من مشاهير شعراء فارس وكتابهم.

عمقاً، حيث قام السلطان بتوفير كل الضمانات للروم الذين غادروا المدينة أثناء حصارها، من أجل العودة إليها. وقد اتبع سياسة التوطين، حيث تمّ إحصاء المنازل الشاغرة في إسطنبول، لتوطين القادمين فيها.

وفي الفتوحات التي تلت ذلك، استقدم السلطان التجار والحرفيين والصناع من المدن التي تمّ فتحها، لكي يستقروا في إسطنبول. وكنتيجة لذلك؛ فقد تمّ توطين كثير من العائلات داخل السور، بين العامين 1453 و1404، من مختلف أقاليم الأناضول، ومن فوتشا عام 1455، ومن المورا عام 1458، ومن جزيرة لسبوس عام 1462، ومن طرابزون عام 1459، ومن إرلي وآك سراي وقونيا وقرمان في الأعوام 1463، و1471، وقد أطلق الوافدون الجدد أسماء الأماكن التي قدموا منها على كثير من المناطق التي استقروا فيها في المدينة.

وكان من أوائل من جاء من الأناضول هم سكان بورصا، حيث قطنوا السلطان أيوب، وأهل طرابزون الذين استقروا في جوار منطقة جامع بيازيد، وسكان مدينة جارشمبا استقروا في منطقة جارشمبا، أما أهالي تيرلي فقد استقروا في منطقة الوفاء، وسكان قسطموني في منطقة كازانجي، وأهالي جاليبولي في منطقة الترسانة، وأهالي سينوب وسامسون في منطقة توب هانه، وأهالي إغريدير[1] في (إغر كابي) وأهالي إزمير في غالاتا الكبيرة، وأهالي آك سراي في منطقة آك سراي، وأهالي قونيا في منطقة الفاتح، أما بقية السكان المسلمين الأتراك فقد فضلوا السكنى في منطقة أوسكودار، ومسلمو أوروبا استقروا في منطقة أوسكوبلولر، بالقرب من جيبالي، أما سكان يني شهير ففي منطقة (يني كابي)، أما روم المورا ففي منطقة فنار، والأرمن في لانغا وكوم كابي وهاس كوي، واليهود في تكفور سراي وجِفت كابي.

كما قام الفاتح بتوطين أسرى فتوحاته من الفلاحين والمزارعين في الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة، وبذلك فقد حلّ مشكلة إعادة تعمير المدينة.

(1) مدينة تابعة لمحافظة إسبرطة في تركيا.

وبتشجيع من الشيخ آك شمس الدين وبقية رجال الدين وبإشراف شخصي من السلطان، فقد ساهم المحاربون والأمراء والباشوات والبكوات، والدراويش في إعمار المدينة بحماسة بالغة، وسرعة ملحوظة، بحيث لم تمضِ سنتان، حتى اكتست المدينة بالطابع العثماني.

وكما أطلق اسم الفتح المبين على فتح السلطان العثماني الشاب للمدينة، فقد اكتسب هو أيضاً لقب الفاتح. وكان السلطان يرى وجوب ترسيخ كلمتي الفاتح والفتح في ثقافة المدينة وانسجامهما مع مجريات الحياة اليومية فيها.

ومع انتقال المدينة إلى الحكم العثماني، فقد ازدهرت، وأصبحت مركزاً للعلم والتقدم، وأمثولة لرهافة الذوق العمراني، واكتسبت زخماً حياتياً مختلفاً وراقياً. وأصبحت وكأنها كانت خاضعة لسيطرة المسلمين منذ عصور طويلة.

مدينة الجامعات

كان السلطان الفاتح شغوفاً بالعلم بشقيه النظري والعملي، وترجمة مصادره، لذا فقد شجع رجال العلم والدين، وقد أوردت مصادر كثيرة وبشكل تفصيلي القيمة والأهمية التي أسبغها عليهم السلطان. وقد حدثنا ساهي بيك، أول كاتب رسمي كتب وثيقة رسمية في الدولة العثمانية عن هذا الأمر بالشكل التالي:

«لم يقم سلطان أو حاكم قبله باستقطاب أهل الفنون والصناعات على اختلافها وبخاصة العلم، وأغدق عليهم كل هذه النعم والمراتب والمكانة، وبذا فقد تاقت النفوس والعقول إلى الإبداع والمعرفة والعلم».

وكان عاشقاً للعلم ومنجزاته. وبعد فتح إسطنبول، وإقامة أول صلاة جمعة في كنيسة آيا صوفيا التي تمّ تحويلها إلى جامع في عام 1453، توجه نحو رجال العلم والمدرسين وقال لهم: «من الغد ستبدؤون بإعطاء الدروس في آيا صوفيا». وقد نُفِّذ أمر الفاتح على الفور، حيث تمّ تحويل الغرف المجاورة للكنيسة في

اليوم التالي إلى غرف للتعليم ويدأ التدريس فيها اعتباراً من ذلك التاريخ.

وقام بتعيين أستاذه الملا خسرف، مديراً للمدرسة العليا، وكان الملا خضر بيك جلبي الذي سيصبح أول قاضٍ للمدينة، من بين أوائل المدرسين الذين كانوا يعلمون الطلبة في آيا صوفيا، وبذا فقد وضعت إسطنبول أسس أولى جامعاتها مع أول أيام الفتح. وبعد مدة وجيزة تمّ تجهيز مدرسة زيرك، وبوشر التعليم فيها أيضاً. حيث تحول دير بانتوكراتور، الذي استخدمه الغربيون أثناء غزوهم إسطنبول عام ألف ومئتين وأربعة كمقر لقيادتهم، إلى مدرسة زيرك، التي غدت إحدى منارات العلم، وقد تمّ إسكان طلبة العلم في غرف الدير الخمسين بطابقيه العلوي والسفلي. وكان الملا زيرك محمد أول المدرسين في هذه المدرسة، ومن ثم تلاه الملا علي طوسي، والخوجا والملا عبد الكريم في إعطاء الدروس التعليمية فيها. وفي كثير من الأحيان كان الفاتح برفقة الصدر الأعظم محمود باشا، يذهبان لحضور هذه الدروس في كل من آيا صوفيا، ومدرسة زيرك، وتتم المناقشات العلمية في حضوره.

كما قام الفاتح ببناء مدرسة في باحة جامع السلطان أيوب الأمامية، حيث بُنيت على كل جانب منه ثماني غرف، وتمّ تخصيص هذه الغرف الست عشرة كمدرسة، وذلك في العام 1459. وتمّ تعيين مدرس يتقاضى خمسين آكجة، عن كل يوم، وكان في كل يوم يفتتح حصصه بأحاديث الرسول الكريم، ويتابع بعدها تلقين الطلبة علوم الدين والدنيا.

وكلية وجامع الفاتح التي بنت فوق إحدى تلال المدينة السبع، كانت في الوقت ذاته داراً لإيواء الأيتام، حيث كانت تحيط بالجامع وتُدعى صحن الثمانية، ومدار الثمانية، والتي كانت دار علم ومعرفة، فقد كانت تحمل وجهة نظر السلطان الشاب، واتجاهاته نحو العلوم المعاصرة، وبذا فقد كانت من أعظم المؤسسات التعليمية التي تركت بصمتها على تطور العلم. أما الكلية التي بُنيت بين عامي 1463و1470، فهي تتكون من ثماني مدارس، أربع منها

تتجه نحو بحر مرمرة وأربع نحو البحر الأسود، وهذا العدد هو من منح الكلية اسمها. وكانت هناك أبنية أخرى حول المسجد، منها دار الشفاء، ومطبخ عام، ونزل للمسافرين ومكتبة ودار التعليم، وفي كل مدرسة من المدارس الثماني كانت توجد تسع عشرة غرفة مقبّبة، وقاعة تدريس. وكان الطلبة الذين يتعلمون في الكلية يتلقون آكجتين في اليوم، وخلا المكتبة الرئيسية الموجودة في باحة الجامع، كان لكل مدرسة مكتبتها الخاصة بها أيضاً. وكان عدد طلاب الكلية المنخفض ملفتاً للنظر حيث كانوا ما بين المئة وعشرين طالباً ومئة وخمسين، وذلك بسبب ارتفاع سويّة العلم المقدم في هذه المدرسة، كما في جميع بقية المدارس في الدولة العثمانية.

وكان الملا خسرف الذي يلقن الطلاب علوم الفقه، والملا غوراني الذي يلقنهم أصول التفسير، وخوجا زاده يدرّس علوم اللغة والكلام، قد أضحوا من أهم رجال العلم والدين في العالم الإسلامي برمته، حيث كان جميع طلبة العلم يطمحون لحضور دروسهم والتتلمذ على أيديهم.

وبذلك فقد توجه أكثر رجال الدين والعلم شهرة وخبرة إلى مدارس إسطنبول للتدريس فيها. وكان من أبرزهم الرياضي الشهير وعالم الفلك علاء الدين بن محمد كوشجو، ومع توجه هذا العالم الكبير من موطنه تركمانستان إلى إسطنبول تطورت سويّة علم الفلك والرياضيات في الدولة العثمانية تطوراً كبيراً.

قضية الصرب

كان الاصطدام بالمجر نتيجة السياسة التوسعية التي اتبعها الفاتح– حيث امتدت سلطته ما بين أعوام 1454، و1456 على كل البلقان– من أجل حل قضية الصرب، أمراً لا مفر منه. ذلك أن الصرب قاموا في عام 1451 بالسيطرة على قلعة كروسيفاتش وما حولها، ولكنهم أعادوها مجدداً حين سمعوا بفتح

إسطنبول. وقد تغاضى الفاتح حينها عن تحركهم هذا، لانشغاله بالتحضير لفتح القسطنطينية، ولكنه أرسل إلى ملك الصرب جورج برانكوفيتش في عام 1454 وفداً أبلغه بأن وادي موروفا الذي كان من أملاك الملك الراحل لازار قد أصبح ضمن أملاكه هو.

وقد قطع حاكم الصرب نهر الدانوب عام 1454، متجهاً نحو هونيدوارا ملك المجر ليطلب منه المساعدة، وقد كان الفاتح في هذه الأثناء يقود الحملة المتجهة نحو وادي موروفا، وما إن انسحبت القوات العثمانية من المنطقة بعد فتح كل من أوستروفيتش، وأومول، حتى بادر الصرب والمجر بالتحرك.

وكان الفاتح قد كلف فيروز بيك بحماية منطقة فيدين– نيش، وترك له قوة مؤلفة من ثلاثين ألف محارب. ولكن القوات المجرية والصربية التي كانت تحت قيادة هونيدوارا استطاعت التغلب على قوات فيروز بيك في كروسيفاتش، وتمكّنت من أسره. وتمّ احتلال الأراضي العثمانية الواقعة بين فيدين ونيش.

وعلى إثر هذه الحادثة، خرج الفاتح في حملة الصرب الثانية في ربيع عام 1455. وحين عبر السلطان جبال كراتوفا الواقعة غرب سكوبيه[1] والشهيرة بغناها بالفضة والثروات المعدنية، انضم إليه قائد حامية الحدود عيسى بيك إفرِنوس أوغلو. وبعد التشاور مع عيسى بيك قام السلطان بحصار قلعة نوفوبردو واستولى عليها في مدة وجيزة. ومن ثم استولى على تربتشا[2] وجوارها، والشهيرة أيضاً بثرواتها المعدنية. في تلك الأثناء كان كاراجا باشا قد دمّر صربيا ولم يبقِ فيها حجراً على حجر، لذلك اضطر برانكوفيتش لطلب الصلح. وبحسب بنود الاتفاق سيتخلى حاكم الصرب عن تحالفه مع ملك المجر وسيدفع ثلاثين ألف دوكا سنوياً لخزينة السلطنة، وكما في السابق سيزود الجيش العثماني بجزء من قواته أثناء الحملات والحروب.

(1) عاصمة مقدونيا.

(2) مدينة تقع في صربيا.

وفي طريق العودة قام السلطان حين وصوله إلى كوسوفو، بزيارة قبر جده الغازي مراد، ودعا لروحه بالرحمة والغفران. وقد عاد كاراجا باشا مع محاربيه، وأبلغه بمجريات ما حدث معه، ومن ثم سمح السلطان بعودة الجند إلى سناجقهم، وتوجه إلى سالونيك التي استراح فيها بضعة أيام، قبل عودته إلى إسطنبول.

كان السلطان الفاتح ورغم الاتفاق الذي أبرمه مع صربيا، يعتقد أنه من أجل إحكام السيطرة عليها وضمها إلى النفوذ العثماني، فلا بد من السيطرة على بلغراد، وأخذها من المجريين. لذا وفي السنة التالية، في الثالث عشر من حزيران العام 1456، انطلق على رأس حملة للاستيلاء على بلغراد. وكان الجيش الذي تحت قيادته مكوناً من مئة ألف من الفرسان والإنكشارية والرماة، وثلاثمئة مدفع، بالإضافة إلى مئتي سفينة حربية من سفن الأسطول ذات الحجم المتوسط التي انطلقت عبر الدانوب لترافقه، دون أن تثير انتباه أحد.

وبعد أن وصل السلطان على رأس قواته البرية إلى موروفا، قام بإرسال كل من آك سكال إسحاق إلى سميديريفو من أجل الحصول على معلومات عن ملك صربيا، وحسن بيك إلى جوار بلغراد لجمع معلومات عن المجريين. أما محمد بيك شامل أوغلو، وعلي بيك إيشتين أوغلو فقد أمرهما بالبقاء في رودنيك، حيث سيقوم الاثنان بضرب قوات العدو من الخلف.

وقد أطلع آك سكال إسحاق بيك السلطان على أن ملك صربيا توجه نحو المجر لطلب المساعدة، ووعدهم بالتنازل عن غوفرجينليك وبعض المدن الأخرى، بينما أطلعه حسن بيك على أن المجريين على أتم الاستعداد للحرب. وحين وصل السلطان إلى بلغراد، بلغه خبر أن قوات شامل أوغلو وإيشتين أوغلو التي تمّ إرسالها إلى جوار رودنيك، استطاعت إلحاق الهزيمة بقوات العدو التي كانت مجتمعة جوار سيفريجة حيصار وتنوي ضرب الجيش العثماني من الخلف.

حصار بلغراد

كانت قلعة بلغراد مبنية عند ملتقى نهري الدانوب وسـافا، على تلة منيعة ومحصنة. وبالإضافة إلى أبراجها المنيعة فقد أحيطت براً بخندق مائي واسع. وكانت القلعة المحاصرة براً وبحراً لا تملك منفذاً سـوى على نهر سـافا. وقد عمد الفاتح إلى تطبيق الإجراء الذي اعتمده سابقاً في حصار إسطنبول، إذ قام بنقل جزء من الأسطول براً ونقله إلى النهر. وبعد اتخاذ كل الإجراءات اللازمة، بـدأ بضـرب القلعـة بالمدافع. وحين فقـد المحاصرون في القلعة أملهم بالنجاة وصلتهـم أخبـار عـن أن الجيـش المجري بدأ بالتجمع علـى ضفاف الدانوب، حيث كان الجيش الذي يقوده هونيدوارا يتجاوز تعداده الستين ألفاً، وقد عبروا بيتروفارادين[1] وهم يتقدمون الآن.

وعلـى إثـر ذلـك قـام الفاتح بعقـد مجلس حربي للتشـاور حـول التدابير الواجب اتخاذها. وتمّ تكليف والي ولاة الأناضول داي كاراجا بيك، بالانتقال إلى الجانب المجري، لمواجهة القوات القادمة من أجل فكّ الحصار عن القلعة. حيث قال له كاراجا بيك حينها:

«مـولاي! لا تعبـر أنـت النهـر، بل امنحني موافقتـك لكي أنتقل إلى الضفة الأخرى من الدانوب. وسأمكث قبالة القلعة».

وكانت فكرة ذكية بالفعل، وبذلك كانت القوات العثمانية ستشكل حاجزاً بين القلعة والجيش المجري. وسيمنعون المدافعين من الالتحام مع الجيش المجري القـادم لمسـاعدتهم، ومـن جهـة أخرى علّق الرافضون على هـذه الخطة الناجحة بالقـول: «مـا الـذي يمكـن للعدو أن يفعله؟ دعنا نـدك القلعة وننهبها أمام أعينهم، حتى يدركوا قوة السلطنة وعظمتها». وكان ولاة روميلي من مناصري هذا الاتجاه.

وبحسـب النشـري وعاشـق باشـا زاده فإن: «ولاة روميلي ذهبوا إلى أبعد مـن ذلـك، حيـث لم يكونوا راغبين في انقسـام الجيـش، ولـم تكن لديهم الهمة

(1) مدينة تقع في صربيا على ضفاف الدانوب.

للإعداد للأمر».

ولكنه بالطبع قول مبالغ فيه، ذلك أن هؤلاء القادة كانوا متأكدين من سقوط القلعة قبل وصول المساعدات، ولم يكونوا راغبين في مواجهة العدو القادم وهم منقسمون، وقد دعموا رأيهم بوجوب اشتراك الأسطول أيضاً مما سيسهل مهمتهم.

ولأن معظم القادة أيدوا هذه الوجهة، فقد وافق الفاتح عليها. رغم أنهم سيدركون كم كانت فكرة كاراجا بيك صائبة، في اليوم التالي. ذلك أن الأسطول المجري المكون من مئتي سفينة قد دخل الدانوب، وبدأ بمحاربة الأسطول العثماني.

وبعد خمس ساعات من القتال الشديد بين الأسطولين، فاز المجريون. وقد غرقت ثلاث سفن عثمانية في هذه المعركة التي انضم إليها المدافعون بأربعين سفينة حربية، فيما استولى المجريون على أربع سفن أخرى، وعدا عن كون المجريين أصبحوا قادرين بكل سهولة على دخول المدينة من الجهة المقابلة، فقد ارتفعت معنويات المدافعين أيضاً بشكل ملحوظ.

ومن جهة أخرى كانت ضربات المدافع قد سببت الضرر اللازم في أسوار قلعة بلغراد. أما الخنادق التي في البر فقد تم ملؤها بالتراب. وحين رأى السلطان هزيمة أسطوله، أمر بشن الهجوم العام قبل أن يتمكن المجريون من دخول القلعة، رغم أن الجيش العثماني كان مرهقاً نتيجة معارك اليوم السابق التي استمرت طوال النهار. حتى أن كاراجا بيك قد استشهد في ذلك اليوم نتيجة إحدى ضربات مدافع العدو.

ورغم ذلك فقد قام العثمانيون بشن الهجوم قبيل الفجر في الواحد والعشرين من تموز، وقد كانت المدينة تدافع عن نفسها بشراسة. وأخيراً استطاع الإنكشاريون بعد الكثير من الجهد والبطولات من اجتياز الخنادق، ودخول المدينة من خلال المواقع المهدمة من الأسوار. ولم تكن أعدادهم قد تجاوزت الخمسمئة جندي، وقد ابتهجوا محتفلين بانتصارهم، وأخذوا في نهب المدينة، رغم أنه في الليلة السابقة دخل ثلاثون ألف جندي مجري المدينة، وقد

انسحبوا عمداً من مواقعهم، ليجعلوا قسماً من الجيش العثماني يدخل المدينة، وحين رأوا أن الجيش قد انشطر ودخل قسم كاف منهم وانشغلوا بالنهب، قاموا بسدّ الثغرات، ومحاصرة الجنود العثمانيين وقد قتلوا معظمهم. وعلى الأخص هونيدوارا والراهب الفرانسيسكي كابيسترانو اللذان أظهرا جهداً عظيماً. حيث كان الأخير يخوض القتال مع جنوده في أكثر المواقع احتداماً وخطراً.

وفي هذه الأثناء دخلت القوات المجرية المرابطة خارج القلعة، في عراك عنيف مع القوات العثمانية. وإزاء هذا الواقع، قام قادة الجيش بخطة انسحاب مدروسة من أجل استدراج العدو، وحين يتقدم العدو كانوا سيحاصرونه للقضاء عليه. ولكن هونيدوارا الذي خمن خطورة القيام بخطوة كهذه، خرج على الفور لنجدة المدافعين.

ومع دخول هونيدوارا إلى المعارك، انقلب الوضع ضد العثمانيين، حيث قامت قوات العدو بشن هجوم سريع على مركز الجيش، وبحسب بعض المصادر فقد تعرض مقر قيادة الجيش للنهب.

وعلى إثر ذلك أشار وزراء السلطان عليه بالانسحاب من مقر القيادة حيث كان يشرف على إدارة المعارك بنفسه. ولكنه ردّ عليهم بالقول: «إن الهرب من مواجهة العدو، هو إحدى بوادر الهزيمة وأنا والحمدلله اعتقادي راسخ بمقولة: «إنّ الحق يعلو ولا يُعلى عليه. ولن أهرب وأسمح لعدوي بالانتصار».

وهكذا فقد رفض فكرة الهرب، ولكنه حين شاهد أن الأمور تسير لغير صالحهم، ثار واحتدّ ووبخ قادة الإنكشاريين الذين برفقته بشدة. حيث أن الجيش قد تشتت، وأخذ الفرسان والمشاة كل يسير في اتجاه. وعلى إثر ذلك قام حسن آغا قائد الإنكشاريين بالاندفاع وسط جنود الأعداء بمفرده، وامتطى السلطان أيضاً جواده وانضم لجموع المقاتلين.

وقد اندفع بغضب عارم، حتى أن مرافقيه شاهدوا الدم يتدفق من شفتيه اللتين كان يعضهما حنقاً وغيظاً، وكان هذا السلطان الشاب- الذي خلدت بطولاته

وشجاعته- يقوم بالهجوم على جيش العدو وهو يدرك أنه مهزوم. وقد كان يرافقه من جهة عيسى بيك أوزغور أوغلو ومن جهة أخرى عيسى بيك إسحاق أوغلو، وأمامه كان مصطفى بيك بن عيسى بيك أوزغور أوغلو، ومصطفى بيك بن إسحاق بيك، فإزاء هذا الوضع الحساس والخطر لم يشأ كلا العيسوَين وكلا المصطفيَين ترك السلطان بمفرده دون حماية. هؤلاء الأبطال الخمسة هم من واجهوا الجيش المجري المنتصر، ومنعوه من إبادة الجيش العثماني.

وكان قائد الإنكشارية الذي خاض وسط جموع الأعداء وواجههم بمفرده قد نال الشهادة، وبعد ذلك قام الجندي الضخم الجثة الذي قتل قائد الإنكشاريين بالتوجه نحو السلطان ليهجم عليه. ولكن السلطان الشاب تمكن من قتله وقتل الاثنين اللذين هجما من بعده. ولكنه أصيب بجرح في جبينه ومن ثم في ركبته. وقد ذكر قاسم باشا زاده أنّ ساقه تخشّبت بعد هذه الإصابة.

وبحسب ما نقله أحد الشهود على هذه الحادثة: «لا أعلم ما الذي حدث وكيف حدث على وجه الدقة، ولكن العدو كان يهجم علينا ذات اليمين وذات الشمال. وقد كنت أنا إلى جوار عيسى بيك إسحاق أوغلو، وكنا ننسحب ونبحث عن مهرب وقد ابتعدنا قليلاً عن السلطان، وفجأة ظهرت أمامنا فرقة من الجنود الأبطال وتوجه أحدهم إليّ بالقول: أليس ذاك الذي يهرب هو عيسى بيك؟ لقد كان جده فارساً شجاعاً، فما الذي ألمّ به؟ لماذا يهرب ذليلاً مهاناً هكذا؟ وحين سمع عيسى بيك هذه الكلمات، اندفعت الحمية والبأس في عروقه ونادى عليّ بالقول:

أسمعت ما قاله عنا هؤلاء الأبطال؟ الموت أهون من أن يصفني الصديق والعدو بالجبن والتخاذل. أليس الموت جهاداً في ساحة الوغى، أفضل من حياة مكللة بعار سيلحق بي أبد الدهر؟

وعلى إثر ذلك أدار شكيمة جواده نحو السلطان، وقد فعلت المثل بالمقابل. وحين وصلنا إلى جواره، كان المهاجمون قد انفضوا من حوله،

وتساقطوا أمام السلطان كما تتساقط أوراق الخريف، بفضل شجاعته وشجاعة الفرسان المحيطين به، وقد تدخلت بقية الفرق المهاجمة، وتمكنوا من التغلب على قسم من جيش العدو.

وبارق سيفه أمضى من بروق
ونار حماسته بألف شروق

وقد كان لهجوم السلطان الجريء والشجاع على جيش العدو. أثر كبير على معنويات محاربيه، حيث تجمعت فرق من المحاربين والرماة والفرسان وبدأوا يغيرون على العدو ببأس وحماس. وفي وسط معمعة هذا القتال الدامي، توجه كبار الدولة وأمسكوا زمام جواده يرجونه الابتعاد عن هذه المخاطرة، والانسحاب قبل أن يصيبه مكروه.

وقد تمكن المحاربون الذين أعادوا لمّ شتاتهم من إبعاد العدو عن مقر قيادة الجيش، ولاحقوهم حتى بلوغ أسوار القلعة.

واستغل أحد الرماة العثمانيين، انضمام هونياد للجند من أجل دفعهم لمزيد من الهجوم وتشجيعهم، فأصابه بسهم. ومع إصابة كابيسترانو، اضطر جيش العدو للانسحاب إلى داخل القلعة مجدداً في حالة من الفوضى والانهزام.

مكنت بطولة السلطان الشاب وشجاعته، ليس من إنقاذ جيشه من هزيمة محتومة ومكلفة فحسب، بل وسمحت لهم إعادة الهجوم على قوات العدو، الذي تعرض لخسائر كبيرة، وتخلخلت صفوفه وتضعضعت قوته.

وبالمقابل لا يمكن التهوين من خسائر الجيش العثماني. ففي اليوم السابق خسر الجيش قائداً شجاعاً وعسكرياً محنكاً هو كاراجا باشا، وفي اليوم الذي يليه خسروا حسن آغا قائد القوات الإنكشارية الذي اندفع وحده بشجاعة قلّ نظيرها، وسط جموع الأعداء. وبالإضافة لخسارة بضعة آلاف من أفراد الجيش، فقد سيطر العدو على الثلاثمئة مدفع أيضاً.

وبعد تلك المعركة الدامية التي كانت أشبه بقتال جهنمي، اجتمع المجلس

العسكري في ذلك المساء مجدداً. والذي قرر الانسحاب وعدم مواصلة الحصار بسبب الإجهاد الكبير وخسائر الأرواح والعتاد التي تكبدها الجيش.

كان السلطان الفاتح مقتنعاً أنه مع فتح إسطنبول، سيتمكن من السيطرة على بلغراد بصورة أسهل. وكان إلى ذلك قد أعدّ كل التدابير اللازمة والشروط الضرورية للنصر. ومن الصعوبة بمكان فهم السبب الذي دفع بشخص محنك عسكرياً مثله، رفض اقتراح كاراجا باشا في التصدي للقوات المجرية، واختياره رأي الطرف الآخر من قادته. ربما لأنه لم يخمن أن بإمكان هذه القوات الانتقال للضفة الأخرى من نهر الدانوب، وأنه في حال حصول أمر مماثل سيتصدى لهم الأسطول العثماني. كما أن إصرار بقية القادة وولاة روميلي على تصويب رأيهم، وأن القوات المجرية لن تفعل شيئاً سوى مشاهدة القلعة تسقط، قد أثّر عليه. لذلك فقد اتضح له ما الذي يمكن أن يوصل إليه تمسك الأكثرية بقرار والإصرار عليه، دون التمعن في كل العواقب. ولولا شجاعته وجرأته وحسن تدبيره، لكانت خسارة الجيش ستصبح أكبر بكثير. وقد تمّ تعيين محمود باشا والي ولاة روميلي، مكان كاراجا باشا الذي استشهد أثناء الحصار.

ومن جهة أخرى فقد توفي هونيدوارا- الذي سبّب الكثير من القلاقل للدولة العثمانية، وترأس الكثير من المعارك ضدها- بالإضافة للراهب كابيسترانو، بعد فترة وجيزة متأثرين بجراحهما.

قضية ألبانيا

كان إسكندر بيك الذي هرب من القصر العثماني أثناء حكم السلطان مراد الثاني، ورفع راية العصيان في ألبانيا، يلقى الدعم من ملك نابولي ألفونس الخامس، الذي كان يطمح بالسيطرة على البلقان. ورغم أن البنادقة كانوا يعارضون سيطرة نابولي على ألبانيا، إلا أنهم غيروا موقفهم بعد فتح إسطنبول، وبدأوا بتقديم الدعم لإسكندر بيك. ومع الدعم المجري الكامل لإسكندر بيك،

تحولت ألبانيا إلى حربة أوروبية في خاصرة الدولة العثمانية.

وإبتداءً من العام 1452، تزايدت حملاتهم على الأتراك هناك. وهُزمت الحملتان المتعاقبتان اللتان أرسلتهما السلطنة، من قبل إسكندر بيك. وقد سببت انتصاراته هذه فرحة عارمة في ألبانيا. وبسبب انشغال محمد الثاني بحصار إسطنبول وفتحها، لم يوجه الاهتمام الكافي لما كان يحدث في تلك المنطقة.

وفيما كان الفاتح مهتماً بالعمل على قضية صربيا في الأعوام 1454 و1455، قام إسكندر بيك، وبمؤازرة من قوات نابولي، بمحاصرة مدينة بيرات[1]، فقام السلطان على الفور بإرسال عيسى بيك إفرِنوس أوغلو على رأس قوة مكونة من أربعين ألف محارب إلى ألبانيا. وفي المعركة التي جرت في السادس والعشرين من تموز عام 1455، تكبدت قوات إسكندر بيك ونابولي المتحالفة معه خسارة فادحة، حيث قتل قسم كبير من جنوده فيما تمّ أسر معظم الباقيين.

وكان معظم أعيان ألبانيا ضمن المقتولين، فيما التجأ حمزة بيك ابن أخي إسكندر بيك إلى العثمانيين.

وعلى إثر هذه الهزيمة الفادحة، قام الملك ألفونس بإمداد إسكندر بيك بالعتاد والمال، وقام بتحريض البابا من أجل الانضمام إليهم، ونتيجة جهود هذا الأخير، جاءت قوات متحالفة من الألمان والإنكليز والصرب والفرنسيين لنجدة إسكندر بيك. وقد حاول الفاتح بدوره، استغلال لجوء حمزة بيك إليه، فأرسله على رأس قوات كبيرة برفقة إفرِنوس أوغلو إلى المنطقة.

ولكن إسكندر بيك هذه المرة حاول الاستفادة من معرفته الواسعة بتضاريس المنطقة، حيث لجأ إلى جبال الصرب، وبدأ حرب العصابات مع الجيش، وأخيراً قام بالهبوط من الجبل لهجوم عام على الجيش العثماني الذي أنهكته الهجمات المباغتة وأفقدته جزءاً كبيراً من قوته. واستطاع إلحاق الهزيمة به وذلك في المعركة التي جرت في سهل آلبولينا على ضفاف نهر ماتي في

(1) مدينة تقع جنوب ألبانيا.

السابع من أيلول عام 1457، وقد استطاع عيسى بيك النجاة من الموت بأعجوبة، فيما وقع حمزة بيك في الأسر.

وكان لهذا النصر فضل كبير في رفع مكانة إسكندر بيك لدى كل الدول الأوروبية. وفي هذه الأثناء توفي الملك ألفونس في نابولي، وتولى ابنه فرديناند العرش، وقد اضطر إسكندر بيك التوجه نحو نابولي لمساعدة الملك الجديد، لإخماد العصيان الكبير الذي قام ضده. فقام بمراسلة العثمانيين من أجل عقد هدنة معهم. ولأن الفاتح كان منشغلاً في تلك الأثناء بحل مشاكل شمال الأناضول، فقد ناسبه استتباب الأمن والاستقرار في روميلي.

حفلة الطهور

بعد العودة من حصار بلغراد، مكث الفاتح بعض الوقت في إدرنة وقام من هناك بمتابعة المشاكل التي حدثت في ألبانيا. وقد سرّه كثيراً موت هونيدوارا، ومغادرة إسكندر بيك لبلاده. لذا حان الوقت لأداء واجبه كأب وتطبيق سنة الرسول الكريم وإقامة حفلة طهور ولديه بيازيد خان، ومصطفى جلبي. وفي الجزيرة الصغيرة الواقعة في إدرنة بين نهري مريج وتونجا- ومن المحتمل أن يكون في المكان ذاته الذي كانت تتم فيه الاحتفالات سابقا والذي أصبح داخل القصر- أقام السلطان مراسم الاحتفال عام 1457 والذي تحدثنا عنه المصادر على النحو التالي:

«في تلك الأثناء كان الأمير بيازيد في أماسيا، فأمره بالحضور إلى إدرنة، كما أمر بحضور مصطفى جلبي الذي كان حينها في مانيسا. وقد أرسل رجاله لدعوة ضيوفه، حيث حضر جميع ولاته، وأعيان المدن مع مرافقيهم، وعائلاتهم. فأحاطوا بمدينة إدرنة، حيث كانت الحفلات تقام ليل نهار. ومع بدأ الاحتفال الرسمي الذي أعلنه السلطان، أخذوا بنصب الخيم في الجزيرة. وانتقل السلطان مع رعيته إلى هناك، وحين علم الناس بذلك بدأوا بالتوافد جماعات.

في البداية تمَّت دعوة العلماء، فتوجهوا مع السلطان إلى الجزيرة حيث نصب عرشه، وكان على يمينه مولانا فخر الدين، وعلى يساره مولانا الطوسي. وقبالته جلس مولانا شكر الله وإلى جانبه خضر بيك جلبي. ومن ثم بدأ الشيوخ بتلاوة القرآن الكريم، وأخذ العلماء ورجال الدين بتفسير هذه الآيات، وعقدت المجالس العلمية. ثم استمتع السلطان بحضور الشعراء الذين أخذوا ينشدون قصائد الغزل والمديح، وأثنوا عليه بما يليق بمكانته. وبعد ذلك رصفت صواني الطعام أمام أهل العلم والدين، وفيها ما لذّ وطاب؛ خراف مشوية، ودجاج وبط محمر، وصدور الدجاج المتبل، وشتى أنواع الحلوى كاللقيمات، ورقائق الحلوى المحشية، والمهلبية وسواها. وقد ملأ خدم هؤلاء العلماء جعابهم بمختلف أنواع الطعام. كما تم توزيع أشربة محلاة ومنكّهة بالمسك والكافور في كؤوس خزفية وزجاجية. وبعد الطعام عاد الأدباء والشعراء لقراءة نصوصهم، ومن ثم تُلي القرآن مجدداً.

وفي النهاية قام السلطان بتوزيع الهدايا والعطايا على ضيوفه، وقد حضر الكثير من الفقراء الذين غادروا الاحتفال أغنياء، وقد قضوا تحت حكم هذا السلطان العظيم، والحاكم الكريم، حياة ملؤها الأمان والرخاء.

أقام السلطان مأدبة وحفلا
فغمرت أنعامه كل من أرادا
وأجزل في العطاء والإحسان
وكلما تعففتَ في الأخذ زادا

وفي اليوم التالي تمت دعوة عامة الشعب بمن فيهم الفقراء، وقد تمّ إكرامهم كما حدث في اليوم السابق، فشبع الأيتام والفقراء والأرامل ونعموا بعطايا السلطان وإحسانه الذي لا يحد. وقد أظهروا محبتهم واحترامهم لسلطانهم، الذي عاملهم بالمثل وأكرم ضيافتهم أيما إكرام.

وفي اليوم الثالث أقبل البكوات وقادة الجيش وأبطاله. وقد سرى عليهم

مـا سـرى علـى من سـبقهم، من حسـن ضيافة وإكـرام وإحسـان، وتبادل معهم الأحاديـث وشـاركهم الطعـام والشـراب، ومن ثم توجه الأبطـال إلى الميدان، ليظهروا مهاراتهم القتالية أمام المتفرجين، وقد نال الفائزون في سباقات الخيل الكثير من العطايا والهدايا السلطانية.

أما رماة السهام الذين نصبت أمامهم ألواح ذهبية وفضية، فقد استطاع الفوز بها من تمكن من إصابتها. وبالإضافة إلى العطايا فقد تمّ رفع رتبه الفائزين منهم.

وقـد كان السـلطان حريصـاً فـي هذا النوع من الاحتفـالات على الاحتفاء بمدعويه وإكرامهم، وتمّ كل شيء على أكمل وجه ممكن، حيث غادر العلماء والدراويش، وبقية أفراد الشعب الحفل ممنونين وراضين.

فلتدم في دارك الأفراح
وليعم الخراب دار من عاداك
بابك مشرع أمام كل فقير
ونعمك لا تُحصى ولا مزاياك
وإن أتاك من له بك حاجة
فلن يعود إلا شاكراً عطاياك
فليهلّ السرور عليك دوماً
وعلى كل من أطاعك ووالاك
وليحمِ القدير فلذات كبدك
ولينجّهمْ من الغم والهلاك
بإذن الله دعوات مستجابة
وبالخير والمجد تنعم عساك

وقـد كان ترتيـب الحفـل الـذي وضعـه الفاتـح، حيث اسـتقبل فـي اليوم الأول العلماء وفي اليوم الثاني عامة الشـعب وفقراءه، وفي اليوم الثالث ولاته وأعيان دولته وجنده، يحمل معاني كثيرة. فهذا الترتيب الذي استقبل به ضيوفه

ومدعويه، يفصح عن حقيقة توجهاته وأولوياته. فبحسب وجهة نظره، يشكل العلماء أكثر الفئات التي يجب احترامها وتوقيرها في المجتمع، وفي المرتبة الثانية عامة الشعب بمن فيهم الفقير والمحتاج ومن لا سند له. أما الإداريون، والأعيان وقادة الجيش فيأتون في المرتبة الثالثة.

السيطرة النهائية على صربيا

استمد المجريون جرأة من فشل حصار بلغراد وبدأوا يغيرون على الأراضي الصربية في السنوات اللاحقة، وكانوا يرمون الى ضم صربيا إليهم بشكل تام. وهذا ما دفع الفاتح للتفكير في حل جذري لمشكلة صربيا. وفي هذه الأثناء نشب صراع داخلي في صربيا من أجل تولي العرش، فبعد انتهاء حصار بلغراد بمدة قصيرة، تنازل برانكوفيتش عن عرشه لزوجته إرينا مقابل بعض الشروط ومن ثم فارق الحياة في الرابع والعشرين من كانون الأول عام 1456. وكان له من الأبناء ثلاثة هم غريغور، ستيفان، لازار، بالإضافة إلى مارا التي كانت زوجة والد الفاتح.

وحين أدركت إرينا أنه من الصعوبة بمكان حماية صربيا التي تهددها الأخطار من كل جانب، أرادت تسليم ابنها غريغور الأعمى للسلطنة العثمانية، ولكن لازار الذي ساءه الأمر، قام بتسميم والدته وقتلها. وقد خشي بقية إخوته من قتلهم، فلجأ ستيفان إلى المجر، بينما لجأت مارا وغريغور إلى الفاتح. وقد وعد السلطان زوجة والده بالدفاع عن حقها في ملك والدها، كما منحها بعض الإقطاعات في منطقة سيزر، لتحيا هناك في أمان ورفاه. أما لازار فقد وافق على دفع جزية سنوية قدرها مئة ألف دوكا للسلطان، والقبول بتبعيته للسلطة العثمانية. ولكن وفاة لازار المفاجئة عام 1458، تسببت في إعادة إغراق صربيا في الفوضى والقلاقل، وذلك لظهور مطالبين آخرين بالعرش، هما زوجته هيلينا وابنته ماريا.

وقد قامت هيلينا التي تولت العرش بعد وفاة زوجها، بعقد خطبة ابنتها على ابن ملك البوسنة الكاثوليكي ستيفان توماس، وكلفت البابا بضم صربيا إلى ممتلكات الكنيسة، لذلك أرسل البابا بيوس الثاني أحد الكرادلة لتوثيق حكمه في صربيا. وبالطبع لم يرق ذلك للمجر التي كانت ترى صربيا تابعاً لها، لا للعثمانيين. فقام المجريون بتحريك الأطراف الموالية لهم في صربيا، أما العثمانيون فقد تمكنوا من خلق موالاة قوية لهم في داخل البلاد وذلك بفضل النفوذ القوي لميشيل أنجيلوفيتش شقيق محمود باشا وقد كانت عائلة أنجيلوس التي ينتمي إليها محمود باشا بالإضافة إلى عائلة كوزينوس الحاكمة من أهم وأعرق العائلات في صربيا.

وتنحدر عائلة أنجليوس من مانويل إنجليوس حاكم سالونيك ما بين عامي 1230 و1240، والذي كان في الوقت ذاته ابن إمبراطور بيزنطة أليكسيوس الثالث (ألف ومئة وخمسة وتسعين حتى ألف ومئتين وثلاثة)، وقد كان والد محمود باشا ميخائيل أنجيلوس يعيش في نوفوبردو متزوجاً من امرأه صربية، وأغلب الظن أنها حين فرت نحو الدانوب، تم أسرها من قبل القوات العثمانية عام ألف وأربعمئة وسبعة وعشرين، حيث تم أخذها مع البقية إلى إدرنة، وقد تم تجنيد أحد أبنائها وفق نظام الدوشرمة[1] والذي تمكن من دخول القصر، وقد استطاع هذا الشاب الذي أطلق عليه اسم محمود بعد أن أسلم، لفت الانتباه، بسبب ذكائه ومواهبه، وأصبح صديقاً مقرباً للأمير محمد. وحين تولى الأمير محمد عرش السلطنة للمرة الثانية عيّن محمود باشا والي ولاة الأناضول ومن ثم صدراً أعظم للدولة العثمانية. أما شقيقه الآخر الذي ظل في صربيا، ميخائيل أنجيلوفيش، فقد استطاع هو أيضا أن يبلغ مكانة مرموقة في الدولة، وتولى أرفع منصب في الدولة الصربية، وهو رئاسة الحكومة. وكان الشقيقان

(1) مبدأ التجنيد في الإنكشارية، إذ باتوا يأخذون الفتية من الأسر المسيحية في عملية جمع دورية تجري كل سنة أو ثلاث أو أربع أو خمس.

يلتقيان باستمرار ويضعان الخطط والاستراتيجيات الواجب اتباعها. وقد تزعم ميخائيل المناوئ لسيطرة البابا أو المجريين على صربيا، والموالي في الوقت ذاته للسلطنة العثمانية، قيادة الفريق المقرب من السلطنة. لذا فقد وصف من قبل المؤرخين الغرب، بأنه جاسوس العثمانيين، ورغم أن الشعب الذي كان رافضاً لسياسات البابا والمجريين على حد سواء - واللذين كانا يرغبان في استغلال الظروف من أجل بسط سيطرتهما على البلاد - وهؤلاء هم من التف حول ميخائيل أنجيلوفيتش.

أما هيلينا فقد اختارت سياسة المهادنة اتجاه أنجيلوفيتش وحين كسبت ثقته دعته إلى سميديريفو بحجة مناقشة التطورات والمشاكل التي تعاني منها البلاد والتوصل إلى وجهة نظر مشتركة، وقد لبى الدعوة بصدر رحب حرصاً على مصلحة بلاده. ولكنه ما إن وصل حتى تم إلقاء القبض عليه، وإرساله مكبّلاً بالأغلال إلى المجر، وبذا فقد أصبح الحزب الموالي للسلطنة دون قيادة.

وفي مقابل محاولة أحد البوسنيين الكاثوليك وبدعم من ملك المجر، السيطرة على حكم صربيا، قام أعيان الصرب بالتوجه إلى السلطان العثماني، وأعربوا عن رغبتهم في أن تنضم صربيا إلى الحكم العثماني. وقد قام الفاتح برفع رتبة محمود باشا ومنحه منصب الوزارة، بسبب الدور الكبير الذي لعبه في ضم صربيا، وهذا ما سيسهل السيطرة على بلغراد مستقبلا. ولقد توجه محمود باشا الذي كان في الوقت ذاته، والي ولاة روميلي على رأس الجيش في حملة متجهة نحو صربيا حيث وضع الفاتح تحت إمرته ألفاً من أفضل الإنكشاريين. فقام في البداية بالسيطرة على قلاع رشفا وكورجا وبعض المواقع المهمة الأخرى ومن ثم توجه إلى سميديريفو من أجل حصارها. وبعد ضرب شديد وتبادل بالمدافع، جرت معركة دامية أمام أسوار القلعة، ورغم سيطرة العثمانيين على كل المناطق المحيطة بها، لكن المدافعين داخلها، كانوا يحاربون بعزيمة جبارة حتى لا تسقط بيد العدو.

وإزاء هذا الوضع ورغبة من محمود باشا في عدم إضاعة المزيد من الوقت رفع الحصار عن المدينة وتوجه نحو قلعة هافالي التي بناها الفاتح عام 1456. وبعد أن قوى استحكامات القلعة وعززها، قام بالتوجه نحو أوستروفيتش لإعادة السيطرة عليها، بعد أن خسروها، ومن ثم سيطر على قلعة رودنيك.

ثم اتجه نحو يلي يورد جوار نيش، لقضاء شهر رمضان. وبعد إتمام شعائر رمضان من صيام وصلاة وسحور وقضاء عيد الفطر، توجه الجيش العثماني نحو قلعة غوفرجينليك، وكانت نيران المدافع العثمانية، والتنظيم المذهل الذي يسير وفقه الجيش، قد زرعا الهلع في قلوب المدافعين، فقاموا على الفور بتسليم مفاتيح المدينة، لافتداء أنفسهم من غضب المهاجمين ونقمتهم. وبعد أن أحكم محمود باشا السيطرة على القلعة قام بإرسال محمد بيك منيت أوغلو إلى المجر، من أجل استباق أي هجوم من قبلهم وقد كان وصول مينيت أوغلو، المعروف بشجاعته مع محاربيه الأشداء أشبه بالرعد الغاضب على الأراضي المجرية فبعد سيطرته على ترافا، قام بتدمير السهل الواقع بين نهري سافا والدانوب، ليزرع الفزع في القلوب. وبعد وصول خمسين ألفاً من القوات المجرية الى المكان، كان مينيت أوغلو قد غادر ومعه آلاف الأسرى وغنائم لا تُحصى.

أما محمود باشا فقد توجه نحو السلطان الذي كان موجوداً في سكوبيه، من أجل الانطلاق في حملة نحو المورا. وقد كان السلطان يواصل مراقبة التحركات المجرية، وأخيراً بعد أن استطاعت القوات العثمانية المرابطة على المناطق الحدودية إلحاق الهزيمة بالجيش المجري الذي شن هجوماً على منطقة تاهتالي عاد السلطان إلى إدرنة. في ذلك الشتاء قامت هيلينا وملك البوسنة ستيفان توماس وملك المجر، بلعب دور آخر أوراقهم الرابحة من أجل حماية صربيا من النفوذ العثماني واجتمعوا في زيجيد، وخلال هذا المجلس تم إقرار منح حكم البوسنة لخطيب ابنة الملك الراحل لازار وزوجها المستقبلي،

الأمير الشاب ستيفان. وقام ملك البوسنة بخطوة أولية حيث فسخ المعاهدات المبرمة مع الدولة العثمانية، وتعهد ملك المجر ماتياس بوضع البوسنة تحت حمايته، وبالإضافة الى قواته، فقد قرر الاعتماد على القوات المتفرقة التي يقوم رجال الدين بتدريبهم ضمن ممتلكاتهم، ليضمهم إلى قوات الحماية عند الحاجة. وأخيراً ومع زواج الأمير ستيفان من ماريا ابنة الملك لازار في الأول من أيار من العام 1459، تم توحيد كل الأراضي الصربية على امتداد نهر الدانوب ولكن كل الجهود باءت بالفشل مع جيش الفاتح الذي كان يمتد كسيل جارف ماراً بصوفيا، ليدخل صربيا في النهاية. ذلك أن الصرب قد أظهروا الولاء والترحاب بالجيش العثماني في الأماكن التي كان يمر فيها ويقدمون له المساعدة. وأخيراً حين ظهر السلطان المظفر أمام أسوار قلعة سميديريفو قام أعيان الصرب على الفور بإرسال مفاتيح المدينة له وذلك في العشرين من حزيران عام ألف وأربعمئة وتسعة وخمسين، وقد استقبله أهل المدينة حين دخوله، استقبال الفاتحين.

أما ملك البوسنة ستيفان وفرق الجيش المجري التي كانت ترافقه في المنطقة، فقد قرروا الانسحاب، حين أدركوا أنهم عاجزون عن فعل أي شيء. كما هربت هيلينا أيضاً إلى المجر مع كنوزها، وبعد فترة قصيرة انتقلت إلى روما لتنال حماية البابا، وقد توفيت عام 1473 في جزيرة سانت مارفا كراهبة. ومع استسلام سميديريفو، قامت بقية القلاع الصربية كغيرنفو وبالاستينافي، بالانضمام للنفوذ العثماني والولاء للسلطان، في الثامن من تشرين الثاني عام 1449. وبذلك أصبحت صربيا أحد سناجق الدولة العثمانية التي عُرفت بسنجق سميديريفو. وكان أول من تولى إمارة السنجق هو المحارب الشهير علي بيك ميهال أوغلو.

وبذا أصبحت سميديريفو السد الذي سيقف في وجه الهجمات المجرية وتلك القادمة من الشمال، لحين فتح بلغراد أيضاً. وبعد فتح صربيا، قام الفاتح

بمنح زوجة والده مارا خانتون، ملكية منطقة يزفو القريبة من سيزر. وقد عاشت هناك كملكة حتى وفاتها عام 1478، وكانت تقابل الفاتح بين الحين والآخر حول القضايا المتعلقة بالرعايا المسيحيين في السلطنة.

كان لسقوط سميديريفو وقع عظيم الأثر على العالم الغربي، كما حصل من قبل مع فتح إسطنبول، وقد اعتبرت بعض المصادر أنّ استسلام المدينة دون إظهار مقاومة، مدعاة للعار والخزي. بينما كان الصرب الراغبون في النجاة من ضغوطات الباب بتحويلهم إلى المذهب الكاثوليكي، ومن مطامع ملك المجر، يبحثون عن ملاذ آمن، وقد وجدوا في السلطان العثماني المعروف بضمانه للحريات الدينية خير ملاذ وحام.

قضية المورا

ما إن تم الانتهاء من مشكلة صربيا، بدأت مناطق أخرى من البلقان تشهد الكثير من التحركات، وتتطلب تدخلاً حاسماً من الفاتح. ففي تلك الأثناء نشب خلاف بين ديمتريوس- شقيق قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة- الذي كان حاكماً على اسبارطة، وبين توماس الذي كان يحكم باتراس[1]، وبدأت القلاقل تعم البلاد. وقد قام البنادقة بالتحضير للتدخل ذلك أنهم كانوا يعتبرون المورا امتداداً لمناطق نفوذهم. وفي المقابل صرح الفاتح أيضاً بأحقيته في المورا، كونه حاكم القسطنطينية والوريث لكل أملاك إمبراطورها السابق.

فهو كان يقدر أهمية موقع مورا براً وبحراً، والموانئ التابعة لها، وخاصة بالنسبة إلى الحملة التي كان ينوي مستقبلاً شنّها على إيطاليا. واستناداً لهذه الاعتبارات، ترأس الحملة المتجهة نحو مورا حيث قام بالاستيلاء على كل من طرسوس[2]، وباتراس، وكورينثوس وأغيون وروبيلي، أما حكام بقية

(1) مدينة يونانية تقع غرب أثينا، في نقطة التقاء البحر المتوسط مع خليج كورينث.

(2) مدينة تاريخية تقع في الشرق من محافظة مرسين، على ساحل المتوسط.

المناطق، فقد فضلوا مهادنة السلطان وعقد معاهدة تنص على السماح ببقائهم حكاماً على مناطق نفوذهم شريطة دفعهم جزية سنوية مقدارها ثلاثمئة ذهبية سنوياً للسلطان، الذي كان يحكم ثلث المورا، فاعتبر هذا الاتفاق ملائماً له. وقد استقدم معه الكثير من عائلات الأسرى إلى إسطنبول، وتمكن أصحاب المهارات الصناعية والزراعية من بينهم نيل حريتهم، من خلال الإسهامات والروافد الاقتصادية التي أغنوا بها اقتصاد المدينة.

وفي هذه الاثناء توجه عمر بيك بن تورهان بيك على رأس حملة نحو أثينا التي كانت محاطة بأشجار الزيتون، ولرغبة سكان المدينة بعدم تخريب مزارعهم، فتحوا أبواب المدينة أمام القوات العثمانية. وقد انطلق الفاتح إلى كورينثوس لرؤية أثينا التي كانت تعد من بين أقدم خمس مدن في العالم. وبعد مكوثه أربعة أيام فيها، قام بضم الأراضي التي استولوا عليها في المورا وضمها مع ثيساليا[1]، وولّى عليها عمر بيك بن تورهان بيك. وقد اصطحب معه الكثير من العوائل المسيحية من أصحاب الحرف والزراعات إلى إسطنبول. كما طلب يد هيلينا ابنة الحاكم ديمتريوس التي ذاع صيت جمالها، وضمها إلى حريمه. وحين توجه من أثينا نحو سكوبيه، التقى مع محمود باشا الذي كان يشرف على سير الأمور في صربيا.

ولكن الأوضاع في المورا عادت للتأزم بعد مرور ثلاثة أشهر، حيث قام توماس المدعوم من الدول الغربية، بالاعتداء على مناطق نفوذ ديمتريوس والاستيلاء عليها. وفي هذه الأثناء دفع البابا بيوس الثاني، بجيوشه التي كانت على أهبة الاستعداد مسبقاً إلى شبه جزيرة المورا، داعياً الروم والألبان إلى العصيان مجدداً. لذلك اضطر ديمتريوس إلى الانسحاب، لأنه أدرك أنه غير قادر على التصدي لتوماس الذي كانت قوته تزداد مع مرور الوقت، وأخذ

(1) ثيساليا هي منطقة جغرافية تقليدية كما أنها منطقة إدارية يونانية حديثة، تضم أعرق المناطق اليونانية التي تحمل الاسم نفسه.

توماس الذي استلم مقاليد الحكم في المورا، يعتدي على القلاع العائدة للسلطنة العثمانية.

وقد قام الفاتح، بعد اطلاعه على هذه التطورات، بتوبيخ عمر بيك بسبب عدم إبدائه أي محاولة للتصدي لما يحدث، وعيّن بدلاً منه حمزة بيك. ورغم أنّ الأخير أراد مساعدة ديمتريوس، لكنه لم يتمكن من تحقيق أي نتيجة. ومن جهة أخرى قام مطران اسبارطة بالتدخل، وأجبر كلاً من ديمتريوس وتوماس على التصالح والتفاهم، بعد أن رأى ما آلت إليه البلاد من خراب نتيجة حروبهما. وبعد هذه الاتفاقية أرسل الفاتح، أحد أكثر رجاله قوة إلى المورا وهو زاغنوس باشا. وإثر ضرب الأخير للقلاع التابعة لتوماس، اضطر لطلب الصلح. حيث رأى أنه لن يستفيد من حلفائه شيئاً، وقد تعهد بإعادة القلاع العثمانية التي استولى عليها، وإضافة للجزية السنوية، فقد دفع مبلغ عشرة آلاف دوكا، كتعويض حربي.

وبسبب مطامع أوزون حسن[1] حاكم الآق قوينلو في الدولة العثمانية، وافق الفاتح على عقد الصلح مع توماس. ولكن بسبب عدم التزام الأخير بدفع الأموال في موعدها المحدد، قام الفاتح بتأجيل مشكلة أوزون حسن للعام التالي، وترأس بنفسه الحملة المتجهة نحو المورا في الثالث عشر من نيسان عام ألف وأربعمئة وستين. فتوجه في البداية نحو ديمتريوس الذي أخلّ بالاتفاق المبرم بينهما، وانحاز لجهة توماس وعقد معاهدات الصلح معه، وإلى ذلك لم يأتِ لمقابلة السلطان. وقد استطاع الصدر الأعظم محمود باشا إقناع ديمتريوس بالاستسلام حين وصول الجيش إلى أمام أسوار اسبارطة.

---

(1) أكبر أمراء اتحاد قبال الشاة البيضاء (آق قوينلو) التركمانية التي استقرت منذ القرن الرابع عشر حول ديار بكر، وكانت تتخذ من رسم الشاة البيضاء علماً لها. عرف باسم حسن بيك، أما أوزون فتعني الطويل بالتركية، وهو لقب غلب عليه لطول قامته، ويسميه المؤرخون العرب بحسن الطويل.

سواحل البحر الأسود

بعد فتح بيزنطة، ومن ثم فتح المورا تمّ القضاء على فرع السلالة الإمبراطورية التي كانت تحكم في الغرب، ولم يبق سوى الفرع الإمبراطوري الذي يحكم طرابزون. وكان أوزون حسن الذي يعلن في كل فرصة عداءه للعثمانيين، قد تزوج ابنة إمبراطور طرابزون، ليضم هذه المنطقة إلى نفوذ حمايته.

كانت طرابزون التي تقع على الساحل الشرقي للبحر الأسود تتبع لحكم الإمبراطور، أما مناطق سينوب وما يجاورها فكانت تحت حكم أبناء اسفنديار، وإلى الغرب أكثر كانت أماستريس التابعة لنفوذ الجنويين. وبالتالي فقد كانت المدن الواقعة على شاطئ البحر الأسود والمميزة بسبب أهمية مواقعها تجارياً، تتبع كل منها لنفوذ دولة معينة. وبالإضافة إلى موانئ طرابزون المهمة، فقد كانت تشرف على طريق القوافل التجارية القادمة شرقاً من إيران أيضاً. وقد كان هدف الفاتح الجديد، بعد حل مسألة المورا وعقد الاتفاق مع إسكندر بيك، هو ضبط هذه المنطقة. وإلى ذلك فقد كان عليه ردع أوزون حسن الذي لا يفوّت فرصة دون أن يظهر عداءه وتحديه للسلطنة.

كانت أماستريس من أهم المدن التجارية التابعة للجمهورية الجنوية، ورغم تقلص أهميتها بعد استيلاء العثمانيين على إسطنبول، ولكنها ظلت مركزاً تجارياً وميناء مهماً. كما أنها اشتهرت بالأعمال والتجارات غير الشرعية، حيث كان الأسرى الهاربون من الأناضول يختبئون هنا عادة. وكانت من أشهر الموانئ التي باتت ملاذاً آمناً لسفن القراصنة. وقد زادت الشكاوى الواردة من السفن التجارية التابعة لأهل أماستريس، والتي غدت هدفاً دائماً للقراصنة أثناء ابحارها في البحر الأسود. وكانوا في بعض الأحيان يخسرون ما مقداره جزية سنة كاملة، في يوم واحد نتيجة هذه الاعتداءات. ورغم الشكاوى المتكررة فقد تم إنكار الأمر، وفي أحسن الأحوال اتُّهم البحارة العاديون.

استغرب السلطان من عدم سيطرة السلطنة على أماستريس ذات الموقع المهم، خاصة بعد كثرة الشكاوى القادمة من هناك، فاستدعى الصدر الأعظم محمود باشا وسأله: «محمود، لماذا لم يقم أي من أجدادي بفتح هذه المدينة ذات المكانة العظيمة؟» طالباً منه المشورة.

وقد ردّ عليه الوزير الذكي بالقول «لكل شيء آن وميعاد يا مولاي، وربما كانت مشيئة الله عز وجلّ أن توضع مفاتيح هذه المدينة في يدي مولاي القويتين». وهو يومئ بأنهم مستعدون لفتحها متى شاء السلطان. وهكذا انطلق أسطول مكون من مئة وخمسين سفينة في عام ألف وأربعمئة وواحد وستين، ليعبر المضيق باتجاه البحر الأسود تحت قيادة محمود باشا، أما القوات البرية التي كانت تحت قيادة السلطان والتي اتجهت من أوسكودار نحو آك ياز، فقد أُذيع أنها ترافقه في رحلة صيد. ولكن الرحلة باتت بالغة الصعوبة ابتداءً من هذه النقطة. فقد كان الطريق حافلاً بالوهاد شديد الوعورة، خلا الغابات والطرق الضيقة جوار منطقة منغن[1]، ولم يكن أحد يعلم إلى أين يتجه الجيش، سوى السلطان وحده.

وفي أحد الاجتماعات حين سأله أحد قادة جيشه عن وجهة الجيش وأي المدن سيغيرون عليها أجابه السلطان: «لو علمت شعرة من لحيتي بما أضمره، لنتفتها ورميتها في النار» مشيراً إلى أهمية السرية في إدارة شؤون الدولة.

من جهة أخرى فرّ اسماعيل بيك إسفنديار أوغلو الذي ظن أن الفاتح قادم نحوه، فترك قسطموني، وذهب ليحتمي في سينجوب، ولكنه تنفس الصعداء فيما بعد، حين علم بأن السلطان العثماني متجه نحو أماستريس.

أما سكان أماستريس الذين استيقظوا ذات صباح، فقد عصفت بهم رياح الدهشة، حين رأوا السلطان العثماني بنفسه على رأس القوات المحاصرة

(1) منطقة مليئة بالأحراج والغابات والهضاب الوعرة، تابعة لمحافظة بوبو الواقعة غرب البحر الأسود.

لمدينتهم براً، بينما أسطوله البحري يحاصرهم من جهة البحر.

ولأن الجنويين أدركوا أنه من العبث مقاومة جيش يفوقهم بأضعاف مضاعفة، فقد وافقوا على الاستسلام وأرسلوا مفاتيح المدينة إلى السلطان. فأرسل أعيان المدينة إلى إسطنبول كعقوبة لهم، ومن ثم كلف حامية قلعة إفجانة، بحماية المدينة، وغادر بعدها متجهاً إلى بورصة.

فتح سينوب

أثناء وجود السلطان الفاتح في بورصة، أرسل إلى اسماعيل بيك إسفنديار أوغلو لكي يجهز نفسه لحملة طرابزون، ويخصص لذلك عائدات باكِر كورسي، ويرسل ابنه أيضاً على رأس القوات التي ستنضم للجيش العثماني. كما أمره بإصلاح السفن الحربية التي سيتم إرسالها إلى ميناء سينوب، وتأمين كل احتياجاتها.

وقد لجأ اسماعيل بيك إلى قلعة سينوب ظناً منه أن الفاتح متوجه نحوه حيث يوجد في القلعة أربعمئة مدفع بالإضافة إلى حامية مؤلفة من اثني عشر ألف محارب. كما أنها تملك أسطولاً يحوي سفناً حربية ضخمة وهذا ما دفع أسفنديار أوغلو للظن بأنها ستقاوم الحصار العثماني بسهولة.

وكما أشرنا سابقاً، فقد ارتاح وهدأ حين علم بأن الحملة متجهة نحو أماستريس، كما أن رسالة السلطان الودية قد زادت من ارتياحه واطمئنانه. وعمل بحماس وهمة عالية على تنفيذ الأوامر، ذلك أن إظهار ولاءه للسلطان وتوطيد العلاقة معه، كانت ضماناً لأمنه.

في الحقيقة لم يكن إسماعيل بيك يكنّ مشاعر ودية اتجاه العثمانيين، ولم يكن يتوانى عن الاتفاق مع أمراء قرمان أو مع النصارى من أجل حماية موقعه وإمارته. كما أن أخاه كزل أحمد بيك الذي تمرد عليه، كان قد لجأ إلى حماية الفاتح، وقد تمّ منحه إمارة بولو.

وبعد أن أتمّ الفاتح استعداداته، انطلق من بورصة إلى أنقرة من أجل التوجه نحو طرابزون، وقد انضم إليه حسن بيك بن اسماعيل بيك مع القوات التي أرسلها إسفنديار أوغلو. ولكن الفاتح أبقى حسن بيك إلى جواره حال وصوله، ومن ثم أبلغ اسماعيل بيك، بالانضمام إلى محمود باشا على رأس الجيش الكبير المتجه إلى سينوب، فيما عيّن أخاه أحمد على إمارة سنجق قسطموني.

كان الفاتح المهتم بتوحيد الأناضول، والذي اعتبر الأمر من أهم أهدافه، يرى أن لا مبرر لبقاء إمارة بهذا الحجم الصغير منفصلة، وأن الوقت قد حان لفتح المنطقة برمتها، ولكنه كان حريصاً كل الحرص على عدم الكشف عن نواياه. لذا فقد أبقى على خطته سراً، وعمد إلى إخراج نخبة قوات قسطموني من المنطقة وإبعادها عنها، بل وأمر والي قسطموني نفسه بالانضمام إلى تلك القوات. ولكن أسماعيل بيك الذي أدرك أنه خُدع، حار فيما يتوجب عليه فعله. فانسحب نحو قلعة سينوب التي أغلق أبوابها، ولكنه فضلاً عن الحصار المضروب عليه براً وبحراً، فقد خسر نخبة قواته أيضاً. وحين بلغ محمود باشا أسوار قلعة سينوب، نادى على البرج طالباً التحدث إليه:

«لم لا تسلم القلعة يا بيك؟ فكم من الوقت تظن أنك قادر على البقاء داخل القلعة لمحاربتنا؟ فجميع ولاياتك وموانئك قد أصبحت الآن تحت سيطرة السلطان. ولا قِبل لك على مقاومته. كما أن الشعب قد رضي بحكم أخيك كزل أحمد. وإن كنت راغباً في قضاء ما تبقى من عمرك في راحة وأمان، فعليك بالانضمام إلى خدمة السلطان».

ورغم أنّ إسماعيل بيك كان مدركاً، أن أنجع السبل هي تنفيذ ما أوصاه به الصدر الأعظم، لكنه وخوفاً من أخطائه التي ارتكبها سابقاً بحق الفاتح، صرح بالقول:

«أنا خائف من السلطان، لأنه سيقضي عليّ وعلى كل أبنائي».

وقد أجابه محمود باشا:

«حاشا أن يقدم سلطاننا على أمر مماثل. فهو كريم رحيم مع رعاياه».

وهكذا فقد اقتنع إسماعيل بيك بالاستسلام.

وفي اليوم التالي وصل الفاتح أيضاً إلى القلعة.

وقد استقبل إسماعيل بيك الذي سلمه القلعة في خيمته ونهض لملاقاته، متقدماً نحوه بخطوتين. وحين همّ اسماعيل بيك بتقبيل يده، سحب يده ممتنعاً. فقد كان يقدّره ويحترمه ذلك أن والده مراد الثاني كان قد تزوج من خديجة خاتون شقيقة اسماعيل بيك.

وقد احتضنه قائلاً:

«أنت بمنزلة أخي الأكبر، فهل يعقل أن تهمّ بتقبيل يدي؟»

وقد منح إسماعيل بيك أقضية يني شهير، يني حيصار، يارحيصار وإينغول، كما منح ابنه حسن بيك سنجق بولو.

أما كزل أحمد الذي بقي على رأس إمارة قسطموني لمدة ثلاثة أشهر، فقد أصبح والياً لسنجق المورا. لكنه لم يرض عن قرار السلطان، فتوجه هارباً نحو بلاد قرمان، ومن ثم ذهب ليلتجئ عند أوزون حسن.

ومن جهته فقد عرض إبراهيم بيك قرمان أوغلو والذي تحالف مع أوزون حسن، على إسماعيل بيك التمرد على الفاتح الذي كان متوجهاً على رأس جيشه نحو سيفاس من أجل الوصول إلى طرابزون. وقد أغراه بالعودة مجدداً إلى قسطموني واستلام إمارتها. وقال له: «أيا عبد الله! عد ولا تذهب إلى يني شهير، فهذه الفرصة المناسبة للنيل من آل عثمان. سأساندك بقواتي من هذه الجهة ومن الطرف المقابل سيكون أوزون حسن سنداً لك بقواته، ولنطرد ابن عثمان من أراضينا، لكي تعود مرة أخرى إلى إمارتك».

ولكن إسماعيل بيك ردّ عليه بالقول:

«هذه الكلمات لا تليق بشخص مسلم، فهي ضرب من النفاق. ذلك أن هذا السلطان المجاهد قد خرج للجهاد، وليس من شيم المسلمين أن نستغل

غيابه، ونتآمر عليه. كما أنك أقدمت على هذه المجازفات أكثر من مرة، فما الذي جنيته؟ وما الذي ستجنيه الآن إن فعلت؟».

لا تُذهب صالح الأعمال بالطمع
فكلنا على درب الفناء نسير
ومهما علا شأنك وبلغ مجدك
ستذوق أيضاً من ذات المصير
ولا تدع حلو الكلام يغريك
واجعل قبلتك راحة الضمير

ولكن ما قام به كزل أحمد قد أثار مخاوف السلطان، وتوجّس من قيام إسماعيل بيك بأمر مماثل، فمنحه إمارة فيليبة، ذلك أنه لم يرغب في بقائه في الأناضول. وقد مكث هناك ثمانية عشر عاماً حتى وفاته عام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين.

وقد كان رجلاً عالماً ومفكراً، حيث تحولت قسطموني في عصره إلى أحد أهم مراكز العلم. وقد بنى فيها وفي سينوب والمناطق المجاورة الكثير من دور العلم. وكانت أهم كلية بناها اسماعيل بيك في قسطموني هي كايي شاهنشاهية، ومن ثم الوقف الصغير (كوجوك إيمارت)، (أشاغي إمارت)، ومدرسة بعشر غرف، وبعض الأوقاف، بالإضافة إلى مدفن وجامع ومكتبة داخل الكلية، وقد تمّ إنشاء هذه الكلية عام ألف وأربعمئة وأربعة وخمسين. وإلى ذلك فقد بنى نزلاً للمسافرين في قسطموني، وسبيل ماء في سينوب، وفي أراج خاناً وسبيل ماء، ووقفاً خيرياً في بويبات، ونزلاً للمسافرين في غوكجة، كما بنى جامعاً وسبيل ماء في قريتي كيماه وكافالجاني في منطقة غول. ومسجداً وحماماً في دفرة كاني، بالإضافة لمسجد في قرية جايرجي، كما أنه واصل اهتمامه بالحركة العمرانية في فيليبة التي نقله إليها الفاتح، حيث أنشأ جامعاً بقبة كبيرة أطلق عليه اسم جامع البيك، بالإضافة إلى مسجدين ومدفن وحمام مزدوج بقبب ذات

عمارة مميزة وجميلة. كما أنه قام بإنشاء قناطر المياه التي تمّ جلبها من جبال رودوب، قرب قرية ماركوفا، من أجل جلب المياه إلى فيليبة. ولكن الجامع والمدفن اللذين في فيليبة قد تمّ هدمهما من قبل البلغار عام ألف وتسعمئة وأربعة عشر. أما الحمام فقد ظل مفتوحاً حتى وقت قريب.

فتح طرابزون

كان هدف الفاتح هو فتح طرابزون، للتخلص من كل التهديدات المرتبطة بالبيزنطيين، وكان يرى أنه لا يحق لإمبراطورية بيزنطة البقاء في شمال الأناضول لمدة أطول، وخاصة أنها متورطة على الدوام في مؤامرات ومكائد معادية.

وقد التجأ الكثير من العوائل المرموقة إلى طرابزون بعد فتح إسطنبول، وكانوا يجدون في هذا الإمبراطور أملاً لإحياء ما مضى واستعادته. لذا قام الفاتح بإرسال خضر بيك والي أماسيا على رأس حملة نحو طرابزون. وقد وافق الإمبراطور الذي فوجئ بالهجوم على منح جزية سنوية مقدارها ثلاثة آلاف ذهبية، وذلك في عام ألف وأربعمئة وستة وخمسين، ولأن الأحداث اللاحقة لم تسمح للفاتح بالاهتمام بالمنطقة كثيراً، فإن الإمبراطور يوحنا الرابع لم يكن يضيع وقته سدئً.

فقد عقد أواصر الصداقة مع مملكة الآق قوينلو حيث زوج ابنته كاترينا عام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين، من أوزون حسن ومنحه منطقة كابادوكيا كمهر لها، مقابل مساعدته له في حال تعرضه لأي خطر. كما عقد يوحنا الرابع الاتفاقيات مع بلاد الكرج (جورجيا)، بالإضافة إلى أمراء قرمان، وأبناء إسفنديار. وقد توفي عام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين. أما شقيقه داوود كومنينوس الذي استلم العرش من بعده، فقد عمل على تقوية التحالفات المعادية للسلطنة العثمانية، وكان يرمي إلى عقد حلف مشترك يشمل كل الشعوب من القفقاس

والفرات حتى دوقية بورغونيا[1] في فرنسا، من أجل مواجهة العثمانيين.

وقد دخل في مراسلات جدية مع البابا، موضحاً له أنه في حال قيام جيش قوي من الغرب بمهاجمة السلطنة، فلن تترد كل من إمبراطورية طرابزون في الشرق، وأمراء قرمان، وأبناء إسفنديار، بالإضافة لمملكة الآق قوينلو، وجورجيا في الانضمام إلى هذا الحلف. كما عمل على تسليح جيشه وتقويته براً وبحراً، فمن جهة كان يعمل على تقوية أسطوله الحربي، ومن جهة أخرى كان يحاول رفع تعداد جيشه إلى العشرين ألفاً. ومع الدعم الجدي من البابا، فقد شعر بوجوب اتخاذ خطوات أكثر جرأة في هذا الطريق. حيث راسل أوزون حسن وطلب منه المساعدة، وقرر التوقف عن منح العثمانيين الجزية المفروضة على بلاده.

وعلى إثر ذلك أرسل أوزون حسن وفداً إلى السلطان العثماني، أبلغه بوجوب إعفاء طرابزون من الجزية المفروضة عليهم، موضحا له بأن الآق قونيين أولى بأخذ هذه الجزية. بل وطالبه بدفع كل ما أعطته إياه طرابزون من قبل، وكان ذلك عام ألف وأربعمئة وستين، وقد ردّ عليهم الفاتح ملمحاً إلى ما يضمره:

«عودوا مطمئنين إلى بلادكم، وفي السنة المقبلة سآتي بنفسي لأدفع ديوني».

ولم يكتف أوزون حسن بذلك، فقد قام بالاستيلاء على قلعة كويول حيصار التابعة للعثمانيين، عدا عن الاعتداءات المستمرة على المناطق العثمانية المتاخمة لحدوده.

أما الفاتح الذي فتح سينوب، وتخلص من نفوذ أبناء إسفنديار، والذي من المقرر أن يتجه من الطريق الساحلي نحو طرابزون، فقد غيّر سير الحملة فجأة، وعبر السناجق التابعة لحكمه، متجهاً من سيفاس إلى أرزينجان. وبعد حصار

(1) إقطاعية كانت قائمة داخل الأراضي الفرنسية، وجدت بين عامي 843- 1477 وانتهت بوفاة ملكها شارل الجريء عام 1477.

دام ثلاثة أيام استعاد قلعة كويول حيصار التي كان أوزون حسن قد استولى عليها، وفي تلك الفترة ألحق غيديك أحمد باشا قائد الجيش العثماني، الهزيمة بجيش الآق قوينلو الذي كان تحت إمرة خورشيد بيك. ومن ثم توجه الفاتح نحو إرزينجان.

ولكن أوزون حسن الذي باغته هذا الهجوم، لم يجد في نفسه القوة والجاهزية لملاقاة الفاتح، ذلك أنه كان يعتقد بأن الجيش العثماني متجه نحو طرابزون، وأنه سيقوم بمهاجمته من الخلف على أمل تشتيته وإضعاف قوته. ولكن العبد في التقدير والله في التدبير. وبناء عليه فقد أرسل أوزون حسن على الفور وفداً إلى السلطان العثماني عارضاً عليه الصلح، حيث كان الأخير يعسكر في موقع يدعى ياسي تشيشمة، وكان ضمن الوفد سارة خاتون والدة حسن، وتشميشكِزك بيك كورد حسن أيضاً.

ولم يِشأ الفاتح أن يردّ والدة حسن خائبة، والتي كانت في السبعين من عمرها، معروفة بوقارها، ورزانتها، لذا وافق على قبول الصلح شريطة ألا يقوم حسن بالاعتداء على المناطق العثمانية الحدودية، وأن يمتنع عن مساعدة إمبراطور طرابزون. وقد أرسل الفاتح أحد أعضاء وفد أوزون حسن مع الوفد العثماني، وأرفق الوفد برسالة يبلغه فيها بأنه سيعيد والدته مع بقية أعضاء الوفد بعد عودته من حملته. ومن الواضح أنه لم يكن يثق في تعهدات أوزون حسن، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن ينوي أن يسيء لوالدته التي يكّن لها الكثير من الاحترام.

لذا توجه نحوها بالقول:

«يا والدتي! لقد امتنع ابنك الموقّر عن حضور هذه الغزوة معي، وحرم نفسه من ثواب الجهاد، لذا أرغب في أن ترافقيني مع الوفد القادم معك في هذه المعركة المباركة».

وبذلك تمكن من إرضائها. وهكذا فقد أجبر الجيش الذي غيّر طريقه فجأة بالقرب من أرزينجان، على سلك طريق موحش وغير مطروق مليء بالوهاد،

والقمم الوعرة. وقد أتعبت جبال زيغانا الفاتح وجيشه إلى درجة كبيرة.

وبحسب المصادر فإن العقبات التي اعترضت سبيل هذه الحملة قلّ نظيرها، وقد نقل إلينا كمال باشا زاده[1] الأمر على النحو التالي: «كانت دروب هذه المنطقة على قدر كبير من الوعورة والمشقة. ولم يكن هناك موطئ قدم سالك طوال الطريق الذي كان إما ودياناً بالغة الضيق، وإما جبالاً بالغة الارتفاع. وأما الجبال الواقعة على حافة البحر الأسود فقد كانت منيعة وشاهقة كسد ذي القرنين[2]. ولكن الفاتح وجنوده كانوا يخوضون هذه الوديان كسيل جارف لا يمنعه عن بلوغ هدفه شيء. وكانوا يعتلون الجبال كغيوم خفيفة لا يستطيع أحد حبسها»، وبخاصة تلك الجبال الصخرية الوعرة القريبة من طرابزون حيث كان اجتيازها صعباً وبالغ المشقة. فكان العابر يكابد صعوبة في اجتيازها، فكيف بالخيول؟ لذا فقد اضطر السلطان للترجل عن حصانه والسير لمدة طويلة. وكانت قطرات العرق المتفصدة من جبينه، تنساب على أنفه ولحيته، وتتساقط على الأرض كقطرات أمطار نيسان.

وحين رأت سارة خاتون حال السلطان، لم تشأ أن تضيع الفرصة وخاطبته بالقول: «بني! أليس أجدى بسلطان في مقامك، يحتشد الأعيان والخدم على بابه، أن ينام على سريره الريشي الوثير، بدلاً من تكبد هذه المشقات والمهالك من أجل فتح قلعة طرابزون؟ ألا يمكن لك أن تعفو عنهم وتعود أدراجك؟» ولكن الفاتح ردّ عليها بالقول:

«أيا أماه! أتظنين أن كل هذه المشقات والجهود من أجل قلعة طرابزون؟ إن السيف الذي أمسك مقبضه هو سيف الإسلام. وكل هذا التعب والمكابدة إنما هو سبيل الدين. وإن لم نتجشّم العناء والإعياء في هذا الطريق، أيمكن أن

(1) أو ابن كمال هو أحمد شمس الدين أفندي ولد في إدرنة عام 1468 وتوفي عام 1536، تقلد منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، بالإضافة لكونه شاعراً مؤرخاً فقيهاً وأديباً..

(2) بحسب الروايات هو سد بناه الإسكندر المقدوني لحجز ياجوج وماجوج خلفه، ومنعهما من أذية الناس.

نسميه جهاداً؟ ولو لحق بنا أضعاف من هذا الأذى والتعب في سبيل مرضاة الله، ونيل ثواب الجهاد، لكان قليلاً».

وإزاء إجابة السلطان، سكتت سارة خاتون، ولم تعاود فتح حديث من هذا القبيل معه مرة أخرى.

ولأن الأسطول العثماني كان قد وصل إلى موانئ طرابزون قبل وصول القوات البرية بشهر كامل، فقد بدأ بدك أسوارها بالمدافع وضرب الحصار البحري عليها. أما الإمبراطور داوود الذي لم يتوقع أن يقبل الجيش العثماني براً بسبب وعورة الطريق، فقد أصابته دهشة عظيمة حيت رأى طلائع العثمانيين تتقدم نحوه. وحين أدرك أن والدة أوزون حسن ترافق جيش السلطان، أسقط في يده، مدركاً أن ما من أمل في إقبال حاميه لمساعدته.

وقد قام حاجب الإمبراطور جورجيوس أمبروتزيس والذي كان في الوقت ذاته صديق محمود باشا، بتهيئة الأجواء للتفاهم. والتي تمت بناءً على عدم المساس بحياة الإمبراطور وسكان المدينة. حيث أرسل الإمبراطور داوود مع عائلته إلى إسطنبول بحراً ومن هناك إلى إدرنة. وقد مكث في منطقة سيرس جوار نهر كارسوس، وتمَ منحه مخصصات سنوية تبلغ ثلاثمئة ألف آكجة، ولكن حين تمّ الكشف عن المراسلات السرية بينه وبين أوزون حسن، تقرر إعدامه برفقة أبنائه الثلاثة وابن أخيه وذلك عام ألف وأربعمئة وثلاثة وستين.

وقد مكث الفاتح ليومين في طرابزون، حيث منح أموال جنود الروم وأملاكهم، لجنده الذين تمكنوا من تحقيق النصر. وبعد أن منح سارة خاتون أثمن الهدايا من خزينة الإمبراطور، أرسلها إلى جوار ابنها. وإزاء هذه البادرة اللطيفة من السلطان، أرسل أوزون حسن وفداً من أجل شكره على حسن ضيافته لوالدته، وتبريكه بفتح طرابزون، مرفقاً الوفد بالهدايا القيمة. وبعد أن ولى الفاتح إدارة طرابزون لأحد قادة أسطوله، وهو كاظم بيك عاد إلى عاصمته بحراً.

قضية الأفلاق وأميرها المخوزِق

اجتاز أمير الأفلاق فلاد الثالث المعروف لدى العثمانيين بالمخَوزِق، ولدى شعبه بالجلاد، ولدى المجريين بدراكول (الشيطان) نهر الدانوب، حين كان الفاتح متجهاً على رأس حملته نحو طرابزون، وأخذ ينهب الأراضي البلغارية ويدمرها، كما أنه أخذ يعقد ارتباطات مع المجريين. ولكن حين عاد السلطان من حملته، أرسل إليه وفداً يهنئه بالنصر، ويؤكد على حياده.

أما الفاتح الذي كان مطلعاً على ما يقوم به فلاد، فكان ينوي الإيقاع به دون أن يشعره بشيء. وقد أرسل وفداً من سفرائه مع الوفد العائد الذي بعثه فلاد وعرض عليه تجديد المعاهدة التي تنص على تبعيته للسلطنة وتنفيذ شروطها. وطلب منه إحضار الجزية المترتبة عليه بنفسه إلى إسطنبول.

كان عمر فلاد اثني عشر عاماً حين أحضر كرهينة إلى القصر العثماني سنة ألف وأربعمئة واثنين وأربعين، في حين كان عمر شقيقه راؤول ست سنوات. وقد وُضِع الشقيقان بداية في قلعة إغريغور في كوتاهيا، ومن ثم نقلوا إلى توكات، واستقروا أخيراً في قصر إدرنة.

وقد تمّت تنشئة الرهينتين وتعليمهم ما من قبل نخبة مختارة. وتلقوا العلم على يد الملا غوراني برفقة الأمير محمد في قصر مراد الثاني. وتمّ التركيز على تعليمهما مبادئ الدين والعقيدة الإسلامية، وعلوم والرياضيات والمنطق. وكان يتم تحضيرهما من خلال هذا التعليم ليتبوآ مستقبلاً عرش الأفلاق والبغدان، أو على أقل تقدير لينالا مناصب رفيعة في كلتا الدولتين. وبذلك اكتسبا أصول طبقة النخبة العثمانية الحاكمة ومبادئها. كما تمّ توجيههم نحو احترام الدولة العثمانية ومحبتها، وذلك لعقد علاقات متينة معها حين استلامهما أي مناصب مستقبلاً. وقد مكث فلاد حتى عام ألف وأربعمئة وثمانية وأربعين في الأراضي العثمانية، فيما بقي شقيقه راؤول حتى العام ألف وأربعمئة واثنين وستين.

قام الفاتح الذي تربطه علاقات جيدة مع فلاد، بتعيينه أميراً على الأفلاق

عام ألف وأربعمئة وستة وخمسين. وقد أظهر فلاد الذي كان على قدر كبير من الذكاء والشجاعة، مهارة كبيرة في تطبيق ما تعلمه في القصر العثماني في وقت قصير، واستطاع هزيمة البغدان، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالمجريين أيضاً مرات عدّة. وكان يبدو مخلصاً للدولة العثمانية، حتى أنه كان يحضر الجزية المفروضة على بلاده كل سنة بنفسه ويسلمها للسلطان. وكان السلطان بدوره يستقبله بحفاوة بالغة، ويهديه القفطان العثماني والعمامة المنقوشة بخيوط ذهبية ليرتديها، ويرسله إلى مملكته. ولكن أثناء انشغال الفاتح بفتح سواحل البحر الأسود والمورا، بدأ فلاد بقطع روابط صلته القديمة بالسلطنة. ولم يكتف بعدم إحضار الجزية المفروضة عليه، بل توقف عن دفعها نهائياً. وبدأ يعامل رعاياه بقسوة فاقت كل التصورات. وتحفل المصادر الغربية بالفظائع التي كانت يرتكبها بحق شعبه، وتحوله مع مرور الوقت إلى طاغية متجبّر وحاكم متوحش. ولأنه اشتهر بوضع الأشخاص الذين ينوي قتلهم على الخوازيق فقد بات يعرف بالحاكم المخوزِق، حيث كانت طريقته المفضّلة هي خوزقة الناس حتى الموت. وكان يفضل على وجه الخصوص مشاهدة الأتراك الذين يتم تعذيبهم وخوزقتهم وسط دائرة أنشئت خصيصاً لهذا الغرض في قصره برفقة بطانته من القصر، وذلك أثناء تناوله طعامه.

وكان يقوم بسلخ جلود أقدام أسراه من الأتراك، ويرش الملح على اللحم الدامي، وكل من ثم وبغرض زيادة عذاباتهم وآلامهم كان يأمر بأن تقوم المعز بلعق أقدامهم الدامية. وفي أحد الأيام قام بدعوة كافة الفقراء والمتسولين في مملكته إلى وليمة كبيرة، وبعد أن أكلوا وشبعوا، قام بإشعال المائدة برمتها ليحرقهم جميعاً. وفي إحدى المرات قام بقطع أثداء مجموعة من النسوة وألصق مكانها رؤوس أبنائهن المقطوعة، كما أجبر بعض الأطفال على تناول لحوم أمهاتهم بعد أن أحرقهن.

وقد ابتكر طرقاً خاصة من أجل تقطيع البشر كما تُقطع الخُضَر، وسلق

لحومهم في قدور خاصة. وقد قام في أحد الأيام بخوزقة أحد القساوسة مع حماره الذي كان يمتطيه، حين صادفه في طريقه. كما قام ببقر بطن إحدى عشيقاته حين أخبرته أنها حامل. وأكثر الأمور التي كان يستمتع بها، هو تعذيب مجموعة من الناس سوية. وحين تمّ إرسال أربعمئة شاب من المجر وترانسيلفانيا إلى الأفلاق من أجل تعلم اللغة، قام بإحراقهم جميعاً دفعة واحدة. كما قام بخوزقة ستمئة تاجر من بوهيميا في ساحة السوق. وكان يقوم بكل هذه المجازر وسط طقس احتفالي دموي. لذا فقد كان الفاتح الذي اطلع على كل فظائعه، يريد إلقاء القبض عليه بسهولة، فأرسل إليه والي سيليسترا[1] كاتب يونس بيك من أجل دعوته لإحضار الجزية بنفسه إلى قصر السلطان. أما فلاد فقد طالب بقوة حماية إضافية لحماية مملكته أثناء فترات غيابه عنها. وبناءً عليه تمّ إرسال حمزة بيك والي سنجق نيكوبول إلى حدود الأفلاق، وقد أمره الفاتح بأن يلقي القبض على فلاد بأي طريقة ويحضره معه إلى العاصمة، وحين وصل حمزة بيك إلى الدانوب، قرر الانتظار هناك، بسبب تجمد النهر.

لا يعرف على وجه التحديد إن كان فلاد قد أطلع على خطة الفاتح، أم أنه طلب هذه المساعدة لغاية أخرى في نفسه، ولكنه اجتاز النهر المتجمد، وأغار بشكل مفاجئ وسريع على قوات حمزة بيك الرابضة هناك، حيث استشهد كاتب يونس بيك إثر هذا الهجوم، أما حمزة بيك فقد وقع في الأسر. وبعد أن قطع أذرع وأرجل كل الأسرى، قام بوضعهم على الخوازيق. أما حمزة بيك فاستناداً لرتبته فقد وضعه على خازوق أعلى من البقية، وأرسل رأسه بعد ذلك إلى ملك المجر، وطلب منه المساعدة في حربه.

ومن ثم قام الحاكم المخوزِق بالهجوم على نيكوبول وفيدين وكل المناطق الواقعة على ضفاف النهر، وأعمل فيها قتلاً وتدميراً. وعاد مع قافلة مكونة

---

(1) سيلىستر، مدينة تقع في شمال شرق بلغاريا وتقع على الضفة الجنوبية لنهر الدانوب ومجاورة للحدود مع رومانيا.

من خمسة وعشرين ألف أسير إلى الأفلاق. وقد تكّدر السلطان كثيراً من هذه الأخبار المفجعة، وأمر على الفور بالتحضير للحملة، وحين علمت البغدان أن السلطان ينوي الخروج في حملة إلى الأفلاق، عرضوا عليه مساعدتهم، بسبب العداوة الناشبة بينهم وبين فلاد الثالث.

انطلق السلطان الفاتح في ربيع عام ألف وأربعمئة واثنين وستين، ومع انضمام باقي القوات إليه في فيليبة وصل العدد إلى مئة وخمسين ألف محارب، وقد سبق محمود باشا الجيش الأساسي، وتقدم بقواته إلى الأفلاق عابراً الدانوب. أما الفاتح فقد انطلق مع خمس وعشرين سفينة حربية ومئة وخمسين سفينة شحن مع بقية قواته عبر البحر الأسود ليعبر إلى الدانوب، ووصل حتى فيدين. ولكن لا السلطان ولا محمود باشا صادفا أياً من قوات فلاد، وعلى إثر ذلك تولي إفرِنوس بيك بن إفرِنوس زاده علي بيك مهمة الهجوم على أرض الأفلاق.

أما فلاد فقد قام بتقسيم قواته إلى مجموعتين، الأولى كانت مكلفة بالهجوم على البغدان الذين كان يتوقع انضمامهم للجيش العثماني، أما القسم الثاني المكون من اثني عشر ألف محارب، فقد تسلم قيادته بنفسه وذهب للاختباء في الغابة التي يحتمل مرور السلطان وجيشه منها. وقد علم الجيش الذي أرسله الملك المخوزق من أجل مهاجمة البغدان، بعودة إفرنوس بيك مع جيشه، محملين بغنائم يفوق حسابها التصور. لذا كمنوا لهم على المعابر، وقطعوا عليهم الطريق في موضع بالغ الحرج. رغم أنّ قوات محمود باشا، لم تكن بعيدة عنهم. وبالرغم من معرفة جيش الأفلاق بذلك، لكنه لم يولوا الأمر أهمية ظناً منهم أن هؤلاء ليسوا سوى فرقة صغيرة من الجيش. وقد هجم المتربصون على الجيش العثماني كسيل جارف، فقادوهم باتجاه جيش محمود باشا.

علم الأخير بما جرى، فقام بتهيئة جنده واتخاذ التدابير اللازمة، حيث عين على رأس ميمنة الجيش كلاً من عمر تورهان أوغلو، إفرنوس زاده أحمد،

وعلي ميهال أوغلو، وبالي مالكوتش أوغلو، أما على الميسرة فقد عين ناهوس والي ألبانيا، ويانيا بيك عمر، إسكندر ميهال أوغلو.

وقد تفاجأ جيش الأفلاق الذي كان ينوي القضاء على جيش المهاجمين، حين رأى جيشاً منتظماً بكامل عدته يخرج لهم من وسط الغابة، وأدركوا حقيقة الفخ الذي نصب لهم، فلاذوا بالفرار على وجه السرعة، ولكن الفرصة لم تتح لهم، حيث أصبحوا محاطين من كل الجهات، وقد نجا من جيش الأفلاق الذي كان يقارب تعداده سبعة آلاف جندي، ما يقارب السبعمئة جندي فقط.

وبعد مرور حوالى الشهر على هذه الواقعة ظلّ الجيش العثماني يبحث عن الملك الفار، دون أن يقع له على أثر. أما فلاد الذي علم بهزيمة قواته التي أرسلها إلى البغدان، وأنه قضي عليها، فسيقدم على خطوة متهورة وفي غاية الخطورة. حيث كان ينوي جمع قوات كافية، والهجوم على قيادة الجيش، للوصول إلى السلطان وقتله. ولأنه يتقن التركية، فقد قام بالتنكر في زي آخر ودخل إلى قلب الجيش العثماني بغاية الاطلاع على قوته، والحصول على معلومات كافية، وأخيراً في إحدى الليالي شنّ محاربو فلاد دراكول هجوماً على الجيش العثماني، حاملين الفوانيس والمشاعل. ولكنهم أخطأوا الهدف، فهاجموا خيمتي محمود باشا وإسحاق باشا. وفي هذا الهجوم قتلوا من الخيول والجمال أكثر مما قتلوا من الجند. وحين وصل المهاجمون إلى خيمة السلطان وجدوا الإنكشارية ينتظرونهم في وضعية الاستعداد، ومع دخول هؤلاء المواجهات، تشتت شمل جند الملك المخوزِق، ولاذوا بالفرار، وقد استمرت المناوشات بين الطرفين حتى الصباح. ومع شروق الشمس تراجع فلاد دراكول وجنده، فطاردهم المحاربون التابعون لقيادة علي بيك وعادوا بألف أسير منهم.

وحين رأى المخوزِق فلاد أنه خسر كل ما يملكه، انطلق هارباً نحو مولدافيا، ومن هناك توجه نحو المجر ليلتجئ فيها. حيث كان يأمل باستعادة عرشه مرة أخرى، بعد أن يهزم الفاتح بواسطة القوات المجرية التي ستساعده.

أمـا ملـك المجـر ماتياس كورفين والذي عقد الصلـح مع العثمانيين، فلم يكن ينوي جرّ غضب السلطان على بلاده دون سبب وجيه، ولم يوافقه الرأي. وقد قام بحبس فلاد دراكول- الذي طالت اعتداءاته ومظالمه المجريين كثيراً- حال وصوله.

أمـا الفاتـح فقـد قام بتعيين راؤول شـقيق فلاد ملـكاً على الأفلاق، بعد أن ألزمه بدفع جزية سنوية مقدارها اثنتا عشرة دوكا. وبذلك تحولت الأفلاق إلى إمارة منضبطة من إمارات السلطنة العثمانية. وقد استمر راؤول الذي نشأ كأخيه فـي القصـور العثمانيـة، حاكمـاً للأفلاق لمدة اثني عشـر عامـاً، وواصل الولاء للسلطان دون أي مشاكل.

أما فلاد دراكول الذي مكث لمدة طويلة في سـجن فيشـة غارد، فسـيعود ككابوس فظيع إلى بلاده الأفلاق مرة أخرى عام ألف وأربعمئة وستة وسبعين، وسـيتمكن من الاسـتيلاء على العرش مرة أخرى بمسـاعدة من قوات البغدان وترانسـيلفانيا. ولكن قوات ميهال أوغلو كانت له بالمرصاد، ففي شـهر كانون الأول من العام نفسه، وبينما كان فلاد في بالتني جوار بوخارست، شنوا هجوماً مفاجئاً، وألقوا القبض عليه حيث قاموا بخنقه على الفور، دون أن يمهلوه فرصة للهرب.

جزيرة لسبوس وبقية الجزر

«سلطان البرين وخاقان البحرين، سلطان روميلي والأناضول، خاقان البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، السلطان محمد الفاتح» كان هذا ما تمّ نقشه على بوابة القصر الجديد الذي قام بإنشائه (قصر توب كابي).

فبعد فتح إسطنبول، وفرض السيطرة على روميلي وبخاصة دول البلقان، توجهـت مطامـح السـلطان نحـو جـزر البحر المتوسـط، حيث اتبع فـي البداية سياسة فرض التبعية عليها، تمهيداً للانتقال لفتحها فيما بعد. وكانت جاليبولي

هـي مركـز الأسـطول العثمانـي، ولكن مراكز صنع السـفن لم تقتصر فقط على هذا الميناء، فقد كانت هناك ورشات لصناعة السفن على كل من سواحل بحر إيجة، مرمرة، المتوسـط والبحر الأسـود مسـبقاً، كما تمت الاسـتفادة من مراكز صنع السفن الموجودة مسبقاً في منطقة الأناضول أيضاً.

ومع فتح إسـطنبول، قامتِ كل من جزر كاليمنوس[1]، ثاسـوس، خيوس وجزيـرة لسـبوس التابعـة للجنوييـن وبقيـة الجـزر الأصغـر التي يقطنهـا الروم وإينيز[2]، بإظهار الولاء والتبعية للسلطنة، وزادوا من قيمة مبالغ الجزية المترتبة عليهم. وقد وافق الفاتح على الأمر. ولكن رفض جزيرة رودوس دفع الجزية، تسـبب في نشـوب الخلافات والمعارك بين الأتراك والنصارى في بحر إيجة. ذلك أن أساطيل الفاتيكان وجمهورية البندقية، ومملكة نابولي القوية، حاولت منـع حـركات الفتـح العثمانية، فتناوبت هذه الأطراف المتحاربة السـيطرة على الجزر، حتى تمت السيطرة عليها بشكل مطلق.

وقـام الأسـطول العثمانـي فـي ربيع عام ألف وأربعمئة وأربعة وخمسـين، بضـرب موانـئ جزيرتـي رودوس وخيـوس بالمدافـع مـرات عـدة، وإزاء عدم الوصـول إلـى نتيجة حاسـمة، قـام الفاتح بعزل حمزة بيك من قيادة الأسـطول ليسلمه إلى هاس يونس بيك.

وبعـد عـودة الفاتـح من حملته علـى صربيا، تضافرت ظروف عدة توجب القيـام بفتـح إنيـز، حيـث كانت إدارتها مشـتركة بين دوريـوس الجنوي وزوجة أخيه، وبسبب الخلاف الذي نشب بينهما توجهت المرأة بالشكوى إلى السلطان الفاتح، كما أن دوريوس كان يقوم ببيع الملح الذي كان مقرراً منحه للسـلطنة كتعويض ضريبي، ويخطف جواري الرعايا الأتراك وعبيدهم في كل من إبسالا

---

(1) هو اسم لجزيرة وبلدية يونانية وأيضاً اسم أكبر بلدة ضمن هذه الجزيرة. تقع الجزيرة ضمن بحر إيجة، في جنوب شرق اليونان.

(2) منطقة تابعة لمحافظة إدرنة وهي مركزها أيضاً.

وفيرجيك من أجل بيعهم، وإزاء هذه التصرفات تقرر فرض السيطرة المطلقة على إنيز. وعلى عادة السلطان الفاتح فقد احتفظ بالأمر سراً، وحين دعوته لقائد الأسطول هاس يونس بيك إلى إدرنة، أطلعه على الأمر.

ورغم أنهم كانوا في فصل الشتاء، لكن يونس بيك انطلق بحراً مع عشر سفن حربية، فيما توجه السلطان براً، وعلى حين غرة وجدت إنيز نفسها محاصرة، وأسقط في يد الأهالي وأدركوا أن المقاومة لن تغير شيئاً من النتائج، فسلموا السلطان مفاتيح القلعة وذلك في كانون الثاني من العام ألف وأربعمئة وستة وخمسين.

أما الأمير دوريوس الذي فرّ نحو جزيرة ساموثرس[1]، فقد أدرك أنه سيتم إلقاء القبض عليه، لذا فقد عاد إلى إنيز على متن سفينته ومن هناك توجه إلى إدرنة لمقابلة السلطان، وقد عرض عليه تزويجه من ابنته، وبذا فقد عفا عنه السلطان. وقد تمّ منحه بلدة زيهنه التي تقع جوار سيرس، ولكنه يبدو أنه ندم على ما فعله، فقام بقتل مرافقيه ومن ثم فرّ إلى أوروبا.

ومع سيطرة العثمانيين على الجزر، واستحواذهم على إنيز، ومن ثم حصار بلغراد، قام البابا كاليستوس الثالث بتحريض الأوروبيين مجدداً ومحاولة توحيد صفوفهم. فجهز ثماني سفن حربية كبيرة من خزينة الفاتيكان، وأرسلها تحت قيادة الكاردينال لويس سيرامبا نحو الجزر وذلك عام ألف وأربعمئة وسبعة وخمسين.

وحين وصل لويس إلى جزيرة رودوس انضمت إليه أربعون سفينة من سفن البنادقة والقرصان كاتلان، وبذلك زادت قوة أسطوله. وقد هاجم الأسطول المسيحي جزيرة كاليمنوس أول الأمر، فاضطر قائد الحامية مراد بيك الذي لم يكن تحت قيادته سوى مئة محارب إلى تسليم الجزيرة. وحين رفضت جزيرة ثاسوس الاستسلام، بدأت نيران المدافع تنهال عليها، وبعد استشهاد حوالى

(1) هي جزيرة يونانية في شمال بحر إيجة، وهي بلدية تتبع مقاطعة إفروس التابعة لمنطقة تراقيا.

ستين محارباً من حاميتها، تمّ احتلال الجزيرة.

أما كريتوفولوس حاكم جزيرة إمروز[1] فقد أنقذ جزيرته من الاحتلال النصراني من خلال الهدايا الثمينة التي أرسلها إلى أسطولهم. ومن ثم توجه الكاردينال لويس بعد هذه الانتصارات نحو جزيرة لسبوس حيث عقد اتفاقاً مع أمير الجزيرة. وغادرها بعد أن ترك فيها قسماً من جنوده لحمايتها، وحين وصلت أخبار اتفاق أمير لسبوس مع الجيش الصليبي، وقبوله للجنود الغربيين على جزيرته، تمّ إرسال اسماعيل بيك الوالي وقائد الأسطول مع مئة وخمسين سفينة حربية إلى سواحل الجزيرة.

وقد عاد الأسطول البابوي تاركاً سواحل جزيرة خيوس، حين علم بوصول الأسطول العثماني إلى لسبوس، ودكّه قلعتها بالمدافع. ولكنه لم يلقَ أي ترحاب أو قبول من سكان الجزيرة، بسبب تيقنهم من إخفاق اللاتينيين في حمايتهم. ولإدراكهم فداحة خطر الغضب العثماني، فقد بدأوا بالبحث عن سبل من أجل إعادة التفاهم مع السلطان الفاتح، حيث جددوا المعاهدات السابقة، من خلال التعهد بإيفاء الجزية المفروضة عليهم، والالتزام بالشروط التي ينص عليها الاتفاق.

ورغم ذلك فقد كان من الواضح أن الصلح مع لسبوس لن يدوم طويلاً، حيث كانت جزيرة كبيرة غنية بالثروات ومن أقرب الجزر إلى السواحل التركية. وكان حكمها تحت يد عائلة جنوية تدعى عائلة غايلوزي. وكانت تُدار من قِبَل الأخوين نيقولا ودومينيك، أيام السلطان الفاتح.

سببت المواجهات العثمانية الغربية، من أجل السيطرة على الجزيرة، في حدوث خلاف بين الأخوين، إذ قام نيقولا الثاني بقتل شقيقه دومينيك متهماً إياه بأنه يميل إلى العثمانيين وذلك عام ألف وأربعمئة وتسعة وخمسين. وهكذا عاد القراصنة الكاتولونيون إلى سابق عهدهم في نهب سواحل الأناضول والاعتداء

(1) جزيرة تركية تقع في بحر إيجة وتتبع لمحافظة جناق قلعة.

عليها، ومن ثم الالتجاء إلى لسبوس.

وعلاوة على ذلك فقد بدأ أمير الجزيرة بالمماطلة في إرسال الجزية السنوية المترتبة عليه، لذلك فقد صدر قرار بوضع حدّ لتجاوزاته، وهكذا، حال عودة السلطان الفاتح من حملته المظفرة على الملك المخوزِق عام ألف وأربعمئة واثنين وستين إلى إدرنة، قام على الفور بالتحضير للسيطرة على الجزيرة، دون إضاعة المزيد من الوقت.

وأرسل محمود باشا على رأس أسطول مكون من ستين سفينة، وسبع سفن للنقل إلى الجزيرة، وقد كانت سفن النقل تحمل معدّات الحصار، من المدافع والمنجنيقات، وحوالي ألفي قذيفة حجرية. وقد عرض محمود باشا الذي وصل الجزيرة في الأول من أيلول، وعلى جري العادة، الاستسلام على أهل الجزيرة وتسليم القلعة. ولكن حاكم الجزيرة الذي اعتمد على قلعتها الحصينة، والتي يصل تعداد حاميتها إلى خمسة آلاف محارب كامل العدّة والعتاد، ومدافعها الكبيرة، وتعداد سكان الجزيرة الذي يناهز العشرين ألف شخص، رفض هذا العرض بالقول: «طالما أنا على قيد الحياة، فلن أخون الجزيرة وساكنيها على الإطلاق». وعلى إثر ذلك بدأ محمود باشا بدّك أسوار القلعة بنيران المدافع الكثيفة.

وفي هذه الأثناء توجه السلطان مع جيوشه من بورصة إلى خليج إدرميت[1]، حيث نصب خيمته في آياز مند[2]، وأثناء اشتداد الحصار قام السلطان بالتوجه إلى الجزيرة على ظهر سفينة حربية من أجل مناقشة الخطط والاطلاع على الأوضاع، ومن ثم عاد إلى آياز مند. وبعد عودة السلطان من الجزيرة بأيام عدة، قام الجنود العثمانيون بدخول القلعة بعد أن تهدم جزء كبير من أسوارها، وذلك في التاسع عشر من أيلول، وقاموا بقتل الحامية وأسر أمير الجزيرة نيقولا مع

(1) يقع أقصى شمال الأناضول على ساحل بحر إيجة.

(2) منطقة تابعة لمحافظة بالق أسير في تركيا.

أعيان المدينة، وأرسلوهم إلى السلطان. وحال دخوله خيمة السلطان، توجه إليه راجياً، متضرعاً لكي يعفو عنه، وقد اكتفى السلطان بزجره لأنه لم يلتزم بالمعاهدات المبرمة بينهم، إلا أنه سيُقتل لاحقاً بسبب خيانته ومحاولاته التمرّد على السلطان.

أرسل المذنبون من سكان لسبوس إلى إسطنبول كأسرى، رغم أن القسم الأكبر منهم مكث في الجزيرة بعد أن قاموا بافتداء أنفسهم، والتزموا بدفع الجزية. وقد كُلّف علي البسطامي بإدارة الجزيرة، ومع فتح جزيرة لسبوس فقد استطاع العثمانيون حماية سواحلهم من هجمات القراصنة، كما ضمنوا لأنفسهم قاعدة أساسية وقوية في بحر إيجة.

فتح البوسنة

مع تمرد حاكم الأفلاق، سار ملك البوسنة ستيفان توماسفيتش أيضاً على خطاه، وتوقف عن إرسال الجزية السنوية المفروضة عليه والتي كان مقدارها خمسون ألف دوكا.

وفي الحقيقة فإن قيام ملك البوسنة بالتمرد قد بدأ مع موت لازار ملك صربيا عام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين، حيث ادّعى أحقيته بامتلاك قلعة سميديريفو كونه صهر الملك المُتوفى، ما تسبب في تأخر سيطرة العثمانيين على القلعة. كما كان كل من البابا والبنادقة والمجريون يقومون بتحريضه للتمرد على العثمانيين، ويقطعون له الوعود بدعمه ومساندته في حال قام بالعصيان. وكان علي بيك ميهال أوغلو يراسل السلطان على الدوام، مبيناً اعتداءات ستيفان على حدود جيرانه، ودخوله في تحالفات مشبوهة مع أعداء السلطنة.

ومع توجه السلطان عام ألف وأربعمئة واثنين وستين على رأس الحملة الرامية للقضاء على الملك المخوزِق، أرسل إلى ملك البوسنة آخر تنبيه لكي يقوم بإيفاء ما عليه من مبالغ متراكمة من الجزية، فقام الملك بأخذ الرسول

العثمانـي ليريـه خزينتـه الممتلئـة، ومن ثم قال له: «كما ترى فالنقود جاهزة هنا، ولكنني لا أنوي إرسـالها إلى سـلطانك، ذلك لأنه قرر أن يحاربني. ومن جهة أخـرى فـإن قـدرت لـي الهزيمة وأجبرت على الفرار خـارج البلاد، فأنا بحاجة إلى هذه النقود، لقضاء بقية حياتي في رفاه وراحة». ومن ثم قام بحبس الرسول بعد أن هدّده بالقتل.

وعلى إثر ذلك قرر السلطان التوجّه إلى البوسنة على رأس حملة. كما أنه كان بحاجة للسـيطرة عليها من أجل إضعاف قوة البنادقة الذين كانوا يشـكلون دولـة ذات أسـطول بحـري مرهوب الجانـب. بالإضافة إلى أن هذه الدولة التي باتـت تجاهـره العـداء، ستشـكل خطـراً كبيـراً عليه فيما لو دخـل في حرب مع البنادقة. وبعد أن عاد السلطان ظافراً من حملته على الأفلاق، وجه جيوشه عام ألف وأربعمئة وثلاثة وسـتين نحو البوسـنة. وحين رأى سـتيفان أنه ما من مدد سيأتي من المجريين والبنادقة، قام بإخراج الرسول العثماني من السجن، وأخذ يعتذر منه قبل أن يعيده إلى بلاده، ولكن الوقت كان قد فات حينها.

وهكـذا توجـه السـلطان علـى رأس جيشـه الذي اجتمع في سـكوبيه نحو البوسنة، وأثناء الطريق وصلته أخبار من علي بيك ميهال أوغلو لينبئه بأن ملك البوسنة قام بالهجوم على القلاع العثمانية، وقام بإحراق آغج حيصار[1]. وبعد مسيرة دامت شهرين دخل السلطان أراضي البوسنة، وقام أثناء الطريق بالسيطرة علـى قلعـة بوبوفاتـس[2] وسـائر القلاع الأخـرى التي صادفهـا. وحين علم بأن الملك يقوم باستعداداته في قلعة يايتسا[3] التي تقع في قلب البوسنة، قام على الفور بإرسـال محمود باشـا على رأس جيش مكون من خمسـة وعشـرين ألف جندي. وقد علم الباشـا الذي وصل قلعة يايتسـاعلى وجه السـرعة أن الملك

(1) بلدة تابعة لمحافظة بورصة في تركيا.

(2) تقع في جبال البوسنة والهرسك الوسطى على حدود بلدتّي كاكاني وفاريش.

(3) مدينة تاريخية وسط البوسنة.

هرب إلى قلعة سوكول[1] في اليوم السابق.

وعوضاً عن محاصرة القلعة، بدأ الجيش بملاحقة الملك الهارب. وحين وصلوا سوكول، كان الملك قد فرّ إلى قلعة كليس[2]، لذا قام محمود باشا بإرسال عمر بيك تورهان أوغلو على رأس قوات من الجيش، فيما ظل مع بقية جنده لمحاربة حامية القلعة، ذلك أنه للتوجه من سوكول إلى كليس كان يتوجب اجتياز وادي ضيق وعلى قدر كبير من الخطورة، ولم يرغب قادة الجيش العثماني أن يتعرضوا لهجوم مباغت في هذا الوادي، لذا كان عليهم السيطرة على بلدة سوكول لحماية ظهورهم أثناء تقدمهم، قبل العودة إلى يايتسا

من جهة أخرى لم يشعر الملك ولا حامية القلعة بالخشية لدى رؤيتهم عمر بيك مع قواته أمام أسوار قلعة كليس، ذلك أنهم كانوا مطمئنين أن القوات العثمانية الأساسية بعيدة جداً، بحيث لا يمكن لها أن تجتاز كل تلك الطرقات الوعرة للوصول إليهم. وقد يكون هذا ما دفع الملك للالتجاء إلى قلعة ليست على قدرٍ كافٍ من المنعة كقلعة كليس.

وحين اجتاز عمر بيك مع قواته النهر الذي يجري أمام أسوار القلعة ودخلوا المدينة، كان ملك البوسنة قد سدّ الطريق عليهم من خلال السيطرة على الجسر، حيث وجدت القوات العثمانية نفسها في وضع لا تحسد عليه. حيث حاصرتهم القوات البوسنية من كل جانب. ولم يكن أمامهم سوى خوض العراك حتى النهاية، أما الملك ستيفان توماسفيتش فقد انسحب إلى القلعة ليتفرج على الواقعة من هناك، بعد أن سلم قيادة جيشه لأحد أكفأ رجاله. وقد صاح عمر بيك على جنوده بأن اليوم هو يوم الشهادة الموعود، ومن ثم استل سيفه، وانقض على قوات العدو مع رفاقه. وحدث قتال عنيف وقاسٍ بين المدافعين والمهاجمين.

---

(1) قلعة تاريخية في البوسنة.

(2) وهي قلعة من القرون الوسطى وتقع على ساحل البحر الأدرياتيكي في كرواتيا.

وفـي أحلـك لحظـات القتال، حين كانت القوات العثمانية تهاجم بآخر ما بقي لديها من قوة، وصلت قوات محمود باشا إلى ضفاف النهر. وقد استطاع محمـود باشـا الـذي أصـر على فكرته بالسـير مع قواته طـوال الليل على ضوء المشاعل، الوصول إلى عمر بيك في الوقت المناسب. ولـم يضيع المهاجمون العثمانيون الوقت في التوجه نحو الجسر، بل عبر معظمهم النهر سباحة لينضموا إلى رفاقهم. وبذا فقد انقلب الوضع بشـكل تام، وبالكاد تمكن المدافعون من الهروب والاحتماء في القلعة، قبل أن تنال منهم سيوف المهاجمين.

وحين أدرك الملك أن لا قبل له على المقاومة، وأن مدن البوسنة سقطت الواحدة تلو الأخرى بيد العثمانيين، وأن السلطان بنفسه يحاصر عاصمة البلاد يايتسا، طلب الأمان من محمود باشا لكي يسلم نفسه. وفي تلك الأثناء استسلمت العاصمة أيضاً، بعد أن عانت الجوع والعطش جراء الحصار المضروب عليها، وذلك عام ألف وأربعمئة وثلاثة وستين.

ويقال إن السلطان قد استاء من محمود باشا، لأنه لم يقم بفتح قلعة كليس، التي كان من السهل فتحها والسيطرة عليها. فقد كان يريد فرض سيطرته التامة على كل أراضي البوسنة، ولـم يكن يرغب في وجود عائلة أخرى تحكم أي بقعة من البلاد. ذلك أنه قد تمّ منح القلعة للملك بعد أن استسلم وطلب الأمان.

ظـل السـلطان وفيـاً للوعـد الـذي قطعـه لفترة مـن الزمن، ومـن ثم طلب استشـارة رجال الدين، واسـتناداً للفتوى التي أصدرها العلامة علي البسـطامي والمشـهور بالمصنِّـف الصغيـر، قـام بقتل الملك. وأغلب الظـن أن فتوى علي البسطامي كانت تستند إلى الاعتداءات التي قام بها الملك قبلاً على الأراضي العثمانية، وإحراقه لقلعة آغج حيصار. وقد استمرت المناوشات والتمردات في المنطقـة، والتـي كان يتزعمهـا كل من كوفاجيلـي وبافليلي، وقد قامت القوات العثمانية بقتلهما وفرض السيطرة التامة على المنطقة.

أما محمود باشـا فقد توجه نحو الهرسـك، حيث ملكها بتبعيته للسـلطنة

العثمانيـة، وعلـى إثـر ذلـك تمّ منحه جـزءاً من بلاده، أما القسـم الباقي فقد تمّ إلحاقه بأراضي السلطنة، كما تمّ أخذ ابنه الأصغر إلى القصر العثماني كرهينة، وهناك تم تعليمه وتلقينه وفق مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه، ليتحول مستقبلاً إلى أكثر رجال الدولة قدرة ويحتل منصب الصدر الأعظم، ويغدو اسمه هرسك زاده أحمد باشا (أحمد باشا البوسني).

وقـد أسـكن السـلطان محمـد قسـماً مـن سـكان مدن البوسـنة فـي مدينة إسطنبول، وعين حامية عثمانية على قلعة يايتسا وبقية القلاع الكبرى، وبعد أن عين محمد بيك منيّت أوغلو على سنجق البوسنة، وإسكندر بيك ميهال أوغلو على قلعة زفورنيك[1] القريبة من حدود المجر، عاد إلى عاصمته.

بداية المعركة الكبرى

رغـم أن الفتوحـات العثمانيـة كانت تطال الكثير من المناطق التابعة لنفوذ جمهوريـة البندقيـة، لكنهـا كانـت تتـردد في القيام بأي رد، بسـبب خشـيتها من أعدائهـا الأوروبيـن. ومـع سـيطرة القـوات العثمانيـة على الجـزر والكثير من مناطق المورا التي كانت تحت حماية البنادقة، وفتح البوسنة، بدأت الجمهورية بالتحرك والبحث عن تحالفات مضادة للسلطنة.

فـي البدايـة قامـت بعقـد اتفاق معادٍ مـع ألبانيا عام ألـف وأربعمئة وثلاثة وسـتين، وبحسـب الاتفاق سـتقوم جمهورية البندقية، بمد إسكندر بيك بالمال والقوات العسـكرية. وفي كل عام ما بين شـهري نيسـان وحزيران سـيتم إرسال أسطول الجمهورية الحربي إلى سواحل ألبانيا من أجل حمايتها من الهجمات العثمانيـة المتكـررة. ولـو أن الجمهوريـة كانت قد وافقت على عقد الصلح مع السـلطنة، لوافق إسـكندر بيك بدوره على الصلح معها. وفي شـهر أيلول من العـام ذاتـه، قامـوا بتوقيع معاهدة مماثلة مع المجريين أيضاً، وقد حرصوا على

(1) مدينة زفورنيك تقع ضمن جمهورية صربيا على ضفاف نهر درينا.

إبقـاء كلتـا المعاهدتيـن طي الكتمان، ولم يخبروا أحداً سـوى البابا، الذي أقنع دوق بورغونيا أيضاً للانضمام إلى هذا الحلف.

ومع الحملات العثمانية على الأفلاق ولسبوس والانتصارات التي حققتها، اسـتطاعت التفـوق علـى جمهورية البندقية التـي كانت تعرف بأنها تملك أقوى أسطول بحري في العالم، بل وانتقلت إلى مرحلة الهجوم على أسطولها. ومن جهة أخرى زادت قوة التحالف بين البنادقة والمجريين بعد حملة البوسنة.

ونتيجـة لهـذه التطـورات بـدأت المناوشـات الحدوديـة بيـن قـوات كلا الدولتيـن، وقـام كل من عيسـى بيك إفرِنوس أوغلـو وعمر بيك تورهان أوغلو مـع قواتهمـا بالسـيطرة على ليبانتو[1] والمناطـق المتاخمة لها والتي كانت تابعة للبنادقة، وشنوا هجمات متتالية على مودون وكورون. وأدت هذه الأحداث إلى قطع كل حبال التواصل، وإنهاء العلاقات المضعضعة أساساً.

وحال عودة السلطان من حملة البوسنة، بدأ البنادقة بالهجوم على المورا، والمجريون بالهجوم على البوسنة بناء على الاتفاق المبرم بينهما، وهكذا بدأوا الحرب الكبرى. وفيما بعد سـينضم كل من مملكة أراغون[2] وقشـتالة ونابولي وبولونيا إلى الحلف وسينضم إليها من الشرق أمراء قرمان والآق قونيلو، كما سيدعمهم الألمان أيضاً. وسيضطر الفاتح بين الوقت والآخر لمحاربة أربع أو خمس دول معاً.

بـدأت جمهوريـة البندقيـة فـي شـهر آب من العـام ألف وأربعمئـة وثلاثة وسـتين، بهجـوم كبيـر علـى المورا. حيث جمع برتولدو إسـتي بن دوق تاديو، تحت إمرته آلاف المحاربين، وتوجه برفقة الأميرال لوريدانو وأسطوله المكون من خمسة وثلاثين سفينة حربية، واثنتي عشرة سفينة نقل كبيرة نحو المورا. كما قام أسطول البندقية باحتلال برزخ كورينث على وجه السرعة.

(1) تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

(2) كانت مملكة قديمة في شرق شبه الجزيرة الإيبيرية.

في الخامس من آب استطاع برتولدو استعادة آرغوس[1]، وترك هناك حامية مؤلفة من خمسمئة محارب وتوجه نحو غيرمة[2] ليضرب عليها الحصار، وقد استطاع بناء سور الحصن الذي دمره السلطان مراد الثاني، وذلك خلال خمسة عشر يوماً، حيث أحضر ثلاثين ألف عامل قاموا ببناء سور طوله ستة أميال وارتفاعه اثنا عشر قدماً، يقع بين البحرين (مياه الخليج والبحر الساروني) ولحماية الأسوار حفروا أمامهما خندقين، وقاموا بإنشاء مئة وستة وثلاثين برجاً على امتداد الأسوار. وكانت الكنيسة التي تمّ بناؤها في منتصف المسافة بين الأبراج يرفرف عليها علم القديس مارك. وبوساطة هذه الأسوار الحصينة، أعاقوا الفاتح عن إرسال الإمدادات إلى جنوده في شبه جزيرة المورا، وبدأوا بالسيطرة على المدن العثمانية الواحدة تلو الأخرى.

وبعد الانتهاء من بناء الأسوار، توجهوا نحو كورينثوس التي كان يقيم فيها سنان بيك الفان أوغلو والي إمارة المورا، وضربوا عليه الحصار. كما قاموا بتحريض سكان المورا للتمرد على القوات العثمانية، وقد تبعتهم مدن أخرى في العصيان مثل اسبارطة، أثينا، أركاديا، وإيبيدامنوس.

وصلت الأخبار للسلطان لتبلغه بأن البنادقة هاجموا المورا، وأن المجريين هاجموا البوسنة، وأن إسكندر بيك أيضاً انضم لهذه الاعتداءات. فعقد اجتماعاً في الديوان لبحث المستجدات، وقرر السير على رأس حملة نحو المورا، بادئ الأمر. فقد كان قادراً على حل مشكلة ألبانيا بسهولة، أما قلاع البوسنة فتستطيع الصمود في وجه الحصار لمدة أطول. ولكن الأتراك الموجودين في المورا، سيحاصرون بشكل تام مع الحصار المفروض على غيرمة. فنجدة المسلمين الذين أسكنهم في المورا – التي كان يعتبرها المفتاح الذي سيفتح له الطريق أمام توسعه نحو الدول الغربية– ضرورة. واستناداً لهذه الاعتبارات أرسل

(1) مدينة يونانية تقع في جنوب البلاد ضمن مقاطعة أرغوليذا.

(2) قرية في جزيرة كوس في اليونان، تسمى باليونانية بلاتاني.

محمود باشا على رأس حملة كبيرة إلى المورا في أيلول من العام ألف وأربعمئة وثلاثة وستين.

من جهة أخرى كان سنان بيك إلفان أوغلو قائداً على قدر كبير من الشجاعة والحنكة، ولم يكن ينوي أن يدير ظهره للعدو ويهرب، وكان يتصدى مع رفاقه في السلاح للهجمات التي يشنها البنادقة على القلعة ببطولة قلّ نظيرها، حتى أن العدو كان منذ الضربة الأولى يشعر بالندم، لأنه تجرأ على التعرض لبطل جبّار مثله. ولكن ضربات المدافع المتوالية أنهكت جدران القلعة، وسببت لها الكثير من الضرر. وقد أدرك سنان بيك أن الأسوار لن تستطيع الصمود أكثر، وأن هذا يعني اقتراب الهلاك. فتوجه نحو محاربيه الذين كانوا يدافعون عن القلعة بشجاعة كبيرة، قائلاً:

«رفاقي! يجب أن أحيطكم علماً أنه لو استمر الحصار على هذا النحو، فستكون عاقبته وخيمة علينا، ذلك أن القلعة على وشك الانهيار، ومن الواضح أننا بدأنا نفقد قوتنا على المقاومة، ما رأيكم أن نقوم بهجوم مباغت الليلة على هؤلاء الذين أعمى الطغيان عيونهم، ونعمل فيهم قتلاً بسيوفنا التي تقدح شرراً. نأمل من الله أن ينير الظلمة بنيران سيوفنا، ليكون النصر حليفنا مع بزوغ الضوء. وننجو من هذا الخطر بكرامة ونصر». وقد ردّ عليه المهاجمون بصوت واحد: «أمرك مطاع»، وبدأوا بالتحضير للهجوم.

من جهة أخرى احتفل البنادقة في ذلك اليوم متوقعين قرب انتهاء الحصار، وحين سمعوا أصوات التكبير والنفير ودق الطبول اعتراهم الهلع والدهشة. كان هجوم المحاربين العثمانيين من الشدة بحيث لم يدرك البنادقة ما الذي حصل لهم، ولم يميزوا المترجل من الفارس، وعلى الفور لاذوا بالفرار، وبالكاد استطاعوا تخليص قائدهم بيرتولدو، الذي أصيب بجراح خطيرة، وفارق الحياة بعد وقت قصير.

وقد ظن البنادقة أن قوات محمود باشا هي من أغارت عليهم بهذا الشكل

المفاجئ، ذلك أنهم كانوا قد علموا قبلاً بأنه يسير نحوهم على رأس حملة كبيرة. ولهذا السبب فقد اعتراهم خوف شديد أثناء الهجوم، ولم يجدوا في أنفسهم القوة الكافية للمقاومة بشكل مناسب، واتجهوا نحو قلعة غيرمة هلعين. وحين أدركوا أن قوات محمود باشا باتت قريبة، لم يجدوا ملاذاً سوى في سفنهم التي أبحروا فيها مبتعدين.

أما محمود باشا الذي وصلته أخبار هزيمة البنادقة، فقد سار طوال الليل ليصل إلى قلعة غيرمة على وجه السرعة. وبعد أن سيطر عليها في وقت قصير، شن هجوماً على البنادقة الهاربين باتجاه البحر واستطاع القضاء على قسم كبير منهم. ولكن من التجأ منهم إلى السفن، تمكن من النجاة والهرب، وكان ذلك في تشرين الأول من عام ألف وأربعمئة وثلاثة وستين.

وبعد أن قام محمود باشا بتدمير قلعة غيرمة مرة أخرى، توجه نحو مدن المورا التي كان أهلها قد أعلنوا العصيان، واستطاع في فترة قصيرة أن يضبط الأوضاع، ويعيد إليها الهدوء والاستقرار، كما قام بالسيطرة على مدينة آراغوس، وأرسل قسماً كبيراً من أهلها إلى إسطنبول، بعد أن ترك حامية كبيرة وجيدة التسليح هناك. وكلف عمر بيك تورهان أوغلو، بنهب وتدمير مدن البنادقة في المورا، وغادر هو من أجل ملاقاة السلطان.

جُنَّ قائدهم

في تلك الأثناء قام السلطان محمد الذي وصلته أخبار انتصارات جيشه في المورا، ودون إضاعة مزيد من الوقت، بتجهيز الحملة والتوجه نحو المجر، ولكنه ما إن وصل إلى صوفيا، حتى بلغته صرخات الاستغاثة من جزيرة لسبوس. وبحسب الأخبار التي وصلته، فقد قام أسطول البنادقة الهارب من المورا، بالتوجه إلى الجزيرة ومحاصرتها، بحيث لم يبقَ لهم ملاذ سوى القلعة، لذا فقد كانوا بحاجة إلى الدعم على وجه السرعة. وبناءً على هذه المستجدات،

أرسـل السـلطان محمود باشـا على رأس حملة إلى لسـبوس، واضطر هو إلى البقاء منتظراً في صوفيا.

جهـز محمـود باشـا الأسـطول وتوجـه سـريعاً نحـو لبسـوس. واسـتطاع القبض على اثنتين من سـفن البندقية الأربع التي صادفها أمام سـواحل جزيرة تينيـدوس[1]، بينمـا هربـت السـفينتان الباقيتان، واتجهتا بسـرعة نحو لسـبوس، لتعلماهـم بـأن الأسـطول العثمانـي بقيـادة الصـدر الأعظم محمود باشـا متجه نحوهم. وقد انسحب أسطول البندقية الذي كان يُعرف حينها بأنه أكبر وأعظم أسـطول في العالم، قبل نحو ثماني سـاعات من وصول محمود باشـا، متجهاً نحو جزيرة وابية[2] وبذلك فقد قام الأسطول العثماني، بوضع نهاية لنجاحات أسطول البندقية في هذا الأرخبيل.

ورغم أن قائد أسطول البندقية أورساتو، الذي استلم العلم المقدس مذهب الحواشي من يد الكاردينال بيسّاريون في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ألف وأربعمئة وثلاثة وستين، كان قد أقسم على ألا يجعل للأسطول العثماني موطئاً في البحر، إلا أنه ومع الهزيمة التي لحقت بهم في جزيرة لسبوس، غرق في عاره، وأصابه الجنون، وانسحب إلى البندقية التي مات فيها بعد فترة وجيزة.

أما محمود باشا فبعد أن عمل على تحصين القلعة وإعادة ترميمها واطمأن على سـير الأمور وتنظيمها، غادر متجهاً إلى السـلطان من جديد. ولكن حين وصولـه إلـى صوفيـا، كان الشـتاء قـد اشـتدّ، لذا فقد عاد لأنـه أدرك بأن خروج الحملة في هذه الأجواء غير ممكن.

ومن جهة أخرى وجد المجريون الفرصة المناسبة للتحرك في البوسنة كما يشاؤون، بسبب انشغال العثمانيين بالأحداث التي جرت في شبه جزيرة المورا وفي لسبوس. وبعد أن سيطر الملك ماتياس على الكثير من القلاع، قام بحصار

---

(1) أو جزيرة بوزجا أدا في الجزء الشمالي من بحر إيجة وتتبع لمحافظة جناق قلعة.

(2) ثانية أكبر جزر اليونان من حيث المساحة وعدد السكان.

مدينة يايتسا. وقد استطاع قائد القلعة الذي تسميه المصادر المجرية بهرام بيك، وهو هورم إلياس بيك، أن يصمد لوقت طويل برفقة الأربعمئة إنكشاري الذين كانوا تحت إمرته. ولأن سكان المدينة قد امتنعوا عن تقديم الطعام والشراب لهم، فقد أدركوا بعد ثلاثة أشهر من الحصار، أنهم لن يقووا على التصدي للهجوم العام، لذا قاموا بتسليم القلعة بعد أن أخذوا وعداً بالأمان.

وقد سرّ الملك ماتياس سروراً عظيماً بسبب تصادف هذه الانتصارات التي حققها مع اقتراب ذكرى توليه العرش، فأمر الجنود العثمانيين الأسرى بالسير خلفه في مراسم احتفالية، ومن ثم أطلق سراحهم.

أما الجيش العثماني الذي قضى الشتاء في التجهيز للحملة، فقد انطلق مع قدوم الربيع نحو دروب البوسنة. في حين استفاد المجريون من الحروب الناشبة بين البنادقة والعثمانيين، وتأجيل الحملة في العام السابق، واستولوا بالإضافة إلى يايتسا على قلاع ومدن جديدة. وبعد أن قام الملك المجري بتحصين قلعة يايتسا بشكل كاف، غادر المنطقة.

مسلمو البوسنة والحرب مع المجر

كان السلطان يخطط للسيطرة على يايتسا التي تشكل قلب البوسنة ومركزها، كخطوة أولية، ولكن بسبب حصانة موقعها، وبالإضافة للتجهيزات والتحصينات الأخرى التي زودها بها المجريون، لم تسقط القلعة رغم الحصار ونيران المدافع التي انهالت عليها دون هوادة. وفي هذه الأثناء قام ملك المجر بالسيطرة على الطرق والمعابر التي سلكها الجيش العثماني، لمحاصرتهم من الخلف.

وقد أدرك السلطان أن موقفه أصبح أكثر خطورة، مع تقدم الجيش المجري من الخلف، بينما تقف قلعة يايتسا منيعة أمامهم. وبعد أن أوكل مهمة حصار القلعة لمحمد بيك مينّت أوغلو، توجه على الفور للسيطرة على المعابر التي قد يحاول المجريون السيطرة عليها. وبذلك عمل على منع القوات المجرية

القوية من ضرب جيشه المنهك من الخلف.

أما ملك المجر فقد قرر السيطرة على قلعة زفورنيك بعد أن فوّت عليه الجيش العثماني فرصة محاصرته. لذا فقد أرسل الفاتح قوة مؤلفة من خمسمئة جندي بقيادة إسكندر ميهال أوغلو، من أجل دعم حامية القلعة. وبسبب اقتراب الشتاء، فقد عاد إلى صوفيا مجدداً.

وبعد انسحاب العثمانيين، ضرب المجريون حصاراً شديداً على القلعة، غير آبهين بأجواء الشتاء وظروفه القاسية. ورغم محاولات إسكندر بيك للدفاع عن القلعة باستبسال، فقد بدأ من الواضح أنها لن تستطيع مقاومة الحصار لفترة أطول وعلى إثر ذلك فقد أرسل الفاتح، محمود باشا نحو قلعة زفورنيك. ولكن قوات محمود باشا لم تكن قادرة على التقدم بسبب قسوة الشتاء، والثلج الذي كان يسدّ الطرقات. وحين بلوغهم وادي نهر درينا والذي يبعد مسافة ثلاثة أيام سيراً عن مدينة زفورنيك، زادت الأمور سوءاً وصعوبة، فقد كان الطريق الذي تحف به الجبال الشاهقة والصخرية من الجانبين، أضيق من أن يسمح لسير شخصين معاً، كما أن سكان المنطقة أيضاً كانوا يكنّون العداء للجيش العثماني، وكانوا متحالفين مع القوات المجرية.

لذا توقف قادة الجيش عن التقدم، وأخذوا في البحث عن طريق أكثر أماناً، وهذا ما كان سيؤخر وصولهم إلى مدينة زفورنيك، وبالتالي احتمال سقوط القلعة بيد الأعداء. وتقرر في النهاية إرسال خبر إلى حامية القلعة بقرب وصولهم من أجل رفع معنوياتهم.

وقد وكلوا هذه المهمة إلى المارتولوس[1] - الذين كانوا يكنون العداء للمجريين - بعد أن وعدوهم بمنحهم المال وإقطاعات واسعة من الأراضي. ومن ثم بدأوا بالتوجه نحو طريق أكثر أماناً. وقد وصل الرسل من خلال طرق

(1) كانوا فرقاً في الجيش معظمهم من النصارى يعملون في التجسس والمراسلات، ومن ثم تحولوا إلى محاربين.

سرية، ودون أن يراهم أحد، أمام أسوار زفورنيك وسط الظلام، وأخذوا ينادون قادة المدافعين بأسمائهم صائحين: «لمن القلعة؟»

وقد خمّن المدافعون أن هذا الصوت هو صوت صديق، وردوا بالقول:

«إنها أحد معاقل سلطان العالم»

وعلى إثر ذلك أبلغهم الرسل:

«اعملوا كل ما في وسعكم، ولا تسلّموا الحصن، وأظهروا مزيداً من الجلد والشجاعة في هذه الأيام العصيبة، فالصدر الأعظم على وشك الوصول»

واختفوا في الظلام كما ظهروا فجأة، وقد سمع المجريون أيضاً هذه المحادثة، وربما تقصد محمود باشا أن يسمعهم هذه الكلمات، حتى يدّب الذعر والخوف بين صفوفهم. وحتى لو لم يسمع المجريون مجرى المحادثة فأصوات الطبول والأبواق الصادرة عن القلعة كانت تشي بما هو قادم. وعلى الرغم من أن ملك المجر كان قد استبعد احتمال قدوم الجيش العثماني في ظروف الشتاء القاسية تلك، وكان يعلم ما سيحصل تماماً في حال وصولهم واصطدامهم بجيشه المتعب والمنهك، لكنه حاول التقصي عن صحة الخبر، وفي الوقت ذاته أبعد قواته الأساسية عن الأسوار.

ورغم ذلك فقد قام بهجوم أخير على أمل السيطرة على القلعة، ولكن الحامية التي ارتفعت معنوياتها بشكل عظيم بعد الأخبار التي وصلتها، استطاعت صد هذا الهجوم بكل سهولة. وحينها ظهرت القوات العثمانية التي كان محمود باشا قد أرسلها بقيادة علي بيك ميهال أوغلو. وعندما رآهم جواسيس المجر، أبلغوا الملك بالأمر ظناً منهم أنها القوات الأساسية، فعمّ معسكر المهاجمين هرج ومرج كبير. وتركوا مدافعهم وأسلحتهم أمام أسوار القلعة، ليبحثوا عن سبل للنجاة بأرواحهم.

وما نهاية المطامع والتجني
إلا الندامة بعد فوات الأوان

وهكذا انسحب الجيش المجري العرمرم، أمام قوات ميهال أوغلو القليلة وتقهقر في فوضى عارمة. وحين لاحظ ميهال أوغلو ما ألمّ بهم من هلع واضطراب، قام بمهاجمة مقر قيادة الجيش بجرأة، وقد انضمت إليه حامية القلعة التي خرجت لتشارك في القتال، ما أسفر عن هزيمة المجريين هزيمة فادحة.

أما محمود باشا فقد لاحق قوات العدو لمدة ثلاثة أيام دون توقف سوى ليلة واحدة، وقد تعقبوهم حتى نهر سافا، حيث خسر العدو أعداداً هائلة من جنوده. كما أن الكثير منهم غرقوا وهم يحاولون عبور النهر. إلا أن الملك تمكن مع جزء من قواته من النجاة، بعد أن نجحوا في عبور النهر بصعوبة بالغة. وحينها بدأ الجيش العثماني بالعودة.

هذا ما أمرتُ به

استطاع الجيش العثماني استرداد كل القلاع من سيطرة المجر، عدا قلعة يايتسا. لكن الهزيمة التي طالتهم أمام أسوار زفورنيك، منعتهم ولفترة طويلة من لمّ شملهم وتجميع قواتهم.

وقد اتضحت أهمية الخطوة التي اتخذها الفاتح بقتل ملك البوسنة، في الحملة الأخيرة، حيث سمحت له بضم المنطقة برمتها إلى سلطنته. فلو أنه كان لايزال على قيد الحياة، لربما حاول التواصل مع ملك المجر، والتمرد مستغلاً انشغال القوات العثمانية بمعاركها مع المجريين. ولولا اتفاق حاكم الهرسك مع ملك المجر لما استطاع هذا الأخير السيطرة على قلعة يايتسا.

رغم أن الفاتح حين سيطرته على البوسنة، قد أبدى تسامحاً كبيراً مع النصارى الذين يعتنقون مذهب البوغوميل[1] والذين كانوا يعتقدون بأن عيسى

(1) هو مذهب غنوصي ثنوي مركب من حركتي الإصلاح البوليشيانية الأرمينية والكنيسة الأرثوذكسية البلغارية، التي ظهرت في بلغاريا بين 927 و970 وانتشرت داخل الإمبراطورية البيزنطية وروسيا الكييفية وصربيا والبوسنة وكرواتيا وإيطاليا وفرنسا.

عليه السلام هو عبد الله ورسوله. وكانوا يتقاطعون بهذا التصور مع العقيدة الإسلامية. كما أن العثمانيين وعلى خلاف الكاثوليك، قد استحوذوا على قلوب شعب البوسنة، من خلال تسامحهم وإدارتهم العادلة، وضمانهم للحرية الدينية لبقية الشعوب.

وقد كان البوسنيون، بسبب تعرضهم لاضطهاد وظلم الكنيسة الكاثوليكية والملوك الذين يدينون بهذا المذهب بالإضافة للمجريين، مقتنعين أن هذا التسامح والأخلاق الحميدة التي يتصف بها العثمانيون، إنما هي نابعة من دينهم. وهذا ما دفع الشعب برمته لاعتناق الدين الإسلامي.

وقد سرّ الفاتح سروراً عظيماً لهذا الإقبال الشامل الذي أبداه البوسنيون، ودخولهم الدين الإسلامي أفواجاً. وحين سأل الفاتح أعيانهم عما يطلبون، أبدوا رغبتهم في العمل في خدمة الدولة. واعتباراً من ذلك التاريخ قدموا خدمات جليلة للدولة سواء في عملهم في الجيش أو القصر، أو أعمال الدولة الإدارية.

وبناءً على الميثاق الذي منحه الفاتح لرهبان البوسنة، فقد تمّ ضمان حريتهم الدينية واحترامها وعدم المساس بمعتقداتهم، وهذا ما شكل عامل جذب للبوسنيين وبقية شعوب البلقان للإقبال على الدين الإسلامي دون أي إكراه.

وهذا ما جاء في نص الميثاق:

بعون الله

أنا السلطان محمد خان بن السلطان مراد خان

فليعلم كل أفراد الشعب من أعيان وعامة، أن رهبان البوسنة ممن يحملون نسخة عن هذا الفرمان، حرمتهم واجبة، واحترامهم شرط.

ويمنع على الجميع الاقتراب من الرهبان والكنائس المشمولين بهذا الفرمان، أو مسهم بسوء. وسواء كانوا من رعايا سلطنتي، وساكنين على

أراضيهـا، أو مـن الملتجئيـن إليهـا هربـاً من ظلم وجور، فيحـق لهم العيش في أمـن وأمـان فـي أديرتهـم وكنائسـهم. لا أنـا ولا وزرائي، ولا أي فـرد من أفراد شـعبي سـيقدم على التدخل في شـؤونهم أو القيام بإيذائهم. وهذا الأمر يشـمل أرواحهم، وأموالهم، وكنائسـهم، وكل من سـيحضرونه معهم من خارج حدود سلطنتنا.

وأقسـم بـالله خالـق الأرض والسـموات، وبعزة الرسـول العظيـم، وقرآنه الكريم، وبالأنبياء المئة والأربعة والعشرين، وسيفي الذي لا أستلّه إلا في سبيل الله، أن ما من أحد يحق له مخالفة التعليمات التي نص عليها هذا الميثاق طالما بقي الرهبان مخلصين لي بالطاعة وللسلطنة بالولاء».

الثامن والعشـرون من أيار عام ألف وأربعمئة وثمانية وسـبعون، الموافق الأول من محرم عام ثمانمائة وثلاثة وثمانين هجرية.

علاقات العثمانيين بأمراء قرمان

قام إبراهيم بيك قرمان أوغلو، بالمجازفة لآخر مرة في التصدي للسلطنة العثمانيـة، وذلـك بعـد اعتـلاء محمد الثاني للعرش عام ألـف وأربعمئة وواحد وخمسـين، ولكن بفضل وسـاطة وزراء السـلطان اسـتطاع الحفاظ على إمارته. ورغم أنّ الأحقاد التي يكنها الرجل للعثمانيين لم تختفِ، لكنه لم يجرؤ على مواجهة الفاتح بعد أن فتح القسطنطينية، وحاز على مكانة عظيمة في العالمين الإسلامي والغربي. واكتفى بانتهاز الفرص والتحالف مع أعداء السلطنة، سواء في الشرق أو الغرب.

وحين سـيطر الفاتح على أراضي أبناء إسـفنديار، وتوجه نحو سـيفاس من أجل الوصول إلى طرابزون، عرض إبراهيم بيك على إسماعيل بيك إسفنديار أوغلو الالتجاء إلى حماية أوزون حسـن، وإعلان التمرد على السـلطان. حيث ردّ عليه اسماعيل بيك موبخاً:

«هذه الكلمات لا تليق بشخص مسلم، فهي ضرب من النفاق. ذلك أن هذا السلطان المجاهد قد خرج للجهاد، وليس من شيم المسلمين أن نستغل غيابه، ونتآمر عليه»

وهكذا فقد كان إبراهيم بيك، رغم المعاهدات التي تربطه بالسلطنة، يحاول استغلال كل الفرص من أجل النيل منهم، ولكن أياً من هذه الأحداث لم تصل إلى حدود الاصطدام المباشر بين الطرفين.

وبعد وفاة إبراهيم بيك عام ألف وأربعمئة وأربعة وستين، والصراع الذي نشب بين أبنائه للاستيلاء على الحكم، تحولت ممتلكات أمراء قرمان إلى ساحة يتقاسم فيها العثمانيون والمماليك والآق قونيلو السيطرة.

وأدى الصراع الناشب بين إسحاق بيك الذي عينه والده ولياً للعهد قبل وفاته، وبين أخيه بير أحمد الذي تمرّد عليه، إلى فوز الأخير، حيث لجأ إسحاق بيك إلى حماية أوزون حسن. ليبدأ تدخل أوزون حسن في قضية قرمان وشؤونها، حيث أرسل جزءاً كبيراً من قواته لمساعدة إسحاق بيك. وحين أدرك بير أحمد أنه غير قادر على مواجهة قوات الآق قونيلو، ترك بلاده وذهب إلى الفاتح ليحتمي بسلطته. وقد وعد السلطان بير أحمد الذي كان ابن عمته، بتقديم الدعم والمساعدة له.

وحين دخلت قوات أوزون حسن بلاد قرمان، قامت بتدمير وتخريب ونهب كل ما في طريقها، لذا فقد رفض شعب قرمان أن يتولى حكمهم إسحاق بيك، بل مالوا إلى بير أحمد بيك. ورغم محاولات إسحاق بيك عقد الصلح مع السلطان الفاتح، لم يظهر الأخير القبول والموافقة لأنه كان يريد أن تصل حدود سلطنته حتى مدينة جارشمبا.

استطاع أحمد بيك العودة إلى بلاده نتيجة مساعدة ولاة كل من أنطاليا، كارا حيصار، قايسيري، كما ألحق الهزيمة بإسحاق الذي لاقاه في موقع داغ

بازاري، وتمكن من استرجاع كل ممتلكاته خلا سيليفكة[1]، ولم يجد إسحاق بيك من سبيل سوى الهروب واللجوء إلى أوزون حسن مرة أخرى، بعد أن ترك عائلته وواحداً من أبنائه في سيليفكة، وتوفي بعد وقت قصير عام ألف وأربعمئة وأربعة وستين.

ورغم أن بير أحمد قد تنازل عن مناطق آك شهير، بيه شهير وإلغن للدولة العثمانية مقابل مساعدتها له، إلا أنه وقبل مرور وقت طويل بدأ بالانخراط في تحركات معادية. ولم يرق لا للمماليك ولا لـلآق قونيلو انضواء أمراء قرمان تحت سلطة العثمانيين، وبدأوا في التحرك. وقد كان أوزون حسن يشكل خطراً جسيماً بالفعل على السلطنة. وعلى إثر ذلك خرج السلطان على رأس حملة متجهاً نحو الشرق، دون أن يعرف أحد وجهتها الحقيقية، كما أرسل إلى بير أحمد يطلب منه الانضمام إليه على رأس قواته.

وحين وصل الجيش جوار آفيون حيصار، عاد الرسول الذي بعثه السلطان إلى قرمان، لينبئه أن بير أحمد رفض الانصياع لأوامره. ونتيجة لذلك قام السلطان بإرسال محمود باشا إلى قرمان فيما اتجه هو نحو قونيا ليسيطر عليها. ومن ثم استطاع أخذ قلعة كِفيل الحصينة، وإرِغلي. وقد انسحب بير أحمد الذي لاقى الهزيمة على يد محمود باشا، إلى منطقة كاراتاش. ومن ثم توجه نحو أبناء تورغوت الذين كانوا يسببون القلاقل للسلطنة في حملة تأديبية.

أما السلطان الذي كان يرغب في اجتثاث جذور الفساد من قرمان، فقد أمر بتهجير قسم من الأهالي إلى إسطنبول. ولكن محمود باشا المكلف بأداء هذه المهمة، لم يكن راضياً ومقتنعاً بها، لذا فقد ترك قسماً من القرمانيين الذين تقرر تهجيرهم في بلادهم وخاطب البقية بالقول: «القرار ليس بيدي»، محاولاً مواساتهم، حيث دفع هذا التصرف أعداءه للتحرك ضده.

وخرجت إدعاءات تقول إنه ترك الأغنياء منهم بعد أخذ رشاوي كبيرة،

---

(1) منطقة تابعة لمحافظة مرسين في تركيا.

واكتفى بسوق الفقراء. كما أن روم محمد باشا الذي كان من خصومه، ادعى أن بير أحمد تمكن من الهرب بسبب إهمال محمود باشا، لذا فقد تمّ عزله بينما كان في آفيون. أما الفاتح الذي أحضر الأمير مصطفى من ولاية مانيسا، وعينه أميراً على قونيا، فقد عاد إلى إسطنبول.

في هذه الأثناء تمكن بير أحمد بيك وقاسم باشا من جمع قواتهما من جديد بعد انسحاب الجيش العثماني، واسترداد قرمان، وعلى إثر ذلك قام السلطان بإرسال روم محمد باشا عام ألف وأربعمئة وثمانية وستين للقضاء على كل أفراد عائلة قرمان، ومعاقبة كل من هادنهم وحاول مساعدتهم.

ولكن روم محمد باشا اتبع إجراءات شديدة القسوة، وفرض على الشعب دفع ضرائب كبيرة، وقد قتل كل من حاول معارضته. وهذا ما دفع الأهالي إلى تشكيل جبهة ضد العثمانيين. لذا فحين كان متوجهاً نحو فارساكلار[1]، وقع في الكمين الذي نصبه له أويوز بيك، وبالكاد استطاع النجاة بنفسه بعد أن خسر كل قواته. وبسبب فشله في تنفيذ مهامه من جهة، وقسوة تصرفاته إزاء أهالي قرمان من جهة أخرى، فقد تمّ عزله ومن ثم قتله.

وكانت هذه الهزيمة سبباً في تعزيز نفوذ كل من بير أحمد، وقاسم بيك في المنطقة. خاصة الأخير الذي انطلق على رأس جيش مكون من خمسة آلاف محارب نحو أنقرة، حيث قام بنهب وتدمير أطراف المدينة وما جاورها من القرى.

ورغم توجه والي أنقرة؛ سنان بيك الصغير، وقاضيها أمير جلبي على رأس حملة لمحاربة القرمانيين، إلا أنهم وقعوا في كمين نُصِب لهم، وخسروا قواتهم. وقد استشهد القاضي أمير جلبي في منطقة جارشمبا، وبهذا بدأت المشكلة تأخذ أبعاداً خطيرة.

وبعد عودة الفاتح من حملته على وابية، أرسل الصدر الأعظم إسحاق

(1) منطقة تابعة لمحافظة أضنة في تركيا.

باشـا، علـى رأس قـوة ضخمـة لمحاربة كل من؛ تورغـوت أوغلو وآدال أوغلو اللذيـن كانـا يسـاندان أمـراء قرمان في تحركاتهم المعادية. وقد خشـي القرمان من مواجهة الجيش العثماني، وامتنعوا عن مساعدة بير أحمد بيك. فتوجه كل من بير أحمد وقاسـم بيك نحو مملكة الآق قونيلو. وهكذا عاد قسـم كبير من ممتلكاتهم إلى العثمانيين.

وفي العام ألف وأربعمئة وواحد وسـبعين توجه غيديك أحمد باشـا على رأس جيـش، للسـيطرة علـى بقيـة الأراضـي التابعة لولاية قرمان. وقد سـار في البدايـة نحـو إمـارة آلايـي[1] التي تحتل موقعاً مهماً في طريق السـيطرة على بلاد القرمان. وحين أدرك كِلِج أرسلان بيك أن المقاومة لن تكون مجدية، قام بتسليم مفاتيح القلعة للباشا دون أي قتال. وقد قام الباشا بإرساله مع زوجته وابنه إلى السلطان، وما أن رأى كِلِج أرسلان بيك السلطان، حتى ركع أمامه طالباً العفو.

وقد خاطبه السـلطان بالقول: «لا تخف يا كِلِج أرسـلان، فلن يصيبك أي سوء منا. بل وسأمنحك إقطاعية أفضل من تلك التي تركتها».

ومنحه السلطان منطقة كوموتيني[2] مع كل القرى المحيطة بها. وأهدى ابنه وزوجته الأردية السلطانية، ولم يمس أموال خزينته، بل سمح له بأخذها معه.

ورغـم ذلـك فقد قام كِلِج أرسـلان بعد مدة مـن الزمن، بترك ابنه وزوجته وهرب إلى مصر، ومن هناك التجأ إلى أمير الآق قونيلو.

والجاهل حين يغشاه الطمع
عليل لا علاج له ولا دواء
إن أسديت النصح كان سدى
وإن أعنته نابك منه البلاء

---

(1) أحدى إمارت التركمان، تتبع المنطقة لمحافظة آلانيا حالياً.

(2) مدينة يونانية تقع في شمال شرق البلاد ضمن منطقة مقدونيا الشرقية وتراقيا الإدارية، وهي مركز مقاطعة روذوبي.

مـن جهـة أخـرى كان غيديـك أحمد باشـا يواصـل حملته حيث اسـتطاع السـيطرة علـى أهـم الحصـون الموجـودة فـي كل من سـيليفكة وإيجل. وحين استطاعت السلطنة بسط نفوذها على معظم أملاك أمراء قرمان، بدأ أوزون حسن بالتدخـل. فقـد عاثـت قواته التي أرسـلها إلى كل من قرمان ووسـط الأناضول خراباً، وأغرقت البلاد في الدماء. وبدأت الغيوم تتلبد في سماء الشرق مجدداً مع حلول العام ألف وأربعمئة واثنين وسبعين.

المعارك ضد البنادقة

قام البنادقة الذين خسروا في المورا ولـم يتمكنوا من حسم الأمر لصالحهم فـي لسـبوس، بمراسـلة السـلطنة العثمانيـة بحلول عـام ألف وأربعمئة وسـبعة وستين، من أجل عقد اتفاقية سلام. وكانوا يطلبون إعطاءهم جزيرتي كاليمنوس وإمروز، مقابل دفعهم الجزية. أما الفاتح فقد علّق على الأمر بالقول: «إن كانوا يرغبـون فـي عقـد الصلح معي، فليذهبوا وليفكروا في الأمر أكثر»، وأعاد الوفد الذي جاء لمقابلته.

وعلى إثر هذا الرد، ظهرت قواتهم التي كانت تحت قيادة نيكولاس كانالى برفقة أربعين سفينة حربية، وألفي محارب في شمال المورا. وقد ضربوا الحصار على باتراس[1]، بينما توجه كانالى نحو وانية. ومن هناك اتجه مع القوات التي حصل عليها ليقوم باحتلال جزيرتي إمروز وكاليمنوس، ومن ثم قام بمهاجمة إنيز، وبواسـطة السـلالم التي قام ببنائها من أجل تسـلق أسـوار القلعة، تمكن من السيطرة عليها. وقد قام البنادقة باحتفالات عظيمة، مبتهجين بالانتصارات التـي حققوهـا، واحتلالهم للجزر. فقاموا بنهب المدن، وأغرقوها بالدم والنار، وأما من نجا من ضربات سـيوفهم فقد قاموا بأسـره. حيث تعرض قسـم كبير من النساء والأطفال إلى سوء معاملة فظيعة. حتى أنهم لم يظهروا أدنى احترام

(1) –مدينة يونانية تقع في غرب البلاد، وهي عاصمة مقاطعة غرب اليونان الإدارية.

للتعاليم المسيحية، فدنسوا الأماكن المقدسة ودور العبادة. وبالمقابل لم يجبر العثمانيـون سـكان الجزيـرة على تغيير دينهـم، وقد احترموا حرية الرهبان، ولم يمسوهم بسوء.

عاد البنادقة مع الغنائم وألفي أسـير إلى وابية حيث يمكث كانالى، وكان قاضي إنيز أيضاً من بين الأسـرى. وقد حاول كانالى فيما بعد الاسـتيلاء على فوتشـا، ولكنـه اضطـر للعـودة إلى وابية بعد تكبده خسـائر فادحـة. أما البنادقة الذين كانوا يحاصرون باتراس، فقد تفرق شملهم بعد أن أوقعهم عمر بيك بن تورهان أوغلو في كمين محكم. وقد غرق قسـم كبير منهم في البحر، كما تمّ أسر الكثيرين منهم، حيث أرسلهم عمر بيك إلى إسطنبول.

وبالطبع لم يقف السلطان مكتوف اليدين إزاء اعتداءات البنادقة على الجزر، والدمار الذي ألحقوه بإنيز، حيث قام بإرسال محمود باشا على رأس أسطول مكون من مئة وعشـر سـفن حربية وثلاث سـفن للنقل، ومئتي سفينة أخرى نحو جزيرة وابية، وبعد أن اسـتعاد جزيرة كاليمنوس، قام بالسـيطرة على جزيرة سـيروس[1] الواقعـة علـى طريقه، ومن ثم رسـا أمام جزيـرة وابية. ورغم محاولة البنادقة منع الأسطول العثماني من بلوغ الجزيرة لكنهـم لم يُوفقوا. فقد شكلت هذه الجزيرة أهم جزر الأرخبيل التي كان يسيطر عليها البنادقة، بسبب دورها في حماية سواحل المورا التي كان هؤلاء ما زالوا مسيطرين عليها. فكانت مركزاً لانطلاق هجمات البنادقة على السواحل التركية، بالإضافة لكونها ملاذاً لسفن القراصنة. وقد ربطوها مع البر بواسطة جسر، حيث كان فيها العديد من القرى والقلاع. وكان يمكنهم رفع الجسر عند الحاجة، لتصبح الجزيرة آمنة من الهجمات.

وبعد أن وصل الأسطول العثماني إلى ساحل الجزيرة، انطلق الفاتح على رأس جيش مكون من مئة ألف محارب، ليعسـكر قبالتها من جهة البر. فاختار أقـرب نقطـة وقـام بإنشـاء جسـر ليربطها بالبـر، وبعد عمل متواصـل لثلاثة أيام

(1) سيروس جزيرة يونانية في بحر إيجة.

بلياليها انتهى الجسر ونُقلت المدافع.

وهكذا حوصرت الجزيرة براً وبحراً، ولم يبقَ لها سوى منفذ واحد على البحر. ومن أجل إغلاقه كان لا بدّ من الوصول إلى أمام القلعة، والتي كانت خطوة على قدر كبير من الخطورة. ولكن الفاتح اتبع السياسة ذاتها التي اتبعها من قبل أثناء فتح إسطنبول وحصار بلغراد، حيث قام بنقل جزء من أسطوله براً، ليضعه في الطرف المقابل من ساحل الجزيرة. وبدأت المدافع بدّك القلعة من كل الجهات، في حين كان المدافعون يقومون بسدّ الثغرات في أسوار القلعة على الفور، ويستبسلون في الدفاع عنها. ورغم ذلك فإن الخراب بدأ يطال الأسوار مع مرور الوقت بحيث تعذر الإصلاح، وبات واضحاً أن الهجوم العام بات وشيكاً.

في هذا الوقت بالذات وصل زوان لونغو، على رأس أسطول البندقية، من أجل مناصرة القلعة. وهذا ما زاد من جسارة المدافعين ورفع من معنوياتهم، وقد حاول كانالي هدم الجسر الذي بناه الفاتح، لكنه لم يوفق في مسعاه. وأخيراً وصل أسطول البندقية إلى الميناء وبدأ بمهاجمة الأسطول العثماني.

انتهت المعركة التي اشتركت فيها المدافع والبنادق والسهام، لصالح العثمانيين. حيث تمّ إغراق الكثير من سفن أسطول البندقية، وقتل كثير من القادة بمن فيهم زوان لونغو. ورغم كل هذه الخسائر، فقد ظلّ المدافعون يواصلون حماية القلعة، وأخيراً وبعد عشرين يوماً من الحصار، بدأ الهجوم العام في ليلة الحادي عشر من تموز عام ألف وأربعمئة وسبعين من يوم الأربعاء، ومع خيوط الصباح الأولى، كان العلم العثماني يرفرف على أبراج القلعة. وما أن شاهد أسطول البندقية العلم مرفرفاً، حتى غادر المنطقة على وجه السرعة. ورغم أن الطرفين تكبدا كثيراً من الخسائر في المعركة التي حصلت أمام شواطئ الجزيرة، ولكن غلبة العثمانيين أكسبتهم كثيراً من الغنائم والأسرى. ومع سقوط قلعة وابية انصاع كل سكان الجزيرة للسلطة العثمانية.

ولكن الفاتح لم يستطع تجاوز ما قام به البنادقة في إنيز، ولم يكتفِ بالهزيمة التي ألحقها بهم. فقام بإرسال هاس مراد باشا على رأس حملة متجهة نحو الموانئ والمدن التابعة لنفوذ البنادقة في المورا من أجل السيطرة عليها. وقد قام الباشا الذي اصطحب معه جنود روميلي، بتنفيذ أوامر السلطان على خير وجه. فأخذت ضربات المهاجمين تنهال على شواطئ البنادقة كأمواج مزلزلة، ومن ثم أرسل مراد باشا كلاً من داوود باشا وعيسى بيك إسحاق بيه أوغلو نحو قلعة فوستيتزا في المورا، وقد حققت هذه القوات نصراً باهراً عند التحامها مع البنادقة. وعلى وجه الخصوص داوود باشا الذي أصيب بجرح أثناء المعركة، ولكنه بدل الخلود للراحة في خيمته، قام بملاحقة البنادقة حين سمع بأنهم يتجهون نحو الشاطئ أملاً في الفرار، فقضى على قسم كبير منهم، كما تمكن من أسر أعداد هائلة، وقد سيطروا على القلعة قبل وصول مراد باشا.

لقد كان لسيطرة العثمانيين على جزيرة وابية وقع الصدمة على العالم الغربي، وقد استاء فرديناند ملك نابولي الذي كان حليف العثمانيين، من الرسالة التي أرسلها إليه الفاتح ليبلغه بفتح الجزيرة. فردّ عليه برسالة في الرابع من أيلول العام ألف وأربعمئة وسبعين، يبلغه فيها أنه سينسحب من تحالفه مع العثمانيين وسيقف من الآن فصاعداً إلى جانب البنادقة. فهو لا يستطيع حبس دموعه، إزاء تنبؤات الكل بمن فيهم النبلاء، بأن الصليب سيُسحل على الأرض في عاصمة الديانة المسيحية روما. أما البنادقة فقد كان حزنهم العارم مأتمياً، فكانت المآتم في كل مكان. ولكن كل هذه الكوارث لم تكن كافية لتوحيد شعوب إيطاليا.

أبرم كل من ملك نابولي وملك البندقية في العام ألف وأربعمئة وواحد وسبعين، في ليلة رأس السنة، اتفاقية ضد العثمانيين. كما أعلن دوق بورغونيا شارل الجريء في الثامن عشر من حزيران العام ألف وأربعمئة واثنين وسبعين انضمامه لهذا الاتفاق. وقبل مضي وقت طويل كانت كل من قبرص ورودوس أيضاً قد انضمتا للحلف.

ومع حلول العام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين كانت قوات كل من دولة الآق قوينلو، قرمان، البندقية، الفاتيكان، نابولي، بورغونيا، سكلافونيا، قبرص ورودوس، مستعدة لبدء التحرك ضد العثمانيين. أما بالنسبة إلى الفاتح، فقد كانت الأولوية هي القضاء على أوزون حسن، وذلك لأسباب كثيرة..

أوزون حسن (حسن الطويل)

- كان مزهواً بطول قامته، وهو حاكم دولة الآق قوينلو، حفيد عثمان قره يولك، وابن جلال الدين علي بيك. ولد في العام ألف وأربعمئة وثلاثة وعشرين في ديار بكر. وقد نال تعليماً عالياً، بحيث تولى إدارة منطقة بيره جيك[1] وهو لايزال فتىً في الرابعة عشرة من عمره. في تلك الأثناء كان أخوه جيهان غير، قد دخل في صراع مع عمه حمزة بيك أمير الآق قوينلو، وقد استطاع الشقيقان الانتصار على العم بعد تحالفهما معاً. وحين أدرك الأخير أنه غير قادر على هزيمة ابني أخيه، أنهى الصراع بتزويج ابنته من جيهان غير.

وبعد وفاة حمزة بيك، اعتلى جيهان غير عرش الآق قوينلو، ومنذ بداية توليه العرش دخل في صراع حاد مع أعمامه محمود والشيخ حسن، وقاسم بيك، بالإضافة لأبناء عمومته، ولكن مع تدخل أوزون حسن مجدّداً في الصراع لصالح أخيه كانت الغلبة لهما، فمنحه الأخير منطقة إرغاني[2] مكافأة له على نصرته.

وخلال الصراع الذي نشب مع مملكة القره قوينلو، في العام ألف وأربعمئة وخمسين، وبعد حروب دامت لمدة عامين، انضوى جيهان غير تحت سلطة جيهان شاه حاكم القره قوينلو، بعد انتصار الأخير عليه. ولكن أوزون حسن لم يعترف بالصلح المبرم بين مملكتي الآق قوينلو والقره قوينلو، لذا دخل في صراع مع أخيه. وقد استغل الصراع الناشب بين أخيه والشيخ حسن حاكم

(1) مدينة في محافظة أورفا جنوب شرق تركيا.

(2) إحدى مدن محافظة ديار بكر.

جميش كزِك[1]، فأسرع على رأس قواته إلى ديار بكر، حيث أعلن نفسه حاكماً. وحين أدرك أخوه أنه غير قادر على مواجهته لوحده، عقد اتفاقاً مع العدو اللدود لمملكته وهم القره قوينلو، من أجل مساعدته في صراعه ضد أخيه.

وقد قام جيهان شاه، في العام ألف وأربعمئة وسبعة وخمسين، بإرسال قوات كبيرة برفقة كل من القادة بيري، سافالان، رستم، شاه حاجي، غافِرودي، وعلي شكر بيك، لمساعدة جيهان غير ميرزا. فاستطاع أوزون حسن إلحاق هزيمة ساحقة بهذه القوات بالقرب من ديار بكر. وفي نهاية المعركة التي أسفرت عن مقتل الكثير من قادة الطرفين، وأسر العديد من جيش القره قوينلو، بالكاد استطاع جيهان غير ميرزا النجاة بنفسه من الموت.

وبهذا النصر جمع أوزون حسن كل التركمان الآق قوينلو تحت حكمه. أما جيهان غير ميرزا فقد أعلن تبعيّته لشقيقه، بعد أن أرسله ابنه علي حسن ميرزا ليبقى في قصر أوزون حسن، وظل صادقاً على ولائه لأخيه حتى وفاته العام ألف وأربعمئة وتسعة وستين.

كما تمكن أوزون حسن من فرض سيطرته على كل أشقائه الذين اعترفوا بحكمه. ومن ثمّ قام بضم إرزينجان أيضاً، وفتح الطريق أمام مملكة الآق قوينلو، لتتحول إلى إمبراطورية كبيرة. كما أجبر دول قادر أرسلان بيك على الانسحاب، بعد الهزيمة التي ألحقها بأمراء قرمان عام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين.

وفي الحملة التي انطلق فيها نحو جورجيا، عام ألف وأربعمئة وتسعة وخمسين، استطاع فتح ست قلاع، وفي طريق عودته قام بالقضاء على أمراء آلايي الذين كانوا يدّعون انحدارهم من السلجوقيين.

وبهذا تحولت الآق قوينلو إلى جارة قوية للسلطنة العثمانية، تبني طموحاتها على أساس القضاء عليها وضمها إلى مملكتها. ومن أجل تحقيق غايتها، قامت

---

(1) منطقة تابعة لمحافظة تونجالي شرق الأناضول.

بعقد اتفاق مع أمراء قرمان، وأبناء إسفنديار في الأناضول، ومع جمهورية البندقية أيضاً، كما عقدت صداقة قوية مع إمبراطور طرابزون يوحنا الرابع بعد زواج أوزون حسن من ابنته كاترينا، والذي وعد كل هذه الأطراف بحمايتهم أثناء محاربتهم العثمانيين، وكان ذلك في العام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين.

ورغم أنه لم يتمكن من منع الفاتح من السيطرة على طرابزون العام ألف وأربعمئة واثنين وستين، فقد واصل تحقيق انتصاراته على بقية الجبهات. ففي العام ألف وأربعمئة واثنين وستين، عاد ظافراً من حملته الثانية على جورجيا، وفي العام ذاته قام بفتح مدينة حصن كهف[1]، وأنهى حكم الأيوبيين فيها. كما استولى على قلعة بربر[2] سنة ألف وأربعمئة وثلاثة وستين. وقد تدخل في صراع العرش الناشب بين أمراء قرمان عام ألف وأربعمئة وأربعة وستين، ورغم ذلك لم يعارض استيلاء بير أحمد والذي كان السلطان الفاتح يدعمه، على العرش.

أما سنة ألف وأربعمئة وخمسة وستين، فقد توجه على رأس حملة إلى الإمارة الدول قادرية، واستطاع إلحاق الهزيمة بأرسلان بيك، وتقدم حتى البستان[3] مركز الحكومة، وتمكن من الاستيلاء على هاربوت[4]. وانتهى الصراع بعقد الصلح على أساس بقاء هاربوت تحت حكم الآق قوينلو.

ومع حلول العام ألف وأربعمئة وسبعة وستين، توجه أوزون حسن على رأس جيشه لملاقاة ألد أعدائه وهو جيهان شاه حاكم القره قونلو الذي كان يسيطر على كل أراضي إيران عدا خراسان، والعراق والخليج الفارسي، وهراة ووصولا لبحيرة وان في الأناضول. وقد جاءت الحملة في فصل الشتاء، حيث كان جيهان شاه قد سرّح قسماً كبيراً من جنوده من الخدمة، بسبب قسوة

(1) أو حسن كيف: مدينة تاريخية على ضفاف دجلة، تتبع محافظة باطمان.

(2) قلعة تاريخية تابعة لمحافظة أدیامان.

(3) مدينة تاريخية في محافظة مرعش التركية.

(4) أو خربوت، مدينة تاريخية على ضفاف الفرات تتبع لمحافظة إلازيغ في تركيا.

الظروف المناخية. فهاجم قصر جيهان شاه مع ستة آلاف من خيرة قواته، وقتله مع كل أفراد بطانته.

وفي السنة التالية وبعد الهزيمة التي ألحقها بحسن علي بيك بن جيهان شاه، حاكم همذان، تمكن من القضاء على دولة القره قوينلو بشكل نهائي، وسيطر على إيران وعلى قسم من العراق. وقد لجأ حسن علي بيك القره قوينلو إلى التيموريين ليطلب المساعدة من أبي سعيد خان، وقد قام أبو سعيد حاكم بلاد ما وراء النهر[1] وخراسان، بالانطلاق على رأس جيش كبير نحو أذربيجان، قاصداً بلاد الآق قوينلو.

ولكن أوزون حسن تمكن من خلال هجوم مفاجئ على جيش بلاد ما وراء النهر الذي كان يعسكر في سفوح جبال قره باغ[2]، بالقرب من ضفة نهر أراس[3]، أن يقضي عليه ويشتت شمله. كما قام بقتل أبي سعيد خان، وذلك سنة ألف وأربعمئة وتسعة وأربعين. وبذلك امتدّ نفوذه حتى خراسان.

واستبد الغرور بأوزون حسن الذي تمكن من القضاء على أبي سعيد خان أحد أقوى حكام المنطقة، فأخذ يصول ويجول مختالاً، ويردد لمرافقيه وبطانته:

«لقد شهد كل من في المنطقة على شجاعتي وبأسي، وحين يأتي الوقت المناسب، سيدرك حتى السلطان العثماني مدى قوتي»..

هجوم توكات ومعركة كِرلي

بدأ أوزون حسن يحاصر السلطنة العثمانية من كل الجهات، فمن جهة كان قد عقد تحالفات كثيرة مع الدول الغربية، ومن جهة أخرى بدأ بالتدخل في شؤون إمارة قرمان. حيث بعث بأميري قرمان بير أحمد بيك وقاسم بيك، اللذين

(1) هي منطقة تاريخية وجزء من آسيا الوسطى، تشمل أراضيها أفغانستان والجزء الجنوب الغربي من كازاخستان.

(2) إقليم جبلي في جنوب القوقاز، استقل ليشكل جمهورية مرتفعات قره باخ.

(3) يمر بتركيا، أرمينيا، أذربيجان وإيران ويعتبر من أكبر أنهار القوقاز.

لجـآ إليـه إلـى المنطقـة علـى رأس قوة مكونة من مئة وخمسـين ألف محارب. وفي عام ألف وأربعمئة واثنين وسبعين، أرسل جيشاً قوامه ثلاثون ألف مقاتل بقيادة عمر بيك بيكتاش أوغلو إلى بلاد القرمان، وكان ابن عمه يوسـف ميرزا أيضاً يرافق هذا الجيش. وقد قام الآق قوينلو بإرسال رسل إلى كل من الأمير بيازيد الذي كان والي أماسـيا، وحمزة بيك والي ولاة روميلي الذي كان يقيم في توكات، ليبلغاهما أنهم ينوون أن يعيدوا لدول قادر كليج أرسـلان أوغلو، مُلك أجداده. وقد فاجأوا بهجماتهم قوات الحدود العثمانية.

وبـدأت قـوات الآق قوينلـو بأعمـال النهب والسـلب والتدميـر ابتداء من منطقـة سـيفاس ومـا تلاهـا، والهجوم على توكات بشـكل مفاجئ. وقد عاملوا الناس بقسوة بالغة، وقتلوا كل من وقف في وجههم. ووصف خوجا سعد الدين أفندي المظالم التي جرت في توكات على الشكل التالي:

«لقـد عاثـوا خرابـاً ودمـاراً في البـلاد وأعملوا القتل في العبـاد، وهاجموا مدينة توكات بشكل مفاجئ، حيث قتلوا العائلات النبيلة، وأغرقوا السكان في الفوضـى والدمـار والدمـاء. ولأن معظم بيوت المدينة كانت مصنوعة من اللبن والحجارة فقد أضرموا فيها النيران دون رحمة. فتحول أغنياء المدينة إلى فقراء مشردين، جراء أعمالهم، حتى أنهم باتوا يفترشون الأرض، ويتوّسدون الحجارة للنوم. وكما القلوب التي أحرقوها بنيران الفراق والقهر، كذلك صفحات الكتب والمخطوطات العلمية كانت تحترق بالنيران التي باتت تلتهم كل شـيء، حتى المـدارس والجوامـع، وأصبحـت معالم العمران فـي المدينة مجرد ذكريات لا أثر لها»..

وبعد أن نهبوا المناطق القريبة من سيفاس وكازوفا[1]، قاموا بالهجوم على قيصري[2]، وعادت القوات التي تحت إمرة عمر بيك إلى موطنها، فيما اتجهت

(1) منطقة سهلية تقع في محافظة توكات.

(2) إحدى محافظات تركيا.

القوات التي كان يوسف ميرزا يقودها نحو بلاد قرمان، وأخذت تتقدّم، بعد أن اتحدت مع قوات قرمان، حيث كانت لا تترك وراءها سوى الخراب والموت. فانتقلوا من الحميد إلى كِرلي، وهم يواصلون السلب والنهب والقتل. وفي تلك الأثناء قام والي قونيا الأمير مصطفى، بالتوجه لملاقاتهم على رأس قوات الأناضول، متجهاً من يالافاج[1] نحو كِرلي.

انقضّت قوات الأمير مصطفى على قوات الآق قوينلو والقرمانيين المشتركة التي كانت تهاجم المدن والمناطق الضعيفة التي تفتقر الحماية كالبرق، وأعملت في رقاب جنودهم السيف بحزم ورشاقة، بحيث كانت تلوح كبروق خاطفة. فذابت قوة جيش الآق قوينلو كما تذوب الشمعة أمام وهج النيران، وتحولت عزائمهم إلى مجرد غبار ذرته الرياح، وتخبطوا في مكانهم لا يعلمون إلى أين يمكنهم الفرار. وفقد الكثير منهم حياته تحت ضربات السيوف أو السهام، وأما أعداد الأسرى فقد كانت تفوق الحسبان، وبالكاد استطاع عدد ضئيل منهم النجاة بروحه، وقد كان قائدهم يوسف ميرزا بين قافلة الأسرى. أما بير أحمد فقد تمكن بصعوبة بالغة من النجاة، والفرار مجدداً ليحتمي بأوزون حسن.

ونتيجة لهذا النصر الكبير توجّه خوجا سعد الدين أفندي بالنصح لأعداء السلطنة قائلاً:

من يرفع السيف في وجه السلطان
فقد ضلّ السبيل وحالف الخذلان
فإن كنت ترنو إلى المجد والعلى
فليس لك سوى حِمى السلطان
وإن كنت تبغي في الحياة سكينة
فدعك إذاً من راية العصيان
فهو في سبيل الله خير مجاهد

(1) مدينة تابعة لمحافظة إسبرطة.

فاقتدِ به على درب الإيمان

وإن كنت تريد العيش في سلام

فادعُ لهم بأخلص الأماني

من جهة أخرى وفي ذلك العام قام أوزون حسن بحملته الثالثة على جورجيا، حيث استطاع بسط سيطرته على مناطق كثيرة بما فيها تفليس، ووضع الأمير الجورجي تحت نفوذه.

أما السلطان الفاتح فقد أسف كثيراً واحتدّ غضباً، حين سمع بأخبار دخول قوات الآق قوينلو أراضي قرمان والدمار الذي لحق بتوكات. وكان يريد تعيين شخص أكثر حنكة ومهارة على رأس الجيش، فقام بإعادة تنصيب محمود باشا صدراً أعظم. ولكن الأخير لم يكن من مناصري الخروج في حملة على الفور، وقد برر ذلك للسلطان قائلاً:

«إن كان الهدف من الحملة، تأديب أوزون حسن فذلك لن يكون ممكن التحقيق. ذلك لأن الجيش حين يبلغ بلاد القرمان، سيكون الشتاء قد حلّ، وسيصبح من الصعوبة بمكان التقدم أكثر، كما سنكابد مشقة كبيرة في إطعام الجيش. أما إن كان الهدف سحق قواته، فالأمير مصطفى والي قوينا، قادر على فعل ذلك في أي وقت تأمرون به، وكل ما يحتاجه قوات إضافية لدعمه. لذا أقترح أن نبدأ في التحضير للحملة، وننتظر قدوم الربيع».

وقد اقتنع السلطان بكلمات محمود باشا، ولكنه لم يجلب خيمته من أوسكودار، وهذا كان يشير إلى أنه مصرّ على تنفيذ قراره فيما بعد.

وفيما كان السلطان منشغلاً بالتحضير للحملة القادمة، استجمع أوزون حسن شجاعته كلها، وأرسل خطاباً إلى السلطان يطلب منه الانسحاب من منطقتي كابادوكيا وطرابزون على الفور، لتصبح تحت سيطرته.

وفي رسالة أخرى مرسلة باسم حمزة بيك ولكن دون معرفة تاريخ إرسالها، تمّ التطرق إلى مقارنة بين أوزون حسن وتيمورلنك، لتؤكد على قوة

الأول وتفوقه، وتثبت عجز الفاتح والقوات العثمانية أمامه. وبحسب الرسالة فالفرق بين تيمورلنك وأوزون حسن هو كالتالي: حين يقوم تيمورلنك بحصار قلعة ما، يعجز عن ذلك حتى وهو على رأس قواته، ولكن جندياً واحداً من جنود أوزون حسن يستطيع تحقيق ذلك بفضلٍ من الله وعونه. كما أنّ تيمورلنك يتصف بالخشونة والجلف بحيث ينفر منه الناس على عكس أوزون حسن. بالإضافة إلى أنّ تيمورلنك هو ابن شخص عادي، في حين أنّ أوزون حسن عريق الأصل سليل الحسب والنسب، يداني السلاطين، ويرأف بكل من يطلب عونه ومساعدته، ويجير كل من يلجأ إليه، وقد مدّ كل من أمراء قرمان، وأبناء إسفنديار ودول قادر أوغلو، وإينان أوغلو وحكام بوزجا، وبازولو بيه أوغلو وأبناء توزان، بالعون مادياً ومعنوياً، أما تيمورلنك فلم يفعل أياً من ذلك.

وتواصل الرسالة التعظيم من شأن أوزون حسن، في مقابل تسفيه تيمورلنك، وفي النهاية تشير إلى وجوب دوام الصداقة بين السلطان وأوزون حسن، وعقد الصلح بين الطرفين.

ولا بد أنّ هذه الرسالة كان ترمي إلى تثبيط همة العثمانيين، وذلك على عادة الدول التركية في الشرق، والتي إن دخلت في صراع مع العثمانيين، تقوم بتذكيرهم بهزيمتهم أمام تيمورلنك في معركة أنقرة.

أتعتقد أن السلطنة في تدمير البلاد ونهبها؟

قام الفاتح ولأول مرة بتجاوز قانونه في السرية والتكتم، حيث أرسل إلى أوزون حسن رسالة يبلغه فيها بالاستعداد، لأنه سيسير على رأس حملة في الربيع القادم ليغير عليه.

وبعد أن ذكره الفاتح في الرسالة، بأن القدرة والقوة المطلقة هي لله عز وجل وحده، تابع على النحو التالي:

«لقد نجوت من مغبة غضبنا وانتقامنا في المرة السابقة، بعد توسلات

والدتـك، واعتقدنـا حينهـا أنـك عدت لجادة الصواب، وسـتبدأ فـي اتباع نهج الصلاح والعدل في البلاد، لذا فقد عفونا عنك. ولكن وجود حاكم ظالم مثلك يدّعي أحقيته في الحكم والسـلطة، أثناء فترة حكمي، لهو أمر حرام ومحظور. ولتعلـم أنّ السـلطة والمجـد اللذيـن تفاخـر بهما أنت وأمثالـك، في حين أنكم تنتهجـون العنـف والشـدة للحفـاظ عليهمـا، إنمـا هو بسـبب عفونا وتسـامحنا اتجاهكم ليس إلا. ورغم ذلك فقد أصابك الغرور، ونسيت ما عليك من واجب وحرمة اتجاه سلطنتي وسلطتي، فقمت بإرسال قواتك لتعيث خرابا وتدميراً في تـوكات التـي كانـت تنعم بالرفاه والأمان تحـت ظل حكمي، وتقتلَ وتنهب في بلاد القرمان، بحيث فاض الظلم والدمار في كل مكان.

لـذا فقـد قررنـا التوجّـه لمعاقبتـك مـا إن يقبـل الربيع، ولا نيـة لدينا على الإطلاق بالعفو عنك، لذا لا تتكبد عناء المحاولة. ومن الآن فصاعداً، ستحل السـهام والسـيوف بـدل الكلمـات بيننـا. أتعتقـد بـأن السـلطنة في نهـب البلاد وتدميرها؟ ولكن سيوفنا التي ستنغرز عميقاً في صدرك، ستكون أفضل عقاب لـك علـى جرأتـك واعتدائـك على أراضينا. فإن كنت شـجاعاً حقـاً فقابلنا في الميدان، ولا تحاول الاحتماء في الجحور كما الجبناء. وقم بإعداد العدة، ولا تتـذرع بأننـا لـم نعلمـك بنوايانا. ذلك أن بقاءك حياً هو ضـرر وإضرار بالحياة. وقد أُعذر من أنذر»..

كان الفاتح في تلك الفترة في حالة حرب مع البنادقة حلفاء الآق قوينلو، والمجريين أيضاً. وإزاء إنذاره بالحرب، فقد دخل الحلفاء في نشـاط محموم، حيث كان الرسل يواصلون التنقل بينهم، لمناقشة أبعاد التحالفات، والتحضير لما هو آت، كما أنّ الأسطول الصليبي أيضاً بدأ بالاستعداد لشن الهجوم على العثمانيين.

تحرك الجيش العثماني من أوسكودار في شهر آذار من العام ألف وأربعمئة وثلاثة وسـبعين تحت قيادة الفاتح. وحين وصل إلى بورصة، انضم إليه والي

ولاة روميلـي هـاس مـراد باشـا، مـع قواتـه. وقد تمّ تكليف الأميـر جِم بحماية روميلي، حيث أُرسل إلى إدرنة.

التحـق كل مـن الأميـر مصطفـى والـي قرمـان بالجيـش فـي بيـه بـازار، فيمـا التحـق الأميـر بيازيـد والـي أماسـيا بالجيـش فـي كازابـات. وبـذا فقـد ارتفـع تعـداد جيـش السـلطان ليبلـغ خمسـة وثمانيـن ألـف محـارب. كان سـتون ألفـاً منهـم مـن المحاربيـن المدجّجيـن بالـدروع والسـلاح، فيمـا كان الخمسـة والعشـرون ألفـاً الباقـون مـن الإنكشـارية. وفـي مقابـل الدمـار والخـراب الـذي ألحقه جيش أوزون حسـن بتـوكات، قام السلطان بإرسال قسم من محاربي روميلي تحت قيادة علي بيك ميهال أوغلو، لشن هجوم على أراضي أوزون حسن، وجمع المعلومات والأخبار.

وحين دخل الجيش سيفاس، قابله أهالي المدينة بالترحاب والتهليل. وهنا قـام السـلطان بالاجتمـاع بقادة جيشـه من جديد، وكشـف عن قيـادات الجيش وكيفيـة تقسـيمه. فوضـع الميمنة تحت قيـادة الأمير بيازيد، ووضع تحت إمرته والـي ولاة روميلـي، هـاس مـراد باشـا، وأربعين من ولاة السـناجق، وخصص لهذا القسم عشرين ألفاً من جنود روميلي. ووضعت الميسرة تحت إمرة الأمير مصطفى، وكان والي ولاة الأناضول داوود باشا بالإضافة لأربعة وعشرين من ولاة السناجق وعشرين ألفاً من الجنود المدجّجين بالعتاد الكامل، تحت إمرته.

أما السـلطان فقد كان في قلب الجيش، تسـير أمامه القوات الإنكشـارية، وعلى يمينه ويساره الفرسان والجنود.

وحيـن بـدأ الجيش بالتحرك من سـيفاس، كُلف والـي ولاة روميلي هاس مراد باشا بالسير في المقدمة مع قواته، وكان يتبعه والي ولاة الأناضول داوود باشـا، وقد أصبح الطريق شـديد الوعورة صعب المسـالك، مما عسّـر كثيراً من مهمة تقدمهم، حتى أنهم واجهوا بعض العواصف الثلجية أثناء رحلتهم.

وحين بلغوا شبين قره حيصار[1]، عرض الصدر الأعظم محمود باشا على السلطان:

«مولاي وسلطاني العظيم! دعنا نفتح هذا الحصن، لرفع معنويات الجند، ولنردّ للعدو بعضاً مما فعله في بلادنا»..

ولكن السلطان أجابه بالقول:

«أيـا محمـود، مالـي ومال هذا الحصن، أنا أتيـت لملاقاة عدوي، فاعثروا عليه»..

وكان رداً حكيمـاً مـن السـلطان، مـن أجـل عدم التشـتت وإضاعة الهدف الأساسي.

مرادنا سحق العدو دون هوادة أو انتظار

ولن تشغلنا عنه هذه القلعة أو ذاك الحيصار

وقـد بلغـوا إرزينجـان، دون أن يظهـر أثـر للعـدو. ودرءاً للتعرض لهجوم مفاجئ وتحسباً لأي طارئ، بدأ الجيش بأخذ التشكيلة الحربية ومن ثم واصل تقدمه. وبعد أن اجتاز إرزينجان، سار باتجاه وادي الفرات نحو تِرجان[2]. وفي الأول من آب من عام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين، التقى الفاتح بجيش أوزون حسـن لأول مرة. وحين رأى الأخير المدافع والبنادق التي تسـلح بها الجيش الذي كان يسـير وفق تنظيم وتخطيط بارع، تسـاءل في دهشـة: «أيا ابن عثمان، ما هذا البحر الهادر؟»..

الكمين

كان نهر الفرات شديد الاتساع في هذه المنطقة، وتغطي بعض البقاع من ضفتيه كثبان رملية، وعلى إحدى تلك الضفاف خيّم السلطان وجيشه، مفترضاً

(1) بلدة تقع في محافظة غيرسون المطلة على البحر الأسود شمال تركيا.

(2) منطقة تابعة لمحافظة إرزينجان.

أنّ جيش أوزون حسـن الذي كان يقيم في مكان قريب، سيخيم قبالتهم أيضاً. ولكن قواته انسحبت من المنطقة بعد فترة قصيرة.

فقـام السـلطان– بالإضافـة لقـوة المحاربين التي كان قد أرسـلها سـابقاً– بإرسـال قوة مكونة من خمسـين ألف جندي تحت قيادة محمود باشـا ووالي ولاة روميلي هاس مراد باشا، وذلك لتمهيد الطريق أمام بقية الجيش. ولأنه كان يعرف أنّ شـجاعة مراد باشـا وجرأته تبلغ أحياناً حدود التهور، فقد قام بتحذير محمود باشا، لكي يظل متيقظاً في مراقبته، ولا يسمح له بخطوة متهورة تصب في مصلحة العدو.

وبعد أن تجاوز الصدر الأعظم ووالي ولاة روميلي نهر الفرات إلى الضفة المقابلة، وقبل مرور وقت طويل، بدأت الخلافات في وجهات النظر تبرز بين الطرفين. حيث اعتبر محمود باشـا انسـحاب قوات أوزون حسـن كميناً، وأكدّ علـى مـراد باشـا البقـاء في مكانـه، بينما انطلق هو إلى الأمـام. أما بعض القادة ممـن كانـوا تحـت إمـرة مراد باشـا، فقـد اعتبروا الأمر مجـرد حيلة من محمود باشـا، لينسـب النصر لنفسـه، وأصروا على ضرورة التقدم. معتقدين أنّ وجود علي بيك ميهال أوغلو مع قواته في المقدمة، يجعل بقاءهم في مكانهم مجرد مضيعة للوقت.

وفيما انطلق مراد باشا مع قواته، التقى محمود باشا بعلي بيك ميهال أوغلو الذي كان يعود منسـحبا. حيث أخبره بأن أعداد العدو الذي يعسـكر في منطقة سـلطانية كبيـرة جـداً، وبنـاء على هذه الخبر عاد كلاهما، ليفاجئ محمود باشـا بمغادرة مراد باشا لموقعه.

في تلك الأثناء كان مراد يسير مع قواته على وجه السرعة لملاحقة طلائع الآق قوينلو التي انسـحبت، وبدا وكأنها خائفة مكسـورة في تراجعها. وهذا ما شـجع مراد باشـا– الذي كان شـاباً في مقتبل العمر، شـديد الشـجاعة والتهور– فأخـذ يلاحقهـم دون حـذر، أو تدبيـر. وفـي تلك الأثناء خـرج محاربو أوزون

حسن من الغابة التي تقع على يسارهم، وأخذوا يغيرون على قوات مراد باشا التـي بـدأت تتجـه نحـو النهر من أجل التراجع وإيجـاد مخرج ما، ولكن العدو أغلـق كافـة المنافـذ وأحـاط بهم من الجهات كلها. حينها فقط أدرك مراد باشـا أنهم وقعوا في كمين محكم، ولم يجد أمامه من بدٌّ سوى القتال والمواجهة.

وقد حاول الباشـا القتال بكل قوة لإخراج جنوده- البالغ عددهم خمسـة عشر ألف مقاتل من خيرة جنود روميلي- من هذا الفخ، في حين كانت قوات الآق قوينلو والتي يترأسها كل من خورشيد بيك، وخليل بيك، وأوغرلو محمد بيك تناهز الستين ألف محارب، وقد وقعت معركة شديدة الوطء بين الطرفين. وبعد ثلاث سـاعات من القتال العنيف هُزم الجيش العثماني، واستشـهد مراد باشـا الـذي وقـع عـن ظهر حصانه سـت مرات، ولكنـه كان ينهض في كل مرة مستجمعاً قواه ليغير على العدو بعزيمة أكبر. أما من حاول الانسحاب والفرار، فقد اتجه نحو الفرات وألقى بنفسه في مياه النهر الذي ابتلع أعداداً كبيرة منهم. وقد خسـر الجيش عشـرة آلاف محارب، فإضافة لمراد باشـا، استشـهد الكثير من قادة جيش روميلي ومحاربيه الصناديد، كما تمّ أسـر عدد كبير منهم برفقة جنودهـم، وكان مـن بينهـم عمـر بيك بن تورهان بيك الذي برز نجمه أثناء فتح المورا، وحاجي بيك أيدن أوغلو، وأحمد جلبي خازن مالية روميلي حفيد الملا شمس الدين فناري..

أمـا محمـود باشـا فلـم يحرك سـاكناً، وتفرج على هـذه المعركة من بعيد، وقيل إنه انسـحب مبتعداً، وقد التقى ببعض من قوات أوزون حسـن، وحدثت مناوشات بينهما، ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة، كما أنّ حلول الظلام أدى لانسحاب الطرفين، حيث قام كل فريق من خلال صوت الطبول ونفيخ الأبواق، بجمع من تشتت من جنودهم، وعادوا إلى مواقعهم.

وقد اغتمّ السلطان كثيراً بسبب خسارته لقسم كبير من خيرة قوات روميلي التي كانت تحت قيادة مراد باشـا. فعين محمود باشـا مكانه، ليكون والي ولاة

روميلي. وقام على الفور بإعادة تنسيق صفوف الجيش، وتنظيمها، ولكن قوات أوزون حسن عادت للاختفاء مجدداً، بعد انسحابها.

لقد نلتُ من ابن عثمان

أدى النصر الذي حققه جيش الآق قوينلو على قوات مراد باشا، إلى رفع معنوياتهم بصورة كبيرة، وباتوا أكثر يقيناً من إحرازهم النصر على العثمانيين. وقد طلب أوغرلو محمد بيك بن أوزون حسن الذي استطاع القضاء على جيش مراد، من والده استغلال الأمر والهجوم على الجيش العثماني دون إضاعة الوقت، ولكن الوالد ظلّ مصراً على رفضه، وأمر بالانسحاب، ومن المرجح أنه أضاع على نفسه فرصة كبيرة..

ويحسب ما رواه عمر بيك بن تورهان بيك، أن أوزون حسن أمر بإعداد احتفالات كبيرة بمناسبة النصر الذي حققه جيشه على قوات مراد باشا. وكان بادي الفرح والاغتباط مع قادة جيشه وهم يحتفلون ويأكلون ويشربون، ويحيكون في الآن كفن السلطان العثماني.

وقد التفت أوزون حسن نحو عمر بيك الذي كان حاضراً على هذه الأحاديث، وخاطبه بالقول:

«عمر بيك! لقد نلت من ابن عثمان، ذلك أن جيوشه في لحظات الضيق والحرج، كانت تعتمد على قوات روميلي المعروفة بشجاعتها، من أجل الخلاص. وقد تمكن جنودي من القضاء على هؤلاء المحاربين واجتثاثهم كما العشب من الأرض. وها أنا أرى نفسي منذ الآن وقد اعتليت عرش روميلي وأصبح قصر الإمبراطور لي»..

ولكن عمر بيك ردّ عليه قائلاً:

«مولاي، ما الضير في فقدان قطرة من بحر السلطان؟ وأي خسارة في فقدان نجمة من قبة سماء مليئة بالنجوم؟ فتحت إمرة سلطاننا مئات الآلاف

من المحاربين الشجعان، والقادة الصناديد مثلي، ومثل مراد باشا، ولن يغير من سير الأمور شيء، إن رحل بعض من رعايا السلطان وأتباعه، فلن تغيب شمسه التي تفيض على العالم نوراً ومجداً. وهو الحاكم العادل المنصف الذي يحظى برعاية الباري عز وجلّ وعطفه. وتيقن أن من ينصاع لسلطته وينضوي تحت لوائه، هو فقط من سينجو من الهلاك..»

وقد استاء أوزون حسن من هذه الكلمات كثيراً، واحتدّ غاضباً وهو يقول:

«انظروا إلى ما يقوله وهو أسير لدينا؟.. إن كلماته تفيض سماً، اقتلوه على الفور..»

ولكن عمر بيك الذي أراد النجاة بنفسه، ردّ عليه متداركاً:

«إن كان لكلماتي الصلفة وقع سيئ على مولاي فأنا أستميحه عذراً، ولكن لابن عثمان فضل عظيم علي. ونكران الحق، هو الجحود بعينه. وليس من المروءة في شيء نكران فضل ولي نعمتك، كما أنه إلى ذلك صديقي الذي لن أتخلى عن محبته. ولكنني لا أنكر حقيقة أن السلطان قد فقد خيرة رجاله في هذه المعركة، وأنه لم يعد يملك القوة الكافية لمجابهة قادتك ورجالك الأبطال، حيث أنّ الباقين منهم قد أصابهم الرعب بعد الهزيمة التي لحقت برفاقهم، ولن يستطيعوا مواصلة القتال ضدكم، أو صدّ هجماتكم القوية، وقد انهارت معنوياتهم «..

فسرّ أوزون حسن من كلمات عمر بيك هذه وشعر بالارتياح، وخاطب من حوله بالقول:

«يا سادة! عمر بيك مصيب فيما قاله. ذلك أن من يجحد النعمة، وينكر فضل ولي نعمته، لا يكون له من الأخلاق من نصيب. وهو رجل عاقل منصف، يدرك ما له وما عليه، ولا يعض اليد التي امتدت نحوه بالعون..»

أما السلطان الفاتح، فبعد الهزيمة التي لحقت بمراد باشا، وانسحاب قوات أوزون حسن واختفائها، توقف عن اللحاق بهم على طول نهر الفرات،

واتجه نحو بايبورت[1]. ولكن خلال المسيرة التي استمرت ستة أيام لم يتمكن السلطان من العثور على جيش أوزون حسن، ورغم ذلك كان الجيش يتحرك بحذر بالغ حتى لا يتعرض لهجوم مفاجئ، ذلك أن أخباراً عن قيام أوزون حسن بهجوم مفاجئ كانت تتردد على الدوام، وهذا ما كان يزيد من توتر الجند.

ويوم الأربعاء الحادي عشر من آب عام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين، استقر الجيش في موقع يقال له أوج آزلى بالقرب من تِرجان، حيث تحيط به الجبال العالية، ولا يمكن الوصول إليه سوى من خلال طريق وعر وضيق. ليستريحوا هناك، بعد أن نال التعب من الجند والحيوانات التي برفقتهم أيضاً. وبينما كانوا يستعدون لأخذ استراحة من حر الظهيرة، رأى الجنود الذين في الميسرة، بعض القوات واقفة على رأس أحد التلال القريبة التي يطلق عليها اسم أوتلوك بِلي. في البداية اعتقدوا انهم من قوات ميهال أوغلو التي كانت تتقدم الجيش.، ولكنهم أدركوا أنهم مخطئون. فقد كانوا من جنود أوزون حسن الذي أسلم قيادتهم لغافور أسحاق. وعلى بعد مسافة قليلة كانت قوات أوزون حسن الأساسية مستقرة في إحدى المناطق القريبة من هضبة أوتلوك بِلي، وكانت قد اتخذت وضعية الهجوم.

معركة أوتلوك بِلي

كان السلطان حسن، يرمي لتطبيق واحدة من خططه المفاجئة والغريبة على حد سواء، حيث استطاع أن يحيط بالجيش العثماني في وادٍ ضيق، وفي لحظة غير متوقعة. فهذا الوادي مخول ليكون مقبرة للطرف المهزوم. وقد شهد هذا المكان الذي يقع في حوض الفرات على ضفة نهر جوره، معركة شديدة القسوة بين جيشي الدولتين.

وحتى لا يعرّض السلطان جيشه للخطر، أمر قوات المقدمة التي كانت

(1) هي عاصمة محافظة بايبورت تقع في شمال شرق تركيا.

تحت قيادة داوود باشا بالتحرك على الفور. وقد هبط الباشا مع قوات الأناضول ليحيط بالوادي على وجه السرعة دون أن يسمح لقوات غافور إسحاق بالهبوط نحو الأسفل. فاتخذ ثلاثون ألف محارب من قوات الأناضول بقلنسواتهم الحمر وضعية الهجوم في وقت قصير، وشكلوا سداً في وجه قوات غافور إسحاق.

وإثر هجوم سريع وقوي من داوود باشا انسحب غافور إسحاق لينضم إلى قوات أوزون حسن الأساسية. وقد أسهم هذا النجاح في نجاة الجيش العثماني من الوضع الحرج الذي كان يعانيه، ومنحه الوقت من أجل إعادة تشكيل صفوفه. وفي هذه الأثناء كانت ميمنة جيش أوزون حسن التي بقيادة ابنه كور زينال، تتقدم نحو داوود باشا. وقد حدث صدام شديد العنف بين الطرفين، فقامت خيالة زينال ميرزا بهجوم قوي على قوات داوود باشا التي تصدت لهذا الهجوم ببأس وتضحيات كبيرة. وقد شكلّ داوود باشا من جنده سداً كسدّ إسكندر، ولم يترك منفذاً لمرور العدو.

لقد كانت تلك أكثر اللحظات حسماً وأهمية في المعركة، ذلك أنّ هزيمة قوات داوود باشا تعني أنّ الجيش العثماني سيصبح مكشوف الظهر أمام العدو، كما ستتسبب هذه الهزيمة، في إحباط الجند، والقضاء على معنوياتهم.

وحين بلغ السلطان خبر أنّ قوات داوود باشا تقاتل العدو بعزيمة وشجاعة هائلة، علّق قائلاً:

«ابذلوا ما في وسعكم لكي نتخلص من هذا الهم» وأمر الإنكشارية وبقية المحاربين بالاستعداد.

ونتيجة قيام داوود باشا بإلهاء قوات الآق قوينلو وصدهم لوقت كافٍ تمكنت القوات العثمانية من الخروج إلى السهل، ففي البداية خرجت قوات الميسرة بقيادة الأمير مصطفى. وقد بدأت قوات الأناضول تحت قيادة الأمير بالهجوم على قوات الآق قوينلو وقوات قرمان التي كانت تحت قيادة كور

زينال، وإثر ذلك أمر أوزون حسن قواته بالهبوط، والتي نزلت كسيل جارف من فوق المرتفعات نحو السهل.

ولكنهم حين رأوا الجيش العثماني الذي بادر جنوده بالهجوم عليهم مزلزلين الأرض من تحت أقدامهم، أدركوا المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه. وقد باتت الرؤية شبه مستحيلة بسبب الغبار المتطاير من تحت أقدامهم وحوافر جيادهم، فيما كانت دماؤهم تسيل نحو السفوح كالأنهار. وكان الجنود الملتحمون، كأمواج البحر الذي يعلو ويهبط في هياج كبير.

وفي هذه الأثناء بدأت قوات الميمنة التي يقودها الأمير بيازيد بالهجوم على ميسرة جيش العدو والاشتباك معه، والتي كانت تحت إمرة القائد محمد بكر. ولكن قوات الميسرة الأساسية كانت تحت إمرة أوغلور محمد بن أوزون حسن، وكانت تحاول التحقق من قوة الجند التابعين لإمرة السلطان، والاشتباك معهم، وزجهم في القتال من أجل تشتيت قوة الجيش الأساسية، وقطع طرق الانسحاب عليهم. أما قلب جيش الآق قوينلو الذي كان تحت إمرة أوزون حسن، فقد كان يتنقل بين الميمنة والميسرة لتأمين الدعم وقت الحاجة.

انتقلت القوات التي تحت إمرة السلطان الفاتح لتعتلي قمة إحدى التلال، حيث كانت مكونة من خمسة وعشرين ألف محارب إنكشاري. وفيما كان الفاتح يراقب سير المعركة من مكانه، أرسل جزءاً من قواته لمناصرة ميسرة جيشه.

وكانت المواجهة بين ميمنة جيش الآق قوينلو التي يقودها كور زينال، وميسرة الجيش العثماني التي يقودها الأمير مصطفى، تزداد عنفاً مع مرور الوقت، ولم تكن مواجهات مشاة العثمانيين والآق قوينلو بأفضل حالاً. ومع انضمام فرسان الجيش العثماني للقتال، تغير مجرى المعركة. أما القوات التي كانت تحت إمرة الأمير مصطفى جلبي وقوات كور زينال، فقد كان العراك بينهم على أشده، وفي هذه اللحظات تمكن جندي من حامية الجيش العثماني يدعى

كلّجى أحمد من إسقاط كور زينال من على ظهر حصانه وقطع رأسه. وقد قام محمـود آغـا رئيـس فرقة الحامية، بتقديم الرأس المقطوع للأمير مصطفى الذي أرسله بدوره للسلطان. وبالقدر الذي ساهمت فيه هذه الحادثة في رفع معنويات الجيش العثماني، فإنها بالمقابل قد جعلت معنويات العدو في الحضيض.

ومـن جهـة أخـرى فـإن المدافع والبنادق التي آزرت قـوات الأمير بيازيد، عملت على محاصرة قوات الآق قوينلو، حيث اسـتطاعوا أسـر قائدهم محمد بكـر، وسـيطروا علـى قواتـه. ومن ثم انتقلت قوات الأميـر بيازيد للهجوم على قـوات أوغورلـو محمـد التي كانت تحاول التهجم على قلب الجيش العثماني، فأُجبر أوغورلو محمد على الانسحاب.

وحين علم أوزون حسـن بمقتل ابنه، وتشـتت قوات ميمنة جيشـه، التفت نحو بير أحمد، وقال له بأسى:

«فليعـم الخـراب فـي بـلاد القرمـان، فأنتـم مـن أخرجتمونـي مـن بلادي وأفجعتموني في ابني وفي خيرة أبطال جيشي، فما شأني بآل عثمان لولاكم؟»..

وفـي هـذه الأثنـاء تمكنـت قوات الميمنة التي كانـت تحت إمرة علي بيك ميهـال أوغلـو، مـن ملاحقة القوات التـي كانت تحت إمرة خليل بيك، وإلحاق الهزيمة بها، وتشتيتها. وقد قتل خليل بيك أثناء المواجهات. كما هزم إسكندر بيك أحد قادة الميسرة، فرقة من قوات الآق قوينلو، وأسر خورشيد بيك.

وقد أدرك أوزون حسـن أن جيشـه قد فقد فرصته في الانتصار. فرغم أنّه قـد اشـرك جميـع قواتـه في القتال، ما ألحق بها خسـائر لا تعوض، ظلت نخبة القوات العثمانية التي تحت إمرة السلطان بمنأى عن القتال.

فتقبـل فكـرة الهزيمة، وأمر بالانسـحاب حتى لا يتـم القضاء على الجيش برمته. ولكن بسبب انخراط معظم فرق الجيش في مواجهات مباشرة مع القوات العثمانية، كان من الصعب تنفيذ أمر الانسحاب، لذا بدأ يفكر في طريقة للنجاة بنفسه. وحتى لا يُشعر أحداً بغيابه، قام بتعيين ألباغوت بير محمد بيك– الذي

يشبهه كثيراً– على قيادة الجيش، وامتطى ظهر حصانه الأبيض ولاذ بالفرار.

لاذ بالفرار تاركاً جنده في عار وخذلان

لا دماؤهم منعته ولا تضحيات الفرسان

وقد قام بير أحمد أمير قرمان أيضاً باللحاق بحاميه على وجه السرعة، تاركاً جنوده في الميدان. وبعد أن ابتعدوا مسافة لا بأس بها عن ساحة المعركة، دار بينهم الحديث التالي:

أوزون حسن: في أوقات كهذه تعتبر القدرة على الفرار انتصاراً.

بير أحمد: كما أننا قاتلنا بكل ما لدينا من بأس وشجاعة.

أوزون حسن: ولكن ما الذي كسبناه من محاربة العثمانيين؟

بير أحمد: يكفينا أننا استطعنا النجاة بأنفسنا.

وبعد مسيرة ثلاثة أيام، وصل أوزون حسن إلى المكان الذي كانت عائلته تستقر فيه، فأخذها واتجهوا نحو ألا داغ[1]. وبعد أن مكث مختبئاً هناك لفترة من الزمن خوفا من ملاحقتهم، توجه نحو تبريز.

تسبب فرار أوزون حسن في هزيمة جيش الآق قوينلو، وقبل مرور وقت طويل تمكنت القوات العثمانية من مهاجمة مركز قيادة جيشهم وأسر ألباغوت بير محمد بيك، أما أوغرلو محمد الذي علم بفرار والده وبمقتل شقيقه زينال، فقد لاذ بالفرار هو الآخر. وتحولت المعركة إلى مجرد ملاحقة، حيث كان جنود الآق قوينلو يهربون، بينما العثمانيون يلاحقونهم، ويقتلون من يمسكون به. ولولا انشغال الجنود العثمانيين بنهب معسكر العدو بعد أن تيقنوا من انتصارهم، لما نجا أحد ولا تمكن من الفرار. واغتنم الجيش بيرق، وطبل الحرب وكل كنوز أوزون حسن وذخيرة جيشه. أما الكتب القيمة والأقمشة الغالية التي تمّ اغتنامها، فقد كانت تفوق التصور والحسبان.

وقد وصل كل من علي بيك ميهال أوغلو وأسكندر بيك برفقة عشرة آلاف

(1) سلسلة جبال تمتد على محافظات قيصري ونيغدة وأضنة.

فارس وبعد مطاردة طويلة، إلى المقر الأساسي لأوزون حسن، ولكنه كان قد غادره منذ وقت طويل، إلا أنهم تمكنوا من إنقاذ عمر بيك تورهان أوغلو، وبقية الجند العثمانيين الذين تمّ أسرهم سابقاً.

لِمَ لم تسيطر على بلاده؟

في اليوم التالي علىٰ المعركة اجتمع السلطان مع رجالاته وقادة الجيش، وتمّ مناقشة موضوع اللحاق بالآق قوينلو، حيث كان القسم الأكبر منهم يرى ضرورة اللحاق بهم حتى تبريز، ونهب مدنهم وتدميرها، كي لا يتجرؤوا مرة أخرى على القيام بالاعتداء على أراضي السلطنة وحاميتها. ولكن السلطان لم يوافق على هذه الفكرة، حيث لم يعتبر تخريب البلاد وقتل العباد أمراً صائبا.

وينقل لنا كمال باشا زاده السبب الذي لأجله لم يستصوب الفاتح فكرة الهجوم ونهب بلاد الآق قوينلو، من خلال لقاء بينه وبين إبراهيم باشا بن تشاندرلي خليل باشا. حيث قام الأخير الذي كان يقاتل تحت إمرة الأمير بيازيد، بمراجعة السلطان من أجل بعض المشاغل، وقد وجده بادي الانشراح، مسروراً. وبعد أن هنأه بالنصر قائلاً:

«الحمد لله أنّ سلطان العالم نال النصر والغلبة على عدوه الذي اندحر منكسراً ذليلاً. وقد سرّ أصدقاؤنا، فيما دمعت عيون خصومنا. فبفضل شجاعتك وبطولاتك، تمكّن جيشنا من قهر أوزون حسن الذي كان معروفاً ببطولاته، وتشتت جيش التركمان الآق قوينلو، وقضينا على قوتهم بحيث لن تقوم لهم قائمة..» وبعد عبارات التهنئة والمدح، استجمع شجاعته ليسأل السلطان عن سبب رفضه ملاحقة جيش العدو وقتل أوزون حسن، وتخريب مدنهم وبلادهم، وإلحاق إيران بالسلطنة العثمانية.

وقد ردّ عليه السلطان مبتسماً:

«لقد كان هدفنا إلحاق الهزيمة بهذا الظالم المستبد، ليتجرّع كأس الخيبة

والخسران، ولكن ليس من المروءة في شيء إلحاق الأذى بعائلته. فيكفي أننا قطعنا رأس ابنه، وجعلناه يكابد الألم والحسرة عليه. ولا حاجة لنا بتلويث سيوفنا الماضية بدماء لا مبرر لها. فقد نال ما يستحقه بل وأكثر، كما أنه لا يليق بسلطان المسلمين قتل الناس وتشريدهم من مدنهم وبلدانهم. ولو كان الأمر بيدي لما أقدمت على هذه الحرب، ولكنه من دفعنا للقيام بها. وقد كانت غايتنا هي معاقبته وتلقينه درساً، وقد حققنا غايتنا. وإن لحقنا به بغاية الانتقام، فسنلحق الخراب بالكثير من الأماكن. وبذا سنواجه دعوات الكثير من العباد أغنياء وفقراء، ممن لا ذنب لها، وكما تعلم، فدعوة المظلوم تصل إلى رب العرش، ولا يحجبه عنها شيء. ولا يجدر بالمسلم التقي التورط في أمر مماثل، كما أننا وبدل هدر قوتنا على ملاحقتهم، علينا التحضير لمواجهة عدونا النصراني، الذي يتحين الفرص ليشمت بنا، ويستغل ضعفنا»..

ومن خلال كلماته هذه يمكن إدراك حقيقة الفتوحات العثمانية بالشكل الأمثل. ذلك أنّ العثمانيين ما كانوا ليسمحوا لجيوشهم بتدمير بلاد المسلمين ومدنهم، بغاية السيطرة عليها، بل كانوا ينتظرونها لتنضم إلى سلطتهم من تلقاء نفسها. فالجنود حين يساقون إلى الحرب، ويدخلون المدن والبلدات، سيقومون ببعض التجاوزات شاء قادتهم أم أبوا، وهذا ما سيضر بالمسلمين وسيجعلهم ينفرون من سلطة العثمانيين مع مرور الوقت. وهل يجوز أن يغيروا على بلاد الترك المسلمين ومدنهم، في الوقت الذي يرغب فيه النصارى أنفسهم، الانضواء تحت راية السلطان العادلة؟

وبعد هذه المعركة لم يضمر السلطان أي نوايا عدائية اتجاه أوزون حسن، بل أنه وافق على مقابلة رسوله؛ أحمد بيغورجي، الذي جاءه عارضاً عليه الصلح.

وبعد أن مكث السلطان ليومين أو ثلاثة في أوتلوك بيلي، قفل راجعاً نحو بايبورت في الثالث والعشرين من آب، حيث سيطر عليها، واتجه بعدها إلى شبين قره حيصار ليسيطر عليها في التاسع والعشرين من آب، ومن ثم غادر

نحو عاصمته.

وكان أحد أسباب سرور الفاتح هو تحقق الحلم الذي رآه قبل أيام من انطلاقه في هذه الحملة. وتورد المصادر هذه الحادثة على الشكل التالي:

«في الفترة التي كان فيها السلطان يعدّ العدة، للتوجه نحو أوتلوك بيلي، خاطب الصدر الأعظم في ضيق قائلاً:

- لالا! لقد رأيت حلماً البارحة مساء، قبيل الفجر. ولم أستطع إبعاده عن ذهني حتى الآن، ولا أعلم إن كان ينبئ بالخير أم لا..

- وقد ردّ عليه الصدر الأعظم بالقول: فلنأمل أن يكون خيراً يا مولاي، لكي يتحقق الخير..

- رأيت نفسي وسط احتفال لا أدري إن كان عرساً أم عيداً. وقد ارتدى أوزون حسن زي المصارع، وتوسط ميدان الحفل. وكان يصرخ بصوتٍ عالٍ: هل من شجاعٍ قادرٍ على منازلتي؟ هل من أحدٍ يجد في نفسه الجرأة على مقاتلتي؟.. وكان ينظر إليّ وهو ينادي، وكأنه كان يتقصّدني، وقد ساءني الأمر، وشعرت أنه يتحداني، وفجأة وجدت نفسي أرتدي زي المصارعين، وأتوجه إلى الحلبة. وبدأنا نتعارك يداً بيد، ويحاول كل منا إيقاع الآخر. وفي لحظة سهو مني، استطاع أن يهجم علي، ويوقعني أرضا على ركبتي. حينها شعرت أن الأرض باتت تميد تحت قدميّ، فيما الأصوات تصيح من حولي: هيا.. هيا!.. فاستطعت استجماع قواي، وقبل أن يهجم عليّ للمرة الثانية، تمكنت من الوقوف. وفيما كان ينطلق نحوي مسرعاً، لكمت صدره بكلتا يدي، فأسقطته ضربتي أرضاً. ولكن غليلي لم يشفَ بعد، فغرزت إحدى يدي عميقاً في صدره، وانتزعت قطعة من رئتيه لأرميها على الأرض. وقد غطتني الدماء، واستيقظت مبللاً بالعرق والقلق.

- خيراً إن شاء الله يا مولاي، لا خبرة لي في تفسير الأحلام ولكن بحسب ما رويته، أستطيع القول بأننا سنعاني من خسارة في بداية هذه الحملة، ولكن

النصر النهائي سيكون من نصيبنا.

شعر السلطان بالقلق من تفسير محمود باشا، لذا فقد روى حلمه للمقربين منه من أصحاب العلم والخبرة، فاتفق الجميع تقريباً على ما قاله الصدر الأعظم، ولإثبات وجهة نظرهم قاموا بإحضار القرآن الكريم، وفتحوه على صفحة كيفما اتفق، من أجل الاستعانة به على التفسير، فقابلتهم الآية الكريمة «وينصرك الله نصراً عزيزاً» من سورة الفتح. وقد قاموا بعد حروف الآية بحسب الترتيب الأبجدي، فكان التاريخ هو عام ثمانمائة وثمانية وسبعون للهجرة، وهو يوافق العام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين ميلادية. وقد أخبروا السلطان أن هذا هو تاريخ النصر، حيث اطمأن لهذا التفسير وشعر بالراحة»

وفي طريق عودته، حين تذكر السلطان هذا الحلم، أخذ يحمد الله ويشكره على هذا النصر العزيز، ويدعو بالرحمة والمغفرة لمراد باشا الذي استشهد مع بقية جنوده.

نهاية إمارة قرمان
1474

شعر السلطان بالارتياح بعد القضاء على جيش أوزون حسن، ذلك أنه لم يعد في الجوار من عدو أو منافس حقيقي يهدد سلطنته. لذا فقد انخرط في نشاط محموم من أجل بسط سلطانه على كل منطقة البحر الأسود، وبناء أسطول أكثر قوة ومقدرة، لكي يجرد البنادقة من قوتهم ويقضي على أسطولهم. ولكنه قبل القيام بهذه الخطوة كان ينوي القضاء على قاسم بيك أمير قرمان الذي دخل في تحالفات مع البنادقة، أثناء انشغال السلطان بحربه مع أوزون حسن. فقام بإعادة سيطرته على بعض قلاعه مثل؛ إرمنيك، سليفكى، كوركو، دِفِلي حيصار وسواها..

أما بير أحمد بيك الذي كان موجوداً مع أوزون حسن في معركة أوتلوك

بيلـي، فقـد توجـه نحـو مرسـين، حيـث التقى أخاه قاسـم بيك، وقـررا التحرك سـوية. فنفذا هجوماً على مدينة قرمان، وسـلبوا الكثير من الأموال والنفائس. وقد انسحب بير أحمد نحو إرمنيك[1]، واختار منطقة يللي تِبى مركزاً له. فاتجه الصدر الأعظم غيديك أحمد باشا، مع قوات الحامية، ومحاربي الأناضول نحو المنطقة على وجه السرعة، وبدأ بالتحرك مع والي قرمان، الأمير مصطفى، وقد أرسل أحمد باشا إلى بير أحمد يعرض عليه الصلح.

وقد سرّ بير أحمد من هذا العرض أيما سرور واستقبل الرسل بالاحتفالات، وأكـرم ضيافتهـم، وفـي تلك الأثناء هاجمته القوات العثمانية. وقد تمكن أحمد باشا الذي شنّ حملته في غفلة، من تشتيت قوات أمير قرمان، ولكنه لم ينجح في إلقاء القبض عليه. وبعد أن تمكن الصدر الأعظم من السـيطرة على قلعتي إرمنيك وقرمان بسهولة، اتجه نحو أحمد بير الذي كان محتمياً في قلعة منّان، وقد ترك بير أحمد زوجته وكنوزه في هذه القلعة المنيعة والتي تقع فوق مرتفع صخـري يصعـب بلوغـه، ظناً منـه أنّ القوات العثمانية لـن تتمكن من الوصول إليها. ولكن غيديك أحمد باشـا تمكن من إيصال المدافع إلى أمام القلعة بعد جهد جهيد، وما إن بدأت بإطلاق نيرانها، حتى أخذت جدرانها تتداعى، وقام قائد الحامية يوسف، بتسليم نفسه ومن معه، شرط الأمان والسلامة.

وبينما كان بير أحمد يراقب ما يجري من على أحد المرتفعات المشـرفة على القلعة، شـاهد العلم العثماني وقد بدأ يرفرف على أسـوار القلعة، فأصابه يأس عظيم، وهوى بنفسه نحو الأسفل بعد أن فقد الأمل في كل شيء، وشعر بأنه خسر كل ما يملك، لكنه علق بين أغصان إحدى الأشجار التي أنقذته من الموت، فتوجه نحو طرسوس ومن هناك توجه نحو أوزون حسن ليحتمي به، وبعد وقت قصير توفي في بايبورت.

وبعد أن سـيطر الصدر الأعظم على قلعة منّان، توجه نحو سيليفكة، من

---

(1) 200– منطقة تابعة لمحافظة قرمان.

أجل القضاء على قاسم بيك. وقد كانت هذه المنطقة من قبل محمية من قِبَل جنود المدافع التابعين للسلطنة العثمانية. وقد أرسل إليهم أحمد باشا، يطلب منهم تسليم أنفسهم، ووعدهم بالأمان. وإثر ذلك قاموا بتفجير مخازن البارود في القلعة قبل أن يهربوا، ما أسفر عن تهدم جزء من أسوارها، حيث تمكن الجنود العثمانيون من دخولها بكل سهولة. ورغم أنّ قاسم باشا تمكن من الهرب، إلا أنه خسر بلاده وإمارته.

ومن ثم قامت القوات العثمانية بمحاصرة دفلي حيصار آخر معاقل أمراء قرمان، والتي تقع بين نيغدة وقيصري، وحين رأى أتماجا بيك قائد حامية القلعة، أنه تمّ القضاء على أمراء قرمان وإمارتهم، أرسل للأمير مصطفى يبلغه بتسليم القلعة إليه. وقد جاء الأمير بنفسه لاستلام مفاتيح القلعة والتأمين على حياة الجنود، رغم مرضه وعاد بعدها مجدداً إلى قونيا.

وبهذا فقد انتهت إمارة آل قرمان.

الأمير مصطفى

كان الأمير مصطفى يعاني منذ فترة طويلة، من آلام مبرحة في كليتيه، وبعد حملة أوتلوك بيلي، والجهد الذي تكبده بسبب سرعة سير الحملة، عادت إليه آلامه وزاد مرضه. وقد مرّ أثناء عودته من الحملة على كل من قيصري، آك سراي، نيغدة، بور، ومن ثم توجه إلى قونيا، وواصل العلاج. وإزاء إصرار أتماجا أحمد، رئيس حامية قلعة ديفلي حيصار، على تسليم مفاتيح القلعة إليه شخصياً، لم يبالِ بحالته الصحية السيئة، وغادر مسرعاً.

ولكن وطأة المرض زادت عليه خلال هذه الفترة، فنصحه الأطباء بالتوجه إلى إقليم نيغدة، لأن مناخه سيواتيه. ورغم بقائه هناك لمدة أسبوع لكن صحته لم تتحسن، وعلى إثر ذلك قام الفاتح، بإرسال طبيبه الخاص؛ يعقوب باشا إلى قونيا ليشرف على علاج ابنه.

وبعد أن غادر الأمير نيغدة إلى بور، أخذ حماماً ساخناً، ولكنه شعر بحالته تزداد سوءاً أكثر من أي وقت مضى، وارتفعت حرارته بشكل كبير، حيث فارق الحياة عند منتصف الليل، في التاسع عشر من شهر آب العام ألف وأربعمئة وأربعة وسبعين. وقد أخفى رجاله ومستشاروه خبر موته، حتى لا تحدث بلبلة في الإمارة. خاصة وأنّ غيديك أحمد باشا في تلك الأثناء كان في حملته على قرمان.

مصطفى هو ابن السلطان الفاتح من زوجته، غولشاه خاتون، ومن المرجح أنه وُلِد العام ألف وأربعمئة وتسعة وأربعين. في البداية تولى إمارة مانيسا، ومن ثم إمارة قرمان. وبعد التدمير الذي ألحقته قوات الآق قوينلو بتوكات، ومن ثم توجهها نحو بلاد قرمان، قام الأمير مصطفى بمواجهة جيوشهم، وإلحاق هزيمة فادحة بهم في مكان قريب من بحيرة بيه شهير، ليثبت نفسه قائداً حربياً، وفارساً ميدانياً شجاعاً ومحنكاً.

وقد تولى قيادة ميسرة الجيش في معركة أوتلوك بيلي، وساهم بشكل فاعل في تحقيق النصر. حين قام بهجوم سريع على ميمنة جيش الآق قوينلو، وبعد قتل قائد الميمنة زينال ميرزا، تغيرت وجهة الأحداث لصالحهم بشكل جذري.

كما قام بإدارة منطقة قرمان، بمهارة وحنكة كبيرتين. فعلى خلاف غرور أمرائها السابقين، وما زرعوه من حقد وكراهية في نفوس الشعب اتجاه العثمانيين، قام الأمير باتباع سياسة مبنية على التسامح، والتقرب من الناس، وبذا ساهم في تقبلهم للحكم العثماني، ونبذ الأحكام السابقة عنهم.

وبالإضافة لخبرته ومهاراته القيادية، فقد كان شاعراً، محباً للعلم، وفارساً ماهراً. وقد تسببت وفاته المبكرة بحزن عميق لوالده الذي كان يحبه محبة عظيمة، فأمر بإغلاق كل المحال والمتاجر في العاصمة لمدة ثلاثة أيام. وقد تمّ نقل جثمان الأمير الشاب من قونيا، إلى بورصة ليُدفن إلى جوار قبر جده السلطان مراد الثاني. وتمّت تولية الأمير جِم، والي قسطموني، على إمارة قرمان.

محمود باشا

وبعد وفاة الأمير مصطفى ببضعة أيام، تمّ حبس محمود باشا الصدر الأعظم السابق، في سجن يدي كولى، ومن ثم تمّ إعدامه في السابع عشر من آب العام ألف وأربعمئة وأربعة وسبعين.

وبحسب معظم المصادر، فقد كان والده من الروم، أما والدته فقد كانت صربية الأصل. وقد تمّ أسره بينما كان متوجهاً من مدينة نوفو بردو في صربية إلى سميديريفو، حيث أُخذ إلى إدرنة. واشتراه شخص يدعى محمد آغا، ليشرف على تنشئته. وبسبب ذكائه الحاد، وقابليته السريعة لتعلم كل جديد، تمّ إهداؤه للسلطان مراد الثاني، ليواصل تعليمه في القصر؛ ويعُين بعد مدة في خدمة الأمير محمد الثاني.

وفي أثناء فتح إسطنبول، كان يحتل منصب والي ولاة الأناضول. وبعد استشهاد كارجا باشا في حصار بلغراد، قلّده السلطان منصب الصدر الأعظم، وقد كان حينها والي ولاة روميلي.

وسيكون لمحمود باشا الذي رافق السلطان في كل حملاته على كل من روميلي والأناضول، فضل كبير في الانتصارات التي حققوها هناك. وقد استلم محمود باشا الذي ظلّ في منصب الصدر الأعظم لمدة خمسة عشر عاماً، قيادة الأسطول أيضاً حين اقتضت الحاجة.

وقد كان وزيراً ناجحا في عمله، صاحب دين وتقوى، محنكاً، عادلاً، ورجل دولة ذا خبرة واسعة، كما كان ذا باع طويل في مجال الفقه والتفسير. وكان إلى ذلك عطوفاً مع عامة الشعب، يولي أصحاب العلم والدين والفن مكانة خاصة، ويشملهم بعنايته، وهناك الكثير من الأعمال التي كُتبت على اسمه. وكان يعقد مجلساً أسبوعيا، لرجال العلم والدين، لتبادل الآراء والمناقشات، وكان من عادته أثناء تقديم الطعام أن يخلط الرز مع حبات ذهبية من الحمص.

كما كان يكتب الشعر باللغة التركية والفارسية ويكني نفسه بأدني، وقد

جمعت قصائده في ديوان شعري.

أيا مولاي لطفاً بي ورأفة

فقلبي فراش حولك نارك رفّ

وقد كانت تربط الباشا علاقة وطيدة وقديمة بالسلطان، وفي معظم الحملات كانا إما يخرجان معاً، وإما يسبق أحدهما الآخر، وبالطبع لا بد من ارتكاب بعض الأخطاء والهفوات خلال كل هذه السنوات الطويلة من الخدمة، وهذا ما عرّضه لغضب السلطان ونقمته. ففي حملة البوسنة، وبدل الاستيلاء على القلعة وقتل ملكها، عقد معه الصلح. وهذا ما جعل السلطان يستشيط غضباً، وقد وبخه بكلمات لاذعة، ولكنه لم يعزله من منصبه.

ومن جهة أخرى، فبقاؤه كل تلك المدة الطويلة في منصب الصدارة، واعتماد السلطان عليه في كل الحملات، قد جعله هدفاً للحسّاد، وغيرة الكثير من منافسيه من رجال الدولة، الذين كانوا يستغلون كل فرصة ويهوّلون كل هفوة، للتقليل من شأنه وتأليب السلطان عليه.

وقد ظهرت نوايا هذا الفريق بشكل علني لأول مرة أثناء الحملة على قرمان. فبعد أن تمكن بير أحمد من الفرار، وبسبب الشفقة والعطف اللذين أبداهما الباشا اتجاه الأسر التي أُسرت، تمّ نقل هذه الأحداث بصورة مغايرة إلى مسامع السلطان، حيث جعلوه يصدق أنه أخذ الرشاوى من الأسر الغنية ليتركها، وقام بأسر الفقراء منهم فقط، وأنه بالإضافة لذلك لم يلقِ القبض على بير أحمد وتركه يهرب متعمداً.

ونتيجة لذلك تمّ عزله من منصبه، وتعيين روم محمد باشا، ولكن بسبب الأخطاء والحوادث التي تسبب بها الأخير في قرمان، استطاع محمود باشا استعادة أهميته مرة أخرى. ولرغبة السلطان في العمل مع شريك ذي خبرة وقدرة عالية أثناء حملته على أوزون حسن، أعاد محمود باشا إلى منصبه كصدر أعظم. وحين عصا مراد باشا أوامر محمود باشا أثناء الحملة ولم يتقيد بنصائحه،

ووقع ضحية كمين أوزون حسن، والخسارة التي لحقت بقوات روميلي جراء ذلك، عاد الرجل إلى دائرة المناقشات مرة أخرى، حيث اتهمه خصومه هذه المرة بالتقاعس عن مساعدة مراد باشا.

ومجدداً أثناء الحملة حين عرض الباشا على السلطان فتح قلعة شبين قره حيصار، ومعارضة السلطان للفكرة، عادت الشبهات والتقولات تثار من حوله، ذلك أنّ السلطان لم يكن يريد أن يشغله أي شيء عن تحقيق النصر على العدو وسحقه. وبعد انتهاء المعركة، ومع اتفاق معظم رجال الدولة وقادة الجيش على ملاحقة الآق قوينلو، وتعقبهم حتى ديارهم، في مقابل رفض محمود باشا الفكرة، ومعارضته لها، عاد ليصبح هدفاً لانتقادات ومناقشات كثيرة. وفي كل مرة كان أوزون حسن يقوم بنشاط مضاد للسلطنة، كان محمود باشا يتعرض للانتقاد وتتزعزع مكانته أكثر.

أدى توالي كل هذه الحوادث وراء بعضها، إلى عزله من منصبة مرة أخرى في طريق العودة من الحملة. وقد توجه الباشا حينها نحو منطقة هاص كوي[1] التي كان يستقر فيها الكثير من الأغنياء حينها.

وتزامنت هذه الحوادث مع موت الأمير مصطفى، فتوجه محمود باشا لتعزية السلطان على الفور. لتزول الخلافات التي بينهما. أما ما حصل بعد ذلك، فمن الأفضل اقتباسه من تاريخ خوجا سعد الدين أفندي، ذلك أنّ كل المصادر تتفق معه على وجه التقريب.

«لقد كانت مواهب الصدر الأعظم- ذي القلب الطيب- ونجاحاته التي يحققها في إدارة الأمور، مثار حسد الحاسدين، وسبباً لنفورهم منه. وبعد اللقاء الأخير الذي تمّ بين الاثنين، عاد السلطان لتذكر نجاحات الباشا، والخدمات التي قدمها للسلطنة، وأخذ يظهر له الرضا، ويكرمه ويكيل له المديح، وهذا ما

(1) منطقة تابعة لبيه أوغلو في إسطنبول، تقع على طرف الخليج، كان الروم واليهود يقطنونها في عهد السلطنة العثمانية.

جدد مخاوف خصومه من احتمال إعادته إلى منصبه. فاستغلوا وضع السلطان وحزنه على ابنه، وأخذوا يحدثونه عن وجود خلافات بين محمود باشا، والأمير مصطفى، ويهولون له الأمر. ومن المرجح أنّ الخلاف وقع بين الباشا والأمير أثناء الحملة على قرمان. وبعد فترة أخذوا يلمحون إلى أنّ الباشا قد سرّ من موت الأمير، وأن معالم البهجة والحبور بادية عليه.

وكما يقال فالوردة الندية، ليست بحاجة لمزيد من المياه. فقد أوغر الخصوم صدر السلطان عليه بما فيه الكفاية، وهذا ما دفعه في إحدى الليالي، إلى إرسال أحد رجاله إلى قصر الباشا. وأغلب الظن أن الرجل وبعد أن حرم من رفقة السلطان ومن خدمة الشعب، وجلس في البيت عاطلاً عن العمل، وللترويح عن نفسه قليلاً، كان يجتمع مع بعض الخاصة من أصدقائه، ويلعب معهم الشطرنج في بعض الأحيان، ليشغل ذهنه عن التفكير والهموم.

وحين اقتحم الرجل الذي أرسله السلطان بشكل مفاجئ مجلس الباشا، رآه جالساً في ثياب بيض، يلعب الشطرنج مع أصدقائه وهو بادي الانشراح. وحين عاد الرجل أخبر السلطان بكل ما رآه من أنّ الباشا قد خلع ثياب العزاء قبل السلطان والجنود، وأنه كان يلعب الشطرنج، وقد كان بادي الابتهاج. وبذا تحطمت آمال الباشا المسكين، حيث تمّ حبسه إثر هذه التطورات، فمكث في سجن يدي كولى ثمانية عشر يوماً، وقد استغل خصومه هذه الفرصة، ليوغروا صدر السلطان عليه أكثر، ويهوّلوا من ذنبه، حتى أمر الأخير بقتله، وذلك في الثامن عشر من شهر تموز العام ألف وأربعمئة وأربعة وسبعين.

وقد ترك محمود باشا وصية قبل وفاته، وهذا ما جاء فيها:

«لقد أتيت إلى باب السلطان مع حصان وسيف، وخمسمئة آكجة. وكل ما حصلت عليه من مال وملك فيما بعد كان بفضله. وكل ما أرجوه منه هو أن يحافظ على حياة ابني محمد ويبقي عليه. وأتمنى أيضاً أن يبقي على الأوقاف التي بنيتها»..

وقد بنى محمود باشا الكثير من المؤسسات الخيرية. وهناك منطقة في إسطنبول على اسمه، ومدرسة وجامع وحمام، وسوق ومكتبة، وقد ووري الثرى في الجامع الذي يحمل اسمه. كما بنى سوقاً وخاناً في أنقرة، وجامعاً كبيراً وحماماً في صوفيا، وخاناً في بورصة، ونزلاً للمسافرين في إسطنبول.

قضية القرم

مع النصر الكبير الذي حققه السلطان على أوزون حسن في العام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين، بدأ بكسر الحلقات لطوق التحالف الكبير الذي عُقد ضده، وأحاط به. وقد كانت الخطوة الثانية هي مشروع التوجه نحو شواطئ البحر الأسود الشمالية، وتحويلها إلى موطن ومنبع للأتراك. فقد كانت المنطقة تثير اهتمام الفاتح على أصعدة عدّة، حيث تحولت مدن فيودوسيا[1] ومِنكوب، وآزوف[2] وبسبب مواقعها على الطرق الرئيسية للتجارة، إلى موانئ على قدر كبير من الأهمية، زاخرة بالنشاط والحركة. كانت الطرق القادمة من أستراخان[3] وكهنه غرغانج[4] وكابول، والتي تمر من إيران، تنفتح على الغرب بواسطة هذه الموانئ. وكانت حمولات الحرير التي ترسل من سواحل بحر قزوين، والتوابل القادمة من الهند الصينية ، تأتي إلى هذه الموانئ، لتوزع إلى بقية أنحاء العالم. بالإضافة لذلك كانت تنقل عبر الموانئ الجلود والفراء والقمح والسمك والكافيار والشمع والملح. ورغم أن طريق الحرير والتوابل قد تحول إلى سوريا بعد القرن الخامس عشر، لكن هذه الموانئ بقيت محافظة على أهميتها.

(1) مدينة ساحلية وميناء في شبه جزيرة القرم بأوكرانيا على البحر الأسود.

(2) بلدة روسية تقع في روستوف أوبلاست على نهر الدون على بعد 16 كيلومتراً من بحر آزوف والذي أخذ اسمه من اسم البلدة.

(3) هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفدرالي الروسي أستراخان أوبلاست وقد أسسها المغول لجمع الضرائب من الروس وهي أقدم مدن حوض الفولغا.

(4) مدينة في تركمانستان.

وقد أوضح لنا المؤرخ كمال باشا زاده أهمية مدينة فيودوسيا بالقول: «مدينة عظيمة تقع على الساحل الشمالي للبحر الأسود، وقد تحولت إلى أهم المراكز على ساحل البحر. حيث كانت البضائع تغادر منها وإليها من البحر والبر، السهل والجبل، وكانت سوقاً لشعب القرم من تتار وشركس والروس الكفار»..

وقد كانت المنطقة تتبع لنفوذ الجنويين منذ منتصف القرن الثالث عشر. وقام الجنويون الذين أخذوا الموافقة من القبيلة الذهبية[1]، بالاستقرار فيها لمزاولة التجارة، فبنوا أسواراً محصنة حول المدينة وعزّزوا دفاعاتها، وحولوها إلى مركز تجاري في غاية الأهمية والنشاط.

أسفرت الخلافات الداخلية الشديدة بين أفراد سلالة القبيلة الذهبية في بدايات القرن الخامس عشر، عن فرار الكثير من القبائل إلى أواسط آسيا والقرم. وقد تمكن الحاج غيراي المنحدر من سلالة توكاي تيمور حفيد جوجي بن جنكيز، من توحيد هذه القبائل وتعزيز قوتها، ليشكل خانية القرم[2]، في النصف الأول من القرن. وعقد اتفاقيات مع موسكو التي كانت على خلاف مع ألتنرودو، وذلك لتقوية مكانتها.

وبعد فتح العثمانيين للقسطنطينية، وسيطرتهم على المضائق، طلب حاجي غيراي مساعدتهم ضد الجنويين. وبسبب إدراك السلطان الفاتح لأهمية الفعاليات التجارية التي كانت تتم على شواطئ البحر الأسود، وعد القرم بتقديم المساعدة لهم. وهكذا قامت قوات مشتركة من العثمانيين والقرم بمحاصرة قلعة

(1) -وهي قبيلة مغولية ثم أصبحت بعد ذلك خانات تركية. وقد عرفت بالبداية بخانية القبجاق أو مملكة جوجي، انتشرت في الجزء الشمالي الغربي من إمبراطورية المغول الآن روسيا وأوكرانيا ومولدوفا وكازاخستان والقوقاز

(2) -هي إحدى الخانيات الناتجة عن تفكّك مملكة القبيلة الذهبية التي أسسها المغول والتتار في أواسط القرن الثالث عشر بعد غزو أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية والقوقاز من قبل القبائل التارية والمغولية تحت إمرة جنكيزخان وأتباعه

فيودوسيا سنة ألف وأربعمئة وأربعة وخمسين، وقد نجا الجنويون من مغبة هذا الحصار، بقبولهم تقديمَ الجزية للسلطنة. حيث اشتركت أربع وخمسون سفينة عثمانية في هذا الحصار.

وبسبب انشغال السلطان بحروبه في البلقان وسواحل البحر الأسود في الأناضول، ومن ثم البندقية والآق قوينلو وسواها الكثير من الفتوحات والحروب، لم يتمكن من الاهتمام بالسواحل الشمالية للبحر الأسود.

أما حاجي غيراي فقد بات يخشى من سيطرة السلطان الفاتح على كل سواحل البحر الأسود بعد سيطرته على مناطق نفوذ الجنويين وطرابزون، لذلك فقد عقد اتفاقية مع أسرة ياغييلون حكام بولندا وليتوانيا، وانضم حاكم البغدان فيما بعد إلى هذه الاتفاقية. وبعد وفاة حاج غيراي العام ألف وأربعمئة وستة وستين، دخل أبناؤه الاثنا عشر في صراع طويل على السلطة. وقد تبادل ابناه نور الدولة ومنجلي غيراي السيطرة على العرش مرات عدّة، واستمر كلاهما في اتباع سياسة والدهما المعادية للعثمانيين.

ولكن الفاتح- الذي كان أقوى حكام عصره والعالم، ويملك رؤية سياسية عميقة- كان يتابع التطورات الحاصلة على شواطئ البحر الأسود الشمالية دون انقطاع. فبالإضافة للأهمية التجارية لتلك السواحل، كانت السيطرة عليها تعني القضاء على قوة البغدان وبولندا في الوقت ذاته.

ولأنه لم يكن راضياً عن دخول خانيّات القرم في تحالفات معادية، فقد أرسل أسطولاً بقيادة الريس يعقوب حيث قام بنهب فيودوسيا وما يجاورها من مناطق. وعلى إثر ذلك قام منجلي غيراي في الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ألف وأربعمئة وتسعة وستين، بإرسال رسالة للفاتح. وقد بدأ الرسالة بكلمة أخي، وكان يشتكي من نهب الأسطول العثماني لمدينتين على سواحل القرم، وذكّره بأن مدينة فيودوسيا من المدن التي تعطيه الجزية، وطلب منه في النهاية تحرير الأسرى. وكان لمخاطبة منجلي غيراي السلطانَ بأخي، والتركيز

على الروابط العرقية التي تجمع الطرفين أهمية كبرى.

ورغم ذلك فقد بقي منجلي غيراي يواصل عقد الاتفاقيات المعادية للسلطنة، ومقابل ذلك قام الفاتح بالتواصل مع إمنيك بن ماماك ممثل القرم في فيودوسيا. ولكن أثناء انشغال السلطان بحربه مع أوزون حسن، قام منجلي غيراي وبتحريض من الجنويين بعزل إمنيك، وقد حاول هؤلاء قتله أيضاً لكنهم لم ينجحوا. وبعد وفاة والده، التف أعيان التتار حول إمنيك كقائد لهم. وهكذا مع ازدياد قوة إمنيك أخذ يدخل في صراع مع منجلي غيراي من جهة، ومن جهة أخرى بدأ بضرب المناطق المجاورة لفيودوسيا. وقد اضطر منجلي غيراي إلى الهرب مع ألف وخمسمئة فارس، واللجوء إلى الجنويين في فيودوسيا.

وعلى إثر هذه التطورات قام السلطان بإرسال غيديك أحمد باشا الذي قلده منصب الصدارة بعد محمود باشا، مع أسطول ضخم مكون من مئتي سفينة إلى القرم، وذلك عام ألف وأربعمئة وخمسة وسبعين. وإضافة للمحاربين التابعين للسلطان (كابي كولو) ومحاربي روميلي، فقد رافق الأسطول عشرة آلاف من قوات الحامية بقيادة محمود آغا. ومن المرجح أنه كان تدبيراً وقائياً من السلطان ليس بسبب الجنويين فقط، بل بسبب ما يمكن أن يفعله أهل القرم أيضاً. وقد رسا الأسطول العثماني في حزيران عام ألف وأربعمئة وخمسة وسبعين أمام قلعة سانت ماريا في فيودوسيا. كانت القوات العثمانية تقارب الأربعين ألف جندي، من ضمنهم عشرة آلاف من الخيالة. وإزاء رفض الحامية لعرض غيديك أحمد باشا بتسليم المدينة، بدأ الحصار عليها براً وبحراً، وأخذت المدافع تدك حصونها بنيرانها الشديدة.

وقد دبّ الذعر في نفوس جنويي فيودوسيا الذين توجهوا إلى قادة أسطولهم بالقول:

«لا أمل لنا بالنجاة من حصار العثمانيين. وإن تمكنوا من أخذ المدينة رغماً عنا، فهذا يعني حتفنا جميعاً، حيث سيأسرون أولادنا ونساءنا، وسينهبون

أملاكنا. وتفادياً لهذا المصير دعونا نسلمهم القلعة دون قتال. ذلك أنهم يعمرون كل مكان يفتحونه بطريقة سلمية، ولا يقومون بحرقه أو تدميره. فهم لا يمسون بسوء، من يخضع لسلطانهم بالحسنى، ويحافظون على حياة الناس، ويعاملونهم معاملة لطيفة».

ورغم محاولة الحاكم مقاومة الأمر، لكنه أدرك بأن جنوده والأهالي سيعارضونه، لذا فقد رضخ للأمر، وقام بتسليم القلعة في اليوم الرابع من الحصار وذلك في التاسع من حزيران. وبسبب وجود بعض من المسلمين في القلعة إلى جوار المدافعين عنها، قام غيديك أحمد باشا بإرسال بعض أعيان التتار ممن تمّ إلقاء القبض عليهم، بالإضافة إلى محمد غيراي وشقيقه ياغمورجا سلطان إلى العاصمة. وبعد أن ترك جزءاً من جيشه كحامية في القلعة، دخل غيديك أحمد باشا مع أسطوله بحر آزوف[1] كما قام بالسيطرة على قلعة آزوف الشهيرة التي كانت محطة للتجار القادمين من تركستان التي تقع على نهر الدون، ومن بلاد ما وراء النهر، والتي كانت ميناء مهماً بالنسبة إلى السلافيين. كما قام بالسيطرة على كثير من القلاع حتى حدود بلاد الشركس، ومحاصرة قلعة مدينة منكوب المنيعة التي تقع جنوب شبه جزيرة القرم قريباً من الساحل، وبدأت المدافع بدك أسوار القلعة، فانتاب الرعب حاكم المدينة، وخرج يعرض استسلامه على غيديك أحمد باشا حفاظاً على حياته.

ومع خروج الحاكم، استولى أحد أقربائه على حكم المدينة وواصل الدفاع عنها. وبسبب كثرة عدد حامية القلعة، فقد واصلوا المقاومة دون كلل. وإزاء هذا الوضع انسحب غيديك أحمد باشا بعد أن ترك أمام القلعة مجموعة صغيرة من المهاجمين بقيادة زاغراجي يعقوب بيك. وبعد بقائه مدة وجيزة محاصراً القلعة، قرر الانسحاب، فحاول مدافعو القلعة وسكان المدينة مهاجمتهم،

---

(1) بحر متفرع من البحر الأسود في جزئه الشمالي ويتصل به عن طريق مضيق كيرتش. يطل على الشواطئ الأوكرانية من شماله وعلى روسيا من جهة الشرق وشبه جزيرة القرم من الغرب.

وكانوا ينوون استغلال الفرصة والقضاء عليهم جميعاً، وهم مستبشرون. فأخذ يعقوب بيك بالانسحاب رويداً رويداً مع جنوده، بينما كان المدافعون متحمسين في هجومهم، وبعد ابتعادهم مسافة قليلة عن أسوار القلعة، أحاطت بهم قوات غيديك أحمد باشا من كل الجهات، موقعة بهم في كمين محكم، ولم يدرك المدافعون للوهلة الأولى ما يحصل. حيث انهالت عليهم ضربات الهراوات والسيوف وتلبدت ساحة المعركة بالغبار المتطاير من تحت أقدام الطرفين، وقد طويت صفحة حياة سكان المدينة. وبذا فقد رفعت المدينة فوق أسوارها راية الاستسلام، بعد أن فقدت معظم أفراد حاميتها. وقد استطاع غيديك أحمد باشا بفضل خطته السيطرة عليها، دون أن يفقد الكثير من أفراد جيشه.

وحتى شهر كانون الأول من العام ألف وأربعمئة وخمسة وسبعين، تمكن من السيطرة على الكثير من مراكز الجنويين على سواحل البحر الأسود، كآزوف وفيودوسيا وسواها، وأسر كثيرين. وعاد إلى إسطنبول مع غنائم لا تُعد ولا تُحصى، بالإضافة إلى أربعين ألف أسير. وكانت غالبية الأسرى من الأرمن الجنويين واليهود والروم، وقد قاموا بإسكان الجنويين والروم في منطقة غالاتا، واليهود في منطقة هاس كوي، أما الأرمن فقد أسكنوهم منطقة سلمى تومروك التابعة لمنطقة الفاتح في إسطنبول.

تم فصل ألف وخمسمئة فتى من أسرى الجنويين، لضمهم إلى فرقة العجم من الإنكشارية، وتنشئتهم وفق التعاليم التركية. أما بقية الأسرى الذين كانوا في سجن يدي كولى، فقد صدر الأمر بإعدامهم جميعاً، وبناء عليه توجه البواب مع الجلاد وأخبروا رئيس الحرس بصدور قرار الإعدام. فدبّ الرعب والهلع بين أعيان التتار، وأيقن منجلي غيراي أنه هالك، بعد أن فقد كل شيء، فطلب مهلة من الحارس لكي يصلي ركعتين، وقد كان رئيس الحرس رجلاً ذكياً، فتوجه نحو الجلاد بالقول:

«هل أنت متأكد من عدم وجود لبس ما في الأمر، فإضافة للتتار هناك بعض

سادة التات[1] أيضاً في السجن، وقد يكون الأمر الصادر بحق هؤلاء وليس بحق التتار. وإن استعجلت تنفيذ الأمر، لن يعود بإمكانك العودة عن خطئك. فلا أحد يستطيع إعادة الحياة لنبتة قد يبست جذورها، ولا يمكن إحياء أحد بعد أن يقطع رأسه..» وقد دبّ الشك في نفوس القادمين لتنفيذ الأمر، فعادوا ليبلغوا السلطان بما جرى، وقد سرّ الأخير لأنه استطاع تدارك هذا الخطأ في اللحظة الأخيرة، فأجاب بالقول: «سيكون من المؤسف قتل أعيان التتار، ومعاقبتهم بهذه الطريقة. أوامري صادرة بحق أعيان التات؛ أعداء الإسلام وليس بحق التتار المسلمين».. وبذا تحول الأمر لقتل التات فقط، وأطلق سراح أعيان التتار.

كانت الخانية القرمية في تلك الفترة تحت حكم الخان نور الدولة، والذي كان يبدي الودّ للعثمانيين في كل مناسبة، ويرسل إلى السلطان رسائل تشي باحترامه والتواضع أمامه. ولكن حين دعاه الفاتح للمشاركة في حملته على البغدان، رفض متذرعاً بتهديدات تلقاها من القبيلة الذهبية، ولم يشارك في الحملة، أو يرسل أياً من قواته.

لذا فقد قام السلطان محمد الفاتح بمنح لواء الحرب لمنجلي غيراي الذي كان موجوداً في إسطنبول حينها، ووضع تحت إمرته بعضاً من قواته، وأرسله نحو القرم عام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين. واعتباراً من ذلك التاريخ، أخذت القرم مكانها إلى جوار الدولة العلية، فصادقت من صادق سلاطينها، وعادت من عاداهم.

وأخذت قوات التتار- التي تتصف بالجرأة والشجاعة، والقدرة على تحمل المشقات أثناء الحروب، بالإضافة لمهارتهم في ركوب الخيل- تقاتل باسم العثمانيين، كلاً من الروس والبولنديين والأوروبيين، والإيرانيين، وتنزل بهم خسائر فادحة. وكانت الدولة العثمانية في مراسلاتها مع أعدائها أثناء بدء أي

(1) شعب من أصول إيرانية يسكن المنطقة الواقعة بين الشمال الشرقي من أذربيجان وجنوب داغستان. ويقال إنهم اليهود الذين هاجروا أثناء غزو الآشوريين لبلادهم.

حملة، تهددهم بقواتها، وقوات التتار التي يفوق تعدادها نجوم السماء.

أما الخانات فقد كانوا يخاطبون سلاطينهم أثناء الحملات:

«إنما أنا مجاهد أضع الروح والجسد بين أيديكم»..

وكانت تربطهم علاقات قوية وصادقة بالسلاطين والسلطنة. ومن جهة أخرى فانضواء القرم تحت لواء السلطنة، قد جلب إليها الاستقرار والأمان، وأنهى الصراعات التي كانت تنشب بين أبناء الخانيّات من أجل الاستيلاء على السلطة. وقد كان لهذه الوحدة عظيم الأثر على الحياة الاقتصادية والثقافية في القرم. واستمرت القرم في وحدتها واستقرارها لمدة ثلاثة عقود. ومن ثم تمكنت روسيا من السيطرة عليها بعد الخلافات التي نشبت بين خانات أستراخان وكازان وقاسم، وأعلنت ضمها إليها رسمياً العام ألف وسبعمئة وثلاثة وثمانين.

الحملة على البغدان

عقدت البغدان اتفاقية مع السلطنة العثمانية عام ألف وأربعمئة وخمسة وخمسين، تعترف فيها بتبعيتها للسلطنة، مع دفع جزية سنوية مقدارها اثنا عشر ألف ذهبية. وكان الملك ستيفان الكبير مواظباً على دفع الجزية لسنوات طويلة، ولكن أثناء حروب الفاتح البرية والبحرية مع البنادقة ونابولي والبابا والألبان والمجريين، أعلن ستيفان وقف تبعيته للسلطنة، وانخرط في الفعاليات المعادية. وأثناء حملة الفاتح على أوزون حسن، وظناً منه باحتمال فوز الأخير، قام بالاشتراك مع المجريين بالتحضير للاعتداء على أراضي الدولة العثمانية.

وقد أخذت الشكوك تراود السلطان حول تصرفات ستيفان فطلب منه دفع ما عليه من جزية، وإحضارها بنفسه إلى العاصمة، وقد رفض الأخير القدوم، كما رفض تقديم الجزية أيضاً.

وأثناء إرسال مئة وخمسين أسيراً جنوياً من فيودوسيا إلى إسطنبول عام

ألف وأربعمئة وخمسة وسبعين، قاموا بالسيطرة على السفينة التي كان فيها هؤلاء، وأخذوهم إلى قلعة كيليا[1] الواقعة داخل أراضي البغدان، حيث عاملوهم معاملة حسنة، وردوا رداً قاسيا على طلب السلطنة التي أمرت بإعادتهم.

وكانت الحملة التي قادها حاكم البغدان على الأفلاق التابعة للدولة العثمانية، هي النقطة التي فاض معها كأس الصبر. وحين سُئِل عن سبب قيامه بخطوة كهذه، أوضح للسلطنة أن بعض قطاع الطرق كانوا يدخلون بلاده ويعيثون فيها خراباً، فأصبح مجبراً على التدخل لمعاقبتهم. ولكن بدا جلياً أنّ الأمير ستيفان المعروف بجرأته وشجاعته، يتصرف باستقلالية واضحة، ويستغل كل فرصة تلوح في الأفق.

وبسبب الضرر الذي ألحقه بالأفلاق، طالبته الدولة العثمانية بدفع تعويض. وقد أرسل ملك بولندا الذي كان يتولى حماية ستيفان، لجنة مشتركة من أجل تقدير مبلغ التعويض المترتب دفعه. رفض الفاتح تدخل ملك بولندا، في شؤون أمير يدفع له الجزية السنوية، لذا فقد أرسل والي ولاة روميلي، سليمان باشا على رأس حملة متجهة إلى البغدان، وأمر حاكم الأفلاق بالانضمام للقوات العثمانية.

وقد انسحب سليمان بعد حصار طويل فرضه على أشقودرة[2] بعد عجزه عن فتحها. حيث كان جنوده منهكين ويعاني من نقص في التجهيزات. ورغم ذلك أخذ معه قوة تقارب الثلاثين ألف جندي، واجتاز الدانوب، ليدخل البغدان. ولكن هذه الرحلة الطويلة في ظروف الشتاء القاسية زادت من إنهاك القوات العثمانية، وقد التقى مع جيش ستيفان في وادٍ عميق تحيط به الجبال من الطرفين. وبسبب عدم تمكن القوات العثمانية من التحرك براحة في هذا الوادي الضيق، فقد تعرضوا للهزيمة. وبالكاد استطاع سليمان باشا النجاة بنفسه، بعد

---

(1) مدينة صغيرة جنوب غرب أوكرانيا تابعة لمنطقة أوديسا.

(2) مدينة تقع على بحيرة أشقودرة في شمال غرب ألبانيا في محافظة أشقودرة، التي هي عاصمتها. وهي واحدة من أقدم البلدات في ألبانيا وأكثرها تاريخيةً،وهي العاصمة القديمة لألبانيا.

أن فقد معظم جنوده في مستنقعات المنطقة. وسيطر ستيفان بعد هذا النصر، على بعض القلاع الموجودة على ضفاف الدانوب.

كما منحه البابا لقب فارس المسيح إثر هذا النصر الذي حققه، ما زاد من غروره وتكبره. ولكنه أخذ يبحث عن أطراف تسانده، ليقينه من أنّ العثمانيين لن يتركوه وشأنه. إلا أنه لم يتلقَّ أي مساعدة سوى من ملك بولندا والتي اقتصرت على قيامه بإرسال وفد إلى الفاتح، لحل الخلاف الناشب بينه وبين أمير بغدان.

في حين أنّ الفاتح الذي أسف كثيراً جراء الهزيمة التي لحقت بسليمان باشا، خرج بنفسه في بداية ربيع عام ألف وأربعمئة وستة وسبعين على رأس حملة متوجهة نحو البغدان. وحين وصل جوار فارنا التقى بالوفد البولندي، وقد اشترط السلطان لقبول التفاهم مع الوفد، أن يقوم الأمير بدفع كل ما ترتب عليه من أموال، ويعيد الأسرى الجنويين، ويسلّمه قلعة كيليا. ومع رفض ستيفان هذه الشروط، تقدم الجيش على وجه السرعة، وعبر نهر الدانوب. وقد انضم حاكم الأفلاق أيضاً إلى الحملة، بعد أن عجز عن إلقاء القبض بنفسه على أمير البغدان.

ورغم توغل الجيش لمدة أربعين يوماً في أراضي البغدان، لم يعثروا على الأمير الهارب. وقد كان العثمانيون الذي يصطحبون حيواناتهم وذخيرتهم وجميع احتياجاتهم معهم، يقومون بتخريب كل ما يصادفونه في طريقهم ومن ثم ينسحبون. وهذا ما تسبب في حدوث جدب في البلاد. ورغم ذلك وتحسباً لكل الاحتمالات، كان الفاتح يقوم بتأمين مؤونة الجيش عن طريق أسطوله عبر نهر الدانوب. لذا فلم يقاسوا كثيراً من هذه الظروف. ورغم أنّ الجيوش العثمانية جالت في البلاد طولاً وعرضاً لكنهم لم يقعوا على أثر للأمير الهارب. فقاموا بمحاصرة العاصمة سوتشافا[1] التي تقع على ضفاف نهر سرت. وفي تلك الأثناء وصلتهم أخبار عن اختباء الأمير ستيفان في جبل شديد الوعورة، وأنه قد جهز قوات دفاعية كبيرة، واختار غابة كبيرة تدعى (آغاج دنيز) كخط دفاعي.

(1) مدينة شمال رومانيا، عاصمة محافظة سوتشافا في إقليم مولدوفا.

فحفر خنادق عميقة حول المكان الذي كان يتحصن فيه، كما قام بوضع عوائق من جذوع الخشب والعربات على مدخل الطريق. وكانت تنتصب مدافعه في المقدمة، وبهذه الطريقة استطاع أن يؤمن مخبئاً عميقاً وسرياً لمقر قيادة الجيش الذي كان مكوناً من عشرين ألف محارب.

وفيما كان العثمانيون يبحثون عن الموضع المحدد في السادس والعشرين من تموز، انتشرت قوات البغدان في منطقة تسمى آك ديري (ألبا فيلا)[1]، وبعد أن تمّ تحديد الخطوط الدفاعية للعدو، بدأت المدافع تتبادل إطلاق النيران بين الطرفين. ومن ثم انطلق أبطال روميلي والأناضول بسيوفهم الماضية نحو المدافعين، ولكنهم لم يتمكنوا من تجاوز الخنادق والعقبات التي كانت تسد الطريق أمامهم.

وعلى إثر ذلك أمر الفاتح قوات الإنكشارية بالانخراط في القتال، ولكنهم ارتموا على الأرض بعد أن وجدوا أنفسهم هدفاً لنيران المدافع والبنادق، وأصبح من المحال أن يتحركوا. وقد استاء الفاتح من الوضع بعد أن كان هؤلاء الأبطال يتصدون لنيران الأسلحة بصدور عارية دون أن يبالوا بها. فصرخ في قائدهم محمد آغا الذي ينحدر من طرابزون محتداً:

«ما الذي جرى لفتيتك هؤلاء؟ أهذا حال من يسعى للبطولة والمجد؟»..

وامتطى ظهر جواده على الفور ليقود الهجوم بنفسه، فرافقته الحامية الخاصة على وجه السرعة، وحين رأى الإنكشاريون السلطان مقبلاً نحوهم، شعروا بالخجل من جبنهم، ونهضوا جميعاً، ليهجموا على العدو. وقد كرّت قوات الأناضول وروميلي بعد أن أبعدتها نيران المدافع، وعادت لتهجم كمثل السيل الجارف. فأبعدوا العربات عن الطريق، واندفعوا نحو العدو. وبدأ قتال شديد القسوة في تلك الغابة الهائلة.

استغرقت المعركة التي بدأت مع ساعات الفجر الأولى واستمرت حتى

(1) تسمى بمعركة الوادي الأبيض.

العصر، عشر ساعات متواصلة. وقد وقع معظم جنود البغدان صرعى تحت ضربات سيوف المهاجمين، الذين استشهد كثير منهم بالمقابل. وقد اصطحب ستيفان ثلة من محاربيه، واستطاع الفرار نحو أحد الجبال. وترك كل كنوزه وأشيائه القيمة، غنيمة للمهاجمين. ورغم أنّهم لحقوا به حتى صباح اليوم التالي، لكنهم لم يتمكنوا من الإمساك به.

وفي اليوم التالي حين خيّم السلطان في موقع المعركة، أرسل محاربيه إلى كل أطراف البغدان، ليعودوا بغنائم لا تُعد ولا تُحصى، وفيما كان ينوي ضبط كل سواحل البغدان المطلة على البحر الأسود ونهر الدانوب، وصلته أخبار من ميهال أوغلو بأن المجريين يعدون العدة من أجل ضرب منطقة سميديريفو وما يجاورها. ولأنه كان مقتنعاً أنّ حماية ديار المسلمين أهم من السيطرة على بلاد الكفار، فقد عاد بجيوشه. ومنح حاكم الأفلاق الذي كان برفقته في الحملة، نصيباً كبيراً جداً من الغنائم.

أما الأمير الهارب الذي بالكاد استطاع النجاة بنفسه من عقاب السلطان، فقد أرسل على الفور رسله التي تعرض عليه دفع ستة آلاف ذهبية بدل الثلاثة آلاف التي كان يدفعها، وأنه سيعادي أعداء السلطنة، ويصادق من يصادقها، مقابل عفو السلطان عنه. وقد وافق الأخير على طلبه، وتم عقد الاتفاق على هذا الأساس.

على دروب المجر

فيما كان الفاتح مشغولاً بنهب البغدان بعد انتصاره على أميرها، وصلته أخبار عن توجه ملك المجر نحو سميديريفو، أملاً في السيطرة عليها، لذا عاد أدراجه نحو إدرنة. وقد كانت قوات علي بيك ميهال أوغلو، وأخيه إسكندر بيك في تلك الأثناء تجوب أرجاء المجر وضفاف الدانوب. حين وصل ملك المجر برفقة جيش كبير إلى نقطة التقاء نهر سافا والدانوب، وقام ببناء قلعتين على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، وقلعة على الضفة اليسرى، فأرسل ميهال

أوغلـو إلـى السـلطان يبلغـه بالوضع على وجه السـرعة. ودون أن يبالي الفاتح باقتراب الشتاء، أمر بالتحضير لحملة المجر على الفور.

كانت القلاع التي قام ملك المجر بإنشائها، على قدر كبير من الأهمية لتأمين حدود بلاده. وقد حفر خنادق عميقة وواسـعة حول هذه القلاع الثلاث التي تمّ بناؤها من الخشب. وبواسطة قنوات تم شقها من نهر الدانوب، ملئت هذه الخنادق بالماء. وبسبب قربها من سميديريفو، فقد كانت هذه القلاع ستعود بفائدة كبيرة عليـه أثنـاء الحصـار. وبعـد إتمـام بناء القـلاع، وترك حامية كبيرة فيها، انسـحب الجيش المجري من المنطقة مع قدوم فصل الشتاء. وبالمقابل كان السلطان قد قرر الخروج في الحملة بناء على الأخبار التي وردته من علي بيك وأخيه.

وبعد أن مكث في إدرنة مدة اثني عشر يوماً فقط، انطلق على رأس الحملة بنفسه. فيما كان الشتاء قد اشتد وأخذ الثلج والصقيع يغطي كل الأرجاء. ولكن دون أن يبالي وجيشه بهذه الظروف القاسية استطاعوا الوصول إلى قلاع المجر بعـد مسـيرة عشـرين يومـاً، حافلة بالصعوبات والمشـاق. ولكـن طبقة الصقيع السـميكة التـي كانـت تغطـي فروع الدانـوب، جاءت بمثابة نعمة إلهية لتسـهيل مهمتهم، وبدا وكأن النهر على طول امتداده قد تحول إلى جسر كبير ليسهل عبور محاربيه الذي أحاطوا بالقلاع الثلاث، حيث كانت الخنادق المائية أيضاً مغطاة بطبقـة الصقيـع السـميكة. وقـد أحكموا الحصار حول القـلاع وبدأت المدافع بالعمل، فكانت أصوات طلقاتها تزلزل قبة السماء، ولم يمهلوا المدافعين فرصة المقاومـة، فبعـد فتـرة وجيـزة كانت الأعلام العثمانية ترفـرف على أبراج اثنتين مـن القـلاع. بينما اتجه القسـم الأكبر من المدافعيـن للتجمع في كبرى القلاع، حيث واصلوا المقاومة فيها. وفي اليوم الثالث من الحصار أُصيب داوود باشا والي ولاة الأناضول بضربة مدفع، وقد أسـف السـلطان كثيراً من هذه الواقعة، وأمـر محاربيـه علـى الفور بالإحاطة بالقلعة وتشـديد الضرب والحصار عليها. وكانوا يرمون إلى إحراق القلعة بمن فيها بواسطة البارود المشتعل. وحين أدرك

المدافعون ما يرمي إليه السلطان، عرضوا عليه ترك القلعة، والاتجاه نحو بلغراد مع حوائجهم. فخرجوا من القلعة بعد قبول شروطهم.

وبعد أن نقل السلطان المعدات والأسلحة من القلعة إلى سميديريفو، قام بإحراق القلاع الثلاث. وبذا استطاع أن يتخلص من هذه القلاع التي كانت ستساعد المجريين كثيراً في الحرب التي كان يتوقع نشوبها بين الطرفين مع قدوم الربيع، وذلك في نهاية العام ألف وأربعمئة وستة وسبعين.

وقد قام الجيش العثماني بغارات شرسة على الضفة الأخرى من الدانوب حيث أراضي المجر في الأعوام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين، وألف وأربعمئة وثمانين. ولكن الفاتح لم يقم بفتح المجر أو القيام بحملة كبيرة عليها، وذلك لأنه كان يعتبر الدانوب حدوداً طبيعية بين سلطنته ومملكة المجر.

البندقية مجدداً

في الوقت الذي كان فيه الفاتح منشغلاً بحروبه في القرم والقرمان وفتح فيودوسيا، كان يقوم بتقوية أسطوله أيضاً، لذا حاول عقد اتفاقيات صلح مع البنادقة. فأرسل في العام ألف وأربعمئة وأربعة سبعين رسالة إلى البندقية، يعرض عليهم اتفاقية للسلام. وبعد ثلاثة أيام من مناقشة العرض في مجلس الأعيان، تمت الموافقة على الطلب وأرسل جيرمو زورجي إلى إسطنبول لعقد الاتفاقية. ولكن المُوفد ظلّ باقياً في جزيرة كورفو[1] حتى شهر آذار من العام ألف وأربعمئة وخمسة وسبعين بانتظار إذن خطي من السلطان يسمح له بالتوجه للعاصمة. حيث بدأ بالتفاوض مع غيديك أحمد باشا، وقد اشترط عليه الأخير إعادة أمير الألبان إلى مدينة كروجا التي سيطر عليها بعد وفاة إسكندر بيك، وأن تدفع سالونيك مئة وخمسين ألف دوكا جزية سنوية. وحين أوضح الموفد أنه لا يملك صلاحية القبول بهذه الشروط، توقفت المفاوضات. وفي هذه الأثناء

(1) كورفو جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا.

تمّ اصطحابه في جولة لعرض الأسطول العثماني الضخم الذي كان يتم تجهيزه.

ورغم ذلك فقد التزم الطرفان بالهدنة التي استمرت بينهما لمدة عام. وخلال هذه الفترة قام الفاتح بحملته على القرم، بعد أن أصبح أسطوله الكبير جاهزاً. وبعد أن انتهت فترة الهدنة، قرر السلطان أنّ الوقت قد حان لحل مشاكله مع البندقية والتي ظل يؤجلها لفترة طويلة.

ومع حلول العام ألف وأربعمئة وستة وسبعين بدأت الحرب الكبرى، فبعد أن قام أسطول البندقية بضرب سواحل الأناضول، تحركت القوات العثمانية براً وبحراً. وقام سليمان باشا بقيادة جيشه المكون من أربعين ألف محارب بمحاصرة ليبانتو وهو من أهم موانئ البنادقة في المورا، ولكن هؤلاء كانوا قد أحكموا تحصينها. كما أنّ الأميرال لوريدانو كان قد أحكم السيطرة على خليج ليبانتو بواسطة اثنتين وثلاثين سفينة حربية. وإثر اقتراب أسطول البندقية من الساحل وضرب القوات العثمانية المحاصرة لليبانتو بالمدافع، اضطر سليمان باشا لوقف هجماته. وأرسل إلى السلطان ليخبره، أنه ما لم تتم محاصرة المدينة من البحر، سيكون من الصعب السيطرة عليها. لذا فقد صدرت إليه الأوامر بالانسحاب. وحين علمت البندقية برفع العثمانيين الحصارَ عن ليبانتو شعروا بفرح عظيم، وأقاموا القداديس وصلوات الشكر.

من جهة أخرى قام غيديك أحمد باشا مع قوة مكونة من ثمانية آلاف محارب وبمشاركة قوات والي ألبانيا علي بيك ميهال أوغلو بمحاصرة كروجا. وكان تعداد حامية القلعة خمسة آلاف محارب بقيادة فرانشيسكو كونتاريني، وقد تمكن في البداية من التغلب على القوات العثمانية. واستمد جرأة عالية من هذه الانتصارات، فقام بمهاجمة مقر قيادة الجيش العثماني الذي كان في وادي تيرانا، وكان ذلك بمثابة انتحار حقيقي لقواته. حيث قتل المئات من الطليان في ساحة المعركة بمن فيهم كونتاريني نفسه.

أما والي البوسنة عمر بيك تورهان أوغلو، فقد كان مع محاربيه في شهر

أيلول من العام ألف وأربعمئة وسبعة وسبعين في أراضي البندقية. وقد توجه المحاربون نحو كيرتش[1] حيث حفر البنادقة بينها وبين نهر إسونزو[2] خنادق، استطاعت قوات عمر بيك عبورها بكل سهولة، ومن ثم قام بفصل قواته المكونة من ألف فارس إلى مجموعتين، حيث كان يخطط للإيقاع بالعدو.

أقبلت قوات البندقية التي كان يقودها جيرولامو نوفيللو وابنه لملاقاة قوات عمر بيك، وقد بدأ الأخير بالانسحاب منذ بداية القتال مدعياً الانهزام، ورغم جميع تحذيرات نوفيللو، لكنه ابنه واصل ملاحقة القوات المندحرة، ليقع في الكمين الذي نصبوه، حيث وجد نفسه مع قواته محاطاً بالجنود من كل الجهات، ورغم قدوم الأب لنجدة ابنه، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم. فقتل نوفيللو وابنه في المعركة، فيما تمّ أسر الكثير من نبلاء البنادقة، أما القلة القليلة ممن استطاعوا الهرب والنجاة بأنفسهم، فقد لجأوا إلى القلاع المجاورة. وإثر هذا الانتصار قام عمر بيك بنشر قواته في السهل الواقع بين نهر إسونزو وتاليامنتو[3] والذي كان يعتبر خطاً دفاعياً طبيعياً وحصيناً، فاستطاع المحاربون عبوره بسهولة، وأخذوا يغيرون على المناطق الآهلة لمدة شهر كامل. وكان هجماتهم على المناطق المحيطة بنهر بيافي[4] القريب جداً من البندقية، مفاجأة غير متوقعة. حيث كان البنادقة يتفرجون من فوق الأبراج على القرى والبلدات وهي تحترق.

ورغم أنهم جمعوا كل ما لديهم من قوات، واستدعوا قوات إقليم لومبارديا لتساعدهم على وجه السرعة، ولكن عمر بيك كان قد انسحب مع قواته من المنطقة، بعد أن غنموا ثروات هائلة، وآلاف الأسرى. وبذا فقد ردّت السلطنة

(1) مدينة تقع في مضيق كيرش في شرق القرم.

(2) ينبع من الجزء الشمالي من جبال الألب ويمر عبر سلوفينيا وشرق إيطاليا.

(3) نهر في شمال شرق إيطاليا ينبع من فريولي ويصب في البحر الأدرياتيكي في مصب بين تريستي ومدينة البندقية.

(4) نهر في شمال إيطاليا ينبع من جبال الألب ويصب في البحر الأدرياتيكي من مصب قرب مدينة البندقية.

على نهب البنادقة للمدن والبلدات الساحلية العثمانية وقتل سكانها، حيث أحاطوا بعاصمتهم من الجهات الأربعة لينهبوا كل المناطق المحيطة بها، حتى كادوا أن يدخلوها.

اجتمع أعيان البنادقة ونبلائهم، بعد أن أدركوا أن السيل قد بلغ الزبى، وأخذوا يتحسرون متخوفين من القضاء على المسيحية، بعد أن وصل العدو إلى عقر دارهم. لذا عادوا لمراسلة السلطان في العام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين، بعد أن أنهكتهم الحروب الطويلة، وأبدوا موافقتهم على عقد اتفاقية السلام التي اقترحها قبلاً. ولكن إزاء إصرار العثمانيين على استعادة كروجا وأشقودرة، لم تصل المفاوضات إلى نتيجة.

لقد كانت البندقية تواجه أوقاتاً عصيبة، ذلك أنّ الدول التي كانت تعتمد عليها في حربها الكبيرة المقبلة، قد بدأت بالاختفاء واحدة تلو الأخرى. ففي عام ألف وأربعمئة وثلاثة وسبعين، خسرت أهم حلفائها أوزون حسن الذي تعرض لهزيمة كبرى، وقد توفي بعد ذلك بخمس سنوات. أما أمراء قرمان فقد خرجوا من مسرح الأحداث بشكل نهائي. وبعد الاستيلاء على جزيرة وابية، عقدت دولة نابولي التي كانت معادية للسلطنة الصلح معها، عام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين. ولم يكتفِ فرديناند ملك نابولي بعقد الصلح مع العثمانيين، بل قام بإقناع صهره ملك المجر، والذي كان من ألد أعداء السلطان، بمهادنته، والاتفاق معه.

وفي المقابل كان السلطان مستاء من عدم سيطرته على ليبانتو، وكان يريد وضع حدّ لمشاكله مع البنادقة. لذا فقد قرر إرسال الصدر الأعظم غيديك أحمد باشا على رأس حملة للسيطرة على أشقودرة، لكن أحمد باشا رفض طلب السلطان موضحاً له بأن القلعة مبنية على مرتفع صخري منيع، ولم تفلح حتى الآن أي قوة في السيطرة عليها، ولن تنجح الحملة ما لم يقم السلطان بنفسه بقيادتها. وقد ثار غضب الفاتح إثر اعتراض الصدر الأعظم على أوامره،

فعزله من منصبه وقام بحبسه في قلعة روميلي حيصار، وعين مكانه في الصدارة قرماني محمد باشا. ومن ثم بدأ بآخر التجهيزات للحرب الكبرى القادمة.

ففي ربيع عام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين، قام تورهان أوغلو مع محاربي البوسنة بدخول فريولي[1] التابعة للبندقية، وعبور نهر إسونزو، ليدخلوا أراضي الإمبراطورية الألمانية. وفي شهر تموز انضم إليه إسكندر بيك مع قواته. وبعد السيطرة على المعابر المؤدية لمدينة فيلاخ[2] وبعد أن أقام الجيش مقر قيادته لمدة قصيرة في ترابورغ ولينز[3] توجهوا نحو أودية كارينثيا[4] ودرافاتال وجوركتال، وبدؤوا في الظهور في الكثير من المدن والبلدات والقرى في تلك المنطقة، ولأول مرة شاهد سكانها المحاربين العثمانيين الذي سبقتهم سمعتهم منذ فترة طويلة.

وفي شهر آذار من العام ذاته، تلقى ميهال أوغلو أمراً من السلطان بضرب الحصار على أشقودرة. ومن ثم انضم كل من إسكندر بيك ميهال أوغلو ووالي سميديريفو بالي بيك مال كوج أوغلو مع محاربيهم الذين ذاع صيت بطولاتهم، إلى القوات المرابطة أمام أسوار المدينة.

أما الفاتح فقد توجه بنفسه نحو ألبانية، للسيطرة على كروجا التي ضرب عليها الحصار منذ مدة طويلة. وقد سبقه إفرِنوس أوغلو مع قواته لتأمين الطريق وإصلاح الجسور والمعابر التي سيسلكها السلطان في طريقه. ورغم ذلك فقد كان المسير منهكاً وشاقاً بالنسبة إلى الجيش، وذلك بسبب وعورة الأراضي الألبانية وطرقاتها الصخرية الضيقة. حتى أنّ الفاتح قد اضطر للسير مسافة لا بأس بها، رغم وجود شخصين يحملان محفته أثناء تنقلات مماثلة. وأصيب

---

(1) فريولي فينيتسيا جوليا أحد الأقاليم العشرين المكونة للتراب الإيطالي يقع في شمال شرق البلاد عاصمته تريستي.

(2) فيلاخ هي سابع أكبر مدينة في النمسا وثاني أكبر مدينة في الولاية الاتحادية كيرنتن.

(3) مدينة في شمال النمسا يمر بها نهر الدانوب تعتبر أهم مدن شمال النمسا.

(4) هي دوقية تقع في جنوب النمسا، وشمال سلوفينيا.

بإعياء شديد. وفي تلك اللحظات، خاطب هرسك زاده أحمد باشا الذي كان برفقته قائلاً: «لو كان لدي وزير محنك ذو خبرة، لكان قد وفّر علي كل هذا الجهد والمشقة»

وأخيراً تمكن الجيش بعد مكابدته الكثير من المصاعب في الطريق التي أنهكت قواه، من الوصول إلى كروجا التي كانت فيما مضى عاصمة أمير الألبان؛ إسكندر بيك. ولأن القلعة كانت محاصرة منذ فترة طويلة، فقد كان الجوع قد نال من المدافعين، وحين سمعوا أنّ السلطان بنفسه قادم إليهم، فقدوا كل قدرتهم على الصمود والمقاومة. وقاموا بتسليمه القلعة، بعد أخذ الأمان على أرواحهم، وذلك في العام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين.

وهكذا انطلق الفاتح نحو أشقودرة التي أطلقوا عليها اسم إسكندرية ألبانية، لتمييزها عن إسكندرية مصر.

فتح أشقودرة

لقد كانت القلعة مبنية على قمة جبل مهيب في غرب ولاية روميلي، يحاذيها نهر درينا[1] أما من الجهات الثلاث الأخرى، فقد كانت محاطة بثلاثة حصون منيعة هي حصن ليش ودرِغوس وغول باش (سابياكو). وكل واحد منها يطل على مناظر طبيعية غاية في الجمال، وقد بُني حصن ليش في الموقع الذي ينبع منه نهر درينا، وبني حصن درِغوس على قمة جبل عال، أما حصن غول باش فقد بُني على ضفة البحيرة الموجودة هناك. وكانت السيطرة على هذه الحصون أمراً في غاية الصعوبة.

في البداية وصل داوود باشا والي ولاة روميلي، حيث بنى جسراً على نهر درينا، وبدأ بضرب المناطق المجاورة لأشقودرة، ومن ثم ضرب الحصار

(1) درينا نهر في يوغسلافيا طوله 465 كم يخرج منبعاه من الجبل الأسود ويتحدان في البوسنه ثم يتجه النهر شمالاً ليصب في نهر السافا.

على المدينة وذلك في الثاني والعشرين من حزيران، وبعد حصار دام شهرين، تمّ إرساله من أجل محاربة البنادقة. ومن ثم جاء والي ولاة الأناضول سليمان باشا ليحاصر المدينة. وأخيراً وصل السلطان أيضاً إلى هناك في الثاني من تموز، وانضم إلى المحاصرين. وبسبب وعورة المنطقة وطبيعتها الصخرية، لم يتمكنوا من إيصال المدافع إلى أسوار المدينة، فتقرّر توزيع المدافع في المناطق المحيطة بها، وتمّ إحضار كل المعدات اللازمة لذلك، حيث كانت المدافع العثمانية المتطورة تثير دهشة كل من يراها. وقد كان عددها كبيراً جدا، كما أنّ قطرها كان بالغ الاتساع، وكانوا يستخدمون نوعاً جديداً من القذائف، والذي كان مصنوعاً من الصوف المغمّس بالزيت والشمع والكبريت وبعض المواد الأخرى، وكان له صوت حاد ويترك خلفه أثراً حين خروجه، وينطلق بسرعة عالية، ويتسبب في إحراق المكان الذي يصيبه.

وقد أسفرت المدافع التي ظلت تواصل قذف نيرانها من الثاني والعشرين من حزيران إلى الواحد والعشرين من شهر تموز، عن فتح ثغرات كثيرة في جدران القلعة. كما شُنت هجمات قوية عليها في الواحد والعشرين والثاني والعشرين والسابع والعشرين من شهر تموز. ورغم أنّ المهاجمين كانوا يقتحمون الخنادق بجرأة وشجاعة كبيرة، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى القلعة، فقد لجأ المدافعون إلى جميع الوسائل من أجل حماية قلعتهم. حيث كانوا يرمون حجارة كبيرة نحو الأسفل، أو قذائف مليئة بالبارود، أو سلال مليئة بالنفط، وكانت تحدث خسائر كبيرة في صفوف المهاجمين.

قرر الفاتح حين رأى حجم الخسائر في جيشه، إيقاف الهجمات لبعض الوقت. وبعد التشاور مع رجاله وقادة جيشه، تقرر فتح القلاع المحيطة باشقودرة، وقطع طرق الإمداد عنها من كافة الجهات وتجفيف موارد رزقها. وبناء عليه اتجه داوود باشا نحو قلعة غول باش الواقعة على ضفاف بحيرة زينتا، حيث استسلم جان جيرنوفيتش دون إبداء أي مقاومة. أما والي ولاة

الأناضـول سـليمان باشـا الـذي كان يحاصر قلعة درِغـوس، فقد جوبه بمقاومة عنيفة من حاميتها، ولكن مع مجيء داوود باشا لمناصرته، استسلمت القلعة في الواحد من أيلول. ومن ثم توجهت القوات العثمانية نحو قلعة ليش، حيث قام أفراد حامية القلعة بركوب السفن التي كانت تحمل الذخيرة والأسلحة للمدينة المحاصرة، وفروا هاربين بها.

وحيـن علـم العثمانيـون بذلـك اتجهوا نحو السـاحل على وجه السـرعة، وأمطـروا سـفن البندقيـة بنيـران المدافـع. ووسـط تلـك البلبلـة والاضطراب، اصطدمت سفينتان منهما إحداهما بالأخرى بالقرب من الشاطئ. وعلى الفور توجـه المحاربـون العثمانيون نحوهما سـباحة، وتمكنوا من تسـلق السـفينتين، والقبض على معظم جنود البنادقة الذين لم يجدوا الفرصة للهرب، والاستيلاء على السفينتين. وبهذه الطريقة تمكن الفاتح من تجفيف منابع الدعم التي كانت تعتمد عليها المدينة من جهة البر. ومن أجل السـيطرة على القبلة البحرية التي كانت تمدّ المدينة بالمؤن والذخائر، وقام بإنشـاء برجين على طرفي جسـر نهر بونا[1]، وقد زود البرجين اللذين أتمّ بناءهما في اثني عشر يوماً بالمدافع أيضاً. وبات قادراً على فتح أشقودرة دون خسائر.

وبعد أن ترك الفاتح إفرِنوس زاده أحمد بيك على رأس القوات المحاصرة، عاد إلى إسـطنبول في السـابع من أيلول عام ألف وأربعمئة وثمانية وسـبعين. ومع مغادرة السلطان، لم يعد للمدافعين أي منفذ لوصول الإمدادات والمؤن، وتقطعت بهم السُـبُل خاصة بعد السـيطرة على النهر أيضاً. وقد اسـتبدّت بهم الفاقـة والخـوف، ومـات الكثيـرون منهم جوعاً. وبعد حصار دام سـتة أشـهر، اضطروا لتسليم القلعة، بعد أن سدت أمامهم جميع المنافذ، وكان ذلك في عام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين. وهكذا لم تعد هناك أي قلعة أو مدينة في ألبانيا تتبع لحكم البندقية، التي أصبحت ضمن أراضي السلطنة العثمانية بشكل كامل.

(1) يقع في البوسنة، أحد روافد نهر نيريتفا الشهير.

ومع سقوط أشقودرة، انتهت الحرب مع البندقية التي دامت ستة عشر عاماً، والتي تحولت في فترة من الفترات إلى حرب صليبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وقد أدركت البندقية بوضوح فداحة استمرار حربها مع السلطنة، حيث تردت أوضاعها الاقتصادية بشكل كارثي، ولم يعد هناك من تعتمد عليه كحليف في حربها. وعلى إثر ذلك قامت بإرسال جيوفاني دوريو، وكسابقة في تاريخ البندقية، منحته الصلاحية التامة للموافقة على كل شروط الدولة العثمانية.

وقد وافق جيوفاني على جميع شروط السلطنة، مقابل ضمان استمرار نشاطاتهم التجارية في الشرق. وبحسب المعاهدة المبرمة بين الطرفين في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين، ستعيد البندقية كل المناطق التي سيطرت عليها ابتداء من تاريخ الحرب التي بدأت بين الطرفين منذ ستة عشر عاما، وستبقى كل المناطق المحيطة باشقودرة وكروجا تابعة للعثمانيين، ومقابل ذلك سيعيد العثمانيون بعض القلاع التي سيطروا عليها في المورا ودلماسيا[1]، ولن تقوم السلطنة بمهاجمة كل من يرفع علم سان مارك الذي كان العلم الرسمي لجمهورية البندقية، أو أي من حلفائها أو من هم تحت حمايتها. وقد استثنى الفاتح من هذا الشرط، ليوناردو أمير الجزر اليونانية. وكان هذا يشير بوضوح إلى رغبة السلطان في معاقبة الأمير الذي انضم إلى المتحالفين ضد الدولة العثمانية.

كما سيتم إطلاق سراح الأسرى من قبل الطرفين دون أي مقابل. وستدفع البندقية مئة ألف فلورين[2] تعويضاً عن الحرب، كما ستدفع لخزينة الدولة العثمانية عشرة آلاف دوكا سنوياً، واعتبارا من تاريخ عقد هذه الاتفاقية أصبح

(1) منطقة على الساحل الشرقي من البحر الأدرياتيكي، تقع معظمها في كرواتيا الحديثة.

(2) عملة إيطالية ضربت بين 1252–1533 مع عدم وجود تغيير كبير في تصميمها أو مستوى محتوى المعدن. احتوت 54 حبة من الذهب الصافي.

للبندقية سفير دائم في إسطنبول لحل مشاكل رعاياها هناك، والاهتمام بشؤونهم. وقد تمّ تعيين جيوفاني دوريو سفيراً ممثلاً لجمهوريته في إسطنبول، لحين إرسال سفير دائم. وفي الخامس والعشرين من نيسان من العام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين تمت الموافقة على المعاهدة من قبل مجلس الأعيان في البندقية.

مع الانتصارات الساحقة التي حققتها السلطنة العثمانية، حيث أثبتت نفسها كقوة عظمى، انتهت الحرب التي دامت براً وبحراً لمدة ستة عشر عاماً، وتسببت في خسائر كبيرة للطرفين.

قضية مصر

لم تدم صداقة العثمانيين والمماليك التي بدأت مع فتح إسطنبول، حيث تبادل الطرفان حينها السفراء والهدايا، لفترة طويلة. فمع مرور الوقت حدثت بينهما بعض المناوشات والخلافات. وقد ظهرت أولى الخلافات الجدية بينهما، أثناء فتح قنوات المياه في الحجاز، ففي العام ألف وأربعمئة وثمانية وخمسين، أبلغ الحجاج القادمون من مكة، الفاتحَ بالمشاق التي كابدوها بسبب تداعي آبار المياه وعدم صلاحيتها للاستعمال. لذا كلف السلطان بعضاً من معماريّيه بإصلاح هذه الآبار وإعادة فتحها، لتجنيب الحجاج المسلمين هذه المشقات، كما قام بإرسال رسائل إلى ولاة مصر وحكامها يطلب فيها منهم مساعدة المعماريين وتسهيل مهمتهم. ولكن المماليك لم يستقبلوا الوفد العثماني بالترحاب المرجو، وعلقوا على الأمر بالقول:

«هل نحن عجزة عن إعادة تعميرها، حتى يرسلوا إلينا من يعمّر آبارنا؟».. وأعادوا العمال بعد أن أهانوهم. وفي هذه الأثناء أرسل بير أحمد بيك قرمان أوغلو إلى سلطان مصر المملوكي، ليبلغه بأنّ السلطان الفاتح يرمي من وراء قصة الآبار هذه تحريض أمير مكة ضد السلطان المملوكي، وأنه قد أرسل إليه الذهب والهدايا لهذه الغاية.

أما الحادثة الثانية فكانت موقف دولة الآق قوينلو والسلطان المملوكي إزاء دول قادر بيك، حيث كان الطرفان يحاولان وضع الرجل تحت سيطرتهما، وهذا ما تسبب في اتساع هوّة الخلاف بين الطرفين.

كانت الإمارة الدول قادرية (الدولغادرية في بعض المراجع) تضم التركمان الذين يقطنون منطقة شمال ولايات مرعش وحلب والبستان، تحت حكم سليمان بيك حمو السلطان الفاتح، وبعد وفاته حدثت خلافات على العرش بين أبنائه، وقد قتل مالك أرسلان الذي تولى عرش الإمارة بعد والده عام ألف وأربعمئة وخمسة وستين، من قبل أخيه شاه بوداق الذي كان مدعوماً من قبل المماليك. ولكن أعيان المماليك لم يكونوا راضين عن تنصيب السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين خوشقدم لشاه بوداق على عرش الإمارة، وراسلوا السلطان العثماني يطلبون منه إرسال شاه سوار وهو الابن الآخر لسليمان، حيث كان مقيماً حينها في إسطنبول. ولم يستصوب السلطان الفاتح، تدخل المماليك في هذا الصراع الداخلي، لذا فقد أرسل شاه سوار إلى الإمارة الدول قادرية، برفقة قوات من الجيش لمساندته.

وقد استطاع شاه سوار الذي كان معروفاً بشجاعته، السيطرة على قسم كبير من الإمارة وذلك في العام ألف وأربعمئة وستة وستين. وفي هذه الأثناء أرسل السلطان الفاتح رسالة إلى السلطان خوشقدم يطالبه بالاعتراف بحكم شاه سوار. وقد أوضح له فيها بأن الشاه سوار على علاقة وثيقة مع العثمانيين أباً عن جد، وأنّ هذا الأمير قد اشترك معهم في الكثير من الفتوحات، وقدم للسلطنة خدمات جليلة، وأنه قد أرسل مدعوماً بقواته بناء على طلب أعيان التركمان، وطلب منه أن يساعد الأمير ويسانده.

ورغم ذلك لم يتخل المماليك عن مناصرة شاه بوداق، حيث أرسلوا والي حلب بردي بيك على رأس قواته من أجل إعادة شاه بوداق إلى عرش الإمارة. ولكن شاه سوار تمكن من إلحاق الهزيمة بهذه القوات عند قلعة الملك

غـازي[1]. ومـن ثـم قام بالسـيطرة علـى قلاع فكة وأياس وسـيس التابعة لحكم أبنـاء رمضـان[2] الذيـن كانـوا حلفاء المماليك، بعد أن هزمهم. كما سـيطر على دار النـدى[3] التابعـة للمماليـك. وعلـى إثر هذه الفتوحـات، مال تركمان حلب والشام إلى العثمانيين.

وبعد أن تولى الأشـرف سـيف الدين قايتباي عرش سـلطنة المماليك عام ألف وأربعمئة وثمانية وستين، أرسل الأمير كولاكسيز في البداية إلى إمارة دول قادر، ومن ثم الأمير أوبيك، ولكن عاقبتهما لم تختلف عمن سبقهما. وبالمقابل نال شاه سوار لقب الملك المظفَّر بسبب الانتصارات التي حقّقها.

وبسبب الهزائم التي لحقت بقوات السلطان قايتباي، فقد أرسل للسلطان الفاتح يبلغه فيها أنّ علاقات الصداقة بين الدولتين أبدية، وأنه يريد حلّ الخلافات القائمـة بينهمـا، والتـي بدأت مع مشـكلة آبار الحجاج، حيـث أعلم الفاتح بأنه سـيقوم بمعاقبة من قام بطرد المعماريين العثمانيين الذين جاؤوا حينها. ولكن الرسـالة التي ردّ بها الفاتح على السـلطان المملوكي، والتي اسـتفتحها بالقول« إلى خادم الحرمين الشريفين، وأخي سلطان مصر» قد أثارت الخلافات والبلبلة بين الطرفين من جديد، فقد كانت العادة المتبعة حينها أن يخاطب السـلاطين العثمانيون، سلاطين مصر بخادم الحرمين الشريفين، ووالدي السلطان».

لـذا لـم ترقهـم الصيغـة الجديدة في مخاطبتهم، فقاموا باسـتدعاء رسـول السلطان العثماني، ليقابل السلطان قايتباي في اليوم التالي، وأساؤوا إليه بإجباره على تقبيل الأرض تحت قدمي السلطان، وقد ردّ عليهم الرسول بالقول:

«أنا لم آتِ هنا لتقبيل الأرض، بل أتيت أبلغ سـلام سـلطاننا إلى سـلطان مصر».

---

(1) تعرف بقلعة زمانتي وتقع في منطقة بنار باشي في محافظة قيصري.

(2) كانوا حكام منطقة أضنة وميسيس وهي مدينة قديمة.

(3) -تابعة لمحافظة مالاطيا التركية.

ورفض الانصياع لطلبهم، فتعمدوا إهانته قبل إرساله.

ولأن الفاتح كان يولي أهمية كبرى للأعراف الدبلوماسية، فقد قام باستدعاء الرسول المملوكي الذي جاء إلى إسطنبول، وأعرب له عن إستيائه بالقول:

«يبدو أنّ من يحكم مصر ويجلس على عرشها، لا يعرف شيئاً عن الأعراف والتقاليد»

ولكن قايتباي الذي كان يريد التخلّص من شاه سوار، حاول التفاهم مع الفاتح بأي ثمن، فعاد لإرسال وفد جديد إلى إسطنبول محمل بالهدايا الثمينة. وعرض عليه منحه أراضي إمارة الدول قادرية، مقابل تخلي الفاتح عن مساندة شاه سوار.

ثمن الخيانة

في تلك الأثناء كانت علاقة شاه سوار مع السلطان قد بدأت تسوء، فرغم تعهده بإرسال قواته لدعم السلطان وقت الحاجة، لكنه تخلف عن هذا الالتزام حين خرج الفاتح في حملته على قرمان. كما أنه أخذ يتواصل مع بير أحمد بيك قرمان أوغلو الذي هرب إلى إمارة الدول قادرية. ولهذه الأسباب وافق السلطان على طلب المماليك، وقطع الدعم عن شاه سوار.

أما السلطان قايتباي، فقد أرسل قواته إلى إمارة الدول قادرية بقيادة الأمير يشبك. وإثر الهزيمة التي تعرض لها شاه سوار بالقرب من عنتاب عام ألف وأربعمئة وواحد وسبعين، هرب للاحتماء في قلعة الملك غازي. وقد استسلم بعد وقت قصير، شرط تبعيته للسلطان قايتباي، وبقائه على عرش إمارته.

وقد نقل إلينا كمال باشا زاده هذه الحادثة عن شاه سوار بيك:

«بعد أن تمكنت قوات المماليك من أسر شاه سوار الذي كان محتمياً في قلعة الملك غازي، أخذته معه إلى مصر. وقد خاطب الأمير يشبك أحد رجاله بالقول: اذهب للتحقق من وضع شاه سوار بيك، وانظر ما يفعله. وقد اقترب

الرجل من شاه سوار وسأله عن حاله، فأشار شاه سوار إلى السلاسل الموضوعة حول عنقه وهو يقول:

إن جئت لتتأكد من السلاسل التي في عنقي، فهي معلقة منذ ثلاث سنوات، ولكن لم يكن يراها أحد سواي، وقد كان رأس السلسلة في يد عبد أسود ضخم الجثة، يرافقني أينما ذهبت، وحيثما حللت، ولا يفارقني ليلاً أو نهاراً. وذلك لأنني خرجت عن طاعة السلطان محمد الفاتح، وفقدت جادة الصواب، حين انتابني الغرور وبدأت أختال صلفاً في مجالس الأنس والشراب مع ندمائي وخلاني، وأخذت أردد أمامهم أنني لم أعد بحاجة للمثول أمام باب السلطان طلباً للمساعدة، وأنوي الاستقلال بإمارتي، وأخذت أتبجّح بالقول، أنه لو كان سلطان العالم برمته فلن أعود لطاعته. ولن أحني قامتي أمام ابن عثمان وأخدمه، فأنا أيضاً سلطان مثله، لديّ دولة وشعب، وأرض زاخرة بالخيرات، وجيش قوي، ولا أخشى أحداً.. وقد سارع بعض رفاق السوء ممن كانوا في المجلس وسمعوا كلماتي لاستغلال الفرصة وهم يقولون: إن كنت صادقاً في ما تقول، فأحضر راية الحرب والطبل اللذين منحهما لك ابن عثمان ومزقهما أمامنا، وأجهر تمردك عليه..

دبت فيّ حماسة الغرور وجهل الكبرياء الأجوف، فقمت بإحضار البيرق الذي منحني إياه السلطان والذي كنت أرفعه في كل حملاتي كرمز لقوتي وقوة حاميّ، ومزقته أمامهم إرباً إرباً. وعلى الفور بدأت معاناتي، حيث رأيت عبداً أسود اللون ضخم الجثة كريه المنظر يقف أمامي، يمسك السلسلة بإحدى يديه، وبالأخرى عصا كسارية سفينة. وقد طوق عنقي بالسلسلة، ولم أقدر على منعه، حيث أمسك بطرفها الآخر، وقد ظننت للوهلة الأولى أن كل من حولي رأى ما ألمّ بي، ولكن حين لم يبد أي منهم انطباعاً حول ما جرى لي، أدركت أنّ ما من أحد سواي قد رأى ما حصل.

وقد كان هذا العبد بسلسلته يرافقني في حلي وترحالي، ولا يفارقني سوى

عنـد أداء فرائـض العبـادة وقـراءة القـرآن الكريم، حينها أدركـت أنه ليس بمسٍّ شيطاني، بل هو بلاء وعقاب من الله جل جلاله، لتمردي وعصياني. ومنذ ذلك الوقـت وحالتـي تـزداد سـوءاً حتى أنني بتّ أكره البقـاء حياً.. وقد انقضى على الأمر ثلاث سـنوات، وها أنا ذا أسـير بين أيديكم، وقد ضرّبت السلسـلة على عنقي.. أمّا سلسلة العبد فقد كنت أراها دون سواي، وأمّا هذه السلسلة فيراها جميع أفراد شعبي»..

وعلى خلاف ما وُعد به الشـاه سـوار، فقد تمّ أسـره وأخذه للقاهرة، ولم يلتـزم المماليـك باتفاقهـم معـه، حيـث أعدمـوه مع ثلاثة من أشـقائه على باب الزويلة..

ومن ثم قام قايتباي بإرسـال شـاه بوداق مرة أخرى على رأس حملة إلى الإمارة الدول قادرية، وهذا ما أثار اسـتنكار السـلطان الفاتح. وبعد فترة وجيزة تمّ إرسال علاء الدولة بوزكورت دول قادر أوغلو الذي كان يحتمي بالسلطان منـذ بعـض الوقـت، برفقة القـوات العثمانية للتوجه إلى الإمـارة الدول قادرية. ولكن الجنود العثمانيين الذين كانوا يسيرون تحت إمرة علاء الدولة هُزِموا أمام المماليك، وتمّ أسر عدد كبير منهم. وقد قام حاكم قلعة سيس بسوق الأسرى إلـى القاهـرة، حيث أخذوا يلهون برؤوسـهم المقطوعـة ككرات في لعبة الكرة والصولجان، وهذا ما جعل الحرب أمراً لا مفرّ منه بين الدولتين.

قـرر الفاتـح وضـع حـدّ لتصرفات قايتباي التي اتسـمت بوحشـية فظيعة، فقام بإعادة إرسـال علاء الدولة مرة أخرى إلى الإمارة الدول قادرية عام ألف وأربعمئة وثمانين. وفي التاسع والعشرين من نيسان عام ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، وبعد أن كان قد بلغ الثامنة والأربعين من العمر ورغم أنه كان مريضاً، توجه إلى أوسكودار، واستقل العربة وأمر بالتوجّه نحو الشرق. ولكن إلى أين كانت الحملة متجهة، هذا ما لم يكن أحد يعلمه على جري العادة..

حملة رودوس

مـع فتـح إسـطنبول وافقـت كل الجـزر على منح الجزية للدولـة العثمانية باستثناء جزيرة رودوس. لذلك توجّهت حملتان إلى الجزيرة، الأولى عام ألف وأربعمئة وخمسة وخمسين، والثانية في العام ألف وأربعمئة وسبعة وستين، ولم تنجـح أي منهمـا. وبعـد عقد الصلح مع البنادقة، اتجه اهتمام الفاتح من جديد نحو رودوس، حيث عرض عليهم عقد اتفاقية سلام، مقابل دفع جزية سنوية، ولكن رودوس عادت لترفض العرض مبينة أنها تتبع لسـلطة الفاتيكان بشـكل مباشـر، ولا يجوز لدولة مسـيحية مسـتقلة منح جزية للدولة العثمانية، ولكنها وافقت على إرسال الهدايا بدل ذلك كل سنة.

أخـذ الفاتـح بالعمـل على تقوية أسـطوله من جهـة، بينما كان يقوم بجمع المعلومات عن الجزيرة من جهة ثانية. وقد أرسـل ثلاثة ممن اعتنقوا الإسـلام ويعرفون الجزيرة بشكل جيد، ليقدّموا الخطط والمعلومات حول كيفية محاصرة الجزيرة. وقد قام السـلطان بفحص الخرائط والمعلومات التي أرسـلها هؤلاء الثلاثة – حيث كان أحدهم ينحدر من رودوس والآخر من وابية والآخر ألماني الأصل– وبعد إضافة التعديلات عليها، عيّن الوزير مسيح باشا قائداً للأسطول الذي أرسـله نحو الجزيرة، وخرج هو أيضاً فيما بعد على رأس أسـطول صغير من أجل استكشاف الجزيرة بنفسه.

وفي تشرين الأول من العام ألف وأربعمئة وتسعة وسبعين، انطلق مسيح باشـا نحـو رودوس حيـث أنـزل جنوده على شـاطئها، ولكن بسـبب الهجمات العنيفة التي تعرضوا لها من قبل فرسـان الجزيرة، عادوا أدراجهم إلى سـفنهم، وتوجهوا نحو ميناء مرمرة، وقضوا الشتاء هناك بانتظار قدوم الأسطول الأساسي لمساندتهم.

كانت الجزيرة تُدار من قبل فرسـان القديس يوحنا الأورشـليمي، وهؤلاء هم الفرسـان الذين رافقوا الحملة الصليبية التي أتت من أجل أخذ القدس من

يد المسلمين والسيطرة عليها، وبعد أن تمّ إخراجهم منها، توجهوا نحو عكا، ومن هناك إلى جزيرة قبرص عام ألف ومئتين واثنين وتسعين، ولم يوافق ملك الجزيرة على بقائهم فيها بسبب تخوفه من مطامعهم، وحينها انتقلوا إلى رودوس. وقد اشترطوا على إمبراطور بيزنطة أندرونيكوس الثاني منحهم الجزيرة مقابل مساندتهم له في حروبه. وإثر رفض الإمبراطور لطلبهم، عادوا في عام ألف وثلاثمئة وستة برفقة أسطول للاستيلاء على الجزيرة وذلك بدعم وموافقة من البابا. واعتباراً من هذا التاريخ تحولت الجزيرة إلى أكثر القواعد المسيحية عداء ومحاربة للأتراك والمسلمين عامة. وقد أجازوا للقراصنة الرسو في موانئهم، كما قام قراصنة الجزيرة بمساعدة البنادقة في حروبهم ضد الدولة العثمانية، واشتركوا في كل الحملات والاتفاقيات المناهضة للسلطنة.

وبعد اعتداءاتهم المتواصلة، أدركوا أنّ الفاتح لن يدعهم وشأنهم، وخمّنوا ما الذي ينوي فعله بحقهم ما إن يجد الوقت المناسب، لذا قاموا بتجهيز قلعتهم، وخاصة بعد هجوم عام ألف وأربعمئة وسبعة وستين، حيث جعلوها من أكثر القلاع تحصيناً في ذلك العصر. وقد صرفوا معظم عائدات الجزيرة على تقوية تحصينات القلعة وتعزيزها، فقاموا ببناء الأبراج والقلاع على الطرف البري منها، أما على الجهة البحرية فقد أنشأوا الأسوار والجدران العالية وحفروا خنادق عميقة الغور حول القلعة، بحيث أصبح الوصول إليها أمراً في غاية الصعوبة، وإضافة إلى ذلك فقد ملأوا القلعة بمؤن تكفيهم لمدة ثلاثة أعوام كاملة.

كانت مدينة رودوس التي تشكل مركز الجزيرة مبنية على الرأس الشمالي لها. وكان الطرفان البريان للرأس والمقوّسان، متقاربين ليشكلا ميناء واسعاً وآمناً. أما الجزء الباقي من الرأس الذي تقع عليه المدينة، والذي يقع على يسار السفن التي تدخل إلى الميناء، فقد تم بناء طواحين هوائية عليه، وفي نهايته كانت تقع قلعة الملائكة والتي تمّ تحصينها هي أيضاً.

تولى قائد الفرسان وحاكم الجزيرة بيير دو بوسون، مسؤولية تحصين

القلعة وتجيهزها بنفسه. حيث قام بإرسال الرسائل إلى فرسان القديس يوحنا الأورشليمي الذين انتشروا في الكثير من البلدان، يستدعيهم فيها إلى الجزيرة للدفاع عنها. وبذا استطاع أن يجمع سبعة آلاف محارب وفارس في الجزيرة. وقد خبئ في الميناء الكثير من القوارب التي تحمل مواد قابلة للاشتعال، بهدف إحراق سفن الأسطول العثماني.

وفي بداية ربيع العام ألف وأربعمئة وثمانين، توجه الأسطول العثماني المكون من مئة وستين سفينة حربية إلى حيث كان يقيم مسيح باشا، وانضم إليه، لينطلق مرة أخرى نحو رودوس. وفي شهر آذار أعلم جواسيس الجزيرة المنتشرون بكثرة في البحر، عن اقتراب الأسطول العثماني، وذلك بقرع الأجراس. حيث انطلق بيير دو بوسون، رفقة فرسانه كافة لرؤية الأسطول العثماني الهائل، وسط دهشة وخوف شديدين.

ولم تظهر أدنى مساعدة للجزيرة التي شكلت على مدى قرون معقلاً للمحاربين النصارى، لا من الشرق ولا من الغرب. رغم أنها وقبل بضع سنوات كانت تحتل مكانة كبيرة بين بقية الدول المعادية للسلطنة، حتى أنها كانت تراسل أوزون حسن أثناء حربه مع السلطان. لذا فقد حاول بيير دو بوسون أن يشعل حمية فرسانه الدينية، وأن يستحثهم للدفاع عن القلعة بدمائهم وأرواحهم، مبيناً لهم أنّ يوم التضحية العظيمة قد بات قريباً.

وقد تمكن الأسطول العثماني من إنزال جنوده بالقرب من جبل القديس إيثين، في الثالث والعشرين من آذار، رغم مقاومة المدافعين. حيث قاموا بضرب برج القديس نيكولاس الذي بني على بعد ثلاثمئة قدم عن ساحل البحر. وخلال ستة أيام متواصلة من ضرب المدافع، انهالت على البرج أكثر من ستمئة قذيفة، وبدا من الواضح أنه آخذ في التداعي. حيث انهار قسم كبير من البرج، من الجهة المطلة على اليابسة، ولكن الفرسان تمكنوا من حفر خندق خلف الأماكن المهدمة، وغطوه بطبقة من الأخشاب والتراب، وقد كان لهذا الخندق

أثـر بالـغ الفداحـة على الجنـود العثمانيين الذين تقدموا نحو البرج، ووقعوا في هذا الخندق، حيث استشهد أكثر من سبعمئة محارب منهم.

أما الهجوم الثاني فقد قام به مسيح باشا في ليلة التاسع عشر من حزيران، حيث قام ببناء جسـر يوصل بين أسـطوله وميناء القديس نيكولاس الذي كانت تتكسر على صخوره الوعرة الأمواج، وذلك من أجل نقل المدافع إلى اليابسة، ولكن ثقلها تسبب في تحطم الجسر وسقوط كل من عليه، فتسببت هذه الكارثة في استشهاد ألفين وخمسمئة محارب ابتلعتهم الأمواج.

وبعد ذلك تخلّى مسـيح باشـا عن محاصرة القلعة من جهة البحر، وأخذ يضربهـا بالمدافـع مـن جهة البر. حيث كانت نيرانهـا متجهة نحو أضعف نقاط السـور، المقابلـة لحـي اليهـود، وقد اسـتمرت المدافع في إطـلاق نيرانها لمدة خمسة وثلاثين يوماً.

ولكن الفرسان تمكنوا من بناء سور آخر بدل السور الذي تهدم قبالة حي اليهود، وحفر خندق مكان السور المتهدم. كما وضعوا منجنيقات ضخمة فوق السور والتي كانت تمطر الجيش العثماني بحجارة ضخمة، ورغم ذلك فقد نال الخراب من أجزاء كبيرة من الأسوار.

وقبل أن ينفذ مسـيح باشـا هجوماً جديداً، عرض على المدافعين تسـليم القلعة بطريقة سلمية، ولكن عرضه قوبل بالرفض. وعلى إثر ذلك أعلن جواز النهـب بعـد القيـام بفتح القلعة. وفي الليلة التي سـبقت الهجوم كانت أصوات الجنـود وهـم يرددون الله الله تشـق عنان السـماء. وبـدأت المدافع الثمانية التي بحوزتهم تدك الأسـوار طوال النهار، حتى تسـببت في تخريب معظم أجزائه. أما الخندق فقد تمكنوا من ردمه. وبهذا بات كل شيء جاهزاً من أجل الهجوم العام.

بدأ الهجوم العام في الساعات الأولى من صباح الثامن والعشرين من تموز. حيـث تمكـن المحاربـون الـذي انطلقـوا بعزيمة كبيرة وتجـاوزوا الخندق، من

تسلق الأسوار، ونجحت الهجمات العنيفة التي شنوها في رفع العلم العثماني على مواقع عدّة فوق الأسوار. ومن ثم واجههم الفرسان الذين تغطيهم الدروع الحديدية من الرأس وحتى القدم، كجدار حديدي يتصدى لكل الأسلحة، ويقتل كل مـن يقـع فـي طريقـه، إلا أنّ المحاربين العثمانيين نجحوا في تجاوزه أيضاً، والتغلـب عليـه. ومـن ثم علقوا السـلالم على الجهة الداخليـة وبدأوا بالنزول، متأهبيـن لدخـول القلعـة. ولكن المدافعين في هـذه الأثناء رصفوا براميل مليئة بالنفط في الجهة الداخلية من الأجزاء المتهدمة للأسـوار، وأشـعلوا فيها النار، وعلى حين غرة حولت الانفجارات المكان إلى كرة نار ملتهبة.

دبّ الذعر بين الجميع، حيث أخذوا يتراكضون في كل الاتجاهات، بينما قام بيير دو بوسون برفع العلم الكبير الذي كان إحدى شعائر معتقداتهم، وقاد الهجوم بنفسـه. وحين رأى فرسـانه العلم الكبير يرفرف، دبت فيهم الحماسـة مجدداً، وعادوا إلى الهجوم باندفاع، حيث عادت المعركة لتشتدّ مجدداً. وفي تلك الأثناء أعلن مسـيح باشـا حين رأى جنوده يتجهون نحو القلعة، أنّ النهب غير مسموح لهم، وأنّ كل ما سيغنمونه هو ملك للسلطان فقط. وقد أدى تراجعه عن الوعد الذي قطعه لهم قبل ثلاثة أيام إلى ترك أثر سلبي على معنويات الجند، فتوقفوا عن اللحاق برفاقهم الذين دخلوا القلعة، لمدهم بالعون.

وقـد لاحـظ المدافعون ما آل إليه وضـع المهاجمين، فارتفعت معنوياتهم أكثر، وأخذوا يزيدون شدة الهجمات على الجنود العثمانيين داخل القلعة التي باتوا شبه محصورين فيها، بينما كان بقية رفاقهم يقاتلون وكأنهم مجبرون على الأمر، دون أي رغبة أو حماسـة، وهذا ما غيّر من سـير القتال بشـكل تام. فقام الجنود الذي دخلوا القلعة، بالخروج منها هاربين بعد أن طال انتظارهم للمدد الذي لم يصل. وهكذا خسـر العثمانيون ثلاثة آلاف محارب في هذا الهجوم. وكانت معنويات الجنود منهارة بسبب الخسائر التي لحقت بهم، كما أنهم فقدوا الثقة بمسيح باشا.

وعلى إثر هذه الهزيمة، رفع مسيح باشا الحصار الذي ضربه على الجزيرة منذ ثلاثة أشهر. وحاول في طريق العودة السيطرة على قلعة بودرم التي تعود لفرسان يوحنا الأورشليمي، لكنه لم ينجح في ذلك أيضاً. أما الفاتح فقد منع مسيح باشا من دخول إسطنبول بعد الهزائم التي مُنيَ بها. وما إن وصل إلى ساحل بيشيكتاش (إحدى مناطق إسطنبول) حتى تمّ عزله من منصب الوزارة، وأُرسل إلى جاليبولي. وقد أسف السلطان كثيراً من الفشل الذي مني به أسطوله في جزيرة رودوس، ولكنه صرّح قائلاً: «حين أكون على رأس جيشي، فجنودي قادرون على قهر كل الشعوب، وإنزال كل الأعلام»، وذلك ليرفع من معنويات جنده، ويقوي عزائمهم.

وفي ذلك الشتاء كانت التحضيرات في كل مكان، تتواصل على قدم وساق.

الصخب الذي رافق حملة أوترانتو

بعد أن وحّد السلطان العثماني البلقان ذات الجغرافية المختلطة، وهزم أعداءه في الشرق والغرب، وجعلهم يعترفون بسلطته، شعر بأنّ الوقت قد حان من أجل البدء بتحقيق المشروع الذي كان يخطط له منذ أمد بعيد، حيث كان يطلع على آخر التطورات في إيطاليا من خلال جواسيسه هناك. وكان مدركاً أنّ الحروب الداخلية التي تحركها المطامع بين الدويلات الإيطالية، تساهم في زيادة إضعافها. إضافة إلى ذلك فإن ولاته في البوسنة وشبه جزيرة المورا، كانوا يلفتون انتباهه على الدوام إلى هذه المنطقة.

وقد ورد في الرسالة التي أرسلها والي البوسنة إسكندر بيك ميهال أوغلو إلى السلطان، ما يلي:

«إنّ العسل في منطقة بوليا[1] وفير وحراسه قليل، وهذا ما يجعلها هدفاً

(1) بوليا هي منطقة في جنوب شرق إيطاليا مطلة على البحر الأدرياتيكي في الشرق والبحر الأيوني إلى الجنوب الشرقي ومضيق أوترانتو وخليج تارانتو في الجنوب.

لمطامـع الممالـك التـي حولهـا، لـذا أرجـو مـن الله تعالى أن ييسـر دربها أمام السلطان العظيم»

يسـتخدم الوالـي أمثولـة ليبيـن للسـلطان أن ثـروات المنطقة وفيـرة، فيما المدافعـون عنهـا قليلـون. ومـن جهة أخـرى فقد كان لدى السـلطان جملة من الأسباب للتوجه نحو هذه المنطقة. حيث قام ملك نابولي فرديناند الذي استلم العرش بعد والده ألفونسـو الخامس، بنقض معاهدة السـلم مع الدولة العثمانية أثناء الحملة على وابية، وقام بمساندة أعداء السلطان من خلال أسطوله. ولكن الأخيـر وبعـد معاهـدة الصلـح التـي وقعها مع البندقية واسـتثنى منها أمير جزر اليونـان ليونـاردو، كان يريـد معاقبتـه قبل أي خطوة أخرى. وقد تزوج ليوناردو بعد وفاة زوجته التي كانت ابنة لازار ملك صربيا، من إحدى قريبات فرديناند ملك نابولي. وبسبب عدم أخذ موافقة السلطان عند عقد هذا الزواج، وبسبب دخوله في تحالفات مضادة مع البندقية، وعدم تأديته للشروط المفروضة عليه اتجاه السـلطنة في السـنوات الأخيرة، فقد كان الوقت قد حان لتدخل السـلطان العثمانـي. كمـا إنّ السـيطرة علـى هذه الجزر، كانت سـتقربه خطوة إضافية من جنوب إيطالية، حين تصبح لديه قواعد عسكرية قريبة من سواحلها.

أرسـل السـلطان، غيديك أحمد باشا الصدر الأعظم الأسبق والي فلوره[1] من أجل السـيطرة على الجزر. وقد سـار الباشـا برفقة أسـطول مؤلف من تسـع وعشرين سفينة حربية، وعددٍ كافٍ من المحاربين ومن الإنكشارية، حيث تمكن مـن السـيطرة علـى جزيـرة زانتي، ومـن ثم اتجه نحو جزيـرة كيفالونيا[2]، حيث استسلمت جزيرتا كيفالونيا وليفكادا[3] دون أي مقاومة تذكر، أما ليوناردو فقد هرب ليحتمي في نابولي.

(1) فلوره هي من كبرى مدن ألبانيا وثاني ميناء في البلاد بعد دراج.

(2) هي أكبر جزر البحر الأيوني غرب اليونان.

(3) ليفكادا هي جزيرة من الجزر الأيونية التي تطل على الساحل الغربي لبر اليونان.

وبعد هذه الانتصارات التي حققها غيديك أحمد باشا، انطلق في السادس والعشرين من تموز سنة ألف وأربعمئة وثمانين من فلوره على رأس أسطول مكون من مئة واثنتين وثلاثين قطعة، بينها ثمان وعشرين سفينة حربية نحو سواحل بوليا، وبالمقابل أرسل فرديناند ملك نابولي، ابنه ألفونسو على رأس الأسطول المتوجه لحماية المنطقة. ورغم ذلك استطاع الباشا أن يرسو على ساحل أوترانتو[1] فيما هرب ألفونسو من المنطقة.

وإثر رفض المدينة عروض التسليم، بدأت المدافع العثمانية التي أنزلها الباشا على البر، بدك أسوارها. وانهمرت القذائف والكرات الحجرية التي كانت على درجة كبيرة من القوة، على أسوار المدينة لتحدث فيها الكثير من الثغرات، وفي ليلة الجمعة في الحادي عشر من شهر آب بدأ الهجوم العام. وبعد قتال دام لوقت قصير استطاع العثمانيون السيطرة على القلعة. وكان قائد حامية القلعة فرانسيسكو بورلو وابنه من بين القتلى. وبعد الاستيلاء على القلاع المجاورة، تمكن أحمد باشا من بث الرعب في المنطقة من خلال انتصاراته السريعة. ومن ثم قام بترميم قلعة أوترانتو وتحصينها بشكل جيد، لأنها ستكون القاعدة الأساسية في الحملات التي سيقوم بالتوجه نحو العمق الإيطالي.

وقد انتشرت أخبار سقوط أوترانتو وقدوم العثمانيين الوشيك، كالنار في الهشيم، في جهات إيطاليا الأربع. ودبّ الهلع في روما، وكأن القوات العثمانية كانت تقف على أبوابها. وكان الرعب الذي رافق هذا الهجوم السريع من الشدة بحيث بدأ البابا نفسه يخطط للهرب من المدينة. وحين أدرك فرديناند ملك نابولي، أنّ ما من مساعدات ستصله من البابا وبقية الدول الأوروبية التي استنجد بها، بدأ يفكر في الانتقال إلى الخطة (ب)، وذلك بتوقيع معاهدة مع السلطان على غرار البندقية، والتسليم بكل شروطه.

وقد صور لنا يحيى كمال المشاعر التي كانت تنتاب العثمانيين بعد فتح

---

(1) هي بلدة وبلدية في مقاطعة ليتشي في إقليم بوليا في جنوب إيطاليا.

أوترانتو، بحيث كانوا يرون أن فتح روما بات قاب قوسين أو أدنى، بهذه الأبيات:

دوى صخب عظيم حين انطلق الباشا

فكانت أوترانتو تستجدي العابرين

وأصوات التكبير والتهليل تعلو وتشدو

وتفتح كل الدروب أمام الفاتحين

لتغدو الدنيا بكل دين وكل قوم

على دين الحبيب وصراط الصالحين

ولكن كانت هناك حقيقة لا تعلمها حتى شعرة لحية الفاتح، وهي وجهته في حملته التي انطلق فيها.

آخر حملات الفاتح

مع حلول العام ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، كانت هناك ثلاث مسائل تشغل ذهن الفاتح. وكانت أهمها هي قضية مصر. فقد تطور الخلاف الذي وقع بين الفاتح وسلطان مصر المملوكي، من قضية فتح آبار الماء على طريق الحج، إلى التنافس من أجل بسط نفوذهما على الإمارة الدول قادرية. ولكن بسبب حروبه مع الدول الغربية، وضبطه لسواحل البحر المتوسط الشمالية، لم يجد الوقت الكافي للتفرغ للمماليك.

وقد تسبب الصراع الذي نشب في العام ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، بين شاه بوداق الذي كان السلطان قايتباي يؤيده، وعلاء الدولة بوزكورت الذي تؤيده الدولة العثمانية، إلى حدوث مواجهة بين السلطنتين مجدداً. حيث هزم علاء الدولة والقوات العثمانية التي كانت تحت إمرته، وتمّ أسر جزء كبير من هذه القوات، والذين تحولت رؤوسهم المقطوعة إلى كرات يلهو بها السلطان المملوكي ورجاله، بعد أن قام والي سيس بإرسال الأسرى إلى القاهرة. وكان هذا أمراً لن يغفره الفاتح على الإطلاق، لذا فقد حان الوقت للتوجه نحو المماليك.

أما الوجهة الثانية فقد كانت جزيرة رودوس والجزر الملحقة بها، وكانت الهزيمة التي لحقت بجيش الفاتح، من أكثر الأمور التي كانت تشغل ذهنه وتثير أسفه في أيامه الأخيرة. حيث تمكن الأسطول الذي انطلق بقيادة الوزير مسيح من ميناء جاليبولي في الثالث والعشرين من آذار عام ألف وأربعمئة وثمانين، أن يرسو في الثامن والعشرين من تموز، وذلك في اليوم ذاته الذي رسا فيه الأسطول الآخر على شاطئ أوترانتو. ولكن بسبب فشل مسيح باشا وقلة حيلته، تعرضت الحملة للفشل.

أما الوجهة الثالثة، فقد حددها الأسطول الذي انطلق في ربيع العام ألف وأربعمئة وثمانين، وتمكن من الرسو على شاطئ أوترانتو في الثامن والعشرين من تموز، واستطاع السيطرة على المدينة بعد أربعة عشر يوماً من المقاومة. وغدت خطوة تمهيدية للحملة التي سينطلق بها الفاتح نحو إيطاليا. ففي ربيع العام ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، بدأت بيارق سلطان العالم وراياته تخفق في أوسكودار. حيث أمر بأن تجتمع قوات الأناضول، في وادي قونيا. كما قام بإرسال والي قرمان الأمير جِم، على رأس قوة من الجيش نحو حدود سوريا.

وأخيراً وفي السابع والعشرين من شهر نيسان سنة ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، انتقل السلطان بنفسه على رأس جيشه إلى ضفة الأناضول. ولكن بسبب اعتلال صحة الفاتح، خيّم الجيش هناك لبضعة أيام، فقد كان مريضاً لدرجة لا تخوله امتطاء حصانه، حيث كان يتنقل بواسطة عربة الخيل. وبدا أنه ينوي الاتجاه نحو الشرق، ولكنه كان يرقد تعباً مرهقاً في خيمته التي نصبت في منطقة مال تيبي[1] القريبة من غيزبة[2]، في الموقع الذي أطلق عليه المرج السلطاني.

كان المرض قد أعياه، واشتدت عليه الآلام كثيراً، فيما الأطباء يبحثون وسط يأسهم عن آخر أمل في العلاج. أما السلطان فقد كان يقضي الوقت القليل

(1) منطقة في إسطنبول في الجانب الآسيوي.

(2) مدينة قريبة من إسطنبول.

المتبقي له، قبل أن تنطفأ شعلة روحه، في ذكر الله، وترديد الشهادتين. وأخيراً أغمض السلطان، الذي جلس على عرش سلطنته مدة ثلاثين عاماً، عينيه عن عمر يناهز الثامنة والأربعين، وذلك في يوم الخميس مساء في الثالث من أيار سنة ألف وأربعمئة وواحد وثمانين.

وقد توفي بعد خروجه من إسطنبول بسبعة أيام. ولم يقم بإخبار أحد عن وجهته، ذلك أنه كان متكتماً لا يبوح بوجهته حتى لأقرب المقربين إليه، ولا يفصح عما في ذهنه إلا حين الاقتراب من وجهتهم المقصودة. ولم تكن من عادته مشاركة أفكاره مع أحد، أو البوح بأسراره أمام الآخرين.

لكن كان من الواضح أن التجهيزات قد تمّ التحضير لها، لوجهة بعيدة. وصحيح أنه توجه نحو الأناضول، ولكن لم يكن من المعلوم إن كان يقصد بلداً عربياً أم أعجمياً، رغم احتمال ضرب رودوس أيضاً، ذلك أنه كثيراً ما كان يتجه نحو أكثر من دولة في حملة واحدة. ولكن نظراً لاتجاه الجيش، ولرغبته في تحقيق انتصار يتوج به انطلاقه كما في كل حملة، فمن المستبعد أنه كان متجهاً إلى إيطاليا. ولو تأخر موته خمسة عشر أو عشرين يوماً لتأكدت وجهة حملته. ولكن الحوادث الأخيرة، واتجاه الحملة نحو الشرق كانت ترجح انطلاقه نحو مصر. وفي الوقت ذاته انطلقت جواسيس العرب والعجم المنتشرون في كل مكان، ليخبر كل منهم بلاده بخروج السلطان على رأس جيشه في حملة جديدة.

أما الفاتح فقد عبر عن آلامه التي ازدادت وطأتها حال بلوغه البر الآسيوي من سلطنته، بهذه الكلمات:

آه من آلام الجسد وأشواق الروح

آه من فراق بالعبرات يبوح

ومن المرجح أنه شعر بأنّ هذه الحملة هي الأخيرة التي سيقوم بها قبل الوداع.

هل سُمِّم الفاتح؟

في الحقيقة إنّ أسباب موت السلطان محمد الفاتح، موضحة في المصادر التاريخية بشكل وافٍ. ذلك أنه أصيب بمرض النقرس منذ العام ألف وأربعمئة وأربعة وستين، وأخذ يكابد آلامه. وفي حملاته الأخيرة زادت عليه الأوجاع، حتى أنه لم يستطع الالتحاق ببعض منها لهذا السبب. وفي حملة وابية، حين وصلت آلامه وأوجاعه حداً لا يطاق، عبر عن الأمر بالقول: «ما من وزير كفؤ، يمكنني الاعتماد عليه في أوقات كهذه»..

وفي السنوات الثلاث الأخيرة من عمره، كان وضعه الصحي سيئاً جداً، بحيث عجز عن الخروج على رأس حملاته على جري العادة. وفي حملته الأخيرة اشتدت عليه الآلام، ووصل المرض حداً تعذر معه العلاج والدواء، وقد كان موته نتيجة لذلك. وهذا ما تتفق عليه معظم المصادر المعاصرة له، العثمانية منها والغربية، والتي تتحلى بالجدية والموضوعية.

ويقول المؤرخ كمال باشا زاده:

«لقد عصفت به يد الدهر، وحل الضعف مكان القوة، وأصبح بالكاد يستطيع أن يخطو على قدميه. لذا لم يكن يستطيع أن يعقد العزم على سفر بعيد. ومرض النقرس هو مرض وراثي، وحين يشتد ويصل إلى مراحل متطورة، فإنه يصبح خطراً ويسبب آلاماً مبرحة»..

أما المؤرخ عاشق باشا زاده فيقول: «سبب موته هو المرض الذي أصاب قدميه، بحيث عجز الأطباء عن إيجاد علاج له. وفي النهاية اجتمع الأطباء واتفقوا على سحب الدماء من قدميه. ولكن الآلام اشتدّت عليه أكثر. ومن ثم بدأوا بإعطائه شراباً مهدئاً. وأخيرا سلم الروح للباري العلي»..

ويحدثنا طورسون بيك عن مرض السلطان: «وفيما كان يقطع البحر للعبور إلى الطرف الآخر، تنهّد بعمق، فقد عادت إليه آلامه المبرحة من مرضه القديم»..

ومن ثم يوضح لنا سبب موته على الشكل التالي: «نصبت الخيمة السلطانية

في المكان الذي أطلق عليه فيما بعد اسم المرج السلطاني. وقد أدرك أنّ نهايته باتت قريبة، بعد أن أضعف المرض جسده. وكان السلطان الذي أدار شؤون الحكم بشجاعة وحكمة كل هذه السنوات، يعلم أنه محكوم بالفناء وأنها سنة الحياة. وقد ترك السلطة والملك، ليلقى وجه ربه»..

كما يورد لنا الخوجا سعد الدين أفندي الوصف التالي عن حملة السلطان الأخيرة: «لقد كان السلطان الذي انتقل إلى أوسكودار من أجل قيادة الحملة، يشتكي من اشتداد الألم عليه منذ فترة، ورغم ذلك أصر على قيادة الجيش بنفسه. وبعد مكوثه لعدة أيام في أوسكودار، انتقل إلى غيزبة، وهناك نصبت الخيمة السلطانية في المرج السلطاني. حيث كانت الآلام قد زادت من وطأتها، وبات وضعه الصحي سيئاً إلى درجة كبيرة».. ويواصل الخوجا سرده، في أنّ هذه الآلام هي التي كانت سبباً في وفاته:

«وفيما كان الزيت على وشك النفاذ من القنديل، كان السلطان يقضي وقته في ذكر الله وترديد الشهادتين، وكان يأمل في لقاء وجه الله العلي القدير، حيث أدار ظهره للدنيا وسلطانها، وتاقت روحه لدنيا البقاء والخلود، كعصفور أسر في قفص يتوق للخروج منه، وفرد جناحيه في جنان الخلد الأبدية»..

وإزاء كل هذه المصادر، ترد فرضية تسميم الفاتح لأول مرة على لسان المؤرخ الألماني الشهير فرانز بابينغر في العام ألف وسبعمئة وتسعة وستين: «لسنا متأكدين من سبب موت محمد، فكثرة أعدائه وبعض الملابسات المحيطة بموته، تشير إلى احتمال تسميمه. ولا يبدو أنّ البنادقة كانوا متورطين في هذه القضية، بل من المرجح أنّ ابنه بيازيد هو من قام بتسميمه».. وهو بهذا يشير إلى القاتل المحتمل أيضاً.

وهنا يتدخل بعض من مؤرخينا من ذوي الأفق المحدود، وقد اقتنعوا بفرضية التسميم وسلموا بها، ولم يبق أمامهم الآن سوى الكشف عن القاتل. وبالنسبة إلى أولئك المتأثرين بالرؤية الغربية، المتجهين نحو الاستشراق،

فـإنّ بيازيـد الثانـي هو من قام بقتل والده، ولدعم وجهة نظرهم هذه، يخترعون حوادث ما أنزل الله بها من سـلطان، ليشـيروا إلى وجود خلافات بين السـلطان الأب وابنه الشاب. ومن المرجح لو أنّ بابينغر قرأ كل هذه التلفيقات، لصدق الكذبة التي أطلقها.

وبحسـب البعـض الآخـر فـإن كلمات بابينغـر «ولا يبـدو أنّ البنادقة كانوا متورطيـن فـي هـذه القضيـة»، مـا هـي إلا محاولة لإبعاد الشـبهات عنهم. ذلك أنّ السـلطان العثمانـي القـوي، الـذي انطلـق على رأس حملـة قد تكون متجهة نحـو رومـا، جعـل البنادقـة والبابا أيضـاً يقدمون على محاولة قتلـه، وقد وُفقوا في مسـعاهم. وبالطبع لديهم الدليل الداحض لهذه الفرضية، فقد زعموا أنّهم تمكنوا من إقناع طبيب السلطان اليهودي؛ يعقوب باشا، وتوكيله بهذه المهمة، ولكن قيام الإنكشـارية بقتله، حرمه من الهدايا والذهب الذي وُعد به، حسـب زعمهم.

ورغـم أنّ رئيـس الأطبـاء، الطبيـب الإيراني لاري هو من تولى الإشـراف على علاج السـلطان في الآونة الأخيرة. ولكنه لم يوفق في إيجاد علاج ناجع رغم جميع محاولاته. وعلى إثر ذلك اسـتدعى السـلطان رئيس أطبائه السـابق يعقوب باشا، الذي قام بفحصه، ولم يتوصل إلى علاج يخفف من المرض هو أيضـاً. وقـد خشـي بدوره من التدخـل العلاجي حين لاحظ أنّ كل أدوية لاري ومحاولاته لم تسـفر عن أي نتيجة. وبعد تشـاور الأطباء فيما بينهم إزاء تفاقم المرض واشـتداد الألـم، تقرر سـحب دماء من قدمي السـلطان، كما كان متبعاً حينهـا كوسـيلة تحليـل طبيـة، ولكن آلامـه ظلت في ازدياد مسـتمر، وقد فارق الحياة مساء يوم الخميس في الثالث من أيار عام ألف وأربعمئة وواحد وثمانين، بعد غيبوبة قصيرة.

وليـس مـن المسـتبعد أنّ الأطبـاء قـد اختلفـوا فيمـا بينهم، حـول العلاج الأنجع، ولكنهم توصلوا إلى قرار مشترك بعد تشاورهم، حول الطريقة المثلى

لمواصلـة العـلاج. رغـم إدراكهم جميعـاً أنّ المرض بلغ مراحل متطورة، تقف إزاءها معارفهم وخبراتهم موقف العاجز.

ويسـتند بعض المؤرخين المعاصرين في فرضيتهم حول تسـميم الفاتح، على الأبيات التي تركها عاشق باشا زاده، حين يتساءل الشاعر على لسان الفاتح قائلاً:

وقال لِمَ جار عليّ الأطباء

لِمَ اصطبغ دوائي بلون دمائي

إنما هو أكبر دليل على تسميمه. ولكن الاحتمال الأقرب للصحة هو أنها كانت مجرد نجوى من السلطان الذي كان يتقلب وسط آلامه وعذاباته، وتساءل عن سبب فشل أطبائه في العثور على علاج ناجع له. وهي كلمات من الممكن أن يتفوّه بها أي شخص على فراش الموت.

ولكـن الادعـاء بـأنّ الأفراح والابتهاج الذي عمّ أرجاء أوروبا والفاتيكان، ماهـو إلا لتحقـق هـدف البابـا والبنادقة في تسـميم الفاتح، وربط ذلك بيعقوب باشـا وزيـر السـلطان الـذي لازمه منـذ اعتلائه العرش تقريباً وحتـى آخر أيامه، والتشكيك في هذا الوزير القدير والطبيب الخبير، لا يمتّ للمنهج العلمي بأي صلـة. ومـن جهـة أخـرى فإن اتهامه بارتداده عـن الدين، بل وحتى عدم اعتناقه الديـن الإسـلامي بصـدق وقناعـة، ودون دليـل قاطـع، إنمـا هو أمـر غير جائز ومرفوض من وجه نظر دينية أيضاً.

وأخيراً فإن ادعاءهم بأن الإنكشـاريين قاموا بقتل يعقوب باشـا لمسـؤوليته عن موت السلطان، هو ادعاء باطل، فموت الباشا لا علاقة له بهذا الأمر على الإطلاق. إنما هو بسبب الصراع الذي نشب بين ولدي السلطان؛ مصطفى وجِم بعد وصول خبر وفاة والدهما، حيث كان يعقوب باشا وقرماني محمد باشا من ضحاياه، ذلك أنّ الإنكشاريين اتهموه بإخفاء خبر موت السلطان عمداً، بسبب اصطفافه إلى جانب الأمير جِم.

شخصية الفاتح

ولد السلطان العثماني السابع، محمد الفاتح بن السلطان مراد الثاني، وأمه خاتـون، فـي الثلاثيـن من آذار عام 1432. وبسـبب الحرص على تعليمه وتلقينه علوم العصر، فقد تلقى العلم على أيدي أهم العلماء ورجال الدين. وفي اليوم الذي بدأ فيه بالتعلم، أرسل له تشاندرلي خليل باشا حقيبة موشاة بخيوط ذهبية، فيهـا صـرة أوراق. وكان أول معلميـه هـو المـلا يغن، ومن ثم تولى الشـيخ آك شمس الدين، رجل الدين الشهير، تعليمه علوم الظاهر والباطن.

وحين بلوغه الحادية عشرة من العمر، عُيّن أميراً على ولاية مانيسا، بغرض اكتسـاب الخبـرة فـي أمـور الإدارة والحكـم. كمـا كان برفقته علـى الدوام أهم علماء العصر ورجال الدين كالملا غوراني والملا إياس وسواهما، وكان يتلقى الدروس على أيديهم، بحيث غدا ضليعاً في الجبر والهندسة والفقه والحديث والتفسير والتاريخ وعلوم الكلام.

وفـي السـنة التـي تولـى فيها إمارة مانيسـا، توفي أخوه الأميـر علاء الدين والي أماسـيا، فتمّ تعيينه مكان أخيه. وبسـبب فقدان السـلطان مراد الثاني لابنه الشاب، والمشاكل التي تعرض لها مؤخراً، تخلى عن عرش السلطنة لابنه الأمير محمد الثاني، لينزوي هو في مانيسا. ومن المرجح أنه كان يريد الاطمئنان على مستقبل ابنه في الحكم، إزاء الأمير أورهان الذي كانت بيزنطة تحتفظ به، كورقة تهديد. ولكن جلوس فتى صغير في عمره على عرش السلطنة قد أجّج المطامع الأوروبية، ووجه الأنظار نحوه. وبسبب رغبة رجال الدولة في وجود السلطان مراد بخبرته، وثقله السياسـي على رأس الدولة في هذا الوقت الحرج، فقد تمّ استبعاد الأمير محمد عن العرش. واستمرت مدة حكمه هذه المرة، عاماً وأربعة أشهر، ومن ثم عاد إلى إمارة مانيسا، فيما استرجع الأب عرشه.

وتعتبـر هـذه العودة الثانيـة للأمير محمد لتولي الإمارة، على غاية الأهمية من جهة تكوين شـخصيته، واكتسـاب الخبرة والمقدرة التي سـتغير من مصير

السلطنة فيما بعد. ذلك أنه وخلال هذه المدة قد انشغل بتلقي مكثف للعلوم والمعارف المعاصرة له.

ولكنه في الوقت ذاته كان يشارك والده في كل الحملات، حيث رافقه في الحملة التي قادها مراد الثاني نحو ألبانيا، وفي معركة كوسوفو كان يشرف على سير القتال من مركز القيادة في قلب الجيش. وبذا فقد تطورت خبراته القتالية والقيادية تطوراً كبيراً.

كان السلطان الفاتح الذي بقي على عرش السلطنة لمدة ثلاثين عاماً، متوسط القامة، ذا بشرة ضاربة إلى بياض يخالطه الاحمرار، ممتلئ الجسم، ولحيته مثل خيوط ذهبية تغطي خديه الممتلئين. وكان قوي الساعدين، أما أنفه فقد كان معقوفاً قليلاً، ذا شعر كثيف أسود اللون، وبنية قوية. وكان يعي تماماً ما يريد، وما يجب أن يفعله، وما يستطيع القيام به. ويمتلك عزيمة وجرأة كافيتين لتحقيق مهمات تحتاج قدراً كبيراً من القوة، ويتخذ كل التدابير لتوفير أسباب النجاح، وكان إلى ذلك يتحلى بالصبر والهدوء اللازمين.

إنّ التاريخ التركي مليء بالأبطال والشجعان، ويقف السلطان محمد الفاتح في مقدمة الجميع. فهو قد وضع السيف والقلم في المرتبة ذاتها، ومع مجيئه انتهى عصر وبدأ عصر جديد. وقد تقلد مدينة إسطنبول بكل كنوزها ومفاتنها كخاتم مرصع بالفيروز في يده، ليورث هذه المدينة الجميلة، لأحفاده وأحفادهم من بعدهم. لذا فقد كان موضع اهتمام الشرق والغرب على حد سواء. وكلما تمحّصنا شخصيته، تعمقنا أكثر في هذا البحر الذي كان عليه هذا السلطان، وفي صفاته التي لا تنتهي، وهذه بعضها:

«كان السلطان الفاتح شخصاً هادئ الطباع، جسوراً. وأكبر مثال على ذلك، أنه حين رأى اندحار جنوده أثناء حصار بلغراد، توجه بنفسه مهاجماً الخطوط الأمامية للعدو، منخرطاً مع جنوده في القتال. وأثناء الهزيمة التي تلقاها أسطوله حين كان يحاصر إسطنبول، حيث خاض البحر على ظهر جواده، وهو يرى

سفنه تحترق أمام ناظريه».

وكان في الوقت نفسه، عطوفاً متسامحاً. فالعفو والتسامح اللذان أبداهما اتجاه أهالي إسطنبول الذين ظلوا يقاومونه لخمسين يوماً، وتسببوا في استشهاد الكثير من جنوده، فاق حدود التصور، رغم أن ملوك أوروبا في ذلك العصر، وبعد تمكنهم من السيطرة على مدينة ما، كانوا يعتبرون استعباد أهلها وظلمهم بل وقتلهم، حقاً من حقوقهم الطبيعية. كما أنه كان يحترم حرية المعتقد، ولم يلحق أي أذى برعاياه من غير المسلمين، أو حاول التدخل في عقائدهم. وكان يسمح للأسرى الروم بأن يشتروا حريتهم بالأموال التي يجمعونها لقاء عملهم في إعادة تعمير المدينة. وكان التسامح الذي يبديه السلطان تجاههم، أكثر من أن يتوقعه أي شخص عاش في ذلك العصر.

وبحسب ادعاءات الغرب، فإن العثمانيين حين دخلوا المدينة، قاموا بهدم كل دور عبادتهم وكنائسهم وإحراقها. وذلك على الرغم من أنهم من فعل ذلك أثناء حصار المدينة، حيث هدموا أكثر من مئة كنيسة بهدف استعمال حجارتها في ترميم الثغور التي كانت تحدثها المدافع في الأسوار. أما هو فحين رأى من بعيد أحد جنوده يحاول اقتلاع حجر من آيا صوفيا نهاه عن ذلك قائلا: «لقد أبيحت لكم الأشياء التي يمكن شراؤها بالمال، أما الأملاك فهي لي».. وقد عاقب الجندي عقاباً شديداً..

كما أنه كان محنكاً خبيراً في ميداني الحرب والسياسة، وكان يولي انضباط الجيش أهمية بالغة. وينزل أشد العقوبات لدى حدوث أدنى تمرد أو خلل، بالقائد المسؤول عن ذلك. ولم يكن ليحرك جيشه دون وضع خطط وأهداف دقيقة، ولم يكن ليهدر الدماء من أجل مغامرة غير محسوبة العواقب. وقد وحّد الجهود المتفرقة التي بذلها أجداده في الحصول على مناطق وجزر جديدة، في فتوحات جبارة وشاملة، وأسس دولة كبرى لها قوانينها وسياستها، وتتمتع إلى ذلك بالاستقرار. وقد أدت الفتوحات الصغيرة والكبيرة التي قام بها على مدى

ثلاثين عاماً، إلى توحيد جغرافية دولته. ولتحقيق هذه الغاية، خاض في دروب لا تسير عليها الخيول، وفي مياه لا جسور عليها، دون راحة صيفاً أوشتاء. وكل هذه التحركات كانت جزءاً من خطة شاملة، تحدد على وجه الدقة إلى أين عليه الانطلاق، ومتى، وأين يتوجب عليه الوقوف.

ولكـي يعـود منتصـراً من الحملات التـي كان يقودها، كان يخطط للحملة أشهراً عدّة، ويدرس المسألة من كل جوانبها، ويلمّ بها. وكان يوائم بين صفاته كسياسي وكقائد حربي في آن. وحين كان يعدّ لحملة ما على إحدى الدول، كان يطلع على كل نقاط ضعفها وقوتها، وسياستها الداخلية والخارجية، وعلاقاتها مع دول الجوار وبقية التفاصيل بشكل تام. لينطلق على رأس الحملة في أكثر لحظاتـه قـوة، وأضعـف لحظات خصمه. وكان يحرص على إبقاء وجهته سـراً حتى على أقرب المقربين منه. «لو علمت شعرة من لحيتي بما أضمره، لنتفتها ورميتها في النار» وبذلك فقد حرم أعداءه أثناء فتح طرابزون والحملة على أبناء إسفنديار وغيرها في الكثير من المعارك والفتوحات، من الاطلاع على وجهته وجمع معلومات عن جيشه قبل وصوله إليهم.

كمـا كان دبلوماسـياً ناجحـاً، حيث اسـتطاع ان يواجه خـلال ثلاثين عاماً، حروبـاً فـي آسـيا وأوروبـا وتحالفات اجتمعت فيها خمـس جبهات عليه، وفي بعـض الأحيـان كانـت أكثر من عشـر دول تتحالف ضـده في وقت واحد. وفي أوقات مماثلة، كان يدرك أنّ القضاء على هذه الوحدة هو سبيل نجاحه، فكان يدخـل فـي مراسـلات مع بعض الأطـراف منها، ويغريها بالهدايـا والمكافأت، ويخلّ بحلقات الطوق المحيط به.

وكان علـى علـم بـكل التحالفات والمخططات التـي كانت تتم في الدول الغربيـة ضـد السـلطنة. وفـي إيطاليا بالذات كانت لديه مصـادر تطلعه على كل المسـتجدات على الدوام. وكان بفضل هذه الشـبكة الواسـعة من الجواسـيس الذين يمدونه بمعلومات يومية عن أعدائه، قادراً على تخمين تحركاتهم خطوة

بخطوة، فيضع خططه بناء عليها.

وقد كان الجيش مع الأسطول يشكل قوة قتالية متكاملة. وكان يقوم بتجديد تسليح الجيش كل بضع سنوات، ويزوده بما هو أكثر متانة وتطوراً، وهو من وضع الأسس الحقيقية للأسطول العثماني. وكان أول سلطان أَولى المدافع أهمية فائقة في الجيش، والسبّاق لفكرة التأثير النفسي السلبي لصوت المدفع على معنويات العدو. فلم تكن تستعمل من قبل كوسيلة ناجعة لدكّ أسوار القلاع الكبيرة، وتغيير مسار المعركة. لكن الفاتح استطاع إدراك هذه الخاصية واستغلالها، بحيث طوّر من صناعة المدفع، وزاد من نسبة استخدامه كسلاح فعال وأساسي في المعارك، إلى درجة كبيرة. وكان يشرف بنفسه على مخططات صناعة المدفع ونوع القذائف وقياساتها. كما حافظ على أهمية المشاة كعنصر أساسي في الجيش، حيث لم يتحول الجيش العثماني إلى جيش من الفرسان، بل بقي معظمه من المشاة، كما اكتسبت قوات الإنكشارية والحامية الخاصة مكانة أكبر في عهده.

وبالإضافة لحرصه على تنظيم الجيش وتطويره من الناحية التقنية والإدارية، فقد كان يولي اهتماما بالغاً لحركة العمران في دولته، ويريد تحويلها إلى دولة عظمى، ويمهد بذلك لإضعاف أعدائه، من خلال اعتماده على ذوي الخبرة والمعرفة في كل المجالات.

وفي إحدى المرات خلاله توجهه نحو إدرنة، توجه نحو الملا قرمي الذي كان يرافقه بالقول:

– إنّ ولاية القرم تمتاز بكثرة العلماء والأقطاب الدينية فيها، ويقال إنه في إحدى الفترات وجد فيها ما يقارب الست مئة مؤلف يعملون في التأليف والكتابة. هل هذا حقيقي؟

– أجل يا مولاي، هذا ما كان عليه الحال، وقد استطعت اللحاق بأواخر ذلك العهد، ولكن لم يبقَ أثر لتلك الأعمال ولا لمؤلفيها الآن..

وحين سأله السلطان عن سبب هذا التحول، أجاب الملا:

– جاء أحد الوزراء الخونة، ممن أظهر العداء للعلماء، وزرع بذور الشقاق بينهم وبين رجال الدولة، ومع الوقت زادت الخصومات بين الطرفين. ولهذا السبب لحق الخراب بالبلاد، فكما تعلم يا مولانا، العلم والمعرفة هما أسس البناء والتطور في أي دولة»..

وعلى إثر هذه المحادثة، قام السلطان باستدعاء الصدر الأعظم محمود باشا، وأطلعه على ما دار بينه وبين الملا قرمي من حديث، وذكره مرة أخرى بأهمية حماية العلم والعلماء، وتقدير شأنهم.

وقد أولى السلطان الفاتح التواصل مع أتراك الشرق أهمية بالغة، وسار ابنه السلطان بيازيد الثاني على خطى والده من بعده، في طريق تطوير الحضارة العثمانية وتوسيعها.

وتمكن العثمانيون في عهد الفاتح، من بلوغ المدنية والتقدم الذي بلغه أتراك الشرق في عهد تيمورلنك. ولأنه كان يتقن تكلم بعض اللغات الغربية، فقد كان الفاتح مطلعاً بشكل جيد على الحركة الأدبية في الغرب، ولأنه كان يعتقد على الدوام، أن العثمانيين متفوقون على الغرب في كل المجالات، فلم يرَ حاجة لاقتباس شيء منهم.

وهناك بورتريه للسلطان الفاتح في معرض لندن الوطني، حيث يسود الاعتقاد بأنّ هذه اللوحة تعود للفنان الإيطالي جينتيلي بيليني[1] في ظل عدم وجود دليل يثبت صحة هذا الادعاء. رغم أنه وبحسب المعلومات الواردة في مستند هذه اللوحة، فلم يتم العثور بشكل واضح على توقيع الفنان جينتيلي على اللوحة. كما أنّ الفاتح كان قد بلغ الثامنة والأربعين من العمر، حين زار جينتيلي إسطنبول للمرة الأولى. فيما تظهر اللوحة أن عمر الفاتح فيها كان يقارب الثلاثينات على أقصى تقدير. كما لو أنها رُسمت بطلب من السلطان،

(1) رسام إيطالي شهير 1429–1507 هو الابن الأكبر للرسام ياكوبو بيليني.

أليس من المفترض أن تكون في إسطنبول بدل أن تظهر بعد قرنين في البندقية؟ ورغم أنّ بيليني قام برسم بعض اللوحات في حديقة قصر توب كابي، ولكن من غير المعلوم إن كان قد قابل السلطان أم لا.

وكان لدى محمد الفاتح ثلاثة أبناء وبنت واحدة، وقد توفي ابنه الأكبر مصطفى، في قونيا أثناء توليه إمارتها. أما ولداه الآخران بيازيد وهو الأوسط، وجِم الأصغر، فقد نشب بينهما صراع حول العرش بعد موت والدهما. أما ابنته السلطانة جوهر خان، والدتها غول بهار خاتون، فقد تزوجت من أوغرلو محمد بيك بن أوزون حسن الآق قوينلو. وقد رزقا بابن هو غودة أحمد بيك الذي سيصبح حاكم الآق قوينلو فيما بعد.

ميله إلى العلوم

كان السلطان الفاتح، إلى مزاياه كخبير سياسي، وقائد عسكري محنك، يحتل مكانة الصدارة بين السلاطين من حيث اهتمامه بالعلم، وسعة معارفه. فقد تعلم اليونانية على يد جرجس أميروتزيس، كما تعلم اللاتينية والإيطالية على يدي كل من جيوفاني ماريو أنجيوليلو وأنجونيتانو. وكان ضليعاً باللغتين الفارسية والعربية، يولي رجال العلم والدين والصناعة والفن أهمية بالغة، ميالاً إلى التجديد والتطوير بطبعه، مشجعاً لمظاهر التحضر والمدنية. كما أسس جيشاً قوياً، وسخر له كل الإمكانات، فقد قام بتأسيس جيش من رجال العلم والمعرفة والصناعة، ليترأسه بنفسه. وكان الاهتمام بالتعليم وتلقين الناشئة من أهم الأسس التي تعتمد عليها الدولة الجديدة التي بدأ بتأسيسها وتوسيعها. وقد شكل ما يُعرف بصفوف المعارف التي تلقن الطلبة كل أنواع العلوم والمعارف، وتتصدرها العلوم الدينية، والحقوق. وقد اعتبر أنّ إدارة الدولة وفق أسس علمية أمراً أساسياً في سياسته.

كما قام ببناء المدارس، وجذب أقطاب علوم العقل والنقل من كل الأرجاء

إلـى إسـطنبول، بهدف تدريس الطلبة وتعليمهـم. وقد ترك العلماء والمفكرون الذين نشأوا في عصره، مؤلفات في غاية الأهمية. وكان من أهم علماء عصره؛ الملا خسـرف العالم في أصول الفقه، الملا غوراني والملا يغن والملا خضر جلبي في التفسـير، وفي علوم الكلام خوجا زاده، وفي علوم الرياضيات علي كوشـجو، وسـواهم مـن رجـالات العلم والمعرفـة الذين كانـوا يتوافدون على عاصمة سلطنته من أرجاء الدنيا الأربعة.

ويوضح لنا لطيفي[1] الأهمية التي كان الفاتح يوليها للعلم بالكلمات التالية:

«تصفـه المراجـع التاريخيـة بأبـي الخيـرات، وأبـي الحسـنات. فقـد كان عهـد هـذا السـلطان عهـد العلماء والفقهـاء، وعصر الشـجعان والحكماء. وقد بنـى الكثيـر مـن المـدارس والأوقاف والجوامع ودوراً لائقة لسـكن كل أولئك العلماء والمدرسين الذين كان يجلهم ويعظم من شأنهم في كل الفرص، وبكل الإمكانـات، ومـا زالـت آثـاره تلـك باقية حتى الآن. وكان هذا التشـجيع حافزاً لإقبـال المزيـد منهم، ودفعـاً لطموحات الطلبة نحو بلوغ أعلى المراتب. وكان كل أبنـاء الطبقـة التـي تمتلك القدرة والإمكانيات يقومون بتعليم أبنائهم. ولهذا فقـد وصـل تعداد العلمـاء والفقهاء، وأصحاب الخبرات والمهارات في دولته، نسبة لم تبلغها في عهد أي سلطان آخر.

وبسـبب المرتبة العالية التي كان يوليها للعلماء ورجال المعرفة، فقد كان قـادراً علـى تحمـل أمزجتهم وطلباتهم، وغرائب طباعهم بمزاج رائق، ومنحهم حرية التعبير عن أفكارهم. وكان يخاطب من كانوا يُمنحون لقب المعلم بصفة فخريـة وينعمـون بصحبتـه بـ «معلمـي». وفـي فتـرات مكوثه فـي كل من إدرنة وإسطنبول، أو حتى أثناء حملاته، كان يرافقه على الدوام معلموه، ورجال العلم والدين. وكان أكثر متعه، حضور مجالس العلم، وسماع المناقشات التي تدور فيها. وحتى في أثناء خروجه في حملة، كان يستدعي رجال العلم ممن يرافقونه

(1) شاعر ومفكر عثماني من القرن السادس عشر.

بالتناوب، وهو على ظهر الجواد، ويتباحث معهم حول مواضيع دينية وعلمية.

وهناك روايات تقول إن رجال الدولة كانوا يستمعون وقوفاً إلى المباحثات التي تتم في مجالس العلم التي كانت تنعقد في القصر. وهذا يوضح مدى التبجيل الذي كان يعامل به أهل العلم.

وحين انتقل عالم الرياضيات الشهير علي كوشجو من سمرقند بعد وفاة أميرها، حيث كان مدير المرصد الفلكي فيها، إلى بلاد الآق قوينلو، أوفده أوزون حسن إلى إسطنبول، ضمن الوفد الذي قابل الفاتح. وقد أكرم السلطان وفادة الرجل، بسبب المكانة السامية التي يوليها لرجال العلم والمعرفة، وأغدق عليه الهدايا، وعرض عليه البقاء في سلطنته، فوعده العالم بأنه سيأتي ما إن ينهي المهمة الموكلة إليه.

وقد وفى العالم بوعده أمام السلطان. وحين سمع الفاتح أنّ علي كوشجو قد انطلق نحو إسطنبول، أمر بانطلاق فرقة خاصة تستقبله من حدود السلطنة، وبناءً على أوامر شخصية منه، تمَ إكرام وفادته في جميع المناطق التي مرّ بها، حتى بلوغه العاصمة، وقد شمل هذا الإكرام والعناية كل من رافقه من أقرباء وأهل، ويقال إنّ عددهم ناهز المئة. كما خصص لهم السلطان منازل خاصة، وإكراماً للعالم الجليل، باتوا يحصلون على راتب شهري، ووظف بعضا من أبنائهم في مناصب ووظائف الدولة..

وكان لمعلمَيّ السلطان؛ الملا خسرف والملا غوراني، مكانة أسمى من الجميع. وفي الاجتماعات الرسمية، كان يفضل تناول الطعام مع العلماء أغلب الأحيان. وحين كان الملا خسرف يدخل الجامع، كان ينهض لاستقباله، إظهاراً للتوقير والتبجيل. وقد أشار في إحدى المرات إلى الملا خسرف أمام وزرائه بالقول: «انظروا إلى أبي حنيفة هذا العصر».

وقد انخرط الملا خسرف في كثير من الفعاليات العلمية في عهد الفاتح، فقد وضع نظام التدريس مع علي كوشجو لمدارس إسطنبول. كما كان يتخذ

دور الحكم أثناء المناظرات والمناقشات العلمية التي كانت تتمّ بحضور الفاتح. وكان يواصل التمسك بالحيادية والموضوعية العلمية على الدوام.

وكان السلطان محمد الفاتح إلى ذلك مرجعية علمية في الرياضيات وعلم الكلام في ذلك العصر. ويحدثنا المؤرخ البيزنطي كريتوفولوس بإعجاب شديد عن تطويره لعلم حسابات القذائف وصناعتها، بحيث هدمت تلك القذائف جدران العصور القديمة، لتفتتح العصور الحديثة. وبهذا فقد تهدمت القلاع الإقطاعية التي كانت تشكل بنيان أوروبا، وأخذت الدول بالنشوء، ومع اجتماع هذه الدول، تشكلت القوى العظمى، والتي استطاعت بذلك الخروج من العصور الوسطى، ما يعني أنّ السلطنة العثمانية قد دخلت العصور الحديثة قبل أوروبا.

وقد ورد في المعلومات التي أُرسلت أنّ ملك أراغون قال عن الفاتح عام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين، أنه كان يصطحب معه على الدوام عالمين أحدهما يتكلم اللاتينية والآخر يتكلم اليونانية، وكانا على الدوام يحدثانه عن تاريخ العصور القديمة، وممالكها.

ولم يكتفِ السلطان بالاهتمام بالمدرسين، بل شملت رعايته الطلبة الذين يتلقون العلم أيضاً. وكان يحتفظ بسجل عن الطلبة والمتخرجين، والوظائف والترفيعات الممنوحة لهم. وكان يولي عناية خاصة للأذكياء والمتفوقين منهم، ويحرص على أن ينالوا أكبر قسط من العلم، ويتقدموا في مراحله. وقد سأل معلمه خسرف في إحدى المرات: «أرى من نوافذ القصر ضوءاً في إحدى نوافذ غرف المدرسة يظل مشتعلاً حتى الصباح، لمن تلك الحجرة؟». وقد ردّ عليه الملا بأنها حجرة مانيسالي أوغلو.

وكان في بعض الأحيان يتردد على المدارس بغاية حضور الدروس العلمية، ويقدم للطلبة ممن يحضرون تلك الدروس مساعدات مادية ومعنوية. وكان ذلك سبباً لتشجيع الطلبة أكثر، وزيادة حماسهم لتلقي العلم.

وكان يستلطف دعابات الدراويش والعلماء والشعراء، ويغض الطرف عن

بعـض تصرفاتهـم وتعليقاتهـم الغريبـة في الكثير من الأحيـان. ففي أحد الأيام، خرج مع بعض رجاله على جري عادته لتقصي أمور البلاد، بعد أن قام بتبديل ملابسه وتغيير هيئته، فعرفه أحد الدراويش واقترب منه قائلاً:

«لقد أرسـل الله سـبحانه وتعالى مئة وأربعة وعشـرين نبياً، فامنحني آكجة واحدة إكراماً لكل نبي من هؤلاء».. ولكن السلطان شعر بأنه من المتعذر إعطاء الدرويش كل تلك النقود، لذا فقد أجابه: عليك أن تخبرني باسـم كل نبي من أولئـك وأنـت تأخـذ الآكجة المخصصة له».. ولكن الدرويش بطبيعة الحال لم يكن يعرف أسـماء كل أولئك الأنبياء، ولـم يسـتطع أن يحصي له سـوى اسـم عشرة أو خمسة عشر منهم. ولأنه لم يتمكن من معرفة كل الأسماء فقد تخلص السلطان من منحه كل تلك النقود.

وكان الفاتـح سـواء فـي إدرنة أو إسـطنبول، يفضل ارتـداء ملابس مخصصة لجلسـات التعليم، باسـتثناء الأوقات التي يخرج فيها على رأس حملة ما. وكان يضع عمامة من القطن، حول قلنسـوة ذات ثنيات رقيقة ومتراصة. وقد اشـتهرت بدلـة ثيابـه العلميـة، حتى أنّ اللوحات التي رسـمته في حملاتـه وحروبه، أظهرته ببدلته العلمية. رغم أنه في جميع حروبه وفتوحاته وأثناء حصار إسـطنبول، كان يرتدي ملابس عسكرية ودروعاً فصلت خصيصاً لقوامه، ويضع الخوذة على رأسه.

ولعل الواقعة التي حدثت بينه وبين خوجا زاده، هي خير دليل على الأهمية التي كان يوليها لرجال العلم، والعناية التي كان يشملها بهم.

لا مثيل له حتى بين العرب

خوجا زاده هو ابن يوسـف أفندي أحد تجار بورصة. ولأنّ التجار حينها كانـوا يلقبـون بالخوجـا، فقد اكتسـب مصلـح الدين أفندي لقـب الخوجا زاده (ابـن الخوجـا). ولكـن مصلـح الديـن كان يميل إلى العلـوم، وينفر من أعمال التجـارة، لـذا فقـد غـدا منبـوذاً من والده. وقد واصل دراسـته فـي ظل ظروف

صعبة، واستطاع لفت الأنظار إليه بسبب ذكائه واجتهاده، وذلك حين كان طالباً لدى المعلم خضر بيك، أثناء دراسته في المدرسة السلطانية في بورصة. وقد زاد اهتمام خضر بيك به، حيث قدمه فيما بعد إلى السلطان مراد الثاني. وبعد تبوئه منصب قاضي مدينة كاستل[1]، انتقل بصفة مدرس إلى المدرسة الأسدية في بورصة، حيث واصل العمل هناك سنوات طويلة.

أراد خوجا زاده مصلح الدين أفندي، أن ينال شرف مقابلة السلطان، أثناء الجلسات التي كان يعقدها، وتضم خيرة رجال العلم والمعرفة، حيث يغنون المناقشات التي تدور بسعة معارفهم واطلاعهم. وبسبب عدم امتلاكه ثمن الرحلة للقاء السلطان، فقد اضطر للتغاضي عن الفكرة لأمد طويل. وحين علم أنّ أحد طلبته يملك الكثير من المال، استدان منه ثمانمئة آكجة، وخرج مسافراً. وكان الطالب يرافقه، ويقوم بخدمته أيضاً.

وفي طريقه صادف موكب السلطان الذي كان منطلقاً حينها من إسطنبول إلى إدرنة، فانضم إليه. وكان الفاتح قد اصطحب معه الملا سعيد علي، والملا زيرك، حيث كانت مجالس العلم والمناظرات تنعقد في الكثير من الأوقات. وحين رآه الوزير محمود باشا، أقبل نحوه باشاً وهو يقول: «أهلا بمجيئك، فقد حدثت السلطان عنك، تعال لأعرفك إليه في التو واللحظة»..

قام خوجا زاده بتحية السلطان وتقبيل يده، وعرّفه محمود باشا باسم العالم خوجا زاده، وأثنى كثيراً على علمه وسعة اطلاعه، ومن ثم جلس الأخير جوار الملا سعيد علي، وانضم إلى المناقشات والأحاديث المعقودة. وكان بين الحين والآخر يعلّق على موضوع معين، ويبدي رأيه فيه، ويتضح حينها مدى تفوقه وتبحره في العلم والمعرفة. وبعد فترة تفرد خوجا زاده بصحبة السلطان، لذهاب كل من الملا سعيد علي، والملا زيرك. وقد أرسل السلطان الهدايا، وصرر النقود لكل من هذين، فيما لم يتذكر خوجا زاده ولو بهدية صغيرة، وهذا

---

(1) منطقة تابعة لمحافظة بورصة

مـا جعلـه مكسـور الخاطـر، محبطاً. وحين لاحظ تلميذه مـا آل إليه، بدأ بترديد أقاويل السوء عنه وامتنع عن خدمته كما يجب.

وفـي إحـدى اسـتراحات القافلـة أثنـاء الطريـق، وبعد أن قـدم خوجا زاده العلـف لحصانـه، ذهـب ليرقـد تحت فيء إحدى الأشـجار طلبـاً للراحة، وفي تلك الأثناء أقبل ثلاثة من حجّاب السـلطان، وهم يسـألون عن العلّامة خوجا زاده، وكان الناس يشيرون إلى الكهل رثّ الثياب الراقد تحت الشجرة. ولكن الرسـل لـم يصدقـوا هـذه الكلمـات، ظناً منهم أنه على غـرار بقية رجال العلم، لديه خيمة فخمة، ويسـير بين يديه خدم وحشـم، حتى أنهم وبّخوا بعضاً ممن دلهم على خوجا زاده، ظناً منهم أنهم يسخرون منهم. ولكن إزاء الحصول على الإجابة ذاتها في كل مرة؛ اضطر الحجّاب للتوجه نحو الكهل الراقد وسؤاله:

«هـل أنـت حضرة خوجا زاده؟» وحيـن ردّ بالإيجاب، انحنوا يقبلون يده، وأخبروه أنّ السـلطان قد أنعم عليه بمرتبة علّامة، وهنأوه على هذا الأمر. وقد ظـنّ الرجـل أنهـم يسـخرون منـه بادئ الأمـر، ولكنه حيـن رأى بعضاً من خدم السـلطان مقبليـن، وقـد نصبـوا له خيمة كبيرة، وأحضروا معهم فُرشـاً وطنافس وسواها من الأثاث اللازم لتأمين راحته أثناء الرحلة، خلا الثياب الغالية، وعشرة آلاف آكجـة تـمّ تقديمهـا لـه، وقد أحضروا إليه أحد أفضـل الخيول التي كانت برفقتهم، وأخبروه أنّ السلطان ينتظره. حينها فقط صدّق ما قيل له.

فذهب خوجا زاده إلى تلميذه الذي كان يسيء معاملته، ويكيل له الإهانات، وأخذ يوقظه، لكن الفتى صرخ في وجهه متذمراً: «ألا تستطيع أن تدعني وشأني لآخـذ قسـطاً مـن الراحـة؟».. ولكنـه بعد الكثير من الإلحاح فتـح عينيه، فوجد نفسـه أمـام رجـل يرتدي حُلة رسـمية فاخـرة، فانكب على قدميـه يطلب العفو والسـماح. وقـد ردّ إليـه خوجـا زاده أكثـر مما كان يدين به، ومن ثم توجه للقاء السلطان منشرح الصدر، مرتاح البال. فطلب منه السلطان قراءة بعضٍ من كتاب

العزي[1] وبعد مدة من الوقت تمّ تعيين خوجا زاده مدرّساً في مدرسة السلطانية في بورصة، ومن ثم مدرسة صحن الثماني في إسطنبول. وبأمر من السلطان قام خوجا زاده بترجمة كتاب تهافت الفلاسفة. فقد تمكّن من التغلب على العلامة علاء الدين علي الطوسي، بعد أسبوع من المناظرات والمناقشات العلمية بينهما حول الكتاب، وذلك بحضور السلطان وتحت إشراف الملا خسرف، وقد مدحه الفاتح، وأثنى عليه.

وحين وصل علي كوشجو إلى إسطنبول سأله الفاتح عن خوجا زاده بالقول: «كيف وجدته؟».. فأجاب علي كوشجو بأنه لا نظير له بين الروم والعجم. وأردف السلطان قائلاً: «ولا نظير له بين العرب أيضاً»..

أيا نسيماً هبّ من الشمال

كان الفاتح يقّدر العلم ويولي العلماء ورجال الدين اهتماماً كبيراً، كما كان يبذل كل ما في وسعه، من أجل كسب المعرفة، والوصول لمرتبة ترضي معلميه وأساتذته وعلماء عصره. ومن بين هؤلاء العالم الخراساني نور الدين عبد الرحمن جامي[2] وحين سمع بأنه ذاهب لأداء فريضة الحج، أرسل أوامره للمدن والبلدات التي سيمر بها، ممن تقع ضمن سلطنته، بإكرام ضيافته، والاحتفاء به. ولم يكتف بذلك بل أرسل خمسة آلاف ذهبية ورسالة مع سعيد عطا الله القرماني إلى الشام، يدعوه فيها إلى إسطنبول. ولقد سرّ الملا جامي بهذا الاهتمام أيما سرور، وقد استفتح رسالته الإرشادية بمدح الفاتح.

وبعد فترة من الوقت، أرسل له الفاتح رسالة ثانية، يدعوه فيها إلى عاصمته، فقام الملا جامي برفقة حشد كبير للانطلاق متوجهين نحو عاصمة السلطنة،

(1) كتاب العلامة السعد التفتازاني: شرح تصريف الزنجاني. وهو شرح لمتن التصريف المشهور بالعربي والذي وضعه عز الدين إبراهيم بن عبد الوهاب بن عماد الدين بن إبراهيم الزنجاني (ت: 655هـ) وقد شرحه السعد سنة 738هـ

(2) نورالدين عبد الرحمن بن أحمد جامي الخراساني817 ــ 898 هـ المعروف بــ الملا جامي

ولكنه سمع بخبر وفاة السلطان الذي كان يحبه كثيراً والقافلة في مدينة قونيا، فعاد محزوناً من حيث أتى.

وفي ديوان الملا جامي، قصيدة يمدح فيها السلطان الفاتح، وهي توضح مكانة الفاتح لدى هذا العلامة الكبير، إضافة إلى مكانة الدولة العثمانية لدى الممالك والدول الأخرى[1].

«أيا نسيماً هبّ من الشمال، أي بشائر تحمل معك، خذ آمالي إلى المدينة التي غدت موطن الآمال..

أنعش أنفاسهم العطرة وزد الحماسة والإخلاص في قلوبهم المتقدة إلى الحق

حمل جنباتك أدعية الخير من خراسان، وخذها إلى ديار بني عثمان..

اسال في الطريق عن أصحاب المجد، عن بلاد الفاتحين والأبطال..

وحين تصل مرّغ وجهك في تراب أقدامهم، ولا تدخل دون طلب الإذن منهم..

وحين تخرج للقاء سلطان العالم، أخبره أنّ المجد والعز قدر يتوارثه أباً عن جد..

فمن أنعم الله عليهم بهذا العز والاقتدار إنما قلائل، فهو نعمة لا يحصل عليها سوى القلة..

ولكن بطولاتك وفتوحاتك جعلتك جديراً بكل ما ورثته..

فديار الكفر غدت ديار المسلمين، والكنائس غدت جوامع ومقامات..

لقد اجتثثت جذور الظلم والكفر بحكمتك وحنكتك وزرعت الأمان والسلام مكانهما..

ففي كل الظروف كانت الشفقة والرحمة تغلبان طباعك وتقودانك في طريقهما.

---

(1) أغلب الظن أن القصيدة بالفارسية، وقد قام المؤلف بشرحها في أفكار رئيسية.

وكان احترام الفاتح لكبار المتصوفة وقضاء الوقت في مسامرتهم، يبلغ درجة كبيرة. وبعد فتح مدينة إسطنبول، أبدى رغبة كبيرة في قضاء الوقت رفقة العلامة والشيخ الجليل آق شمس الدين. وقد أجاب الشيخ على طلبه بالقول: «مولاي لو ذقت من الكأس التي تجرعناها، لانتفت رغبتك في السلطنة. ولكن بقاء الدولة قوية ومنيعة، ضرورة لاستقرار المسلمين وأمانهم. ولو قبلت بك طالباً، لاختلّ نظام البلاد، وتضرر حال العباد. وهذا إثم كبير، ووزره عند الله سبحانه وتعالى عظيم».. ورفض طلب السلطان مجبراً. ورغم ذلك واصل السلطان حضور دروسه ومجالسه كلما أتيحت له الفرصة. وكان يجد متعة كبيرة في الجلوس إليه ومناقشته لساعات طويلة. وربما لكي يتخلص الشيخ الجليل من إصرار السلطان الشاب وإلحاحه، اختار الإقامة في غوينوك[1].

كما أنه كان يكنّ تقديراً كبيراً، وتوقيراً عظيماً للمتصوفين، وأهل الباطن والعرفان، وكان يسارع إلى خدمتهم، وتوفير أسباب الراحة لهم، ويزورهم على الدوام ليتبرك بدعواتهم الصالحة. وقد اختار الشيخ أبو الوفا[2]، ليكون معلمه في طريق التصوف.

وقد ذهب بنفسه لزيارة الشيخ أبو الوفا، وطرق بابه طالباً الإذن في مقابلته، فرفض الشيخ الجليل الاستجابة لطلبه. وقد استغرب السلطان من هذا التصرف، ففي الوقت الذي لا يردّ عن بابه درويشاً غريباً، يرفض مقابلة السلطان، حيث قال لأحمد باشا بن ولي الدين الذي كان برفقته، وهو يكاد يبكي أسفاً:

«أرأيت يا لالا؟ لقد استطعنا اجتياز أسوار بيزنطة التي وقفت أمامها الجيوش عاجزة لمئات السنوات، ولم نستطع تجاوز عتبة باب هذا الدرويش»..

وقد سأل طلبة الشيخ وأتباعه، عن سبب رفض الشيخ الذي كان يبكي هو

---

(1) منطقة تقع في الجنوب الغربي لمحافظة بولو

(2) هو مصطفى بن أحمد لُقب بصلح الدين ولكنه عرف بالشيخ أبو الوفا. أحد أولياء إسطنبول. ولد في قوينا وتوفي في إسطنبول عام 1490.

أيضاً حزناً، لاستقبال السلطان:

«مولانا! لِمَ لم توافق على استقبال السلطان، والحال أنّ رفضك كان سبباً لحزنكما معاً؟». فمسح الشيخ الجليل عينيه، وهو يجيبهم: «أعتقد أنّ محبتي الكبيرة للسلطان، وحاجته الكبيرة لمجالستي، ستطول وتلهي كلاً منا عن أداء واجباته، وستتسبب صداقتنا ومسامراتنا، في تعطيل شؤون وحاجات الكثير من الرعايا وحاجاتهم. هل فهمتم الآن لماذا رفضت قبول السلطان؟»..

الضرب الذي كان سبيلاً إلى الخير

كان السلطان الفاتح الذي أشار إليه الرسول الكريم بالقول «ونِعم الأمير»، مسلماً تقياً، شديد التعلق بدينه. وكان إلى جهاده الدائم في سبيل الله، يحرص على سنّ القوانين والتشريعات الدينية على الدوام. وأن يتقيد الوزراء ورجال الدولة بأصول الشرع الإسلامي، وعدم إجازة أي شيء خارج حدود هذه التشريعات. وفي فترة حكمه، حين كان الشيخ الملا بهاء الدين القاضي العسكري في إدرنة، اقترف داوود آغا وهو أحد آغاوات إندرون جرماً ما، وهذا ما أثار غضب وكيل القاضي أثناء جلسة المحاكمة، فاحتدّ عليه كثيراً بل حتى إنه نهض وتهجم عليه، فما كان من داوود آغا، إلا أن قام بضربه. وحين سمع السلطان الفاتح بالحادثة، استاء كثيراً وثارت ثائرته، لتعرض شخص مكلف بتطبيق قواعد الشرع وأصول العقيدة الإسلامية، لإهانة كهذه. حيث اعتبر الأمر استخفافاً وإساءة للدين، وأمر بقتل داوود آغا على الفور. ورغم محاولات وزرائه ورجالات الدولة التشفع له، ولكن السلطان بقي مصراً على رأيه. وأخيراً طلبوا من الملا بهاء الدين التدخل، وحل المشكلة، وقد أفتى الملا الحادثة على الشكل التالي «حين ينهض وكيل القاضي محتداً على أحد أثناء النظر في قضيته، تسقط عنه صفة الوكالة، وبالتالي لم يتم ضربه حين كان وكيلاً. وبناء عليه فلا إساءة للدين في هذه الحالة» وتمكن من إقناع الفاتح بالتراجع عن قراره.

وبعد مرور بعض الوقت، قدم داوود آغا إلى إسطنبول، وطلب مقابلة السلطان من أجل طلب العفو منه، وقد استقبله الأخير وهو يخفي عصا، وما إن أقبل داوود باشا، حتى انهال عليه السلطان ضرباً، ليعرف الجميع عقوبة إهانة الدين والشرع. وقد كان هذا الضرب سبباً في رقود الآغا في فراش المرض مدة أربعة أشهر، بحيث تفكّر في أخطائه وقرر العودة عنها. حتى أنه تقلّد فيما بعد منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان بيازيد الثاني. وكان يردد على الدوام بأن ذلك الضرب كان سبيلاً إلى الخير، ويدعو على الدوام بالمغفرة والرحمة للسلطان الفاتح.

أما حرص السلطان على أداء رعاياه لفريضة الصلاة، فتظهر بوضوح من خلال الفرمان الذي أرسله إلى ولايات الروم التي تتبع لحكمه:

«لقد كلفنا الله سبحانه وتعالى، بتنفذ أوامره، والنهي عما نهى عنه. لذا فهناك أمور وجب علينا التنويه إليها: جميع الرعايا المسلمون ممن يقطنون في ولايات الروم، ملزمون بأداء فرائض الدين الإسلامي دون مخالفة أو تخاذل، وعليهم السير وفق ما جاء في كتاب الله الكريم، وسنة رسوله العظيم. وإلا فمعاقبتهم أمر واجب. لذا يجب عليهم العمل بما ورد في الحديث الشريف (الله الله في الصلاة فإنها عمود الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين)، وإلا تحولت المساجد ودور العبادة إلى خراب وأطلال، وازدهرت عوضاً عنها، أماكن الرذيلة والفسق والفجور. وتصلني بين الحين والآخر، أنباء عن مخالفات في هذا الشأن، ولكي أتبين صحة الأمر، فسأقوم بما يمليه عليّ واجبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأرسل أحداً ليقوّم الأمور، ويعيدها إلى جادة الصلاح والتقوى. وبناء عليه؛ فكل من يتخلف عن أداء الصلاة، سيتعرض لعقوبة الضرب، ودفع جزاء مالي، ذلك أنّ المسلمين ممن يقطنون في ولايات الروم، مثلهم كمثل بقية المسلمين عليهم أداء فرائضهم، وإلا ستتم ملاحقتهم، ومعاقبتهم والتشهير بهم بين الناس، ولا يحق لأحد منع

هذه الإجراءات. كما يتوجب على الولاة والقضاة، ورجال الجيش ومن تحت إمرتهم، تقديم العون والمساعدة للشخص المكلف من قبلي بهذه المهمة. وبذا ستطبق أحكام الدين الحنيف وشرائعه، ولن يجرؤ أحد على التكاسل والتهرب. وستمتلئ الجوامع بالمؤمنين، والمدارس بطلبة العلم، وسيزداد دين الإسلام قوة، ليعيش المسلمون في رفاه واستقرار، ويرفعوا الدعوات لله جل جلاله ببقاء السلطنة ودوام قوتها وعزّها. وليكن هذا الفرمان الممهور بطغرتي (ختمي)، معلناً للجميع»..

القانون نامه وقانون قتل الإخوة

كان السلطان محمد الفاتح مصلحاً ومنظماً من الطراز الأول، ومن أجل تنظيم إدارة الدولة وسير أمورها على أحسن ما يكون، كان يصدر فرمانات وقوانين تعتمد على الشريعة الإسلامية. وقد ظلت القوانين التي وضعها الفاتح وعرفت ب (قانون نامه الفاتح)، معمولاً بها في الدولة العثمانية حتى عهد التنظيمات[1]. وقد جُهزت هذه القوانين بناء على وجهة نظر السلطان، من قبل الصدر الأعظم قرماني محمد باشا، ودوّنها النيشانجي[2] محمد جلبي إلياس زاده. والقانون نامه التي دونت في عهد السلطان سليمان القانوني، بنيت على أساس هذا الأثر القانوني المهم. وقد اكتسبت جميع المؤسسات الإدارية والسياسية في الدولة العثمانية هيكلاً إدارياً منتظماً في عهده.

وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، الباب الأول مخصص للبروتوكول الخاص بذوي المناصب الرفيعة في الدولة، ومن منهم يستطيع مخاطبة السلطان مباشرة، وبمراتب القضاة. والباب الثاني يتعلق بتنظيم أمور الدولة، وأصول التشريفات والاحتفالات السلطانية التي على العاملين في

---

(1) بدأت حركة التطوير والتجديد في قوانين السلطنة العثمانية عام 1839.

(2) هو منصب قضائي في الدولة العثمانية كان النيشانجي يضع ختم السلطان أو طغراءه على ما صدر عنه من فرمانات وبراءات رسمية.

القصر اتباعها. أما الباب الثالث فمخصص للعقوبات والغرامات المترتبة على من يرتكبون المخالفات. ويحتوي القسم الأخير على الجزية السنوية المفروضة على رعايا السلطنة من غير المسلمين، وعلى الألقاب والتشريفات التي يمتاز بها أفراد السلالة العثمانية.

وتبدأ القانون نامه بالعبارة التالية: «هذه القوانين التي وضعها أسلافي وأجدادي، وهي القوانين التي سأسير عليها». وهذا يشير إلى أنها مستمدة من مجموع القواعد والقوانين المدونة والمتداولة عُرفاً وشفاهاً والتي كانت تسير عليها الدولة العثمانية منذ تأسيسها.

ويقصد الفاتح من «أبنائه الكرام الذين نريد لهم السير وفق هذه القوانين نسلاً بعد نسل..» السلاطين الذين سيأتون من بعده، لكي يعتمدوا القانون الذي وضعه، ولا يحيدوا عن طريقه.

وقد ورد في نهاية الباب الأول من القانون نامه: «هذه القوانين تمّ سنها لتنظيم أمور الدولة وأحوالها، وعلى أبنائنا ومن يأتي من بعدنا أن يسعوا في إصلاح هذه القوانين».. وبهذه العبارة فهو يوضح وجوب تغيير القانون مع تغير الزمان والظروف، وهو بهذا يضاهي أهم رجال القانون والحقوق.

ولكن أكثر ما أثار الجدل حول هذا القانون هو بالتأكيد المادة التي يقول نصها: «أي شخص يتولى السلطة من أولادي، فمن المناسب له أن يقتل أخوته من أجل نظام الدولة، وقد أجاز أكثر العلماء هذا القانون، لذا فليُعمل به»..

ويوضح لنا عاشق باشا زاده الظروف التي دفعت سلاطين الدولة العثمانية للجوء إلى هذا القانون من قبل:

التضحية بالأخ عرف قديم الأجل
عبء أورثه لنا الأجداد منذ الأزل

ليشير بذلك إلى هذه القضية الإشكالية والمهمة في التاريخ العثماني.

فمن دون شك تعود قوة واستمراريتها هذه العائلة في البقاء على رأس سلطنة بهذا الاتساع المترامي والسلطة القوية، إلى مركزية الحكم فيها. فقد اضطر السلطان مراد الأول القضاء على أخويه إبراهيم بيك وخليل بيك لمطالبتهما بالسلطة، ومن ثم قام بقتل ابنه سافجي بيك حين قام بالتحالف مع ابن إمبراطور بيزنطة أندرونيكوس معلناً التمرد على والده، وذلك حفاظاً على سلامة الدولة ووحدتها. كما قام يلدريم بيازيد خان بقتل شقيقه يعقوب بيك، من أجل القضاء على أي تمرد أو عصيان قد يقوم به الأخير. وكانت فترة القلاقل التي مرت بها الدولة العثمانية نتيجة الصراعات التي قامت بين الإخوة من أجل تولي العرش، كافية لإجماعهم حول قبول هذا المبدأ.

وهكذا قام الفاتح بتحويل العادة العملية التي كان أجداده وأسلافه يطبقونها، إلى قانون مكتوب. فارتاح أفراد السلالة، واستتب النظام. حيث وجد السلاطين الذين اعتلوا العرش من بعده، القدرة على التحرك بصورة أفضل. وبناء عليه قام السلطان بيازيد الثاني بقتل أبناء أخيه الأمير جِم، وقام السلطان ياووز سليم بقتل أخويه الأمير أحمد وكوركود وأبنائهم، والسلطان القانوني بقتل أبنائه، كما قام كل من السلاطين محمد الثالث ومراد الثالث ومحمد الرابع ومراد الرابع بقتل إخوتهم بالاستناد إلى هذا القانون.

ولكن المغرضين ممن يحاولون تشويه التاريخ العثماني، والبعيدون عن المنهجية العلمية والتاريخية، يحاولون أن يظهروا أنّ غاية السلاطين من قتل أخوتهم وأبناء أخوتهم، بل وحتى أبنائهم أيضاً، كانت لمجرد منافع شخصية، ويحاولون إظهارهم كأشخاص قساة يرتكبون كل المظالم في سبيل الحفاظ على عروشهم.

ورغم أن كل الدول والممالك التركية التي ظهرت سواء قبل الإسلام أم بعده، كانت ترى السلطة والمُلك إرثاً مشتركاً بين جميع أبناء السلالة الحاكمة، وبذا كانت هذه الدول تظل في انقسام مستمر نتيجة توزيعها بين الورثة، وهذا

ما كان يجلب معارك السلطة بين الأبناء، وبالتالي يضعفها ويعجل في نهايتها. وقد استفادت الدول المعادية لهم، من هذه الصراعات كثيراً، فكانت تستغل الفرص للانقضاض على مساحات واسعة من دولهم وابتلاعها، وكانت توفق في مساعيها هذه أغلب الأوقات.

وهكذا أقدم العثمانيون لأول مرة في التاريخ على تغيير هذا النظام، من أجل تحقيق وحدة الدولة، وذلك بالتضحية بأقرب الأشخاص إليهم. فأقدموا على بذل تضحية قلّ نظيرها وتجرعوا كأس السمّ بأنفسهم، من خلال سنّ قانون قتل الإخوة، وذلك بإراقة دماء أفراد أسرتهم، بدل إراقة دماء آلاف الأبرياء في الصراعات التي كانت تنشب بين الإخوة من أجل السلطة، ودرءاً لإضعاف الدولة حتى لا تسحقها مطامع الأعداء، وارتضوا بذل دماء أقرب الناس إليهم، حفاظاً على سلامة الشعب ووحدة الدولة. وقد تحولت هذه الخاصية الأعظم من بين كل ما اتصف به السلاطين، إلى سبيل للنيل منهم وتشويه صورتهم.

من جهة أخرى حين وضع هذا القانون من أجل تثبيت نظام الدولة العلية، فيجب ألا تفوتنا بعض المبادئ الحقوقية، والحقائق السياسية السائدة، التي كان مشرّعو ذلك العصر يعتمدونها.

الفتنة أشد من القتل.

إنّ البلاء الخاص أسلم، حين يكون في سبيل دفع الضرر الأعظم، ومنع البلاء الأعمّ.

لا يعيش أسدان في قفص واحد، ولا يوضع سيفان في غمد واحد.

بتر العضو المصاب بالمُوات (الغرغرينا)، ضرورة للحفاظ على سلامة الجسد برمته.

وكل هذه الحكم تشير إلى وجوب التخلص من بعض الإخوة أو الأشخاص، وذلك من أجل ضمان وحدة الدولة، ومنع حدوث الصراعات التي تنشب بين

الإخوة في سبيل العرش، ويكون ضحاياها العسكر والمدنيون، والمدن والقرى على حد سواء، وينشغل بها المسلمون، عن الجهاد في سبيل الله.

ويوضح لنا كمال باشا زاده، بعض الحقائق المتعلقة بقتل الإخوة.

لا يتسع الغمد للحسامين معاً
ولا الغابة على اتساعها لأسدين
فالسلطان رأس، والدولة هي الجسد
ولا جسد يستطيع العيش برأسين
وقد يتسع بساط لعشر دراويش
ولا تتسع البلاد على رحبها لسلطانين

ولا شك أنّ أكثر المواضيع المثيرة للجدل في قانون قتل الأشقاء، هو موافقة العلماء ورجال الدين عليه. فبحسب بعض المؤرخين، لم يكن هناك من إجماع على القبول إطلاقا. ولكن الفاتح حين يذكر بأن هذه القوانين كان معمولاً بها من قبل آبائه وأجداده، فهو يوضح الأساس الذي وضع عليه قانونه. وقد كان المشرف على سير هذه القوانين قرماني محمد باشا، وهو رجل مشهود له بسعة علمه، وتبحره في الدين والعقيدة الإسلامية، وقد مارس مهنة التدريس، وتدرج في المناصب حتى بلوغ منصب الصدارة. كما أنّ رجال الدين المعاصرين للفاتح ومن أتى بعده ممن شغلوا مناصب الإفتاء والتدريس وسواها، كالشيخ آك شمس الدين، الملا غوراني، كمال باشا زاده، زمبيللي علي أفندي، وأبو السعود أفندي.. هؤلاء العلماء والحقوقيون المتمرسون، لم يكونوا ليسمحوا بأي هفوة أو تصرف يخالف تعاليم الشريعة الإسلامية.

فمثلاً لم يسمح زمبيللي علي أفندي للسلطان ياووز سليم بتطبيق بعض الإجراءات السياسية، وجعله يتراجع عن قراره، بتوبيخه بعبارات شديدة الوقع. وما صمت كل هؤلاء إزاء مسألة قتل الإخوة، سوى دليل على قبولهم بالأمر، وموافقتهم عليه. كما يجب التنويه إلى أن السلاطين ورغم وجود قانون واضح

للعمل به، كانوا في كل مرة يجبرون فيها لتطبيقه، يقومون بالحصول على فتوى من شيخ الإسلام.

أما بالنسبة إلى بقية بنود القانون؛ فكل مدراء المؤسسات الخيرية والأوقاف التي تم بناؤها سابقاً، أو سيتم بناؤها لاحقاً، لا يتم عزلهم أو تعيينهم إلا بعد مناقشة الأمر في الديوان السلطاني، وموافقة السلطان على الأمر.

وفي عام ألف وأربعمئة وثمانية وسبعين، تم تخصيص سجلات لأسماء مالكي الإقطاعات والأراضي الزراعية، حيث تمّ بواسطة هذا الإجراء التخلص من المشاكل والالتباسات، وتوفير أسباب الاستقرار، فوضع إلى جانب كل اسم، أسماء القرى والإقطاعات التابعة لهم، والضريبة السنوية التي يتوجب عليهم دفعها، ومنحوا سندات للملكية وفق هذا الأساس.

كانت السياسة المتبعة حتى ذلك الوقت، في منح أوقاف الدولة وأراضيها وأملاكها، لبعض الأشخاص مقابل ما يؤدونه من خدمات، سبباً في تقليص موارد الخزينة، بالإضافة إلى أنّ توزيع الإقطاعات على الجنود، قلص من المساحات الممنوحة لهم بسبب ازدياد أعدادهم مع مرور الوقت. ولهذه الأسباب قام الفاتح باسترداد بعض أملاك الدولة وأوقافها.

وقد اتسعت الدولة وانقسمت إلى أربع ولايات كبرى، بسبب الفتوحات الكثيرة التي تمت في عصره؛ وهي ولاية روميلي، الأناضول، قرمان وسيفاس، توكات وأماسيا، وقد قسمت كل ولاية إلى عدد من السناجق، والتي خصصت لها في القانون الجديد الذي وضعه الفاتح، العديد من القواعد والإصلاحات التي تنظم سير أمورها، كما خصصت لكل منطقة قوانين تتناسب مع عاداتها وتقاليدها، وتتوافق مع الشرع الإسلامي. وكانت هذه النقطة هي سر العيش المشترك للكثير من القوميات والأعراق في السلطنة العثمانية لعقود طويلة، في رفاه واستقرار.

الفاتح الشاعر

كان الفاتح إلى كونه قائداً محنكاً، يتمتع بموهبة شعرية عالية، وكان يوقع أشعاره باسم عوني. ولم يكن يحق سوى للسلطان استخدام هذه اللقب، فهو كان يشير إلى المساعدة والعون وإغاثة ذوي الحاجات، وهي أمور من الصعب سوى على غير السلطان القيام بها.

وكان يتقن استخدام العروض كأي شاعر محترف، ليعبر عن مكنونات صدره، ورهافة مشاعره من خلال هذه الأشعار. وقد قال سيهي بيك[1] بحق الفاتح: «كتب كثيراً من القصائد، وكانت كلماته بليغة، وأشعاره تفيض بالمشاعر، ونظمه لا مثيل له».. كما كان الفاتح ميالاً إلى الغزل في معظم ما كتبه.

وتتسع القصائد التي كتبها لديوان شعري. وتشي قصائده بمعتقد إسلامي راسخ، وقد انعكست أفكار من القرآن الكريم والحديث الشريف في أبياته بوضوح. كما نجد لمحات من التصوف في البعض من قصائده. حيث يتغنى بجمال الخلق بشراً وطبيعة في أبيات مطولة.

ويصف لنا نهاد سامي بانارلي بيك[2] أشعاره بهذه الكلمات: «لكتابة شعر بهذا المستوى، لا بد للشخص من الاطلاع على ثقافات أخرى غير التي ينتمي إليها، كآداب العرب والعجم، علوم الإسلام، الفكر الإسلامي، التصوف، ميثولوجيا الشرق الإسلامي، والبراعة في استخدام علوم العروض والبلاغة، والتمكن من الفصاحة والقافية وسواها من الأساسيات.. كما يجب الإلمام وبشكل كبير بعلوم الفلك والطب والرياضيات والكيمياء، والفنون، والتبحر فيها بشكلٍ كاف، ليتمكن المرء من تغذية قصائده بالغنى الذي تملكه هذه العلوم..»

وكما هو موضح، فمن أجل الوقوف على المعنى العميق لقصائده، لا

(1) أحد كتبة الدولة العثمانية وشاعر من القرن السادس عشر.

(2) شاعر وكاتب ومؤرخ أدبي 1907-1974.

بـد مـن امتـلاك معرفـة كافية بالعلوم التي تبحّر فيها الفاتح. وقد قام بعض ممن لا يدركون كيفية الوصول للمعنى العميق للشـعر، بالتمسـك بالمعنى الظاهري لقصائده، في ظل الحملة المسيئة إليه.

ففي هذا البيت الذي يناجي به الفاتح محبوباً يكنّ لها عشقاً كبيراً:

لا مثيل لهلال جبينك ووجهك القمري

في كل غاد ورائح تحت قبة القدر

إنما هو يناجي الرسـول الكريم. فكما أن لقبة السـماء قمراً واحداً، فأيضاً محبوبه واحد لا مثيل له. وتسـتمر القصيدة بالإشـارة إلى أن كل نجم تائه في قبة السماء المدلهمّة، قد اكتسب نوراً أقوى حين بزغ القمر، وهو يلمح هنا إلى صحابة الرسـول الذين كانوا تائهين وسـط الجهالة، حين جاء الرسـول الكريم، لينير دروبهم كما القمر. وقد أشار الرسول الكريم في أحد أحاديثه إلى الصحابة بالقول «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»

ومـن ثـم يوضـح بـأن هذا العالـم الـذي يحيا تحت سـمائه، إنما يكابد فيه الشـوق لوجه الرسـول الكريم، فلا الموائد تشـبع فيه جوعه، ولا الماء يروي عطشه، إنما هو مجرد فقاعة..

والكون لو لا شوق لقياك يغدو خيالا

لا ظمأ يُروى مهما شربت ماء زلالا

وكان الفاتـح يظهـر مكنـون صدره، وما يريد البوح به، دون غموض مبالغ فيه، بل بلغة واضحة البيان. وسواء في أشعار الغزل أم التصوف، يلاحظ الغنى اللغـوي، وتمكنـه مـن القواعد الأدبية واسـتخداماتها بصور شـعرية مثلى. ولم يكتـف بنظـم الشـعر ويجعلـه غاية، بل كان يتجول بين بقيـة الفنون الأدبية. أي أنه لم يكتب قصائده بقلق الممتهن، وهذا ما يضفي على أشعاره لمسة متفردة وجميلة.

في إحدى قصائده يصف لنا المغزى من هذا الكون، بأسلوب غزلي غاية

في الرقة والجمال:

وكل المراد في الجنان وردة حمراء

فحظيتَ منها في خديك وقلبك بالكثير

ولا مرام لنا في الدنيا سوى هواك

أليس لنيل مرام العاشقين خُلقنا من أثير

وما البروق سوى قَبَس من نيران وجدي

وما النجوم الراعشة سوى دمعي الغزير

فإن كنا إلى الفناء ننحو كلنا

فما حال الخلائق في خلاف مستطير

أيا عوني فالشعر إنما لوصف الحبيب

فبذكر العدو لا تدنس لطائف التعبير

ويمدح عاشق جلبي قصائد الفاتح، بالقول: إنّ فيها الكثير من الأبيات التي تستطيع حتى الأجيال المعاصرة قراءتها وحفظها بسهولة، كمثل:

ألا أيها الساقي اسقني من المدام قليلا

فالورد في ذبول والخريف بات سبيلا

ومن الواضح لكل متعمق في معاني الشعر الصوفي، والأسلوب الذي كان الفاتح يتبعه، أنه يشير بالمدام إلى المعرفة الإلهية التي يرغب في الاستزادة منها بعد أن بلغ خريف العمر، واقترب موعد الرحيل.

ونجد في الكثير من قصائده رغبة واضحة في الخلاص من دنيا الفناء، والشوق الذي يعصف بروحه في سبيل لقاء وجه ربه الكريم، بل إنه يبتهل إليه ليسرع هذا اللقاء.

أيا سلطاني فكّ عني القيود واعتقني

فلقاء وجهك الكريم فوق كل تمني

***

وإن منحوا عبدك عوني الدنيا وما فيها

فلن يترك مقامك ولن يبدله تبديلا

***

من ذاق هواك وقاسى الوجد والجوى

فأي شيء سيحوله عن هذا العذاب

أيا عوني هواك كنز باق للأزل

وأي كنز سواه ضرب من سراب

ما حاجتي وحبيبي باق للأبد

فهواه تاج ونوره عتق واجتذاب

فياربي زدني لوعة ونجوى

فمن لم يذق مثلي الكأس لا عتاب

وياربي اجعل دموعي تهطل

فمن لم يبكِ محبوبه ضلّ الصواب

أما في هذه الأبيات، فهو يعبر عن مكنونات فكره، وتصوفه، بأسلوب بليغ:

يطوف اسمك في جنبات الروح والعشق

لبيك يا من تسبح باسمه الخلائق ليل نهار

سألت البلابل لِمَ النواح ولمَ التحرق

فباحت لي بشرور هذا الكون دون إسار

أنا الصدّاح باسم ربي دون قنوط

أناجيه شوقاً وأدعو طالباً قرب الجوار

وما يصبرني أني عبد القدير

عبد سلطان العروش الواحد الجبار

فيا عوني هنيئاً لك عشقك

وصبراً فإنما اللقاء خاتمة الأقدار

فعالياته العمرانية

إلـى جانـب الأهميـة البالغة التي كان السـلطان الفاتح يوليها لبناء القصور والجوامع والمدارس والحمامات، فقد قام ببناء أربعة آلاف متجر في مختلف أنحـاء المدينـة، ومنحهـا هبة لرعايـاه. وخلا المدارس التي بناها قرب الجوامع الكبيرة، فقد بنى أربعاً وعشرين مدرسة أخرى، واثني عشر خاناً، وأربعين سبيل ماء، بالإضافة إلى ترسانتين لبناء السفن، وثكنتين عسكريتين. ولم يقتصر نشاطه العمراني فقـط على إسـطنبول، بل اهتم بتعمير بقيـة المدن مثل إدرنة وبورصة التـي ازدهـرت بسـرعة فـي عهـده. وقد بنى سـبعة وثلاثين جامعـاً في بورصة، وثمانية وعشرين في إدرنة، وستين جامعاً في بقية المدن.

كمـا بنـى قصـراً كبيراً على ضفـاف نهر تونجا في إدرنة عام ألف وأربعمئة وواحـد وخمسـين. ويعتبـر قصر تـوب كوبي نموذجاً أكثر تطـوراً لهذا القصر. وتعرض القصر إلى خراب كبير إثر التفجيرات التي تعرض لها أثناء معركة عام ألف وثمانمئة وستة وسبعين بين الروس والعثمانيين.

ولـم يتـرك الفاتـح المـدن التـي كان يسيطر عليها كما هي، بـل كان يقوم بتعميرهـا، وكانـت أول عمـارة دينيـة بناها الفاتح في إسـطنبول بعد الفتح، هي المدفـن الـذي أقامـه على قبر الصحابي أبـو أيوب الأنصاري، ومن ثم قام ببناء جامع ومدرسـة وثكنة وحمام، ليتحول المكان إلى كلية متكاملة، والتي انتهى من بنائها سـنة ألف وأربعمئة وتسـعة وخمسـين. ولكن إثر الخراب الذي لحق بالجامـع فـي الزلـزال الـذي وقـع عام ألف وسـبعمئة وسـتة وسـتين، تمّ هدمه بالكامل عام ألف وسبعمئة وثمانية وتسعين، ليتم بناؤه من جديد.

وقد قام بشـراء كنيسـة الحواريين الإثني عشـر من البطريرك الذي هجرها بعـد أن كانـت مقـراً له، بسـبب الخراب والدمار اللذيـن لحقا بها، ليبني مكانها الجامع المعروف باسـمه، والمدرسـة التي غدت أشـهر جامعات ذلك العصر، وقد انتهى العمل في بقية أقسـامها سـنة ألف وأربعمئة وثلاثة وسـتين. وشـكل

هذا البناء الذي أنشئ على أحد أعلى تلال إسطنبول، معلماً عثمانياً وإسلاميا بارزاً. ويورد لنا الخوجا سعد الدين أفندي المعلومات التالية عن هذه الكلية:

«يتفرد الجامع الذي بناه السلطان المحبّ لأعمال الخير، بجمال عمرانه ومتانة بنائه، ويمتاز بنقوشه وتصاميمه. وتماثل قبته الواسعة الفسيحة، قبة السماء التي تتلألأ تحتها النجوم. وكان طالبو العلم والراغبون في الاستزادة من منهال الدين يجتمعون تحت هذه القبة، في مجالس ودروس علمية. وكانت مياه الحياة تنساب من صنابير باحته، أما الأشجار والأزاهير التي تحيط به، فكان نسيمها العطر ينعش الأرواح. وتحيط بهذا الجامع البديع الطراز، باحة واسعة رحبة.

وترتصف على جانبيه ثماني مدارس كبيرة. وقد خصصت كل مدرسة من هذه المدارس بأعمدتها المرتفعة لنوع من العلوم، كالفن وعلوم الدين والأدب.. ويحيط بهذه المدارس ثماني مدارس أخرى متممة لعلومها، في كل منها الكثير من الحجرات. كما كان طالبو العلم ومعلموه يحصلون على وجبتين صباحية ومسائية، في المطبخ الملحق بالجامع، الذي كان يعدّ أفضل الوجبات، حيث كان ينعم السلطان بدعواتهم الخيّرة في كل حين. كما كان الكثير من الفقراء رجالاً ونساء، يطرقون أبواب هذه المؤسسات الخيرية، ويعودون إلى منازلهم بوفير الطعام، بحيث ينجون من شبح الجوع والفاقة»..

وفي أثناء بناء المدارس، طلب الفاتح تخصيص غرفة له في الكلية بصفة مدرس، ولكن أساتذته ومعلميه اعترضوا على هذا الطلب بالقول: «صحيح أنك باني هذه الكلية، ولكن إن كنت ترغب في التدريس فيها، عليك الخضوع أولاً لامتحان قبولك كمدرس مساعد، ومن ثم عليك تقديم نص في العلم الذي تودّ التخصص فيه، وبعدها تستطيع الحصول على مرتبة مدرس وتصبح قادراً على تلقين الطلبة».. وبالفعل فقد قام الفاتح بتطبيق كل الشروط التي تخوله القيام بالتدريس، وعلى إثر ذلك مُنِح صفاً خاصا في مدرسة صحن الثماني. كما أنّ دار الشفاء التي بناها في الجامع من أجل معالجة المرضى من

الفقـراء والمحتاجيـن، تفوق الوصف، وكان كثيرون يتذرعون بأي وهن للرقود في المشفى ونيل قسط من الرعاية والاهتمام الذي يوليه الأطباء لمرضاهم. فقد خُصِّـص حمـام للمرضى، وكانوا حال دخولهـم يخلعون ثيابهم ويُمنحون ثياباً جديدة نظيفة، وكان هناك مكلفون للعطف على المرضى وتلبية احتياجاتهم.

وقـد خُصِّصـت مبالـغ كبيرة من أجل بناء الأوقاف والمؤسسـات الخيرية للأيتام. وكان قاضي إسطنبول هو المسؤول عن هذه الأوقاف حيث كان يشرف بنفسه على المخصصات المالية.

ويصـف لنـا خوجـا سـعد الدين أفندي بكلمات بليغـة الأوقاف والأعمال الخيرية التي بناها الفاتح: «كانت المدارس والأوقاف التي بناها السلطان العليّ، ليسـت سـبيلاً لعمران المدن والبلاد فقط، وبل ولتعمير النفوس تحضيراً لدنيا البقاء أيضاً.

فكل عمار في الدنيا بنته يداه

عمار في الآخرة وعقبى المطاف

ولقـد جـارى العلمـاء والتجـار ورجـال الدولـة وأعيانهـا، السـلطانَ فـي نشـاطاته وفعالياته العمرانية، فانتشـرت الجوامع والمدارس والتكايا والأوقاف والحمامات ونزل المسافرين في كل المدن والبلدات، بحيث تحولت إلى مراكز علمية تجذب طلبة العلم والمعرفة ومعلميه من كل الأصقاع.

ما الذي قيل عنه

لقـد اسـتطاع السـلطان الفاتـح رجل الدولـة المحنّك والشـغوف بالعلم، الاستحواذ على إعجاب ألد خصومه. فكانوا يتحدثون عن آثاره ومناقبه بتوقير. وقد ذكره المؤرخ الإيطالي زورزو دولفين الذي كان موجوداً في إسطنبول فترة عهده بهذه الكلمات: «يندر أن يضحك السلطان محمد الفاتح، وهو دائم التفكير متوقد الذكاء، كما أنه كريم جداً، جسور في كل ما يقدم عليه، بل وجريء أيضاً.

وبالـغ الإصـرار فـي بلـوغ الأهداف التي يضعها نصـب عينيه، قادر على تحمل الجوع والعطش والبرد والحر. كلماته حاسمة، لا يخشى أحداً، بعيد عن اللهو والمجـون، كمـا أنـه يتكلـم التركية واليونانية والصربيـة بطلاقة. يقضي وقتاً في القراءة كل يوم، ومن بين الكتب التي يقرأها، تاريخ روما، وتاريخ بقية الدول، كمـا كان يقـرأ لدوجانـس الكلبي[1]، وتيتوس ليفيوس[2] وهيرودوت. كوينتوس كرتيـوس روفـوس، وعـن تاريـخ البابـاوات، وأباطرة الألمان، وممالك فرنسـا ولومبارديا[3] وتاريخ ملوكها. وهو ملم بكل الدول الأوروبية، ومطلع على وجه الخصوص على أبعد نقطة في جغرافية إيطاليا، كما أنّ خارطة أوروبا لا تفارقه على الإطلاق. وإلى ذلك فهو راغب في العلوم العسـكرية والجغرافية، يطالع جديدهـا علـى الدوام، ويقوم بالأبحاث والدراسـات حولهـا. ويتحلى بالحنكة والمهارة في تطويع عادات الشـعوب والأمم التابعة لحكمه، والاسـتفادة منها، لما فيه مصلحة الدولة»

وقد كتب مؤرخ إيطالي آخر؛ هو لانغوسـتو، ما يلي عن السـلطان الفاتح بعد فتح إسطنبول:

«السـلطان محمـد، ذو وجـه نحيـل، متوسـط القامـة ميال للطـول، يحمل السلاح على الدوام، نبيل الطباع، قليل الضحك، دائم التشوق للعلم والمعرفة، كريم طيب القلب، وحاكم يتصف بالعناد والإصرار في سبيل بلوغ غاياته. وبه فضول كبير إلى الفنون العسـكرية، وباحث ذكي، يرغب في الاطلاع على كل شـيء. بعيد عن السـفاهة والمجون، والعادات السـيئة. كما أنه كان يقضي وقتاً

(1) نحو 421 – 323 ق م هو فيلسوف يوناني يُعتبر أبرز ممثلي المدرسة الكلبيّة الأوائل. ولد في سينوب بآسيا الصغرى، ودرس في أثينا

(2) مؤرخ روماني كبير بل أشهر من أرخ للعصر الجمهوري الذي عايش سنواته الأخيرة وأحداثه الكبرى التي أدت إلى قيام النظام الإمبراطوري الروماني.

(3) لومبارديا هي إقليم من بين الأقاليم العشرين التي تتكون منها إيطاليا.

قصيراً في حرمه الخاص، قوي الإرادة قادر على كبح جماح النفس، يظهر جلداً كبيراً في كل الظروف، وسلطان دولة عالمية»..

ورغم أنّ المستشرق الألماني الشهير فرانز بابينغير، يستغل أدنى فرصة للنيل من سمعة السلطان الفاتح، لكنه لا يستطيع إلا ذكر هذه الحقائق عنه:

«يمثل السلطان الفاتح في التاريخ التركي وحتى الوقت الراهن، أعظم الأباطرة والسلاطين، ومن الصعب مقارنة أي شخص آخر في التاريخ البشري به. ويمثل بالنسبة إلى الشعب التركي أكثر الشخصيات بطولة في التاريخ والذي من المستحيل بلوغ مستواه. فقد كان مصير العالم الغربي يسير وفق إرادة السلطان محمد الفاتح ومشيئته. وقد تمكن من تغيير خارطة دول الغرب وموازين القوى فيها، بفضل شخصيته القوية. وفيما العالم يخرج من العصور الوسطى، كان هذا السلطان يهيمن عليه بطريقة تفكيره وشخصيته وذكائه المتوقد»..

أما المؤرخ نيكولاس إيورغا فيبدأ حديثه عن شخصية الفاتح، وعن مؤرخي الغرب ممن عاصروه، وكانوا ينتقدونه ويحاولون النيل منه:

«لقد تعرض السلطان الفاتح الذي كان يتحلى بنزعة تقدمية ومعاصرة حتى بالمفاهيم الحديثة، لانتقاد الكثير من مؤرخي العالم النصراني، الذين أظهروه رجلا محباً للقتل متعطشاً للدماء، يهدم البلاد والعمران، رغم أنه كان يسعى نحو أهداف مغايرة تماماً لما كانوا يدّعون. فهو لم يكن شخصاً مغروراً يضحي بكل شيء من أجل مجد وشهرة زائلتين، بل كان رجلاً تجري في عروقه دماء الطموح العظيمة، التي كان يعيش عليها الإسكندر المقدوني، والقياصرة من قبله. وكانت غاية أهدافه هي بناء دولة قوية تستند إلى دعائم راسخة وباقية.

وهذه الدولة برأيه ستولد من اتحاد الولايات المتجاورة التي كانت تسود بينها علاقات متوترة بين شدٍّ وجذب، بحيث تصدر كل القرارات المتعلقة بها من تحت يد واحدة، وتتجمع كل غنائمها في خزينة واحدة، مركزها عاصمة هذه

الإمبراطوريـة العظيمـة ومقـر ذروة الحكم فيها. وقد قام بالتخطيط لهذه الدولة حتى أدق التفاصيل بعناية تامة، وتشكيل إدارة تمكنها من البقاء لعصور طويلة. ودولة كهذه لن تقوم على العناصر التركية ولن تتمكن سواعد جنودها فقط من الدفاع عنها وحمايتها، لذا فقد كانت تتطلب انضواء مختلف الشعوب والأعراق تحـت لـواء السـلطنة العثمانيـة، والقبول بها كحامٍ وحاكم. ولنشـر ديموقراطية الإسلام بين بقية الشعوب المسيحية التابعة لحكم السلطنة، فقد وفرّ لها إمكانية العيش المشترك مع المسلمين دون إكراه أو اعتداء على ديانتهم، وعقيدتهم.

فقد كانت الشعوب التي عانت الأمرين على أيدي ملوك المجر والسلاف وبولونيـا ومؤخـراً علـى أيدي أباطرة بيزنطة، تنعم بالأمان والاسـتقرار والحرية فـي ممارسـة معتقداتهـا تحـت حكم السـلطنة العثمانية. ولـم يكـن أحدٌ مرغماً على الخوف بسبب أصوله العرقية أو معتقداته الدينية. ذلك أنها لم تكن تمس تقاليدهم وعاداتهم. ويحدثنا أحد الإنكشاريين الصرب ممن خدموا في صفوف هـذه الفرقـة لسـنوات طويلـة بالقـول: (كان العثمانيـون عادليـن اتجاه الشـعب التركي، وبقية الشعوب التي تنضوي تحت راية حكمهم على حد سواء) وكان موظفو السلطنة يتجولون على الرعايا من غير المسلمين، في العام أربع مرات، للاطمئنان على أحوالهم، ومنع تعرض الفقراء والمحتاجين منهم لأي مظالـم..

وفـي المـدن التـي يقومـون بفتحها لم يقوموا بسـلب قرية مـن أهلها، ولا أخـذ حانـوت أو متجـر مـن صاحبه، ولا الاعتداء على دير أو كنيسـة تقوم فيها العبادة وممارسـة الشـعائر المسيحية. والقاضي يكتفي برعاية حقوق المواطنين المسـلمين، وفض خلافاتهم وفق قواعد الشـريعة الإسـلامية. ويسـتطيع الناس بكل حرية الاستعانة بالمختار أو الرهبان أو المطارنة لحل خلافاتهم»..

ويذكر إيورغا أنّ الفاتح تمكن من إعادة رسم خريطة العالم الغربي، وهو لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره، وكان مهتماً بتاريخ العالـم:

«يجـب أن يصبـح العالـم برمتـه دولة واحدة، علـى دين واحد، ويكون لها

سلطان أوحد عرشه في إسطنبول عاصمة العالم». وهو إلى ذلك يسلط الضوء على فتوحات السلطان وانتصاراته.

أما خوجا سعد الدين أفندي فيقول:

«لا سبيل لذكر كل مناقبه، وسرد كل فضائله. فأخلاقه الحميدة أكثر من أن تتسع لها الصفحات. كان عادلاً حتى أنه كان يؤثر سلامة نملة تسير على أرضه، على كنوز سليمان. وكان يناصر المظلوم حتى لا تغشى دعواته المرفوعة إلى السماء صفاء روحه. وكان كريما سخياً، لا حصر لإحسانه وعطاياه، حتى أنّ فصاحة الأصمعي تقف عاجزة أمام وصفها.

وقد كان شجاعاً مقداماً، تصغر أمام بطولاته قصص أعظم الأكاسرة والقياصرة. ففي كل مرة حمل فيها رايته وانطلق، كان يعود منصوراً بفتح جديد، لتعمّ الأفراح البلاد، وتزدهر شؤون العباد. وكانت كل الدروب تُفتح في وجهه أينما اتجه»..

يضيء سيفه كشعلة في ساحات الوغى والقتال
ويضيء وجهه قمراً في مجالس العلم والعلماء
وعدله أضاء دروب الإسلام وبثها الروح
فليدم عزه وذكره ما بقي في الكون ضياء

أما النشري فيقول:

«تقول الروايات إنّ السلطان محمد الفاتح، كان عادلاً، جسوراً، متديناً، نديم العلماء والفقهاء. وكان يدعو كل عالم ورجل دين وفقيه إلى عاصمته، ويخصص له معاشاً. ويدعو أصحاب الحرف والصناعات المهرة، ويمنحهم الوظائف والمراتب. لا يخيب من طرق بابه، ولا يرد محتاجاً. وكان حين يخرج من القصر، يوزع النقود على كل فقير يصادفه في الطريق. حتى أنه لا يوجد فقير في إسطنبول إلا وجلس على موائده حتى شبع. كان متواضعاً بعيداً عن الخيلاء والغرور، وكان العلماء والشعراء والصالحون والفقراء في عهده ينعمون بعطاياه

دون استثناء، ورغم عظمة شأنه، فقد كان يبدي أشد التواضع أمام أفقر درويش يلتقي به. ولم يكن يغض الطرف عن أي شخص يأخذ مال سواه حتى إن كان مثقال ذرة واحدة. حتى أنّ اللصوصية والفجور، وقطع الطرقات بدت وكأنها اختفت في عهده. وكان من المحال أن تتعرض سيدة تركب عربة مليئة بالذهب بمفردها لسوء أو سرقة، حتى لو ظلت تسير لمدة يومين متتاليين»..

كان منصفاً لا يحيد عن درب العدل قيد شعرة، يجزل العطاء لمن يمدحه بكلمات بسيطة، ويمنح من يزرع زهرة ويعتني بها خمسمئة ذهبية، حاكماً يتفوق بمزاياه على عصره بمراحل متقدمة، وإنساناً كامل الأوصاف. وقد كتبت آلاف الكتب حول شخصية هذا السلطان العظيم وأعماله.

زيارة مرقد الفاتح

لم ينسَ الشعب التركي، هذا السلطان العظيم، الذي جعل من أجمل مدن الدنيا عاصمة لسلطنتهم. ويعتبر قبره أكثر المراقد زيارة، بعد مرقد الصحابي أبو أيوب الأنصاري (سلطان إسطنبول المعنوي). وقد عبر الشاعر الكبير عبد الحق حميد عن مشاعره أثناء زيارته لقبر السلطان بأبلغ الكلمات في قصيدة مطولة بعنوان (زيارة مرقد الفاتح)، وهي معلقة على جدار القبر. وتصف حنكته كقائد، وكفاءته كرجل علم. وبأنه لشرف عظيم لكل تركي أن يكون حارساً لهذا المرقد الكريم، والمقام العظيم.

وسنورد بعضاً من أبياتها:

ذكرك باق في كل زاوية وكل أرض

حتى حال العالم مرقداً لك ومقاما

ورغم قصر بقائك فكل يوم دهرُ

وعرش الدنيا قدّر لك حتى القيامة

وأنت العظيم، سلطان قوم قويم

أنعمت عليهم بالجود إنعاما

نصبت عرشك في ساحة الوغى علماً

وجعلت كوكبة جنودك للنصر أعلاما

وإن ماثلتنا في الفناء وموت الجسد

فقد غلبتنا في بقاء الذكر حتى الإدامة

وقد جمعت العلم والاقتدار سوية

لتعلي راية دين الحق وتنصر الإسلاما

وقد غدا مرقدك قبلةً يُطاف بها

وغدا الكل حرساً لقبرك حبا واحتراما

وضعت السيف واليراع معاً في غمد

وسطّرت مجدك في التاريخ حرفاً وحساما

وعدالتك أصبحت لقلوب الأصدقاء بهجة

وأما للأعادي فغضباً وانتقاما

وهذا طالع خُص به السلاطين الكرامُ

وهل بغير هذا يخص الله الكراما

وإن ضحك وجهك ربيعٌ وشمس

وإن بدا للكون نورك غطّى الظلاما

وقبرك في رحم الأرض برق

وجامعك الذي بنيت يسبّح ذكراً مستداما

وإن سبقك الأسلاف في المسير

فباب النصر بفتحك صار ومقاما

ودارك غدت باباً لكل مستجير

وكل من أجرته دعا لك خيراً وسلاما

والأرض ترتعش إن سجدت عليها

وتكبيرك في جوف الأرض صار لزاما
وسادتك كانت قذيفة مدفع وصخرة
وفي الربيع تسير القافلة بك قائداً وإماما
فرحمة لروحك من لدن الرحيم
ولتُرفع الدعوات لروحك استرحاما
ولمدح خُلقك يعجز الشعر وصفاً
فمقام عرشك يلهب الخيال إلهاما

كما أنه قام بتطوير كادر تعليمي في مدارسه وكلياته، ليشكلوا فيما بعد أساس الطاقم التعليمي في مكتب أندرون[1] (أول مدرسة جامعة داخل القصر، أنشئت بهدف إعداد الموظفين للعمل، وضباط العسكر، وموظفي دوائر الدولة)، والذي بناه السلطان مراد الثاني في قصر توب كابي.

(1) أول مدرسة جامعة داخل القصر، أنشئت بهدف إعداد الموظفين للعمل، وضباط العسكر وموظفي دوائر الدولة.

نبذة عن المؤلف

ولــد فــي بويابات عام 1959، أتم مرحلة الدراســة المتوســطة والثانوية هناك. التحق بجامعة أتاتورك في العام 1978، كلية الآداب الإنســانية قســم التاريخ، وتخرج من الجامعة في العام 1982، وبدأ العمل في العام 1983 بصفة باحث متخصص في التاريخ المعاصر. أنهى دراسة الماجستير في العام 1985، وانتقل إلى جامعة مرمرة في العام 1989، كلية الآداب والفن، قسم التاريخ. وقد حصل على الدكتوراه في العام 1990 عن الدراســة التي قدّمها بعنوان (مدينة توكات في التنظيم الإداري العثماني بين الأعوام 1455-1574). أما في العام 1997 فقد نال مرتبة الأســتاذ حول دراســته (فتح وإدارة أويفار من قبل الســلطة العثمانية). وقد نال رتبة البروفيســور في العام 2003، عن مجمل أبحاثه حول تاريخ المدن في العهد العثماني، وتشــكلها وإدارتها، والحياة السياسية فيها، والمقالات العلمية التي كتبها في كثير من المجلات والدوريات. ولا يزال عضواً في مجلس التعليم في الجامعة ذاتها. متزوج وله ثلاثة أبناء.

